

سستيڤن أوزمنت
فرانك ستيرتر

الألف
كتاب
الثاني
١٤١

التايخ من شي جوانبير



ترجمة: د. أحمد حدى محمود

الجزء الثالث



الهيئة المصرية العامة للكتاب



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab

الز
مط
و
ن
ي



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab

الألف
اني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمسعى المطيعي



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab

الإشراف الفني
محـمـد قطـبـ

الإخراج الفني
علياء أبوشادي



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab

النارنج من شتى جوانبه

مطالعات في تاريخ العرب

إعداد:

ستيثن أوزمنت
فرانك تيرنر

ترجمة

د. أحمد جدى محمود

الجزء الثالث



الجامعة العربية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

**THE MANY SIDES
OF HISTORY**

By : Steven Ozment/Frank M. Turner

الفهرس

الموضوع	صفحة
التحمس للتحضر - الدراسة والتعليم	٧
دستور الامبراطورية الالمانية	٣١

سابعاً

الامبريالية والحرب والثورة	٥١
عناد الامبريالية	٥٢
الادميون في مواجهة النيران	٨٥
اضطرابات عمال بتروجراد في الحرب العالمية الاولى	١٠٧
حشور الشباب « الفاقد » من الاتجليز	١٢٩

ثامناً

المواجهة السلطوية والدبلوماسية في منتصف القرن العشرين	١٥٥
خرافة التعويضات	١٥٧
تجديد المناضلين وتدريبهم في بداية عهد النازي	١٧٧
كيف ظهر تاليه شخصية ستالين	٢٠٧
ديناميات النازية - السياسة الخارجية الالمانية	٢٣٧
ميونينخ ١٩٣٨ : المواجهة العسكرية	٢٥٧
الناو : التحالف النووي	٢٧٩

التحسس للتحضر - الدراسة والتعليم

يوجين ويبر

تميزت عملية بناء الأمم في أوروبا في القرن التاسع عشر بتفقدتها ، واضطلع الساسة والدبلوماسيون والعسكريون بأدوار بالغة الأهمية . أما الدور الذي لا يقل عن ذلك أهمية فكان الدور المتعلق بتوطيد الاحساس بالانتماء الى أمة بالذات عوضا عن الانتماء الى إحدى المقاطعات أو أحد الأقاليم ، وإحلال قيم « المواطنة » والحضارة المدنية محل القيم الدينية والقيم المحلية ، وكانت المؤسسة التي أدت هذا الدور الأخير هي « المدرسة » التي بثت القيم الجديدة ، وزودت التلاميذ بالمهارات التي تساعدهم على المشاركة في الحياة الاقتصادية والسياسية الأرحب مجالا .

وتميزت مهمة إعادة خلق المواطنين عن طريق التعلم - كما يلاحظ في حالة فرنسا - بشدة تفقدتها وصعوبتها ، خصوصا بين أهل الريف المقيمين في الأقاليم . فلقد اشتملت على عمليات إنشاء مدارس جديدة ، وزيادة عدد المدرسين المدرين على نحو أفضل ، وتوطيد الاحساس بالفائدة الحقة للتعلم ، وقبل ثمانينات القرن التاسع عشر ، كان نظام التعليم الفرنسي أقرب الى العفوية والعشوائية ، فكان أبناء الفلاحين يدرسون الى أن يصبحوا قادرين على المشاركة في متطلبات الخدمات الدينية ، مما أدى الى اكتفاء المدارس بتدريب مدرسيها تدريبا هزليا ، يساعدهم على أداء هذه المهام الى جانب اشتغالهم في مهام أخرى ، وكانوا يتزودون بالقليل من المهارات الوثيقة الاتصال بحياة المزارع الذي يفلح الأرض ، وفضلا عن ذلك ، فلم يقتصر الأمر على اتصاف معظم الفلاحين بالأمية ، ولكنهم في الكثير من الأحيان كانوا لا يتكلمون الفرنسية ، ولكنهم يتكلمون لغة أقرب الى « البطوة » (*) أو اللهجة المحلية .

Peasant and Frenchmen : The Modernization of
Eugen Weber تأليف Rural France 1970-1914.
Patois.

نقلا عن كتاب

(*)

وفي بواكير ثمانينات القرن التاسع عشر ، وتحت زعامة جول فيري ، اتبعت الحكومة الفرنسية بعض السياسات التعليمية التي ترمى الى تحويل المعلم الفرنسي المحلي الى شخص اشبه بالداعية الى التعليم الفرنسي العلماني ، وكانت اللغة الفرنسية تعلم الي جانب تاريخ فرنسا وجغرافية فرنسا ، وبعبارة أخرى ، حلت الدراسة العلمانية محل الدراسة الدينية . وكان المعلم يدرس أيضا السلوكيات والصحة . وساعد أسلوب التعليم الذي اتبعته المدارس الجديدة على توسيع افق الطفل القروي ، الذي بدأ يدرك شيئاً فشيئاً أن بمقدور المهارات المكتسبة والشهادات الدراسية أن تفتح الطريق أمام أنواع جديدة من العمل أقل عسراً من فلاحه الأرض ، وبدأ أولياء أمر الأطفال يدركون أيضا أن لمهارات القراءة والحساب التي تعلم بالمدارس فائدتها في عالم الزراعة ، بعد أن ازداد اعتماد السوق الوطنية اعتماداً مباشراً على حياتهم ، ودفعت المدارس الجديدة التلاميذ - سياسياً وثقافياً - الى ادراك وجود عالم يتجاوز حدود قريتهم ، والى اعتبار أنفسهم مواطنين فرنسيين ينتمون الى وطن أكبر .

لقد نسب الى المدرسة ، والى مدرسة القرية بصفة خاصة ، الالزامية والحرية ، فضل العملية التثقيفية التي حولت الفرنسيين الى شعب يشعر بهويته الفرنسية ، وعرفتهم معنى الحضارة ، كما يميل كثير من المربين الى القول ، ويظهر معلمو المدارس في زيهم الرث كأنهم ميلشياً العصر الحديث ورسل التنوير وحملة الدعوة الى النظام الجمهوري الذي يمثل المواطنة بين كتل البشر الرازحة تحت نير الظلم والظلمات ، والعالم الجديد وما يؤمل فيه من فضل ورفاهية وديموقراطية . وأشار المراقبون الى أن المدارس كانت موجودة بالفعل قبل ثمانينات القرن التاسع عشر ، ورفضوا المزاعم المضمرة والبيانات الصريحة التي تزعم علم وجود تعليم شعبي في ظل « النظام القديم » . بيد أننا سنرى ما يقرب من صحة الصورة التي غلبت من الحقائق المسلم بها الآن عن حدوث تغير عميق في الخطوة والاتجاه والأثر في عهد الجمهورية الثالثة ، على شريطة وضعها في سياقها الصحيح .

والسياق له أهميته . فليس هناك من ينكر وجود المدارس قبل ظهور جيل « فيري » ، وبأعداد كبيرة ، ويصح هذا الحكم أيضا عن التعليم الحر الى حد كبير . غير أن ما جعل قوانين الجمهورية تبدو أكثر فاعلية ، لم يكن مطالبتها جميع الأطفال بالالتحاق بالمدرسة ، ومنحها هذا الحق لهم ، وحق التحرر عند الأخذ به فحسب ، فعلياً أن لا ننسى دور وقرة دور العلم والمدرسين ، وما شق من طرق ساعدت الأطفال على انتهابها في طريقهم للمدرسة . ولا ننسى أيضا أن ما جعل المدرسة تبدو شيئاً نافعا عظيم

الأثر هو الاحساس بأن ما نكلمه المدرسة أشياء حافلة بالدلالة ، بعد
ما جرى من تبدل في القيم والمفكرات .

وما أهدف إليه في هذا الفصل هو رسم صورة للنظام المدرسي في
هذا السياق بالذات ، وأبين كيف توام هو والتغيرات المذكورة آنفا
وسأوضح أن نجاحه كان ركنا من أركان عملية شاملة متكاملة . فلم
تكتسب مواد التعليم أهميتها عند القائمين بتعليمها إلا بعد أن قامت
المدرسة بتعليم موضوعات لها معنى ، ولم ينظر الناس إلى المدرسة بمنظار
الجد إلا بعد أن اتصلت مناهجها بالاحتياجات والمطالب التي ظهرت حديثا ،
وبعد أن تنبعت إلى ما ينقصها من أشياء . فلم يكن الدافع وراء التحاق
الناس بالمدراس هو مجرد كونها أشياء متاحة لهم أو مفروضة عليهم ،
ولكنه النفع الذي تمكنت من تحقيقه لهم . وكان لابد من حدوث تغير في
العالم حتى يتحقق ذلك .

ولقد نزعَت المدارس التي أنشأها القسيس وعامة الناس للطبقات
الأفقر من الشعب قبل الربع الأخير من القرن التاسع عشر - تمشيا مع
طبيعة الأشياء - إلى إعطاء الصدارة لما يستحق هذه الصدارة ، ورثى أن
الأشياء الأولى بالصدارة هي الأشياء التي يعتقد أساتذة العلوم في
أهميتها ، يعنى قدرتها على الهرف بالعظات وتوتيل فقرات من القديس
اللاتيني . وكان تعليم أوليات القراءة والكتابة والحساب ، أمرا نادرا
قبل الثورة ، كما ذكر لنا عمدة « يون » (١٨١٠) . وكان المدرسون
قليل الاهتمام بالتعليم العلم الرحيب الآفاق ، وأعني بذلك النوع الذي
يهم السواد الأعظم ، وعلى أية حال ، فإن عددا كبيرا من المدرسين كانوا
يعلمون ما باستطاعتهم تعليمه من مادة متواضعة على قدر الحال ، وحتى
١٨١٦ ، لم يطلب من المدرس أى دليل يثبت حصوله على شهادة أو يوضح
ما لديه من قدرات ، وعلى الرغم من أنه كان بالإمكان علاج هذه الناحية
في المدن الصغيرة والكبيرة على السواء ، إلا أن تعليم جوامع
الشعب كان يعاني الأمرين ، وظل يعاني على هذا النحو لبعض الوقت
تحت تهديد عصا أشخاص (يذكروننا بعريف الكتاب في مصر) مثل
أحدى الشخصيات التي كانت تتحكم في المدرسة الثانوية في يون (*) ،
الذي كان فصله الدراسي لا يكنس بطريقة لائقة ومليئا بالعناكب حتى
تعذر التعرف على المواطن كوليبو وسط أنسجة العناكب الملتفة حوله ،
خصوصا عندما يلقي دروسه وهو يرتدى - كعادته - جلباب نومه
وقبقابه .

وكان الفصل الدراسي ومبنى المدرسة مفككى الأوصال ، ففي مدينة (مول) ، تلمعى جدار بأكمله أثناء عراك أخوى نشب بين المدرس وتلاميذه ! وفى ١٨٥٠ ، كانت هناك مدرسة(*) تشغل بناء مخبز مهجور سقفه منفصل عن جدرانه ، مما أدى الى تساقط الجليد داخل الفصل فوق رؤوس المدرس وتلاميذه ، وإبان سبعينيات القرن التاسع عشر ، سمعنا عن تفتت أحد الأسقف وانهار أرضيات الفصول ، وعن وجود نوافذ بلا ألواح زجاجية ، وأحيانا لا توجد حتى النوافذ ذاتها ، وعن الاقتصار فى تهوية الفصول على ما يتسرب من هواء من خلال المداخل ، وكان من الصعب التفرقة بين الأحياء السكنية وأحياء المدارس . فكان المدرسون فى بعض المدارس(**) أو زوجاتهم ينهضون أو تنهضن بأعمال البيت وتجهيز وجبات الطعام وخبز العيش أثناء الدرس ، بل وكان بعضهم ينام داخل الفصل الدراسي فوق سرير ينطوى ، ولعل هذا كان خيرا . فلولا ذلك لما كان من المستبعد أن يصبح الفصل المدرسى هزيل التزود بالآثاث ، وتفتقر بعض الفصول الى المناضد ، ولم يتوافر فى بعضها فى ثمانينيات القرن التاسع عشر الا المقاعد . فلا وجود لآية وسائل للتدفئة اكتفاء بما يشع من الأجسام من حرارة ، فلا عجب اذا سمعنا أحد العمد ١٨٣٥ يصرح بأن أنفاس (العيال) تساعد على توفير درجة حرارة معتدلة ، نعم لقد كانت معظم المدارس تتصف بظلمتها ورطوبة جوها وازدحامها ، وقلة تهويتها ، وعدم وجود آثاث بها أو اضاءة أو وسائل تدفئة ، وكانت تعاني من الروائح الكريهة ، وكثافة الدخان عند ايقاد نار أو وابلور غاز . ويجلس المدرسون والتلاميذ وسط تيارات الهواء الضارة بالصحة . ناهيك باتصاف المدرسة بالقبح ومناظرها المقززة . ولم يتوافر فى أغلبها أى حوش أو مراحيض . وفى ١٨٦٤ ، كتب أحد المفتشين يصف مدرسة فقال انها خالية من أية بالوعة أو مبللة ، أو غير ذلك من الأدوات الصحية . وقد أقامت بعض المدارس ساترا فى الخلاه فى ركن الغناء الخلفى لكى يستتر خلفه من يريدون قضاء الضرورة . وتنزع الأوساخ المتراكمة من قضاء الضرورة من حين لآخر لاستعمالها كسباخ . وهذه هى بداية التقدم الذى لم يكن معروفا منذ عشر سنوات مضت .

وفى خمسينيات القرن التاسع عشر ، لم يكن هناك فى بعض المدارس(***) أية خرائط أو سبورات أو مناضد أو تخت للتلاميذ . وبحمل كل تلميذ لوحا من الخشب يضعه على حجره للكتابة . ويتولى المدرس

(Pas-de-calais) Moule

(*) فى

Eure et Loire

(**) فى

Nouvions-en-Thiérache (Aisne)

(***) مثل

٢٠

عملية سن ريش الكتابة ، وعندما يستدعى للانشاد في الكنيسة تنوب عنه أخته في مراقبة الفصل ، ولا تنسى في هذه الأثناء شغل نفسها بتحضير السلاطة وتنظيفها . ولم تكن هذه المظاهر من الحالات غير المألوفة . ولا بد أن تكون مثل هذه الأحداث المخالفة للأعراف الرسمية قد عطلت الكثير من المدارس ، رغم تعدد جوانبها المقررة . وعندما يلتئم شمل الفصل الدراسي في قاعة القرية ، لم يكن من المستغرب أن تضم هذه القاعة في أحد أركانها دولابا لحفظ سجلات المواطنين ، ولا بأس من اقدام أحد المسئولين على فحص بعض أوراق هذه السجلات أثناء اللقاء الدروس ، أو تكليف المدرس نفسه ببعض مهام بعيدة عن وظيفته . ولا مانع أيضا من إقامة الاحتفالات المدرسية في نفس هذه القاعة حتى لو حدث ذلك أثناء اللقاء الدروس .

أما المدرس نفسه ، فيمثل مشكلات أخرى ، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لم يكن هناك ما يحول دون اختياره من بين الجنود الرديف أو كونستابلات القرى ، أو حلاقيها أو من خدم الحانات أو البقالين ، ولا بأس أيضا من الاستعانة بأحد القرويين من أنصاف المتعلمين عند الحاجة الى مدرس ، وكان هناك سبعة من بين خمسة عشر مدرسا من المشتغلين بالتدريس (١٨١٥) من المجرمين السابقين ، ولعل شخصية معلم القرية « نوشون » التي خلدها بلزاك ، والتي انتهى بها المطاف الى الاشتغال بسرقة البط ، وبتروقيع الأحذية في بعض الأحيان ، وبالتسول عندما تدعوه الحاجة الى ذلك ، والذي لا يفيق أبدا ، كان بلا مراء من النماذج الانسانية المألوفة أثناء حكم نظام يوليوس الملكى (عهد الامبراطور نابليون الثالث) . وبوجه عام ، كان معظم المدرسين يشتغلون أعمالا أخرى ، ابتداء من فلاحه أرضهم (أو أرض شخص آخر) فرأينا في إحدى المدن (*) أحد المدرسين يحتفظ بمغزله في الفصل الدراسي ، وتروقيع الأحذية وحفر القبور الى الاشتراك في كورس كنيسة القرية أو في تولي الأعمال الكتابية لسجلات القرية ، وحتى في ١٨٧٢ ، عندما شتم المدرسون أنفاسهم وارتفع شأنهم نوعا عن حالتهم السابقة في ثلاثينيات القرن ، رأينا ما حل بمعظمهم ، أو ربما بما تعرضوا له جميعا ، اذ كان ٣٩٥ من مدرسي المدارس العامة (**) يشتغلون بأعمال أخرى غير عملهم الأصلي ، فكان هناك ٣٠٩ يشتغلون بالسجلات و ٢٧٣ في الكورس ، وفي عزق الارغن بالكنيسة ، و ١٤ كموظفين بالكنيسة أو قواصين بها ، أو مسئولين عن دق أجراسها ، وكان من بين المدرسين من قنع بالعمل كبواب أو كناس

أو حفار للقبور • بينما كان هناك عشرة من العاملين في صناعة التبغ •
واثنان من عمال التلغراف و ٣٦ اختصوا ببيع صكوك التأمين •

لقد استشهدت في الفقرات السابقة بما جاء في تقارير مفتشي
المدارس ، وقد أوردتها فرانسوا جيزو في المذكرة التفسيرية للقانون الذي
أصدره بوصفه وزيراً للمعارف العمومية (*) • وطالب جيزو كل «كوميون»
أو جماعة من كوميونات الأحياء بإنشاء مدرسة اعدادية ، أو تولي أعماله
صيانتها على أقل تقدير ، وأعاد التقرير تأكيد معايير الأهلية للتدريس ،
التي سبق تحديدها في المرسوم الملكي ١٨١٦ ، وأعاد أيضا التنبيه
بتحريم فتح أية مدرسة ، إلا إذا حصلت على شهادة رسمية بمراعاتها مثل
هذه الشروط ، ونص القانون أيضا على قيام كل قسم بمفرده ، أو
بالاشتراك مع الأقسام المجاورة له ، بإنشاء دار للمعلمين لتدريب مدرسي
المرحلة الابتدائية ، وحقت هذه الخطوة نتائج سريعة • ففي ١٨٢٣ ،
كانت فرنسا تضم ٣١٤٢٠ مدرسة يؤمها مليون ومائتا ألف من الأطفال •
وفي ١٨٤٧ ، تضاعف عدد المدارس ، وزاد عدد تلاميذها عما يقرب من
ثلاثة أضعاف العدد السابق ، وفي نفس الحقبة ، زاد عدد دور المعلمين
من ٣٨ دارا إلى ٤٧ دارا ، ولهذه الواقعة أهميتها • فعلى أن لا ننسى
أن المدرسين جميعا في المدارس الاعدادية العامة في منتصف ثمانينيات
القرن التاسع عشر قد تخرجوا في أغلب الظن من هذه الدور أثناء حكم
ملكية يوليو ، وأنه بصرف النظر عن تحقيق ذلك في خطى وثيقة •
إلا أن تدريبهم قد ساعد على ارتقاء مستواهم فيما تلا ذلك من سنوات •

وحدث التغير الكبير التالي في ثمانينيات القرن التاسع عشر •
وما كان من المستبعد أن يحدث ذلك في وقت أبكر ، لو أتيت الفرصة
لوزير المعارف فيكتور دروري لتنفيذ المخطط الذي وضعه ١٨٦٧ ، ولكن
الظروف لم تساعد على تحقيق ذلك ، وظلت معظم مبادراته مجرد مشروعات
محفوظة في خزانة الملفات ، وفي ١٨٨١ ، ألغيت جميع المصاريف المدرسية
والرسوم في المدارس الاعدادية العامة ، وفي ١٨٨٢ أصبح الالتحاق
بالمدارس العامة أو الخاصة إجباريا • وفي ١٨٨٣ ، كلفت كل قرية أو
كفر يزيد عدد تلاميذها في سن التعلم عن ٢٠ بإنشاء مدرسة اعدادية
عامة • وفي ١٨٨٥ منحت إعانات لبناء المدارس وصيانتها ولدفع مرتبات
المدرسين • وفي ١٨٨٦ ، وضع منهج دراسي للمدارس الاعدادية ، إلى
جانب اجراءات مشددة للتفتيش والرقابة •

(*) François Guizot (١٧٨٧ - ١٨٧٢) المؤرخ ووزير المعارف كلف

استادا للتاريخ في الصربون (١٨١٢ - ١٨٣٠) وله جملة مؤلفات تاريخية مشهورة •

ويرجع أحد أسبابه التقدم البطيء في عصر الأمية - والذي لم يرد
أى ذكر له حتى في أفضل البيانات الخاصة بالتعليم في فرنسا ، لما
يشير الممثلة ، الى أن الكثير من البالغين - ومن الأطفال تبعاً لذلك -
كانوا ممن لم يتعلموا اللغة الفرنسية . ففي ١٨٦٤ ، ورد في أحد التقارير
الرسمية أن ما يقرب من سبعة ملايين ونصف المليون ، يعنى خمس سكان
فرنسا ، لا يعرفون اللغة ، وإن كان حتى هذا الرقم مثار شك . ومن
غير المستبعد أن يكون العدد الصحيح أكبر من ذلك بكثير ، لاسيما اذا
أضفنا الى هذا العدد من كانت درايتهم باللغة مهوشة الى أبعد حد .

وكانت أكبر مشكلة واجهت المدارس العامة في الكوميونات التي
لا تتحدث الفرنسية ، وفي عدد قليل لا بأس به من ٩١٢٩ مدرسة أخرى
كان من المفروض أنها تدرس اللغة الفرنسية هي كيفية تدريس اللغة
لأطفال لم يتحدثوا بها قط ، أو يلقون صعوبة في نطقها ، فالزعم الدائم
التردد بأنهم يتعلمون لغة وطنهم ما أظنه كان سيبدو حقيقياً عند هؤلاء
الأشخاص الذين كانت أمهاتهم لا تفهم أية كلمة منها . وقد علق أحد
الكتاب(*) على ذلك فقال : « إن أطفال لورجيه كانوا مرغمين على ما هو أكثر
من إتقان القراءة والكتابة بالفرنسية ، إذ كان عليهم تعلم كيف يفهمون
ذلك باللغة الفرنسية ، أى بلغة أخرى غير اللغة التي شبوا على النطق
بها » ، وترتب على ذلك ، أنه في حالة كثيرين منهم ، كانت الدروس التي
تلقى عليها في المدرسة « لا تترك أى أثر في أممخايم أكثر من الأثر الذي
تتركه اللاتينية في أممخاخ معظم من يتخرجون من المدرسة الثانوية » .
فالطفل يعود الى تكلم لغة « البطورة » عندما يرجع الى بيته ، وتبدو الفرنسية
في نظره « لغة مقصورة على العلم ينساها بسرعة لأنه لا يتكلمها قط » ،
ومن الناحية الرسمية ، ووجهت المشكلة بتجاهلها ، وإرغام حتى من
لا يقدر على الإحاطة بكلمات قليلة منها الا فيما ندر ، أن يعلنوا - كما
يحدث في العظات - أن ما ينبغي أن يكون صحيحاً يعد صحيحاً ، وأن
ما يعرفون أنه صحيح ليس كذلك : « فأولاً - أن لغة الوطن هي اللغة
التي يتحدثها أبونا وأمنا ، خصوصاً أمنا ، والتي يتحدثها أيضاً أقراننا
المواطنون ، ومن يقطنون نفس بلدتنا مثلنا » ثانياً - أن لغة الأم عندنا هي
الفرنسية ، هذا هو ما جاء في كتيب لامتحانات الجيش ١٨٧٢ . ومن
الناحية غير الرسمية ، واصلت المدارس كفاحها لجعل الشعار حقيقة ،
فأعلن فردينان بويسون المنار الهادي للتعليم في الجمهورية في ثمانينات
القرن التاسع عشر ، « إن تعليم لغتنا الأم ، لغتنا السامية الجميلة هو

(*) F. F. Pariset (١٨٦٧)

المهمة الأساسية للمدارس الإعدادية ، أنه عمل له طابع وطني ، ولكن
غذا العمل أثبت أنه طويل وشاق ...

وما كان هذا ليحدث لو ظلت المدرسة بمنأى عن السواد الأعظم من
الناس . وهذا ما تحقق في الربع الأخير من القرن ، فلقد طالب معظم الفلاحين
باشتغال أولادهم بالعمل والاسهام في تعزيز ميزانية الأسرة . وعندما
كانوا يرتضون ارسالهم للمدرسة ، كان هذا عادة من أجل غرض واحد ،
وهو تهيئتهم لعملية التعميد (التنصير) ، وهي من الطقوس الحاسمة
للنجاح ، وبمجرد تحقيق ذلك ، ينسحب الطفل من المدرسة . ويوفد
الآباء أولادهم للمدرسة لبضعة شهور قليلة في الشتاء قبل التعميد ؛
هكذا همهم أحد مدرسي بريون ١٨٦١ . ولعل هذه الفترة القصيرة لم تكف
ما هو أكثر من تعليم العظات . وكم بدت هذه المهمة مضنية لأطفال
لا يعرفون كيف يقرءون ، ولذا كانت عمليات التنصير تجري في أبكر وقت
مستطاع ، أي بين سن العاشرة وسن الثانية عشرة ، وترتب على ذلك أن
تضال عدد الأطفال الذين تدرج أسماؤهم ممن تجاوزوا هذه السن إلى
درجة كبيرة ، وسرعان ما ينسى الأطفال القليل مما تعلموه ، غالبا عن طريق
التلقين ، ثم يرتدون ثانية إلى « حالة من الجهالة التامة » .

وعلى أية حال ، لقد كانت مدارس الريف ضعيفة الاغراء والاجتذاب
لتلاميذها ، وتشجيعهم على التعلم ، ولو حتى خشية التعرض لتحدى
الأطفال الأكثر تحمسا للتعلم ، أما الآباء فيسوروا الحال ، ممن لديهم
الحافز والقدرة على الحاق أطفالهم بالمدرسة لبعض الوقت ، فانهم كانوا
يؤثرون ارسالهم إلى المدن التجارية أو إلى إحدى المدارس الداخلية ، والأهم
من ذلك هو ما حدث عندما أدرك المنحدرون من أسر أوفر ميسرة أو يسرا ،
أن الدراسة قد تلعب دورا في نشاطهم الذي سيجيء فينا بعد ، فانهم
استوعبوا أو حفظوا ما هو أكثر مما تعلموا ، وكان الآباء يولون عملهم
القدر الأكبر من اهتمامهم ، وبذلك أتيحت الفرصة لأبناء الفقراء للالتحاق
بمدارس الفقراء ، لأنه لم يكن لدى الآباء الوقت الكافي للالتفات إليهم ،
وكان لديهم مبرر أقل لاستغلال هذه الفرصة لأقصى حد بقدر يفوق
أقرانهم الأفضل حالا ...

أما متى وأين سجلت أسماء الأبناء في المدارس فمسألة تأتي في
المقام الثاني من الأهمية ، لأن ما يهم ليس تسجيل الأسماء على هذا النحو ،
وانما هو مواظبتهم على الحضور ، واختلفت هذه الحالة من إقليم لآخر ،
تبعاً لاسلوب العيش فيه ، ولكنها نزعته بوجه عام إلى جعل السنة الدراسية
مقصورة على شهور الشتاء . وكان الأطفال بوصفهم عمالا « بالفعل » أو
« بالقوة » يتفرغون للدراسة عندما لا يكون لديهم أي عمل آخر على

الاطلاق . وفي ليموزان ، لم يكن هناك من يقول : « لقد أمضى الطفل ثلاث سنوات ، ولكنهم كانوا يقولون : لقد أمضى ثلاث شتويات ، في المدرسة ، التي دخلها بعد جنى ثمار أبو فروة ، وبعد عودة النازحين الذين قام بمساعدتهم للعودة من حيث جاءوا ، وأنه ترك المدرسة في أواخر مارس أو بداية إبريل عندما عاد النازحون مرة أخرى ، وبالمثل في ساحل العاج والجورا التي توافر فيها قدر أكبر من المدارس الاعدادية في قرأها النائية والاكواخ أكثر من أي أقسام أخرى ، اعتاد الأطفال العمل معظم السنة ، مع عدم الانتظام في الدراسة لأكثر من شهور قليلة في الشتاء ، وبذلك ينسون في هذه الفترة الفاصلة كل ما تعلموه ، وكان المنتفعون الوحيدون من الدراسات هم البنين والبنات ممن توافرت لهم أو لهم السبل الكافية للاعتماد على أنفسهم بلا عون من أحد ، ومن جهة أخرى ، ففي إقليم دويس ، حيث الشتاء القارس الطويل ، فإن هذه الحالة قد ساعدت على مكوث الأولاد بالمدرسة فترة أطول ، وعلى التقاطهم أكبر قدر من العلم ، غير أنه حتى في حالة عدم معاونة الأولاد لنوهم ، فإنهم كانوا يتركون المدرسة في شهر مارس أو إبريل ، وفي لوزير ، كان الأولاد يحضرون للدراسة أربعة شهور في الشتاء على الأكثر ، وبعد الفصح ، يقتصر الأمر على مغادرة الأولاد للمدرسة التي إما أن تغلق أو تتحول إلى عيادات صباحية . وفي إقليم مانش ، كان الآباء يشعرون بالسعادة عند تركهم أولادهم بالمدرسة خلال السنوات التي لا يستطيعون فيها القيام بما هو أكثر من الحبس حول البيت ، ولكنهم كانوا يرغبون في اخراجهم بمجرد اكتمال بنيتهم ، أو على وجه الدقة ، عندما يكونون في أفضل أوقات صلاحيتهم للتعلم (١٨٩٢) ويستخلص آلان كوربان بأن اشتغال الأطفال بالعمالة لم يخفف الا حثيثا ، أي بين سبعينات وثمانينات القرن . وعلى أية حال ، ففي نهاية القرن ، كان بوسع المفتشين أن يلاحظوا حدوث انتظام أكبر في المواظبة على حضور المدرسة في الشتاء ، ولم تعد الشكايات المتواصلة من عدم المواظبة تنصب الا على باقى شهور السنة . وكان التأفف أمر ، ولكن المستويات ارتفعت .

ولقد وصلنا الآن الى السبب الرئيسي « لعدم الاكتراث » بتعلم الكتب ، والذي رآه أحد الكتاب (*) أمرا متوطنا بالأقاليم ، فلقد توافرت لفقراء أبناء الحضر فرصة استخدام مهاراتهم التي اكتسبوها في مدارس البرشية ، وملاحظة فرص الارتقاء بمراكزهم الاجتماعية عن طريق هذا التعلم . أما في الأقاليم ، فإن مثل هذه المهارات لم تحقق الا القليل من النفع ، ولم يترتب على عدم وجودها الا القليل من الضرر والخسارة ، ولم يكن هناك الا القليل من التصدع في الطبقات الكثيفة من الشقاء ،

التي يرضون فيها . يستطيع الفضول أو الاجتهاد أن يجد منفذاً للانطلاق منها . ولقد أسفنت احصائيات فتريه (*) لأن شاعلي المقاطعة ، لم يظهروا الا القليل من الميل لدراسة العلوم والآداب البعيدة عن الابتذال أو للتثقيف في الفنون الرفيعة ، . ويغفو هذا الكلام مثيراً للسخرية حتى يبين لماذا لا تعد هذه الحالة مثيرة للفضيحة : « بعيداً عن مصادر الالهام والذوق ، لخالهم نادراً ما مروا بحالة تساعدهم على ادراك قيمتهم أو (اكتشاف) موضوع للتنافس (والتبارى) عليه » . لقد كانت موضوعات التنافس نادرة في الأقاليم ، أما مصادر الالهام فكانت اندر .

ورثي أن المدرسة عديمة النفع وما يعلم بها لا يمت بأكثر من صلة واحدة بالحياة المحلية ، وحاجة بيتاتهم ، إذ كان المعلم يدرس النظام المتري في القياسات بينما كان الشائع هناك مقاييس بالية (**) . ويقدرون الأسعر بالفرنك ، بينما لا يعترف الناس بغير اللويس والايكوس . فما قيمة اللغة الفرنسية ، إذ كان الجميع يتحدثون البطوة ، وتعلن التعليمات الرسمية اعتماداً على أحد المنادين باللهجة المحلية . وبوجه عام بوسعنا القول بأن المدارس لم تكن تعلم الفرنسية ، ولكنها كانت تعلم قواعد نحوية عقيمة ، ولم يكن للمدرسة أية صلة بالتطبيقات العملية ، فكانت بمثابة ترف أو شيء كمالي في أفضل الأحوال ، أو مظهراً من المظاهر الفارغة لا أكثر ولا أقل ، وأشار كوربان الى النور المهم الذي قامت به هذه العوامل في تأثيرها على الافتقار للاهتمام الذي ظهر عند الآباء والأبناء ، فعندما أراد والد مارتين نادو ارسال ابنه للمدرسة اعترض الجيران والأقارب وقالوا ان تعليم أبناء الأقاليم عديم الجدوى ، ولن يتيح لهم ما هو أكثر من كتابة بعض الرسائل ، وحمل أحمال من الكتب . وأخفق المدرسون والمدرسة في اقناع القرويين بالفائدة التي تحققها القراءة والكتابة . واكتشف الآباء أن عزوفهم له ما يبرره ، لأن هناك اختلافاً هيناً بين حال من يلتحقون بالمدرسة ، والآخرين الذين لم تطل أقدامهم مثل هذا المكان ! وعندما ربط فردينان بويسون بين ضعف الاقبال على المدارس والافتقار الى الاهتمام بالمزايا المعنوية التي يتوقع أن تتاح للأطفال ، كان يتبع التقليد السائد غير أنه اذا تبين للكافة النفع العملي الذي بمقتورهم فهمه ، فإن المشكلة ستتكشف وتتخذ أبعاداً يمكن السيطرة عليها ، وقال أحد عمد القرى : ان أهل الريف « لا يعون الا في صورة غامضة أية ثقافة فكرية أو معنوية ، لا تمت بصلة مباشرة أو ملموسة بالنفع المادي » . وهذا كلام معقول . فقبل أن يرغب أي شخص ارسال ابنه للمدرسة فان عليه أن

(*) Stastique de Venreé.

(**) مثل ال toise و ال Cordes و ال pouces

يتخلل ، « عن المصالح المادية العاقبة » ، باعتبارها الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفهمه . وليس ذلك كذلك . فعندما أقيمت المدرسة على حصر هذه المصالح ، بدأ الناس يبالون ...

وما أسعى لتوضيحه هو الحاجة الى الخبرة الشخصية لاقتناع الآخرين بجدوى التعليم . لقد تعرف بعض الواقدين من الريف الى المدن على هذه الحقيقة ، ولعلنا رأينا كيف استطاع هؤلاء الناس وأبنائهم ادراك ذلك منذ وقت باكر : « قيمة التعليم والفائدة التي بمقدور الشخص أن يجنيها منه في المراكز الكبرى » ، فخلال النصف الثاني من القرن ، كانت المواظبة على الذهاب للمدرسة في بعض البلدان أعلى بكثير من نسبتها في بلدان أخرى (*) . وجاء حافز آخر للدراسة بعد صدور القانون العسكري ١٨٧٢ ، ولا يرجع ذلك الى الاستعاضة عن التعليم ببدائل أخرى وإنما يعزى ذلك الى ما حققه من مميزات للقادرين على القراءة والكتابة ، وتهديده المجندين الأميين باستبقائهم في الخدمة سنة إضافية أخرى . وبأدركت السلطات المدرسية بالإشارة الى هذه الأوجه من القانون لاقتناع الآباء بالحقائب أبنائهم بالمدارس . وفي مدينة ايزير علق اعلان في كل فصل ، وطلب من المدرسين قراءته ومناقشته مرة كل أسبوعين على الأقل ، طنا منهم بأن أداء واجب وطني واحد سيساعد على تخفيف عبء الواجبات الأخرى .

غير أن هناك جيشا آخر كان يتأهب للظهور ، ولعله لا يقل أهمية عن الجيش المحارب . انه جحافل الموظفين العاميين والخاصين . ولم يكن السبيل للانضمام الى هذا الجيش العرمرم ميسورا الا لحملة الشهادات الدراسية ، أو حملة الشهادة الاعدادية بمعنى أصح ، وكانت المدرسة الصغيرة في روجيه تاو مازير تلحق خريجها في الوظائف الجديدة المتاحة في اقليمها أو في أي اقليم آخر ، بعد ما حدث من تقدم اقتصاصي واجتماعي وسياسي ، فقلد زاد عدد الموظفين بالمدينة من ١٥ (١٨٧٦) الى ٢٥ (١٨٨٦) ، بالإضافة الى سبعة موظفين آخرين كانوا يعملون في السكك الحديدية ، وساعدت الدعاية على تشجيع الطموح : « اذ كانت (ابنة الحلال) الشهادة الابتدائية تتيح لأي شخص فرصة الحصول على وظيفة في الكثير من دواوين الحكومة » . هكذا قيل لتلاميذ المدارس في أحد الكتب المدرسية التي نشرت ١٨٨٠ : « فالموظف الحكومي يشغل وظيفة مستقرة ، وهذا هو سر زيادة الاقبال على الوظائف الحكومية » . (وان فاتك الميرى اتمرغ في ترابه كما تقول في مصر) . ولما أتيحت الفرصة لكثير من القرويين آثروا التخلي عن عمليات الفلاحة وانتقلوا الى

(*) كانت النسبة اعلى في Creuse منها في بلدان مجاورة مثل Haute-Vienne

و Corrèze ، وبلغت هذه الزيادة ٧٪ و ١٢٪ على التوالي ١٨٧٦ .

أعمال أخرى ، ففي ١٨٩٩ ، تحول أوجيون من العمل قرية صغيرة (عدد سكانها ٤٤٤) للعمل كموظفين في مكان آخر ، فاشتغل أربعة منهم خدما في المدينة ، وتلقت دار العمودية (للسجين) خمسين ألف مطلباً لشغل وظائف إدارية جديدة بها .

وساعد التحفيز لشغل الوظائف الميسورة بعد تضخم الجهاز البيروقراطي على التوسع في التعليم . بيد أن هذه النهضة التعليمية قد اقتضت - نسبياً - على المنتمين للفئات الاجتماعية العليا . ففي عهد الجمهورية الثالثة ، لم يكن السبيل متاحاً أمام الأشخاص رقيق الحال للحصول على نصيبهم من (كمكة) التعليم ، ولم يتيسر ذلك إلا بعد ظهور الوظائف التي ساعدت على تعزيز مطلبهم ، وتبريره . وفي حوالى ثمانينات القرن التاسع عشر ، رأينا حتى أبناء القرويين يقبلون على التعليم ، ويولونه قدراً أكبر من الاهتمام . وبعد أن تزايدت الوظائف ، ولم يعد الحصول على واحدة منها حليماً من الأحلام ، ازدادت أهمية التعليم الذي يؤمن الاهتداء إلى مثل هذه الوظائف المظهرية ، بل وغدت الشهادة المحققة لهذه الغاية أكثر أهمية . وفي أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر ، ذاعت المدايح هنا وهناك التي تتغنى بمآثر الشهادة الدراسية ، ففي ١٨٨٠ ، لم يتردد بيكو عن القول بأن الشهادة الدراسية قد أصبحت مقبولة شيئاً فشيئاً ، وأدركت للعائلات ما باستطاعة هذه الورقة المطلوبة (الشهادة) أن تحققه من نفع . بل تاحتها فرصة التقدم لشغل العديد من الوظائف ، ومن ثم فإنها لم تصانح في الكثير من الأحيان في ترك أبنائها بالمدارس أطول مدة ممكنة ، واستمرت المدارس تشغل أسوأ المواقع ، وكان مستولها أقل من مستوى البيت . غير أن الأولاد دفعوا للذهاب إليها حتى عندما كانت تبعد عن بيوتهم بمقدار ستة كيلو مترات ، بعد أن استقرت في أمثالهم حكاية نفع الدراسة الإعدادية وضرورتها .

وباقتراب تسعينيات القرن التاسع عشر ، تجسست الامكانيات الجديدة واضحة ، وازداد ادراك دور المدرسة في تحقيق طموحات المواطنين . وفي ١٨٩٤ ، درج كل طفل في إحدى قرى بروفانس ممن كانوا أقرب إلى الأمية الكاملة قبل ذلك بجيل من الزمان على الذهاب إلى المدرسة ، وكان بينهم حتى من يضطرون للسير نصف ساعة بين ماواهم ومدرستهم . وأصبح مشهد الأولاد الذين يستذكرون في المساء على ضوء شمعة خافتة من المشاهد المألوفة . واقتربت المجالس البلدية على منح علاوات للمدرسين الذين يحصل تلاميذهم على الشهادة المنشودة . وأصبحت العائلات بالهوس بهذه الشهادات ، كما يبين من شدة احتفائها بأي ولد يحصل على واحدة منها ، وعندما يزداد عدد المحاولات الفاشلة للحصول

على الشهادة ، فإن هذه الظاهرة قد تتحول الى مشكلة تثار في اجتماعات المجلس المحلي . وعندما يكون التطور طبيعيا ، فإن الشهادة الدراسية - التي تكتسب ميزتها المادية مما يَحتمل أن تحققه - قد تصبح غاية في ذاتها ، . ولقد رأينا فتاة صغيرة تكتب بلغة ركيكة عبارة تقول فيها : « يجب أن أعترف - بشرف الحصول على إحدى الشهادات المدرسية (٢) » . ولعلها عبرت بهذه الكلمات عن رأى الشعب في الشهادة (السرتيفيكات) وأصبح اجتياز الامتحان مناسبة مهمة تنافس في أهميتها طقوس التنصير . ويذكر من مروا بهذه التجربة في ثمانينيات القرن التاسع عشر الأسئلة التي أجابوا عليها ، لأن كل صغيرة وكبيرة تتعلق بيوم الامتحان ما زالت عالقة بذاكرتهم . ولنضرب مثلا واحدا من بين عدة أمثلة ، يخص شارل مورو عضو أكاديمية الطب والأستاذ بكوليج دي فرانس ، في معرض روايته لذكرياته عن الاحتفال بالتخرج في قرينته ١٩١١ : « بمقدوري لو أردت أن (أسمع) عن ظهر قلب التفاصيل الدقيقة لسؤال الحساب ، الذي دار حول إحدى عمليات البيع والشراء التي اشترك فيها بيتر ونيقولا » .

بطبيعة الحال ، لقد تحققت مكاسب أكثر فورية . فلم تعد هناك حاجة للانتقال الى أقرب مدينة لاستشارة أحد المحامين أو أحد الخبراء المحاسبين ، عندما يراد تحرير كسبالة أو شيك أو كتابة إيصال ، أو اقفال حساب مسبق ، أو حتى كتابة رسالة عادية . هكذا قال أحد الأولاد الذين بلغوا الثالثة عشرة من عمرهم في قرية أوب . « ولم يعد الملم بالقراءة والكتابة مضطرا الى افشاء أسرار أو الكشف عن صداقاته وخصوصياته لطرف ثالث . وأصبح بمقدوره الارتقاء في العمل السياسي المحلي أو التعليم أو الجيش ، حيث يمكن الحصول على معاش طيب بعد التقاعد وعلى نياشين ترصع صدره بعد شغله إحدى الوظائف التي ترفعه الى مرتبة تعلو مراتب العوام الوضعاء » .

وكان العوام الوضعاء يضمون نوعا من الفلاحين الذين تشغل سادجهم النمطية صفحات كتب الأدب الساخر ، ونراهم « يتحدثون لغة خالية من النحو ويستعملون عبارات مميزة ، ويسيتون التعبير بالنور اليسير من المفردات المتاحة لهم ، ولا يبدوون أفضل ذكاء من الفلاحين الآخرين المحيطين بهم » . ويفترض أن المخرج الوحيد من هذه الحالة هو التعليم الذي يعلم النظام والنظافة والكفاءة وسبل النجاح والتحضر . وربطت تقارير المسئولين بين هزال التعليم والأساليب الوحشية الفظة ، « فعندما

«être adémise s'est un honneur d'avoir un certificat d'étude». (٢)

لا يترك التعليم أثره ، تظهر نزعات جافية وحسالك فظة ويزداد الهيبة والإضطراب والتهور وتشيع المتاعب والصخب ، . فالمقروض هو قيام المدرسة بتهديب الشماثل وغرس الخصال الحميدة وترقيق القلوب الوحشية ، اذ تساعد الصيغ المهدبة التي تلقنها المدرسة على « تهديب الوحشية والفظاظة المشهورتين عن الفلاحين » ، وبالمقدور نسبة السلوك المهدب والأخلاقيات المهدبة الى آثار التعليم . وشرعت المدارس « في تعديل عادات الصحة البدنية والنظافة والآداب الاجتماعية والأسرية » ، وطريقة النظر للأشياء والحكم عليها . وتعلم الأطفال الهمجيون آداباً جديدة مثل كيفية تحية الغرباء ، وكيفية طرق الأبواب وكيفية معاملة الأصحاب الوقورين . وهناك قول يظهر أنه خلط بين اختلافات أبناء الحضر وأبناء الريف ، والاختلافات العنصرية : « البورجوازي يفسى عندما يفرغ كرشه ، والفلاح البريتوني يتكرع بصوت أجش عندما يمتلئ كرشه » . ويتعلم الأطفال أن اللياقة ترفض الحالين على السواء ، وأن النظافة ركن أساسي من أركان الحكمة .

ونهضت المدرسة بدور رئيسي في ارغام الأطفال على مراعاة النظافة ، وإن كان المدرسون قد بذلوا جهداً كبيراً لتحقيق هذا الهدف . فكان التفتيش يجرى بانتظام على الشمر والأظافر والأذنين ، وتم تركيب المضخات لتوفير المياه اللازمة للنظافة ، وخضعت ملابس الأولاد ومسلكتهم خارج المدرسة للفحص المدقق ، وتعرض المقصرون للتوبيخ المستمر . وقد جاء في نص أحد التمارين المدرسية : « الدراسة تشحن المخ ، وتصحح الآراء الزائفة ، وتساعد على ترتيب الكلام والكتابة ، وتعلم حب العمل ، وتدعم القدرة على حل المسائل ، وأداء الواجبات العملية ، فما الذي نتعرف عليه من الدراسة ؟ من بين أشياء أخرى : الحمامات الباردة خطيرة ، والمواظبة على حضور الأعياد والمهرجانات واجب ديني ، وأن ما يلحق الجسم من ضرر من جراء العمل أقل مما يصيبه من الانغماس في المتعة ، والعدالة تحمي الخير ، وتعاقب الشرير ، والطباق سم واسراف ضار ، وله أثر مهلك على ذاكرة المرء ، ومن يتعاطونه باسراف يعيشون حياة أقرب الى الحلم ، بعيون أشبه بعيون الموتى ، عاجزة عن الانتباه لأي شيء ، ودون اكترات بأي شيء ، ويسرفون في عشق ذواتهم » . ولا تنسى أيضاً درس « جول وجوليا » اللذين كانا من الأغنياء ، ومن ثم فانهما لم يحرصا على الاجتهاد في المدرسة ، ونظرا لانهما لم يتعلما أي شيء فانهما شعرا بالانزعاج بعد ذلك من جهلهما ، فكانا يحمران خجلاً عندما يهزا الناس منهما ، ومن الأخطاء التي كانا يقعان فيها عندما يتحدثان . نعم ليس

بمقدور أى جهة أخرى غير المدرسة تبديل السلوك البدائى (*) ، ، فالأحوال
البدائية نفسها تتغير ، وتساعد المدارس خريجها على التكيف مع هذه
التغيرات .

بطبيعة الحال ، لقد حققت المدرسة ما هو أكثر ، أو بمعنى أصح
لقد اضطلعت بهذه المهام على نحو أرحب . ولو حاولنا إجراء تصنيف لحصر
مهامها وحدودها ، كان علينا القول ، بأن المجتمع يتقف ، والمدرسة تعلم .
والمدرسة تنقل أنواعا بالذات من المعرفة القابلة للتعليم . أما المجتمع فيغرس
خلاصة ما يستوعب من تجارب عبر الزمان . بيد أن هذه النظرة أثنى
تحقيق على مهارات وموضوعات معينة يجب أن تعدل عندما تنصب التعاليم
المقدمة من قبل المدرسة على نطاقات تختلف من مجتمع لآخر (كاللغات
والمقاييس أو سبيل المثال) أو يتجاهلها التعليم الاجتماعى (الوطنية
مثلا) . وبصورة أخرى ، فإن المدارس تزود بتعاليم مكملية (وربما بتعاليم
مضادة) لأن التعليم فى المجتمع المحلى لا يتوافق هو والتعليم المطلوب على
المستوى القومى . هذه هى الحالة عندما تقوم المواد الدراسية بدور أساسى
فى غرس الثقافة : يعنى تشكيل الأفراد لكى يتواءموا هم والمجتمعات
والثقافات الأرحب من ثقافتهم ، واقناعهم بأن هذه النطاقات الأرحب هى
عالمهم بنفس القدر الذى ينسب لبلدهم الذى يعرفونه ، أكثر من ذلك .

لقد وصلنا الآن الى أهم دور للمدرسة الحديثة ، أى الى لا تعنى
بتعليم الكثير من المهارات النافعة ، بقدر تركيزها على نوع من الوطنية
الجديدة ، التى تتجاوز الحدود التى يعترف بها عادة ضمن مفهوم المصطلح .
لقد استبدل الثوريون مصطلحات قديمة مثل الناظر والقائمقام والعميد
بمصطلح مدرس التعليم الابتدائى (**) باعتبار المدرس يعمل على انشاء
الأمة ، غير أن الأثر المرغوب يعنى تحقيق الوحدة لمعنى مراوغ كالروح
الوطنية ، قد اعترف بالافتقار اليه فى ستينيات القرن التاسع عشر
وسبعينياته ، مثلما حدث أيضا قبل ذلك بشمانين سنة .

وكتب أحد المدرسين القرويين ١٨٦١ : أن المدرسة عامل من العوامل
التي لها دور كبير فى خلق الروح الاجتماعية . فعلى المدرسة ان تعلم

Ardouin-Dumazet.

(*) هكذا صرح

(**) استبدل الثوريون مصطلحات مثل rector و regent : schoolmaster

بمصطلح instituteur . ولعل هذه الكلمة الأخيرة تحتاج الى مرادف عربى مازال

غير موجود وهى واضح حجر الأساس للأمة . institute .

المشاعر القومية والوطنية ، وتفسر ما الذي أنجزته الدولة لهم ، ولماذا نجبى الضرائب ، وتفرض الخدمة العسكرية ، وتبين لهم ما يحققه الوطن لصالحهم . والظاهر أن هناك مهاماً كثيرة تتطلب الانجاز . وظلت هذه الفكرة تشغل بال المربين المخلصين على الدوام . وبعد ذلك بعشرين سنة ، كان لابد أن يقال لطلبة دور المعلمين : « ان واجبهم الأول هو دفع المسئولين عن التعليم الى حب بلدهم وفهم أحوالها . وبعد ذلك بعشر سنوات ، تكرر الهدف الأكبر مرة أخرى ، عندما ظهر نزوع الى المطالبة بجعل التربية القومية روح تعليم الشعب » ، فالمدرسة بمثابة « وسيلة لتحقيق الوحدة ورد على الميول الخطيرة التي تجنح الى الطرد المركزي . ولا خلاف على الاعتراف بكونها الركن الأساسي للدفاع القومي » .

ففيما يتعلق بالتربية القومية عليك ان تذكر « ان الوطن ليس مرادفاً لقريتك ، لأن ولايتك هي فرنسا بأسرها . فالوطن أشبه بأسرة كبيرة » ، ان مثل هذا الكلام ما كان ليعرف بغير اعتماد على شيء ما من الرؤية البعيدة ، ومن ثم رأينا تلميذاً في الثالثة عشرة من عمره يقول على سبيل أداء الواجب ١٨٧٨ : « ان الوطن هو أنت . انه أسرتك . انه شعبك (*) » . وبعبارة أخرى ، انه بلدك فرنسا ، وكتب آخر : « الوطن هو البلد الذي ولدت فيه ، وحيث ولد أبواك ، ومستودع أعز أفكارنا . انه ليس مجرد البلد الذي نعيش فيه ، ولكنه أيضاً البقعة التي تقطنها . فالوطن هو فرنسا » . وكان التمرين المدرسي أشبه بعظة مصممة لتعليم الطفل ان واجبه يدعو للدفاع عن وطنه ، واراقة دمه في سبيل الدفاع عنه (« عندما تتعرض فرنسا للتهديد ، عليك ان تبادر بحمل السلاح وتهرع لنجدها ») . وعليك ان تطيع الحكومة وتؤدي الخدمة العسكرية وتدفع الضرائب . . وهكذا .

وفي بداية الدراسة ذاتها ، يعلم الأطفال ان واجبهم يدعوهم الى الدفاع عن بلادهم بالانخراط في سلك الجندية . فالجيش يتألف من اخواننا وآبائنا أو أقاربنا . ولعل هذه النغمة تبدو غريبة بعد العناء الذي كان سائداً في الماضي ضسب الجنود والجندية ، وتردد الأحاديث عند استهلالها التذكير بهذا الواجب المقدس في عبارات كهنتية : ان أولادنا سيدافعون عن تربة الوطن . ويتركز البرنامج المدرسي بأسره على التوسع في إبراز هذه الفكرة على أنحاء شتى . ففي دروس الألعاب الرياضية يقال : « انها ترمي الى انماء فكرة الانضباط عند الطفل ، واعناده كي يصبح جندياً مخلصاً ، وفرنسياً مخلصاً ، وكان الأطفال يترنمون بأناشيد مثيرة مثل نشيد « راية فرنسا » ونشيد « الديدبان المفقود » و « المارملييز » .

وصدرت الأوامر بتأليف موضوعات انشائية حول الفكرة بعد تحديد عنوانها وفحواها : « رسالة من جندي شاب الى والديه » : ويعرف الجندي أهله في الرسالة أنه يحارب ضد أعداء الوطن ، وأنه قد أصيب بجراح ، وهو فخور بذلك (وعليهم أن يتماثلوا معه في هذا الشعور) لأنه نزل دمه في منبيل الوطن . ويقرر المدرسون بعد شعور ببعض الارتياح ، زهوهم بنجاحهم « في غرس حب الوطن اعتمادا على التذكرة بأحداث من التاريخ تربط أئندتنا بوطننا » ، ثم بانمائهم هذا الشعور « بإظهار كم تبدو فرنسا قوية وجسورة عندما تتحد » .

ولم تكن هناك سبل لتلقين الوطنية والتكيف الوطني أفضل من الاستعانة بالتاريخ والجغرافيا ، ولا سيما التاريخ ، لأنه اذا أحسن تعليمه سيكون « الوسيلة الوحيدة لترسيخ معنى الوطنية في الأجيال التي تساعد على تنشئتها » . فهل استطاع القول بوجود قوى اجتماعية أخرى تساوى هذه الدروس في طبع حب الوطن في الأفتنة واشعال جذوة هذا الحب ؟ ومن أسف أن معظم المدرسين لا يعرفون التاريخ ، كما يجب ، وما يعرفونه من الجغرافيا أسوأ حالا من ذلك . فعندما أقدموا في حوالى سبعينيات القرن التاسع عشر على تعليم تاريخ فرنسا - أو شرعوا في ذلك - جنحوا الى رص أسماء البقاع والتواريخ ، وقلما ذهبوا الى ما هو أبعد من القرون الوسطى ، وتجاهلوا التاريخ ، وغابت الحضارة عن برامج التعليم ، هذه هي العبارات التي أوردها فليكس بيكو ١٨٧١ في معرض شكايته ، وأردف قائلا : « ان بالمقدور الاعتماد على التاريخ الفرنسي لتكوين المواطن الفرنسي والتعريف بالوطن الحر ، وغرس محبته ، الا أنه لم تتم حتى الآن أية محاولة أولية في هذا السبيل » . وليس في هذا ما يثير الدهشة : ان من حصلوا على شهادات من المدرسين بين ١٨٥٠ و ١٨٦٨ ، لا يزيد عددهم عن نصف عدد المشتغلين بالتدريس ١٨٧٩ ، ولم يدرسوا التاريخ الفرنسي قط ، ولم يعرفوا عنه أي شيء . هذه هي الكلمات التي جهر بها أحد مفتشي المدارس في فنديه ، وقد قالها وهو يشعر ببعض الأسى وقرر آخر (*) : « لقد بدأ المدرسون اتجاها - ما زال غير مألوف ونادرا - بعرض الأحداث الرئيسية في تاريخ فرنسا ، ولعل أنسب مرجع تناولها على هذا الوجه هو كتاب لافيس : « السنوات الأولى للتاريخ الفرنسي » . وقد خصص هذا الكتاب بأكمله لبيان كيفية بزوغ الوطنية الفرنسية والوحدة الفرنسية والمبررات التي ساعدت على ذلك ، بعد الانتقال من التركيز على الوطن الأصغر الى الكلام عن الوطن الأكبر (**) . وقيل للأطفال : انكم

(*) في Haute Saone
(**) في petite patrie الى grande patrie

عندما تقرر عونه ، متعلمون كم أنتم مدينون لآبائكم ، ولماذا يعتبر واجبكم الأول هو حب وطنكم فوق أى حب آخر ، لأنه موطن آباءكم ، .

وكما لا تعد اللغة الأم هي لغة الأمهات ، كذلك نظر الى الوطن (الموطن والاب كشيء أكبر أو كشيء مختلف) عن المكان الذى عاش فيه الآباء . وطولب ببرنامج واسع من الدروس التى تعتمد على التلقين لاقتناع الشعب ، بامتداد الوطن الى ما وراء حدوده الواضحة ، الى ما هو أبعد ، وإلى أطراف بعيدة ، من أجل أن يمسها ، تدعى فرنسا ، وكان البالغون يدحون ، فى ذلك الوقت ، على أن يظل فى نفوسهم . وكان من العسير أن يظل الأطفال رغم فابليتهم للتشكل ، بغير استعانة بالدرع الراحية لسواء التى لم يتيسر توافرها الا فى سبعينيات القرن التاسع عشر . وفى ظل الامبراطورية الثانية (نابليون الثالث) « لم يكن الأطفال يعرفون أية مواد جغرافية ، ولم يروا أية خريطة ، ولم يعرفوا أى شيء عن اقليمهم أو وطنهم (*) » . نعم لم يعرف الأطفال شيئا البتة عن مكانة بلادهم ، أو حتى عن وجودها ، (**) . وبذلك أصبحت معرفة الجغرافيا حاجة ملحة ، (***) .

وبدأت الخرائط تتدفق بمجرد بدء الحرب الفرنسية البروسية ، وتوزع بمعرفة الدولة ، وبدأ توزيع الخرائط بمدارس المدن ، ثم وزعت بعد ذلك على مدارس الأقاليم . وفى ١٨٨٠ ، لم يعد هناك الا فصول قليلة تخلو ولو من خريطة واحدة مهما كان صغرها . وليس مستغربا أن لا تزيد الخريطة فى بعض الفصول عن كونها مجرد حلية ، ولكنها غرست فى وجدان الكافة صورة الشعار القومى المسدس الاضلاع . وذكرتهم بأن الحد الشرقى يجب أن يقع على نهر الراين وليس على نهر فوسيج . وكانت هذه الخرائط أيضا رموزا قوية للمجردات التى يتوجب على العقول الفتية استيعابها ، أى لم تكن مهمتها توكيد معنى الوطن فحسب ، وكم بدا عسيرا تحقيق هذا المطلب الأول . وبلاستطاعة تبين ذلك من المنشور الذى صدر ١٨٩٩ عند توزيع بعض اللوحات المجسمة : « لناظر من مختلف البقاع الفرنسية ، للتعريف بطريقة حيوية مفهوم كلمة وطن » .

ان المدرسين يعلمون ، « ويتوقع أن يكون دافعهم لذلك ليس حب الفن أو العلم فحسب . . . وإنما يجب أن يكون هذا الدافع هو حبهم لفرنسا » . انها فرنسا ، التى يجب غرس الايمان بها فى وجدان جميع من لا يؤمنون بذلك . لقد استعاض عن الاله الكاثوليكي الاصطفائي(****) ،

Lost-et-Garoone

(*)

Dordogne.

(**)

Doubs

(***)

Particulari t

(****)

الذى لم يؤمن بوجود هوية بينه وبين الوطن سوى أنصار جبهة التصحيح بعد منطف القرن ، قد استعاض عنه باله علماني يتمثل في الوطن ، ورموزه الحية ، والجيش ، والعلم . وحلت دروس علوم الدنيا محل العظات الدينية ، وحل التاريخ المقدس لفرنسا محل التاريخ التوراتي ، الذى أهدر في المدارس العلمانية ، فلقد تحولت فرنسا الى ما هو أكثر من مجرد ملكية للمتعلمين ، نعم لقد أصبحت ارثا باستطاعة الجميع الاشتراك فيه وتمخضت عن ذلك نتائج مهمة لصالح التماسك القومى ، وبرزت حرب ١٩١٤ صيحة هذا الحكم .

ليس من المصادفة ان من مميزات هذه المرحلة فى ذلك الوقت ، لقد بدأت اللغة الادبية و اللغة المكتوبة التى يعلمها الأطفال فى المدارس مساوية فى غرايتها للغة المنطوقة . وبدأت نفس الشئ اللغة الفرنسية المنطوقة ذاتها فى نظر الناس بل اللهجة المحلية . وفى عبارة أخرى ، لقد بدأت المدارس عملها بنشر لغة مصطنعة . وهذا يصح حتى بالنسبة للمتحدثين بالفرنسية ، الذين كشفوا عن هذه الظاهرة الى حد كبير فى دروس الاملاء « أى أداة اللغة الكافية للمتعلمين » ، التى تتجاوز المعرفة المحلية . وترتب على ذلك نجاح كثير من الطلبة فى تعلم كيف يعبرون عن أنفسهم وفقسا لمشيئتهم عندما يدور الكلام شفويا ، ولكنهم كانوا يصادفون صعوبة عند الكتابة أو التعبير عن الفكر فى عبارات قريبة من الكلمات المكتوبة ، وبمقدورنا التحقق من ذلك اذا رجعنا الى ملفات تقارير الجندرية ، التى كثيرا ما كتبت بأسلوب ادارى منتفخ فضفاض ، تروى فيه أبسط الأحداث بطريقة ملتوية خرقاء .

ومن النتائج المثيرة لهذه الحالة (التى بدت فى مظهر أسوأ فى المناطق التى جنحت لهجتها الى الاغراب) ان الأطفال « استمروا شهورا بل سنوات لا يكشفون عن أية دلائل على الفهم ، ويكتفون بمجرد تقليد ما يرونه يجرى أمامهم » . ولم يكن مستبعدا أن تساعد التشريعات على التشجيع على ارتكاب الجرائم ، عندما لا تكون الأحكام مناسبة . ولا ننسى دور التعليم فى نشر الغباء عندما وضع معايير للغة الحديثة رأى كثيرون تعذر الاحاطة بها ، وكتب مدرس من كنتال : « ليس بمقدور أطفالنا الاهتداء الى ما يكفى من كلمات فرنسية للتعبير عن أفكارهم ، وليس أمامهم - فى الحق - أية وسيلة للاهتداء اليها » . وترتب على ذلك حدوث انفصال بين التعلم المدرسى - الذى كثيرا ما يعتمد على التلقين - والاستيعاب ، مما ساعد على امهال تقدم المدارس . ووفر التذكر عبء ترجمة المتحدث أفكاره الى اللغة الفرنسية السليمة . وترتب على ذلك أيضا حدوث انفصال بين الكلمة والواقع . فكان بمقدور كثير من الأطفال « تهجى الكلمات دون

أن نعني المقاطع الهجائية أى شيء عندهم ، ، يعنى كان باستطاعتهم القراءة ، ولكنهم يخفقون فى فهم معنى ما يقرءون ، أو التعرف على المقصود من بعض الكلمات المكتوبة دون معرفة بطريقة كتابتها ، أو ادراك الهوية بين كلمات تعلموها بالفرنسية وبين الأشياء المحيطة بهم . ووجد أحد مانحي الجوائز فى دور دون ١٨٩٧ المتقدمين بتوقع تعلمهم اللغة التى تتكلمها عليه القوم . واتفقناهم الكلام بها يوما من الأيام ، وتوحى صيغة المستقبل المستعملة فى مثل هذه الأحوال المستبعدة بمبرر محتمل للتساؤل حول لماذا ارتفع ١٩١٧ عدد المجندين الأهمين ارتفاعا طفيفا أكثر من الماضى المباشر ، ولعل الإجابة على ذلك هى أن التحريم المطلق لاستعمال اللغة الوطنية التى ساعدت على تعلم الفرنسية كلغة ثانية قد حال دون تعلم اللغة الفرنسية الاصطلاحية ، وعاق استيعابها استيعابا كاملا . . .

ان هذا لا يعنى أن الفرنسية لم تخط خطوات واسعة نحو الأمام . فلقد خطت هذه الخطوات ، ولكن الأمام بالكتابة ظل امتياز اجتماعيا كشكل للتعبير . كما أن الفرنسية التى كانت تعلم بالمدارس وفى حصص الاملاء بدت للملمين بها كمصدر قوة للاغتراب عن الكافة . وأدت دورا مهما فى تحقيق وحدة الفرنسيين ، ولعل هذا هو ما عناء مفتش احدى المدارس راجعا بفكره الى سنة ١٨٩٧ عندما قال : « لقد اعتاد الجاهل أن يسبق المدرسة ، أما اليوم فقد انعكست الآية ، وأصبح الجاهل يجرى فى أعقاب الدراسة » .

بطبيعة الحال ، كانت هناك نتائج موجبة (من وجهة نظر المدرسة) ، وذهبت هذه النتائج الى ما هو أبعد من الآثار التى تتضح وضوحا مباشرا ، فلقد خلقت رموز الصور التى تعلم فى المدارس لغة جديدة كلية ، وزودت بأنماط مشتركة يسترشد بها ، مما أزال الفروق التى فرضتها الحدود الإقليمية ، وهى نفس الفاية التى سمعت الوطنية القومية لتحقيقها . فحيثما شاعت اللهجات والتعابير المحلية التى خلقت لهجات منعزلة بعضها عن بعض ، كانت دروس المدرسة بعد تقنينها فى شتى أنحاء فرنسا ، تعتمد فى تعلمها على مصطلحات موحدة ، وفى جميع المدن أصبح الأطفال يألون الرموز والصيغ ، التى اعتمدت عليها فيما بعد السلطات والصحافة والسياسة للم شملهم فى كيان واحد واجتذابهم . فباستطاعة الدروس التى رسمت بعض الصلات والارتباطات ربط الأجيال بعضها ببعض . فهناك أكليسيات معينة شاعت فى شتى الأنحاء كوصف ملوك فرنسا بأنهم أكبر أبناء الكنيسة – والزمان هو النهر الذى يحمل الجميع فوق أمواجه – والشاعر هو الشخص الأثير عند الهة الموزا – وكانت تورين جنة فرنسا – وكانت جان دارك راعية اللورين . نعم لقد حلت محل الأقوال الماثورة والأمثال أقوال تمثل النزعة القومية تمثيلا صحيحا ، وحل محل الأساليب

الاقليمية المحلية أساليب منقولة عن الكتب . وارتفعت قلاع أسبانيا فوق
الإطلال المحلية ، وارتفع صوت ثغاء العجول الذهبية فوق صوت العجول
القابعة في الحظائر ، وظهرت أساطير الطموح مصورة الآن في مشاهد من
ايحاء التعليم ، أكثر إثارة من الأساطير المتواضعة السائدة ، والتي لم
تكن مألوفة بقدر أقل على ذلك العهد ، هذه مجرد مظاهر من العملية الواسعة
المدى للتقنين التي ساعدت على خلق الوحدة الفرنسية وتعزيزها ،
وشاركت في الوقت ذاته في أقول الولاعات المنافسة .

وتعرضت للضعف الدعامات الثقافية للمجتمع الريفي ، التي كانت
قد تعرضت بالفعل للمخاض من تأثير التغيرات المادية الناجمة عما حدث من
تغير في القيم . فأولا - لقد انحط تقدير العمل اليدوي ، أو بمعنى أصح
لقد تعزز النفور المألوف من الكدح الذي عرف عن هذا النوع من العمل ،
فلقد تجاهلت أبواب القدرة على الانتاج والابداع المدارس الاعدادية المعدة
لتشكيل المواطنين ، ومجدت المدرسة العمل كقيمة أخلاقية ، ولكنها أغفلت
العمل كشكل يومي من متطلبات الحضارة . وترجم الى مصطلحات مدرسية
(اسكولائية) التباين بين الروح المتوقفة الحماسية للشجعان (*) والروح
المبتلدة المتخاذلة (**) ، باعتبار العامل المجد يعمل بيديه فقط ، أو يعتمد
عليهما اعتمادا كبيرا ، أما الطرف الآخر فيتجنب العمل اليدوي ، وسرعان
ما أصبح الولد الكسول هو الشخص الذي يحتمل دفعه للأعمال الفزيائية
أو البدنية الشاقة . أما الولد المقدام الجريء فهو الولد الأكثر كشفا عن
نبوغه وبراعته في عالم الكتب . وهذه نتيجة متوقعة ، بعد أن أصبحت
المثوبة الآن من نصيب من لا يشاركون فيما كان يوصف بالعمل في سالف
العصر والأوان . غير أن ما حدث قد أحدث تصدعا - مرة أخرى - في
المظاهر العريقة للتضامن .

وفي العديد من البيوت ، اعتمد البالغون الأميون على فتيان صفار
للنهوض بما أصبح يسمى المهام الأساسية كالحسابات والمراسلات وتلقى
التعليمات والقراءة بصوت مرتفع للوثائق والمستندات أو بعض فقرات من
الجريدة اليومية . وعمل المحدثون الملمون بالقراءة والكتابة في جميع
المستويات على تيسير التعرف على الأفكار الجديدة ، وبخاصة للنشر ،
الذين نسبت اليهم الآن بعض التغيرات العميقة في المناخ السياسي لمقاطعات
الأقاليم ، وعلى أية حال يمكن القول بأن العلاقة بين مطالب المدرسة
والمطالب الاجتماعية لم تغفل في زمانهم ، وترنم أحد المطربين (***) ، ولعله

Courageux

(*)

fainéant

(**)

Montéhus.

(***)

قد عبر عن روح الثورة في كلماته التي جاء فيها « أنه بعد أن تعلم الناس كيف يحسبون ، بعد أن نالهم الكثير من عنتِ الفليس والاملاق ، رايناهم يتجهون الآن الى الاشتغال بالحسابات عوضاً عن استجداء الصدقة ! » والأهم هو أنه ، وكما حدث في مقاطعة بريتاني ، ظهرت حملة حماسية لتعليم الجيل الجديد الفرنسية : « ان الآباء والأبناء يمثلون عالمين منعزلين ومنفصلين الى حد كبير في الروح . ويتكلم كل طرف منهما لغة غريبة عن لغة الطرف الآخر ، مما أدى الى عدم اشتراكهم في الأفكار والمشاعر . فلا عجب اذا لم تتوثق بينهما أية علاقة حميمة ، بل وربما كان الأغلب هو تعذر قيام أية علاقة بينهما . وأغلب الظن أن هذا الكلام مبالغ فيه ، ويوحى بوجود ثغرة بين الأجيال يمكن أن تلمح بسهولة أكبر في المجتمعات الحديثة أكثر من امكان لمحا في المجتمعات التقليدية . ولكن حتى اذا سلمنا بالمبالغة ، الا أن الآثار الأكالة لأحد انواع التعليم على المجتمع ، والمعتمد على نوع آخر من التعليم ، قد بات أمراً لا يمكن انكاره . »

وتماثلت المدارس هي والهجرة والسياسة والازدهار الاقتصادي فيما أتت به من احياءات بوجود قيم بديلة وهيرارشية بديلة ، وبوجود التزامات نحو كيانات أخرى غير الجماعة المحلية ، فلقد يسرت فكاك الأفراد من قبضة هذه الجماعات المحلية ، وأضعفت قبضة العقائد الحضارية والسياسية التي لم تلق أى تحد ، في سبيل تدريب مريديها على الايمان بنسب آخر .

المراجع

- J. Albisetti, Secondary School Reform in Imperial Germany.
- K. Auspitz, The Radical Bourgeoisie : The Ligue de l'Enseignement and the Origins of the Third Republic 1866-1885, (1982).
- D. R. Brower, Training the Nihilists : Education and Radicalism in Tsarist Russia (1975).
- J. Chandos, Boys Together : English Public Schools (1899-1864) 1984.
- R. Gelder, Education in Provincial France 1800-1914 : A Study of Three Departments, 1983.
- J. S. Hurt, Elementary Schooling and the Working Classes 1860-1918 (1979).
- J. C. McClelland, *Autocrats and Academies : Education, Culture and Society in Tsarist Russia* (1979).
- J. A. Mangan, Athleticism in the Victorian and Edwardian Public School : The Emergence and Consolidation of an Educational Ideology (1981).
- D. G. Paz, The Politics of Working-Class Education in Britain 1830-1850.
- L. S. Struminger, What were Little Girls and Boys Made of ? Primary Education in Rural France 1830-1880 (1963).
- G. Weisz, The Emergence of Modern Universities in France 1863-1914 (1983).

دستور الامبراطورية الألمانية

جوردون كريج

يعد أوتو فون بسمارك من أكثر من جانب مؤسس الامبراطورية الألمانية . وتسببت مخاطراته الدبلوماسية في توريثه بروسيا في ثلاث حروب في الحقبة الواقعة بين ١٨٦٣ و ١٨٧٠ ، وطلت وحدة ألمانيا تحت زعامة بروسيا ، وقد عمل بسمارك زهاء عشرين سنة أو يزيد مستشارا لهذه الدولة ، غير أن بسمارك قد وضع أيضا دستور الامبراطورية الألمانية . وإذا توخينا الثقة فإن علينا القول بأنه قد وضع دستورين : أحدهما للنظام الكونفدرالي في شمال ألمانيا ١٨٦٧ ، والثاني للامبراطورية الألمانية التي أعلن انشائها رسميا في قاعة المرايا بفرساي ١٨٧١ . وترتب على هذا الدستور نتائج خاصة بألمانيا ، وأخرى خصت أوروبا في نهاية المطاف ، ولم تكن بالأقل أهمية فيما يتعلق بدبلوماسية بسمارك .

وكانت اللبساتير المكتوبة من بين الأهداف التقليدية للبرلمانيين السياسيين في القرن التاسع عشر بأوروبا . ولكن وكما استطاع بسمارك تحقيق الهدف الليبرالي لتوحيد ألمانيا بالاعتماد على المؤسسات المحافظة للجيش البروسي والنظام الملكي ، فإنه استطاع أيضا صياغة دستور مكتوب ساعد على حماية المصالح المحافظة ، وإنتاج المؤسسات المحافظة التقليدية السيطرة - بالقوة - على المؤسسات الليبرالية، وتحقق ذلك عن طريق وضع سلطات هائلة تحت إمرة الامبراطور ومستشاره ، وكان الرايشتاج (البرلمان) يتمتع بحق المناقشة والموافقة ، ولكن لم يكن من حقه سن أية قوانين ، وهناك سلطات محلية مهمة منحت لمختلف الولايات أو الحكومات الإقليمية ، مما أدى أيضا إلى حرمان الرايشتاج من ممارسة مبادراته المحتملة . ولعل الأهم من ذلك هو استمرار استقلال الجيش . ورغم احتياج التصديق على ميزانيته إلى موافقة الرايشتاج ، إلا أن الأمر انتهى بجعل مثل هذه الموافقة تشمل التصديق على ميزانية سبع سنوات .

نقلا عن كتاب Germany 1886-1945 تأليف Gordon A. Craig (١٩٧٨)

وچار المؤرخون والملاحظون الآخرون دوما حول لماذا لم يسع
الرايشستاج لزيادة سلطته ، وكان من بين التفسيرات الارث الخاص
بفلسفة هيجل السياسية ، وما يذكر عن اخفاق البرلمان البروسي في كبح
جذاج النظام الملكي والجيش قبل ذلك في ستينيات القرن التاسع عشر ،
والخوف الحقيقي مما قد يحدث لو ازدادت فاعلية الرايشستاج من اقدام
بسمارك والامبراطور بكل بساطة ، وعلى مسئوليتيها الخاصة ، وبلاستناد
الى الجيش ، على نشر دستور جديد ربما جاء أكثر نزوعا الى الاتجاه
المحافظ . عموما لقد أمسك الامبراطور بزمام السلطة وصنع القرار ،
وشاركة في هذا المضمار من اختصارهم من أعوانه الذين عينهم تعيينا
مباشرا ، وبذلك خلق موقفا كانت له عواقب خطيرة الشأن أثناء الأزمة
الدبلوماسية في صيف ١٩١٤ .

كان من بين الرسائل العديدة التي تلقتها برلين من الحكومات
الصديقة بعد الاعلان الرسمي عن انشاء الامبراطورية الجديدة ، رسالة
من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وفيها يهنئ الرئيس أوليس . س .
جرانت الحكومة الألمانية باسم الشعب الأمريكي على وحدة أراضيها ، كما
كانت تتطلع منذ أمد بعيد ، ويهنئها للقرار الذي اتخذته بالاقدام على القيام
بدور جديد عن طريق اتحاد فيدرالى على غرار الولايات المتحدة بالذات .
اذ يثبت هذا القرار الرغبة فى تحقيق تقدم سريع نحو الديمقراطية
وبركاتها ، كما بين الرئيس بأسلوب لا تعوزه الرقة .

ولابد أن تكون هذه التلميح الودودة قد أثلجت صدر الأمير
يسمارك ، بعد تلقيه الرسالة ، كما بين من تأكيده الرصين للزوار
الأمريكان عن تأثيره الشديد بدستور الولايات المتحدة ، عندما وضع مخططا
للدستور الألمانى . ولا يستبعد أن يكون قد ذهب الى ما هو أبعد من
ذلك ، عندما قرأ الدستور الأمريكى . غير أنه من الصعب اثبات استعارته
أى شئ من هذا الدستور . اذ كان التشابه الذى اكتشفه الرئيس جرانت
بين الدستوريين سطحيًا ، مثلما كانت نبوءته عن مستقبل الاتجاه السياسى
لألمانيا خاطئة .

بطبيعة الحال علينا أن لا نشهد فى القسوة على الرئيس الأمريكى ،
فلم يكن هو الوحيد الذى أخفق فى فهم دستور الامبراطورية الألمانية .
والحق أن هذا الدستور عندما بحث فى صورته الأصلية باعتباره دستور
شمال ألمانيا الكونفدرالية ، فشل بالمثل عند لا يأمن به من الساسة
الألمان من الذين اتهموا بحماية مصالح دويلاتهم فى فهمه . ولم يفهموه
الا بعد أن قبلوه . وأدركوا بعد فوات الأوان أنهم أساءوا تفسير بعض
عبارات سنرى كيف تركت أثرها عليهم فى القريب العاجل .

كانت الامبراطورية اتحادا مؤلفا من ثمانى عشرة دولة المانية مختلفة فى حجمها وأنظمة حكمها ، وتضم هذه الامبراطورية أيضا اقليما يدعى بأرض الراين الذى يشتمل على المقاطعات التى استولى عليها من الألزاس واللورين ، ويدير هذا الاقليم حاكم عام يمثل الامبراطور . وتتألف الحكومة الفيدرالية (الاتحادية) من سلطة تنفيذية تتمثل فى الامبراطور ومستشاره ومعاونيهما ومن المجلس الاتحادى (*) المؤلف من مبعوثى الدويلات التابعة للاتحاد ، وبرلمان (**) وطنى ينتخبه من لهم حق التصويت من الرجال ، عن طريق الاقتراع السرى .

وتتمتع السلطة التنفيذية الاتحادية بسلطات مهمة ، وبخاصة فى الجوانب التى قد تؤثر على حياة المواطنين ومصائيرهم . ويستطيع الامبراطور على مختلف جوانب السياسة الخارجية ، وله حق إبرام المعاهدات واقامة التحالفات ، وأيضا حق اعلان الحرب وعقد اتفاقيات السلام ، ويتولى الامبراطور بحكم منصبه كقائد أعلى للقوات المسلحة (***) - وهذه فقرة حار المشرعون فى تفسيرها وتعريفها - قيادة قوات جميع الدويلات الألمانية فى وقت الحرب ، ومعظم قوات هذه الدويلات فى وقت السلام (وان كان يمارس هذا الحق بصفته ملكا لبروسيا ، وليس بحكم منصبه الامبراطورى) - ومنعود الى هذه النقطة فيما بعد . ويتمتع الامبراطور بسلطة التعيين فى المناصب و بسلطات ادارية على قدر كبير من الاتساع والاهمية ، كحق اعلان الأحكام العرفية عندما تحدث اضطرابات أهلية . ويحق له فى حالات الطوارئ عندما تنشئ إحدى دويلات الاتحاد أن ينفذ ما يتواءم وصالح هذا الاتحاد ، فمن حقه أن يجرد هذه الدولة من ممارسة سلطاتها على أرضها ، ومن حقه فى السيادة ، وبالإضافة الى ذلك ، فإن له الحق فى تعيين مستشار الدولة وجميع العاملين الآخرين ، فى الحكومة الاتحادية ، وعزلهم ، وتأجيل انعقاد البرلمان ، وفرض دوراته ، واصدار جميع المراسيم الاتحادية ، وتنفيذها ، وأخيرا فإنه يتمتع بحق تفسير الدستور . وهذا امتياز ليس بالمقدور المغالاة فى تقدير أخطاره ، وزعم بسمارك أحيانا فى سنواته الأخيرة ، عندما نفذ صيره من القيود المفروضة على سلطاته ، أنه بحكم وضعه للدستور يعد المفسر الوحيد له ! ، غير أن المستشار لم يزد - فى الحق ، عن كونه معاونا للامبراطور ، كما ثبت

Bundesrat.

Reichstag.

Kommandogewalt.

(*)

(**)

(***)

مما حدث بيسمارك ، وزعم لاباند (*) - أحد الثقات في تفسير هذه الوثيقة :
لغامضة ، أن الحاكم (الامبراطور) هو الوصى على الدستور .

وللحكومة الاتحادية التي تعمل من خلال البرلمان والمجلس الاتحادي ،
سلطات تشريعية في مجال السياسة التجارية وسياسة التعريفية الجمركية
ومسائل النقل والاتصالات والاشراف على النظام المصرفي وصك النقود
وسوق التعامل الدولي والمقاييس والموازين ومنع الامتيازات وبراءات
الاختراع ، وحق الاستشارة ، وباقي الأمور المهمة المرتبطة بتحقيق الصالح
الاقتصادي لألمانيا .

ومن حقها جباية ضرائب الطرق والأسرة وضريبة المبيعات على بعض
السلع كالسكر والملح والطباق والجمعة والمشروبات الروحية ، والحصول
على الإيرادات المتحصلة من البريد والتلغراف .

ويتضح من هذا البيان أن الدويلات المنضوية تحت الاتحاد قد
استبقت سلطات كبيرة . إذ كان من حقها التشريع في جميع المسائل
المؤثرة على الحياة اليومية للمواطن ، وسلامته ، ورفاهية أسرته ، ومن ثم
كانت هناك مجالات مهمة في الحياة العامة كالتعليم والخدمات الصحية
والشرطة خاضعة لاختصاص دويلات الاتحاد أكثر من خضوعها للحكومة
الاتحادية . ويصح هذا الحكم أيضا عن الحقوق المدنية . ويجب أن يلاحظ
- بالمناسبة - أنه من الجوانب المثيرة للدهشة في النظام الامبراطوري
اختلافه عن دساتير باقي الأمم ، وعن دستور ١٨٤٩ أيضا ، لأن بيسمارك
لم يضمنه أي نص عن حقوق المواطنين وإعلان الحريات الأساسية ،
وبالإضافة إلى ذلك ، فقد ترك أمر تنفيذ معظم القوانين التي تقرها الحكومة
الاتحادية إلى حكومات دويلات الاتحاد ، وللإجراءات الإدارية التي تتخذ
لهذا الهدف . وتتولى السلطات المحلية جباية ضرائب الإيراد العام والطرق
ورسوم البريد المستحقة للحكومة الاتحادية ، وتسلمها لهذه الحكومة ،
هذا يفسر سر عزوف دويلات الاتحاد عن تحمل تدخل الحكومة الاتحادية
في المسائل المحلية . ومن ناحية أخرى ، فإن دويلات الاتحاد تتمتع
بامتيازات لا تحظى بها الحكومة المركزية ، لأنها هي وحدها التي تجبى
الضرائب المباشرة . وقد حاولت الحكومة الاتحادية - عبثا - إجراء أي
تعديل لهذا الامتياز ، عندما تفاقمت الصعوبات المالية إبان عهد حكم
الامبراطور فياهلم .

ولم تكن دويلات الاتحاد متساوية في حقوقها ، فلقد انتزعت
الدويلات الأكبر مميزات معينة من بيسمارك نظير اشتراكها في الاتحاد ،

فاعفيت جميع دويلات شمال ألمانيا ، والتي لم تكن مشتركة في كونفدرالية
شمال ألمانيا من الضرائب المفروضة على الجعة والمشروبات الروحية مما
ساعدتها على الحصول على نصيب الأسد من الضرائب القومية ، وسمح
لمملكتي بافاريا وفورتمبيرج بالاحتفاظ بأنظمتها الخاصة بالسكك الحديدية
والبريد والتلغراف ، ومنحت امتيازات عسكرية لم تمتد لى تشمل
الدويلات الأخرى ، وكانت فورتمبيرج تدير شئون جيشها وتعين معظم
ضباطه ، بالرغم من خضوع كل ما يظهر من وحدات جديدة للجيش
البروسى ، واحتفظت بافاريا بإشرافها الكامل على القوات المسلحة في فترات
السلام . واستمر وجود وزارة للحرب بها ورئاسة لهيئة الأركان رغم
خضوع أنشطتها خضوعا دقيقا للقوات المسلحة البروسية . وأصررت
الحكومة البافارية أيضا على الاحتفاظ ببعض الحقوق في التمثيل
الدبلوماسى . وأنشأت لجنة للشئون الخارجية لمساعدتها على تحقيق
رغبتها في التأثير على وضع السياسة المرسومة . ويشترك في هذه اللجنة
عضوان معينان وعضوان مختاران . على أن الاستجابة لهذا المطلب لم
تكن ذات أثر يذكر ، لأن بسمارك لم يكن من المؤمنين باضطلاع اللجان
بمهام السياسة الخارجية ، ولم يستشر اللجنة الا مرة واحدة خلال
عشرين سنة من عمله مستشارا امبراطوريا .

ولقد أوغدت دويلات الاتحاد مبعوثين للاشتراك في المجلس الاتحادى .
وكان من الميسور لهم - نظريا - الاستعانة بهذه الهيئة كوسيلة لتعديل
الدستور لصالحهم ، عندما كان يعنيه القيام بذلك . غير أن أهم ملامح
لافت للانتباه في المجلس الاتحادى هو المركز القوى الذى تمتعت به
بروسيا ، فبفضل مساحتها وتأثيرها على ألمانيا في شمولها ، فإنها كانت
تملك ١٧ صوتا من بين الأصوات الثمانية والخمسين في الهيئة . وكان
هذا الامتياز يكفى ويزيد لسد الطريق أمام أية تعديلات دستورية تجرى ،
وتكون في غير صالحها ، وكان بسمارك في البداية دائم الوثوق من وقوف
بروسيا في صف الحكومة الاتحادية في المسائل الأساسية ، وفى احتمال
اعتراضها على أى تعديل دستورى مقترح يدمر الرايخ الذى ساهمت في
إنشائه .

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد احتفظت دويلات الاتحاد بسلطات
واسعة جدا : وأقلقت هذه الظاهرة المدافعين عن وجوب تمتع الحكومة
الاتحادية بقدر كبير من التحكم المركزى . فقد شعر بالفزع المؤرخ هينريش
فون ترايتشكه - وهو من المكافحين المتحمسين عن فكرة الدولة الموحدة
الخاضعة لسيطرة بروسيا - من عبارات التحفظ التى وردت في اتفاقيات
كونفدرالية شمال ألمانيا وحكومات جنوب ألمانيا ، وأحس بأن هذه الأوضاع

قد تؤدي إلى عرقلة القوى الداعية للتجزئة والتفرقة التي وُكِّلت لها في طريق تحقيق الوحدة الفعلية لجملة الدولة الموحدة ، وما يعرف عن بسمارك بوصفه سياسيا عمليا ، أنه أقنع على هذه التنازلات باعتبارها أكثر السبل فاعلية لتحقيق مقاصد حكومات الجنوب () وكما قال أحدهم : « الفتاة قبيحة ، ولكن لا بد من زواجها » () ولعل هذا التفسير يرد على من تصوروا موافقة بسمارك على الوحدة مانحا يؤخذ عليه . وشعر بسمارك بالافتقار لأن الامتيازات لن تكون كبيرة ، بغض النظر عن الإعفاءات المالية . وأقره على ذلك أحد ساسة بافاريا المرموقين (*) عندما قال أنه كان من الأحكم للحكومة أن تعنى - لأسباب عاطفية - بدرجة أقل بالمؤسسات البافارية الخاصة ، وأن تهتم أكثر من ذلك بزيادة التأثير السياسي في جميع أمور الاتحاد التي قد تؤثر على مملكة بافاريا .

وبعيدا عن اهتمام بسمارك بالمشكلات العملية ، التي يتعين حلها على الفور في الشهور الأخيرة من سنة ١٨٧٠ ، فقد كانت لديه أسباب أخرى للتوجس من حقوق دويلات الاتحاد . فلم تنفرد دويلات جنوب ألمانيا بالنظر إلى إقامة المؤسسات الفيدرالية بعين الشك والغيرة على امتيازاتها والساليب التقليدية . فبمعنى ما ، تماثل البروسيون والبافاريون في مناصرتهم للتجزئة والتفرق . ولم يتحمسوا للذوبان في الرايخ على نحو يزيد عما كشفوا عنه ١٨٤٩ ، ولقد تجاوب بسمارك هو وهذا الاتجاه ، وإن رجع ذلك لأسباب انفرد بها . إذ رأى أن الوجود المستمر داخل الرايخ لدويلة بروسية ممتدة الأطراف - تحتكر السلطة العسكرية احتكارا فعليا ، وتمتع بمكانة متميزة في المجلس الاتحادي تفوق مكانة باقي دويلات الاتحاد ، ولها نظام برلماني خاص بها يستند إلى نظام انتخابي بعيد عن الديمقراطية ولكنه يفسح طبقة الأغنياء وأصحاب التجار - هو أفضل ضمان ضد احتمال خضوع الحكومة الاتحادية للقوى الليبرالية والديمقراطية . ومنحت الحكومة الاتحادية في النظام الدستوري بسمارك قلدا كاثليا من النفوذ (وعلى الأخص بمساندة بروسيا) للحفاظ على انفرادية (**) الجنوب ، داخل دولة آمنة ، بينما سمح لبروسيا بالاحتفاظ بقدر كاف من القوة لحماية النظام الملكي الدستوري عن طريق تشجيع التجارب الخطيرة التي تجربها الحكومة الفيدرالية . وكان وضع دستور يستبعد منه مشايعة حقوق دويلات الاتحاد من الهام تصور بسمارك لنظرية تجمع بين القمع والتوازن ، وإن كان ما ظهر في هذه النظرية من أحكام ربما أزعج مونتسكيو صاحبها الأصلي . فكما كتب أحد المفكرين (***) : في

Prince Hohenlohe — Schilling-Greif

(*)

Particularism.

(**)

Otto Pflanze.

(***)

بمنصب بسمارك ، يتحقق التوازن وكبح جناح باي المضبوط من طريق المضبوط المضادة ، كإحدى تعادلي الجدا ، المركزية اعتمادا على الحقوة المنووجة . المويطات بالاتحاد ، واعدات تعادلي دويلات بالاتحاد من طريق الحكومة الاتحادية ، وكبح جملة الحكومة الاتحادية بوساطة بروسيا ، وللازمة عن طريق الانسحاب ، وللمبرلمان بالاستعانة بمختلف المؤثرات القانونية والسيكولوجية المشتركة في صنع النظام الامبراطوري .

(٢)

بمقدورنا الحصول على حجة دامغة ومستصوية لا تواجه باي اعتراض لا يمكن تذليله ، لتأييد القول بأن الامبراطورية الألمانية ١٨٧١ كانت من صنع الشعب الألماني ، أو لاقرار الظن بأن الرايخ الألماني ما كان ليظهر للوجود لولا الاصرار الشعبي المتنامي على اقامة الاتحاد . وليس من شك ان ادعاء الشعب بأحقته في نسبة الفضل اليه في اقامة هذا الاتحاد كان أقوى من زعم الأمراء الألمان الذين عرفوا بالانانية وضيق الأفق منذ قرون طويلة ، والذين ثبت افتقارهم الى الاحساس القومي ، من مشاجراتهم المهلكة الدائمة ، وعدم توقفهم عن التحالف مع القوى الأجنبية . غير أن بسمارك كان قليل الاهتمام بدورهم التاريخي الفعلي في صنع الاتحاد عندما أعلن مولد الرايخ في فرساي بطريقة تياترية . ولم يكتف بسمارك بمنح الأمراء شرف تقديم التاج الامبراطوري لفيلهلم الأول ملك بروسيا (الذي لم يظهر سوى أوهى قدر من الامتنان لهذا الشرف العظيم ، ولكنه قد اختلف على أية حال عن أخيه ١٨٤٩ ، فلم يرفض الهدية) . غير أنه استند الى هذه الايماءة والحيلة لاثبات نظرية دستورية تزعم أن الرايخ من صنع البيت المالكي لألمانيا .

وباختصار ، لم يكن صوت الشعب في الامبراطورية الجديدة ضربا من الهراء ، وان كان لم يسمح للشعب الألماني بالمطالبة بالسلطات الخطيرة التي سبق أن طالب بها الشعب الأمريكي مثلا عندما أثبت دوره في تحقيق الاستقلال في ديباجة دستورهم . وحدث عكس ذلك . فقد رثى من البداية وجوب ايضاح أن الرايخ منحة قدمت للشعب الألماني ، واذا لم تقدر هذه المنحة تقديرا صحيحا ، فإنها ستسحب . وكانت النتيجة غير المعذنة للنظرية الدستورية لبسمارك - والتي ظلت مستحوذة عليه طوال سنين حكمه - أنه اذا اقتضى الأمر ، واذا لم يثبت الشعب الألماني بالفعل الولاء والامتنان اللذين من حق الزعماء الألمان توقعهما ، سيكون بمقدور الأمراء آنئذ فض ما جاءوا به أو إعادة تشكيل الاتحاد على النحو الذي يروقهم .

« وفي سنوات وضع الدستور ، كان بسمارك ما يزال يثق بقدر معقول في ولاء الجماهير العريضة من الشعب الألماني . ورغم أنه كان يفتن البصر عما يقال عن سيادة الشعب ، إلا أنه لم يتردد في إعطاء هذا الشعب الذي كان على الدوام الأداة الرئيسية في تنفيذ جميع القرارات المصرية مثل هذه السيادة ، يعنى حق الانتخاب . وعندما أعلن لأول مرة تأييده لمنح حق الانتخاب للشعب ، كان ذلك خلال المراحل الأخيرة من الصراع السياسى مع النمسا . وكان معنيا آنثذ أساسا باتخاذ موقف فى المسائل القومية قد يزعج خصومه ، ويساعد على ضم الرأى العام لمؤازرة القضية البروسية . ولكن بعد أن استنفلت المناورة ضد النمساويين أغراضها ، فانه لم يعدل عن رأيه ، لأنه ، كما يفترض ، كان يعتقد فى امكان الاعتماد على الجماهير ، وتجاربها الغريزية بعد التوصل الى ولائها . وكتب ١٨٦٦ :

« فى اللحظات الحاسمة ، ستقف الجماهير فى صف النظام الملكى بغض النظر عن اتباعها للاتجاهات الليبرالية أو الاتجاهات المحافظة . فهل يحق لى اعتمادا على خبرتى الطويلة أن أعبر عن ذلك بالقول بأن النظام المصطنع القائم على الانتخاب غير المباشر والطبقى أخطر من حق الانتخاب المباشر والعام ، لأنه يحول دون حدوث احتكاك بين السلطة الأعلى والعناصر السليمة التى تمثل صميم كتل الشعب . وفى أى بلد لديه تقاليد نابعة من إيمانه بالنظام الملكى ومشاعر ولائيه ، سيكون الاقتراع العام المعتمد على استبعاد تأثير الطبقات البورجوازية الليبرالية عاملا مساعدا أيضا يودى الى انتخابات مؤيدة للنظام الملكى » .

وأدى شعوره الذى اتخذ هذه الصورة ، وتصوره تبعا لذلك أن دستور شمال ألمانيا الكونفدرالى ودستور الرايخ الذى سيحل محله سيسفران عن انتخابات برلمانية لابد أن تجيء كنتيجة لاقتراع جميع المواطنين من الذكور الذين بلغوا سن الخامسة والعشرين ، أدى الى اجرائه عملية التصويت سرية .

لقد كان هذا الاجراء أقل ثورية مما اعتقد فيلهلم الأول عندما اقترح بسمارك هذا الاقتراح وعرضه على الامبراطور لأول مرة . فلم يخطر ببال بسمارك قط السماح بشغل البرلمان القومى بأعضاء حقيقيين من الطبقة الدنيا ، ممن يحتمل أن يكونوا شديدى الوعى بأحوال أقرانهم ، ومن العاقدين العزم على تصحيح أوضاعهم ، وحال بسمارك دون تحقق هذا الاحتمال باللجوء الى حيلة بسيطة ، هى اشتراط عدم حصول أعضاء البرلمان على مرتبات ، كما أنه حد من سلطات البرلمان الى درجة خطيرة . وادا سلمنا بضرورة الحصول على تصديق البرلمان على جميع التشريعات ، إلا أنه

من يتمتع الا بأوهى قسرة على المبادرة . ولن يسمح له في معظم الأحيان بالنظر الا في المسائل التي يعرضها عليه المستشار والمجلس الاتحادي ، وبوسعهم أن يعدل مسودات التشريعات التي لا يرضى عنها ، أو يعطلها ، أو ربما يوقفها ، وإن كانت الحكومة في الاجتغال الأخير اذا اقتنعت بأهمية المسألة موضع البحث ، فإنها تبادر بتنفيذ رأيها ، ولا يأسى آتئذ من حل البرلمان ، وأجراء انتخابات جديدة ، لا يستطيعها البرلمانيون عادة . وليس للبرلمان أية سيطرة قانونية على المستشار ، بالرغم من أن الدستور قد وصف شاغل هذه الوظيفة « بالوزير » المسئول أمام البرلمان ، وأن رفض سياسته لابد أن يؤدي بالضرورة الى تخليه عن منصبه ، كما يحدث في الممارسة الدستورية الانجليزية . كما أن البرلمان الألماني لا يتمتع بأية صورة من صور حق الاستجواب الذي قد يرغب المستشار على تفسير سياسته والدفاع عنها باعتبار هذه المسألة تهم الأعضاء . والحق لقد كانت هناك جوانب مهمة من السياسة مغلقة في وجههم بالفعل ، وعندما شغل بسمارك وظيفة المستشار ، شجع البرلمان على الاهتمام بجميع جوانب السياسة الاقتصادية ، ولكنه تصدى بقوة لأية مجادلات تدور حول مدى امتداد سلطات البرلمان أو شطحاته الى مجالات من السياسة الخارجية والعسكرية رأى أنها تقع في دائرة اختصاص مكتب المستشار والتاج . وفيما يتعلق بالجوانب العسكرية ، كانت سلطة البرلمان في الاشراف على النواحي المالية تافهة في معظم سنوات عهد بسمارك .

ورغم القيود التي فرضها بسمارك على البرلمان ، الا أنه اعتبره دكنا مهما من أركان نظامه الدستوري ، ففي الوقت الذي لم تكن فيه القوى التجزئية أو الانفرادية قد أخضعت أخضاعا تاما ، نظر الى البرلمان كرمز حي لوحدة الأمة التي اكتسبت بعد لاي ، وبذلك يكون قد نسبت اليه دور القوة التنظيمية للأشتات المتناثرة . وأدى البرلمان في توجيه العلاقات الخارجية الألمانية دور المرأة العاكسة التي يمكن الاستعانة بها ينعكس عليها من صور لمعرفة صدى التوجهات والأهداف الألمانية . وكان بسمارك قد أثبت بالفعل أثناء قمة المشاحنة حول الدوقية الكبرى للوكسمبرج ١٨٦٧ كيفية الاعتماد على المساجلات البرلمانية في التأثير على الرأي العام الخارجي . وفي مناسبات عديدة ، أثناء اضطراره بأعمال المستشارية ، لجأ الى نفس الوسيلة . وأخيرا ولما كان يتمتع بقدرة أفضل من أي شخص آخر على التعامل مع البرلمان وضمان مساندته لسياسة الحكومة ، فإن البرلمان سيزود بسمارك بوسيلة يثبت بها للامبراطور - الذي يكفل رضاؤه استمرار بقائه في منصبه - تعذر الاستغناء عنه ، وشبه بسمارك البرلمان الحسن السير والسلوك والمتعاون بصك التأمين : لم تضعف صحة هذا التشبيه في عهد من خلفوه في المنصب .

ولما كان الحال هكذا . . فلا بد من أن يشاركتهم في حل هذه المسألة . .
يبدو أن البرلمانيون أن المستشار أكثر اعتمادا عليهم مما قد يبدو من نص
الدستور ؟ ولماذا لم يتبعوا تكتيكات المقاومة العنيفة . . التي لا يلزم أن
تبلغ حد المصخب ، لزيادة نفوذ البرلمان في الدولة ؟ فيجب أن لا ننسى
في حرية الحوار والموافقة لم تكن من السلطات المفقطة . وكانت هناك
شروط قانونية لحمايتها ، كعلم جواز تأجيل انعقاد الدورات بصورة
مطلقة ، ووجوب إجراء انتخابات جديدة فور حل البرلمان .

وأما القول بعدم حدوث التجاء مرة أخرى إلى التعطيم . . وأنه أثبت
عدم فاعليته عند اختياره ، فإن بالاستطاعة إثبات صحة هذا الزعم بقدر
كبير إذا رجعنا لطبيعة عضوية البرلمان ، ونظرة الأعضاء إلى دوره في
الدولة ، فلم يحصل البرلمانيون الألمان بصفتهم الجماعية - إطلاقا - على
الثقة بالنفس والشعور بتضامن الفريق ، أي المميزات التي كان يحظى
بها أعضاء برلمان إنجلترا ، أو أعضاء الكونغرس في الولايات المتحدة ،
أو ما كان ينعم به في ألمانيا الجهاز البيروقراطي وضباط الجيش . وعلى
الرغم من شغل كثيرين من أصحاب المواهب لمقاعد البرلمان ، إلا أن هذه
النوعية كانت استثناء ، بين أغلبية الأعضاء من أرباب العقول الدارجة .
فلم يجتذب البرلمان صفوة أبناء البلاد ، ومن انضموا إليه لم يرتفع
شانهم ، على ما يبدو . وفي بواكير أيامه ، كانت نسبة المرموقين والهواة
الأثرياء بين صفوفه عالية . وفيما بعد حل مكان هذا الصنف من
الشخصيات عدد متزايد من السياسة المحترفين المتفرغين ، الذين كانوا
في الأغلب يخدمون مصالح اقتصادية معينة . وباستثناء ما تعرضت له
نظرة البرلمانيين من ضيق ، فإن التغير لم يترك أثرا ملحوظا مهما ، فلقد
اشتركت برلمانات السنوات التي أمضاها بسمارك هي وبرلمانات الحقبة
السابقة للحرب العالمية الأولى في الافتقار الملحوظ للحماسة لما يؤمل من
تحد للأنظمة السياسية - يعني التاج وعمالته - في المسائل ذات الأهمية
السياسية . ولعل هذا الاحجام عن السعي والكفاح من أجل توسيع
نطاق النفوذ من الأمور التي تقبل الفهم ، فيما سمى ببرلمان سبعينيات
القرن التاسع عشر . إذ كانت ذكريات الصراع البروسي الدستوري في
ستينيات القرن ما زالت عالقة بالأذهان ، وراودت الكثيرين من الأعضاء
الذين كانوا أعضاء في هذا البرلمان فكرة إعادة الكرة ، أن هذا يفسر
الموقف السلبي للبرلمانيين القوميين ١٨٧٤ ، عندما نوقشت مسألة الميزانية
العسكرية (التي كانت في ذاتها من الأحداث التي تذكر عن ستينيات
القرن) غير أنه من المدهش أنه في الحقبة التالية لم يحدث أي تراجع
عن احجام البرلمان عن المطالبة بدور في تقرير احتياجات الصالح القومي .

ولا ينبغي أن يحكى من البرلمانيين لم يكونوا هم أنفسهم من شرعية مثل هذا المطلب ، ولهذا السبب ، ظل البرلمان يمثل كيانا له دور قائم على ردود الفعل أكثر من استناده على الأدوار الفاعلة ، وظل مجرد هيئة تشريعية عاجزة عن التوجيه ، وهي السمة التي اتسمت بها سياسة ألمانيا بعد افلات الزمام من قبضة بسمارك القوية . وترجع هذه الحالة الى عدم ايمان أعضاء البرلمان بقدرتهم على تحمل المسؤولية .

وربما شعرنا بانغراء يدفعنا الى نسبة المخلالة في القصور المتواضع لأعضاء البرلمان لدورهم الى نجاح (الفيلسوف هيجل) في اقناع الألمان بأن مؤسسات الحياة المدنية ، وأشكالها لا قيمة ضرورية لها ، الا فيما يتعلق بعلاقتها بالقوة ، ولقد عرض هيجل هذا الرأي مدعيا بحجة شديدة التعقيد وردت في كتابه فلسفة القانون (*) (١٨٢١) عندما أدرك قصور الأسرة من ناحية ، وقصور المجتمع ، من ناحية أخرى ، وحرص على تجاوزتهما والعلو عليهما ، وتمشيا مع العبارات التي صاغها هيجل ، فإن الدولة تظهر أحيانا في هيئة مجردة تكاد تثير الضحك ، وتنطبق عليها الكلمات التي أضحكت لاسال في شبابه : « أي حقيقة الإرادة الجوهرية ، التي تتوافر لها في درايتها بذاتها عند تعميمها كمعقولة في ذاتها ولذاتها ، . بيد أن هذا الوصف (المضطرب) قد جاءت في أعقاب فقره تميزت من الناحية السياسية بقوة ايحائها ، وبما تنذر به من ويلات ، عندما فرق هيجل بين الدولة والمجتمع المدني بقوله :

« لو حدث خلط بين الدولة والمجتمع المدني ، وتحدد معناها اعتمادا على دورها في توفير الأمن وحماية الممتلكات والحرية الشخصية ومصالح الأفراد ، فإنها بناء على ذلك تكون الغاية القصوى التي يتحد الأفراد من أجلها . وسيتبع ذلك أن يبدو اتصاف أي شخص بأنه عضو في الدولة أمرا تعسفيا ، غير أن الدولة لها علاقة مختلفة بالفرد ، لأن الدولة تمثل الروح الموضوعية ذاتها . ويكتسب الفرد صفته الموضوعية وحقيقته وأخلاقيته بقدر انتسابه اليها ، فالوحدة على هذا النحو هي الجوهر الحق والغاية الحق . وما يجمع الأفراد بصفته الفردية هو حقيقة عيشهم حياة عامة ، وما يترتب على ذلك من رضا خاص ونشاط خاص ، ونوع من السلوك يتخذ هذا الجوهر وهذه الموضوعية العامة كنقطة بدء ونتيجة » .

ولقد أشار دارندورف الى أن ما يفهم من هذه السطور ضمنا وعلى نحو حاسم هو أن المجتمع المدني - بحكم تكوينه من جملة أفراد ذوي مصالح وأهواء متباينة ، ومن العديد من الأحزاب والتجمعات المتنافسة

(*) كتاب Grundlinien der Philosophie des Rechts (١٨٢١) .

على المنفعة - عاجز عن اخراج دستور مرضى للمجتمع الانساني . ويلزم لتحقيق ذلك شيء آخر . انه شيء يعلو فوق تكوينات المجتمع المدني علوا كاملا . وهذا الشيء الآخر هو الدولة .

وليس من شك ان ما حدث من تأخر طويل في تحقيق الألمان لوحدهم ، كان من المحتم أن يعطى وزنا جديدا لهذه النظرية . وكان بمقدور جوستاف روملان (١٨٧٠) أن يزعم : « أن نظرية هيجل في التاريخ قد أثبتت صحتها الآن » ، وفي مثل هذه الأحوال ، كان من اليسير القول بوجود هوية بين الدولة والتاج البروسي ، والآليات التابعة له كالجهاز البيروقراطي والجيش - بصفة خاصة - وأيضا النظر الى جميع الفاعليات الساعية للطعن في سلطانها كمجرد مظاهر لهذا التشتت ، الذي اتصف به المجتمع المدني عند هيجل ، وألمانيا في مرحلتها السابقة لمرحلتها القومية ، ولعله لم يكن هناك من هو أكثر تأثيرا في اشاعة ما عاد سياسيا من وراء التماثل من هينريش فون ترايتشكه ، والذي كان كتابه عن التاريخ الألماني اسهاما بليغا في تأييد التاج البروسي - أفضل عمل مثل الروح القومية الجديدة - كما أحدثت محاضراته الجماهيرية عن السياسة في جامعة برلين تأثيرا عميقا متواصلا على الجيل الذي نهض بالمسئولية السياسية بعد ١٨٩٠ . وعلى الرغم من أن ترايتشكه قد تباعد عن المقدمات الفلسفية لحجة هيجل ، الا أنه كرر جوهرها ، عندما رفض مجتمع التعددية ، ومن ثم فانه لم يتردد في محاضراته عن القول :

« لن يستطيع القانون والسلام والنظام التحقق لتعددية المصالح المتضاربة الأبدية من داخل هذه الأشياء ، ولكنه يتحقق فقط عن طريق السلطة التي تعلو فوق المجتمع والمسلحة بقوة قادرة على ترويض الأهواء الوحشية للمجتمع . هنا تتمثل لنا واضحة صورة القدسية الأخلاقية المعنوية للدولة . فالدولة هي التي تحقق العدالة والتسامح المتبادل في عالم الصراع الاجتماعي » .

هنا تحولت مجردات هيجل الى الحقيقة القصوى . وكما قال دارندورف بحق : لقد كانت النتائج المستورية المنطقية أمورا لا مفر من وقوعها . وبدا للهيجليين الجدد والمستمعي ترايتشكه البرلمان داما لصراع المصالح وللعداء المتبادل للفرقاء الذي دمر الوحدة الحقة ، ومن ثم لم تكن هناك سلطة قادرة على حسمه غير السلطة الوحيدة التي كانت غير منحازة بحكم طابعها ، يعني التاج . وأيا كانت المزايم التي ردها المتفقهون في القانون من أمثال ياول لاباند عن أهلية البرلمان وجدارته الا أن سلطاته قد تعرضت للهوان والسمار من البداية في نظر من قبلوا لأسباب عاطفية وعقلانية الاتجاه المحافظ القومي الجديد الذي دعا اليه ترايتشكه . ولسوء

الحظ ، فحتى بعد منطفئ القرن ، عندما تضاعفت سلطة التاج من اثر
مسئلك فيلهلم الثاني ، كان السواد الأعظم من البرلمانيين في ألمانيا يقبلون
فلسفته ، مع ترك الاشتراكيين جانبا .

(٣)

في المباحثات التي دارت في قاعة المرايا بفرساي في ١٨ ابريل
١٨٧١ لم يبرز دور مبعوثي برلمان كوتفدرالية شمالي ألمانيا ، كما تبين
بالفعل ، على أنهم كانوا رغم شعورهم بالمرارة نوعا ، قد استطاعوا التعبير
عن ارتياحهم لما لاحظوا وراوا ، ولعل هذه المشاعر كانت متأثرة بالجو
الإحتفالي الذي تشابه الى حد ما مع روح الاستعراضات العسكرية ، فبدأ
أشبه بنراجع عظيم(*) مصحوب بانشاد الجنود لبعض أبيات من المزامير ،
بناء على الأوامر الصادرة اليهم . وأجريت طقوس الإحتفال طبقا لما جاء
في كتاب الكنيسة العسكرية (**) ، وبعد أن أعلن الامبراطور وحلة ألمانيا
صدحت الفرقة الموسيقية العسكرية ببعض المارشات(***) والمصحوبة بغناء
هادر . وارتدى الجميع باستثناء أعضاء البرلمان زيا عسكريا تتدل منه
السيوف وتحلى صدره الأوسمة والنياشين ، ولم يكن بسمارك استثناء
من ذلك ، وعلى الرغم من اشتباكه آنثذ في صراع حاد هو وهلموت فون
مولتكه رئيس هيئة الأركان ، بعد أن تعرض مبدأ السيادة المدنية للخطر ،
الا أنه لم يسمح لهذه الواقعة بالتأثير في ولعه بالمظاهر العسكرية ،
فارتدى سترة زرقاء محلاة بشعار رتبة الفريق والوشاح البرتقالي اللون
لوسام النسر الأسود ، وارتدى حذاء برقبة عالية ، وحمل خوذة مدببة
في يده .

وعلى العموم لقد كان استعراضا جريئا . ولكن يكفينا فقط التحديق
في اللوحة التي رسمها أنطون فون فرنر ، كي ندرك مغزى الملاحظة الذكية
التي فاه بها السياسي الكاثوليكي لودفيج فندهورست عندما قال : « لعلها
مصادفة أن تكون فرساي محل ميلاد الحكم العسكري المطلق » . مثلما
كانت موطن الحكم الذي ازدهر في عهد لويس الرابع عشر ، وهل كان
بالامكان كبح جماح السادة المحاربين المتعجرفين الذين رسمهم فرنر ملتفين
حول اله الحرب ؟ » .

Grosser Zapfenstreich

(*)

Militär-Kirchenbuch

(**)

Heil Dir im Singerkranz . مارش فريدريك الأكبر .

(***)

Hohenfriedburg.

ان كل من درس الدستور ودار في ذهنه هذا السؤال لن يتلقى
 كاجابة عليه سوى اعادة تأكيد بسيطة : فيفض النظر عن مواد الدستور
 التي وضعت زمام القوات الاتحادية بين يدي الامبراطور . فان اهم التدابير
 الاحتياطية يمكن الاحتذاء اليها في البنود الواقعة بين البند ٦٠ والبند
 ٦٣ . اذ نص البند الثاني : « على قيام الامبراطور بتحديد قوة الجيش
 في فترة السلام ، وتكوين الجيش وتوزيعه » (*) ولا يخفى ان واضح
 الدستور قد قصد بذلك تجنب نوع المشاجعات البرلمانية الخاصة بتنظيم
 الجيش ، والتي احدثت ازمة دستورية في ستينيات القرن التاسع عشر .
 وكما يتضح من روح هذا البند ، فلعله قد منح الامبراطور شيئا اشبه
 بالتوقيع على يياض على كل شيء يرغب الاقدام عليه عن طريق جيشه ،
 ومن جهة اخرى ، فقد كان الامبراطور مقيدا بما ورد في البند ٦٠ من
 الدستور ، الذي نص على ان حجم الجيش في وقت السلام يتحدد بمعرفة
 القانون . ولا شك ان هذا المعنى قد اتاح الفرصة للبرلمان لممارسة سيطرة
 كبيرة على القوات المسلحة ، وبخاصة اذا لاحظنا اصرار أعضاء البرلمان على
 اعادة النظر - دوريا - في القانون الذي يحدد قوة القوات المسلحة
 وميزانيتها الملحق بها

ولقد قررت الحكومة منع مثل هذا التمادي في استغلال ما جاء في
 البند ٦٠ ، وفي المناقشات التي دارت في اجتماع الناخبين في كونفدرالية
 شمال ألمانيا في ربيع ١٨٦٧ ، بذل بسمارك جهدا شاقا لتوطيد مبدأ
 وجوب حساب عدد الجيش والاعتمادات - آليا - بالنسبة لعدد السكان .
 ولو قبل هذا الاقتراح فانه كان سيؤدي الى استبعاد مناقشة المسائل
 العسكرية بطريقة فعالة من اختصاصات البرلمان . وكافح المبعوثون
 الليبراليون كفاحا مريرا مما دفع بسمارك تحذوه الرغبة في عدم تعريض
 الدستور في جملته للخطر الى الموافقة على قبول حل وسط ، هو ما أصبح
 يدعى « بالميزانية الحديدية » ، التي اشترطت ان يكون حجم الجيش حتى
 ٣١ ديسمبر ١٨٧١ (١/١) من عدد السكان ، وان تمنح الحكومة اعتمادات
 (بواقع ٢٢٠ تالر عن كل جندي) تحت السلاح . وفي ١٨٧١ ، امتد
 العمل بهذا القانون ثلاث سنوات اخرى ، وان كان رؤساء الجيش لم
 يقنعوا بذلك ، اذ كانوا قد وطدوا العزم على تعزيز اعتماداتهم العسكرية
 والتحرر التام من تدخل البرلمان . وفي ١٨٧٤ ، واعتمادا على الدعم الكامل
 من الامبراطور ، سعوا لحل المشكلة حلا حاسما . وبناء على الحاحهم ،
 أحالت الحكومة الى البرلمان مسودة قانون يحدد عدد أفراد الجيش
 (٤٠١٦٥٩) على أن يلتزم بمراعاة هذا العدد في أوقات السلم ، الى

أن يحين الوقت لتعديله بمعرفة الحكومة . وقدم مولتكه هذا القانون
- آملاً بلا مرأى - أن يتأثر به المبعوثون ، لصدوره من شخصية عرفت
ببطولتها وتحققها للنصر (*) وهذا مبرر كاف يحول دون تعرض هذه
الرغبة لآى اعتراض .

غير أن هذه الحيلة لم تفلح . فلقد ظهرت مقاومة قوية لصدور مثل
هذا القانون الدائم فى جميع المعسكرات ماعدا المعسكر المحافظ . ولاحظ
بوادى موقف أشبه فى بعض جزئياته بالصراع الذى تشب بين التاج
والبرلمان وبلغ ذروته ١٨٦٢ ، بيد أنه بدا الحل الأسهل منالاً . فلقد
ذكر بسمارك أثناء معاناته من بعض الضيق اثر وعكة صحية ، انتابته
من جراء مشغوليته بالمسائل الخارجية ، أنه لا ناقة له ولا جمل فى وضع
هذا القانون ، وأنه من وضع وزير الحربية رون (**) ، ومن تدبير
الامبراطور بالذات إلى حد كبير . وعلى أية حال كان هذا هو ما قيل للسفير
البريطانى ، ان جاز لنا تصديق رواية بسمارك ، الذى كان خلال الأزمات
الدستورية من أجراً المدافعين عن الجيش ضد الادعاءات البرلمانية ،
ولكنه لم يكن متحمساً لمطامع تضخيم دور الجيش فى الدولة ، وفى
١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، وقعت خلافات خطيرة بينه وبين مولتكه ، الذى اتهمه
بالصيد فى الماء العكر ، واشتبته أيضاً فى وزير الحربية السابق
(ادفين فون مانتوفيل) والذى كان بعد ذلك من أقوى المؤيدين لمشروع
القانون ، وانهىه بالتأمر ضده مدفوعاً بالأمل فى خلافته فى منصب
الاستشار . وإذا تركنا جانبا هذه العوامل الشخصية ، سنرى أن بسمارك
لم يكن راضياً عن اصدار قانون لا يقتصر أثره على اعفاء الجيش من أية
قيود برلمانية ، ولكنه سيجعله أيضاً مستقلاً عن السلطة المدنية المتمثلة
فى شخصه (شخص بسمارك) ، ومن ثم فإن هزيمة العسكريين أشعرتهم
بالارتياح ، عندما انتزقت مخططاتهم ، وصمم على اشتتار هذه الضغوبات
لكى يشب لهم إلى أى حد هم فى حاجة إليه .

وحقق هذه الفكرة ، بأن تلاعب بمخاوف أعضاء البرلمان التى عقبنا
عليها آنفاً ، والتى تمثلت فى كراهيتهم التورط فى موقف معارض لسلطة
الدولة . وقال بسمارك فى سلسلة من الأحاديث دارت بينه وبين زعماء
البرلمانيين انه قد أصبح واضحاً فى أوقات الشدة وعلم استقرار الأوضاع
تصميم البرلمان على تجريد الدولة من قوتها . والغريب أن يحدث ذلك من
اناس انتخبوا ارتكانا إلى تأييدهم لسياسته الخاصة ، وإذا توهموا أن

(*) فى معركة Sedan و Koeniggraetz .

Roon.

(**) .

بإمكانهم التخلي عن واجبهم المتعلق بالدفاع عن المصلحة العليا للرايخ ، دون أن ينالهم قصاص فانهم سيكونون قد وقعوا في خطأ جسيم . وكان هذا التلميح كافيا لاثارة الاضطرابات بين خصوم مسودة القانون ، وسرعان ما تبادلوا الاتهامات ، وبأنهم تسببوا باتباعهم للسياسات الحزبية في ايقاع « نزاع صبياني بين البرلمان والامبراطور » ، على حد قول القانوني الضليع في هايدلبرج (بلونتشلي) (٢) . ولم يمض وقت طويل حتى لاحت بوادر الرغبة في الاهتداء الى حل وسط ، تقدم به بسمارك . وتوطدت قوة الجيش بعد الموافقة على الاعتماد الذي طلب في المسودة الاصلية للقانون ، وان كانت مدة صلاحية هذا القانون قد حددت بسبع سنوات يعاد تجديدها بعد ذلك .

ولم يرض زعماء الجيش عن القانون « السباعي » . والظاهر أن الامبراطور ذاته قد شعر بالاستياء من ميل بسمارك الى مهادنة اناس وصفهم العاهل في خطاب القاء بعد تعرض المشروع للمتاعب بأنهم أعداء من داخل البلاد ، يحاولون عرقلة « قيادة الامبراطور القائد الأعلى للقوات المسلحة » . على أن فيلهلم بعد أن راجع نفسه انتهى الى نظرة أكثر اتساما بالروح الفلسفية ، وكتب الى وزير حربيته : « لا تنس أن سبع سنوات في زماننا قد أصبحت تبدو مساوية لنصف قرن ، عندما نتأمل ما حدث بين ١٨٦٣ و ١٨٧٠ ! ومن ثم فأننا سنضمن سلامة الجيش لمدة سبع سنوات ، وبعد انقضاء هذه السنوات ربما الفينا انفسنا قد دخلنا حربا جديدة بعد الحرب السابقة ، أو شرعنا في تجهيز انفسنا لحرب مقبلة . وإذا لم يحدث ذلك ، سيكون عدد السكان قد تضاعف ، وسنسمي لزيادة عدد المجندين . . . »

والواقع أن رؤساء الجيش كانوا محقين في شعورهم بالارتياح ، فلقد آمنوا انفسهم ضد أي تحكم بسيط في الميزانية ، وتوافرت لهم الحماية ضد أي شكل آخر من أشكال التدخل البرلماني (وفقا للمادة ٦٣ من الدستور) واطمأنوا الى امكان مواجهة أي أثر من آثار الأحداث المرتقبة في علاقة الجيش والامبراطورية . وكانت أبرز هذه الحقائق - بالمفهوم القانوني الدقيق - هي عدم وجود جيش امبراطوري . فلا تنسى أن الجيش القومي في الأحوال العادية يتألف من مجندين من دويلات الاتحاد تحت قيادة بروسية . ولما كان ذلك كذلك ، فانه لا يصح القول بوجود وزير حرب امبراطوري ، اللهم الا اذا قصد بهذا اللقب بسمارك بالذات . والحق أن المستشار (بسمارك) كان هو المسئول في نهاية المطاف عن المسائل العسكرية أمام البرلمان ، وان كان هذا لا يعنى الشيء الكثير ، لأنه لم يكن

قادرا على السيطرة على المسائل الداخلية للجيش ، لأنها تقع على عاتق وزير الحربية البروسي ، الذي امتد سلطانه الى جميع القوات المسلحة في الامبراطورية ، فكان يشرف على هيئة الأركان وأكاديمية الحرب ، وغيرها من المدارس العسكرية ، والامداد والتموين وشئون الأفراد . وفي البرلمان ، كان شاغلو هذه الوظيفة هم الذين يردون - عادة - على ما يثار من أسئلة المبعوثين عن التطورات العسكرية . ولم يكن بسمارك يتولى مثل هذه الأمور . وكانت محاولة انتزاع أية معلومات منه تتعرض دوما للاحباط ، لأنه كان مفوضا بالاجابة عن النقاط التي تثار حول القوات الامبريالية ، اذا أراد ، وليس عن الجيش البروسي . وتباح له مناقشة المسائل الادارية ، ولكن ليس من حقه التحدث عن أي شيء يتصل بقيادة الجيش (اذ كان الامبراطور يرى أن هذه المسألة لا تخص احدا غيره) .

بيد أن رؤساء الجيش لم يقنعوا بالمزايا التي حققها لهم هذا الوضع . فقد اعتقدوا أن الجيش أشبه بمعبد ديني يتطلب متعبدين ، ويُنظر منهم المطايا ، ولكنه لا ينوي منحهم أية مميزات في « مجمع الأبرشية » . وبدا الدور البرلماني لوزير الحربية في نظر « كرادلة » مجلس القيادة و« هيئة الأركان تهديدا » بالقوة ، أو محتملا لوظيفتهم التي تتمتع بالحصانة . بمن ثم سعوا لإبطال مفعولها أو للخلاص من أذاها ، أو استبعادها إن لزم الأمر . وفي ١٨٨٢ ، نجحوا في تحقيق ذلك بمقاومة بسمارك . ويصح اعتبار هذا النجاح تاريخيا لتزايد تباعدهم عن المنشآت العسكرية . وظهرت ثمرته المأسوية ١٩١٤ .

(٤)

لا بد أن يكون قد اتضح مما ذكرناه آنفا مدى حق البناء الدستوري للامبراطورية الألمانية الجديدة ، ومدى امتلائه بالتناقضات والغوامض مما صعب من كفاءة اضطلاعهم بمهمة تسيير الأمور في الرايخ . لقد كان اسلوب بسمارك القائم على « الصد » و « التوازن » شديد التعقيد ، ولعل مصمم هذا الأسلوب (بسمارك بالذات) لم يكن متيقنا في البداية من كيفية وضعه موضع التنفيذ . وتمشيا مع حرصه على سلطانه ، فانه هدف بقدر الاستطاعة الى الحفاظ بقبضته على السلطة والنفوذ . وبقي سؤالان : كيف يتيسر تحقيق ذلك ؟ وما هو اسم الوظيفة التي ستنهض بهذا الدور ؟ ففي الأيام التي خطط فيها دستور كونفدرالية شمال ألمانيا ، كان الظاهر أنه كان ينوي جعل وزارة الحربية متواضعة نسبيا ، وكان ينوي منح المستشار دورا أكبر من مجرد الرئيس المستنول عن المجلس الاتحادي ، وأن يتمثل هذا المستشار هو وباقي المبعوثين البروسيين الى المجلس في

تلقي التعليمات من وزير الخارجية البروسية ، يعنى من بسمارك نفسه ! .
وعندما أنشئ الرايخ ١٨٧١ ، كان بسمارك قد تخلى منذ آثم بعيد عن هذه
النظرة ، أو بمعنى أصح تخلى عن التركيز المطلق فيه على السيادة البروسية
الكامنة في هذه النظرة . وليس من شك أنه أراد - كما يبدو - تحويل
التوازن الى الناحية الأخرى ، لأنه تقلد منصب المستشار الاتحادي دون
أن ينشئ ديوانا (*) قويا للمستشارين تحت رئاسة رودلف دلبروك (**) ،
بينما ترك وظيفة وزير رئاسة بروسيا (وان لم يتخل عن وظيفة وزير
الخارجية) : غير أن هذه الوسيلة لم تفلح ، وحدثت احتكاكات كثيرة بين
الحكومة البروسية والحكومة الاتحادية ، مما دفع بسمارك بعد خمسة
شهور الى العودة مرة أخرى الى منصب الوزير الأول البروسي ، وقال انه
سيعجز عن ادارة شئون الامبراطورية ، اذا لم تكن لديه جذور ممتدة في
التربة البروسية . ثم قال فيما بعد : « اذا جعلتموني مجرد وزير
للرايخ ، فاني على يقين باننى سأكون عديم الفاعلية مثل أي وزير آخر » .
غير أنه حتى بعد أن سيطر بقبضته القوية على ثلاثة مناصب
رئيسية ، فإنه رأى تعذر تسير أمور الامبراطورية دون اضطراب مستمر
للتدخل في خلافات الصراع على من له الأهلية أو الأهمية بين العناصر التي
تتألف منها الامبراطورية ، والتصدي للمشكلات التي نجمت عن حلول
الوسط التي تضمنها الميثاق . ولم يسلم أبدا من الاستشارات التي ترتب
عن عدم اكتراث المسؤولين المحليين عن تنفيذ القوانين الاتحادية ، أو من
المخاوف من الامتيازات الممنوحة للتاج والبيشوب ، واحتمال اصابة استعمالها
من قبل الخبراء غير المسؤولين ، أو اصحاب الطموح من العسكريين ذوي
الخوذات النحاسية . وفي ذات الوقت ، فقد اتاح النظام الدستوري عدة
فرص للتعطية ، بل وربما لتحدى السهولة الاتحادية مما جعل أكثر السبل
فاعلية لحل الأزمات تتخذ غالبا شكل التهديد بالالتجاء الى مراجعة
الدمستور ، أو بعبارة أبسط ، تسمى لتصحيح الموقف عن طريق القوة بدلا
من الاستناد الى القانون القائم ، وبين ١٨٦٧ و ١٨٧١ ، أرغمت مختلف
حكومات دويلات الاتحاد بطريقة استبدادية على التعاون باتباع هذه
الوسائل ، وفي مناسبات تالية عديدة ، كانت خشية حدوث انقلاب (***)
هي التي اقنعت الجماعات الأخرى بضرورة التعاون . وفي بواكير عهد
اشتغاله بالمناصب الرسمية فسر بسمارك هذا الاسلوب لصديقه « رون »
فقال : « بمجرد تردد ثرثرة وصلصلة حول التصريحات وعملية الانقلاب ،

Reichskanzlei

(*)

Rudolf Delbrueck

(**)

Coup d'état

(***)

كانت شهرتي القديمة ، وما يقال عن لجوئي للقوة بطريقة طائشة غاشمة
تدعم مركزي ، وتجعلني أقف على قدمين ثابتتين ، لأن الناس يقولون :
ها هو يعاود الكرة (*) » وفي أعقاب ذلك يتسارع الجميع من معتدلين
غير متحمسين وأنصار لسياسة البين بين لأجراء استعدادهم للتباحث ،
ولم يتخل قط عن اعتقاده في فاعلية هذه الوسيلة ، ولم ينفرد في الاعتقاد
بشرعيتها . وبعبارة أخرى وعلى حد قول ميكائيل شتورمر (**) . لقد
كان التهديد بتعطيل الدستور عاملاً دستورياً عظيم الأهمية في الامبراطورية
الألمانية .

Nanu, geht's los !”

Michael Stuermer.

(*)

(**)

المراجع

- H. Boehme, *The Foundation of German Empire : Select Documents* (1971).
- L. L. Farrar, Jr. *Arrogance and Anxiety : The Ambivalence of German Power 1848-1914*. (1981).
- T. S. Hamerow, *The Social Foundations of German Unification 1858-1971* (1972).
- I. V. Hull, *The Entourage of Kaiser Wilhem II (1888-1918)* 1982.
- Q. H. Jarausch, *Students, Society and Politics in Imperial Germany : The Rise of Academic Illiberalism* 1982.
- A. J. Mayer, *The Persistence of the Old Regime : Europe to the Great War* (1918).
- O. Pflanze, *Bismarck and the Development of German, The Period of Unification 1815-1871* (1963).
- J. J. Sheehan, *German Liberalism in the Nineteenth Century*, 1978.
- J. J. Sheehan ed, *Imperial German* (1976).
- F. Stern, *Gold and Iron : Bismarck, Bleichroder and the Building of the German Empire* 1977.
- F. Stern, *The Failure of Liberalism : Essays on the Political Culture of Modern Germany* (1972).
- H. Wehler, *The German Empire, 1871-1918*, (1985).

الإمبريالية والحرب والثورة

كانت الحرب العالمية الأولى هي الحادث المحوري في تاريخ أوروبا في القرن العشرين ، فبعد نشوب الحرب ، لم تعد الحياة في مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد الى سابق عهدها ، والأمـر بالمثل فيما يتعلق بالمسائل الفكرية . وأعيد تخطيط خريطة أوروبا من إيرلاندة الى روسيا . وأحدثت الجهود التي استنزفتها الحرب والأعداد الوفيرة ممن راحوا ضحية للقتال ضغوطاً جديدة على البنيان الاجتماعي ، وبذر الاستياء من معاهدة السلام وما حدث بعد الحرب من تغير في الأوضاع الاقتصادية بنور العديد من الحركات السياسية السلطوية في سنوات ما بين الحربين .

ولاحق أول بوادر لهذا الصراع في أواخر القرن التاسع عشر عندما حدث تنافس بين القوى الكبرى على انشاء امبراطوريات في مختلف القارات . ولعل اقتصاديات الصناعة قد ازدادت قوة في العقود الختامية من القرن بفضل اختراعات الثورة الصناعية الثانية ، مما أكد تمتع البلدان الأوروبية بأعظم قوة على الأرض . ويوضح دانييل هنريك مدى اعتماد السيطرة على العالم على الجراءة التكنولوجية حينذاك ، والمزايا العسكرية للتكنولوجيا التي حققتها لباقي الأمم . وما أسهل وأسرع تحول هذه القوة العسكرية للاستعمال في الصراعات التي نشبت بين مختلف الدول الأوروبية .

ولم يتوقع أحسد في سنة ١٩١٤ استمرار الحرب أمدا طويلا . ويتحدث ميكائيل هوارد عن توقعات الضباط والقادة قبل الحرب العالمية الأولى عن طابع حرب المستقبل . ويشير الى أسباب الولع بمبدأ الهجوم الذي زج بعشرات الآلاف من الرجال للقاء حتفهم ، وكيف استمر الإيمان بهذا المبدأ طويلا . وبعد أن استمرت الحرب مصحوبة بخسائر لم يتخيلها بشر من قبل ، بدأ الشعور بالضيق من الأحوال السياسية يطفو على

السطح . ولم يتماثل هذا الضيق في شدة أهميته مع ما حدث في روسيا .
ويشرح تسياشي هاسيجانوا كيف بدل المجهود الحربي البناء الاقتصادي
لبتروجراد (حاليا سان بطرسبرج) ، وكيف أدت ضغوط الانتاج خلال
فترة الحرب الى اثارة القلاقل بين العمال ، واستطاعت مختلف الأطراف
السياسية والراديكالية توجيهها لغاياتها الثورية .

واثر ما حدث من ازدياد في خسائر الحرب حتى بلغت مئات الآلاف ،
والقضاء على الكثير من القيم ، واشتراك الكافة في التكهن بما سيحل
بالمجتمع ، حاول مختلف الكتاب الإيحاء بما كان سيحل بأوروبا لو لم
تحدث الحرب ، ولم يست من جرائها كثيرون من الموهوبين . ويتحدث
روبرت وول عن السبب الذي دفع العديدين الى التعلق بأسطورة فقدان
جيل من الانجليز الموهوبين ، مما أدى الى تعثر الانجليز ابان العشرينات
والثلاثينيات . ويثبت في هذه الناحية كيف تمهد الأساطير التي تروى
عن الماضي الطريق أمام أساطير الحاضر .

عتاد الامبريالية

التكنولوجيا وتوسع الامبراطوريات الاستعمارية الأوربية في القرن التاسع عشر

دانييل هدريك

عندما كان القرن التاسع عشر يشرف على نهايته ، سيطرت القوى الأوربية - وعلى الأخص بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا - بطريقة مباشرة وغير مباشرة - على مساحات واسعة من العالم غير الأوربي ، وعملت على استغلالها ، وتقاسم الأوربيون ما يكاد يقرب من كل أفريقيا • وكانت بريطانيا تحكم حكما مباشرا شبه القارة الهندية ، وتتمتع بنفوذ غير رسمي في معظم أنحاء أمريكا اللاتينية ، وعلى مناطق المستعمرات الانجليزية في كندا وأستراليا ونيوزيلاندا • وكانت فرنسا تحكم الهند الصينية ، وتمتعت بجميع القوى بعلاقات تجارية خاصة مع الصين • ولقد فرضت هذه العلاقات عن طريق القوة • وبعد الحرب الإسبانية الأمريكية ١٨٩٨ ، ظهرت الولايات المتحدة على مسرح الأحداث كقوة امبريالية •

وأثارت « الامبريالية » الجديدة - وهو الاسم الذي أطلق على هذه الحركة للتفرقة بينها وبين ظاهرة الفتوحات الاستعمارية التي حدثت في القرن السادس عشر - أثارت نقاشا واسعا ، مازال لم يحسم حتى الآن بين المؤرخين حول دوافع القوى الامبريالية • واحتلت الصدارة العوامل المرتبطة بهوائت الكسب الاقتصادي والاعتبارات الخاصة بالاستراتيجية البحرية والمزايا السياسية التي تعود على رجال السياسة في البلدان الامبريالية ، في مجال السياسة الداخلية ، والخارجية للأوربيين لفرض النظام على الأوضاع الخارجية التي أصابها الاضطراب •

Technology and the Expansion of European

نقلا عن مقال

Daniel. R. Headrick تأليف Colonial Empires in the Nineteenth Century.

في مجلة Journal of Modern History الجزء ٥١ (١٩٧٩) ص ٢٢٤-٢٦٢ •

وبالاستطاعة اثاره تساؤلات اخرى عن الامبريالية الجديدة لا تتعلق بدوافعها . وليست هذه التساؤلات بالأقل أهمية ، ومن السهل الرد على بعضها . ومن بين هذه الأسئلة : كيف استطاع الأوروبيون بطريقة فاضحة وفعالة فرض ارادتهم على الشعوب الأخرى ؟ ولعل العامل الأساسي الذي ساعد على فرض هذه الهيمنة هو تكنولوجيا النقل والتسلح ، التي استعان بها الأوروبيون في محاولتهم . وضمت هذه التكنولوجيا السفينة التجارية ، التي ساعدت على اختراق الأنهار الداخلية والمياه الساحلية الضحلة العظيمة الأهمية ، والتقدم في تكنولوجيا الطب ، ولاسيما اكتشاف الكينين الذي ساعد الأوروبيين على استمرار العيش بعد اصابتهم بأمراض البقاع التي اخترقتها سفنهم . وأخيرا القدرة الشاملة والكاسحة لنيران الأسلحة التي توافرت بعد اختراع البنادق التي تعمر بالترايس، والبارود الذي لا يتصاعد منه الدخان بعد انفجار العبوة ، والرشاشات التي زودت الجيوش الأوروبية الصغيرة العدد ، أو حتى بعض الجماعات الأوروبية الصغيرة ، بتفوق تكنولوجي فتاك ، ساعد على اكتساح الشعوب التي يسعون لقمهرها . وتجلت أهمية هذه التكنولوجيا بوجه خاص في مناسبات فلة ، مثلما حدث في اثيوبيا ١٨٩٦ عندما لاقى الأوروبيون شر هزيمة على يد شعوب غير أوروبية مسلحة بأسلحة متقدمة .

لكي تتصاعد موجة من الامبريالية، فانها تحتاج الى أحد السيناريوهات الثلاثة الآتية : ١ - توافر الوسائل الكافية ٢٠ - تزايد البواعث الداعية الى تفجر الحدث ٣٠ - وجود دوافع التغير . وعندما ظهرت الوسائل التي تيسر الحادثة ، وحدث تغير في الدوافع والوسائل ، فانهما اشتركا سويا . وساعد ذلك على وقوع الحادثة . ولقد لحص كامرون (روندو) السيناريو الأول في الكلمات الآتية : لقد كان التفوق الأوربي من الحقائق المستقرة منذ أمد بعيد . وهي التي استند عليها الحوار حتى الآن . وترمي الغاية من بحثنا الحالي الى تحدى مثل هذه النظرة والقول بأن التغيرات التكنولوجية كانت لا غنى عنها وكانت الركيزة التي اعتمدت عليها أوربا في حركتها التوسعية في القرن التاسع عشر . وقد أثرت هذه التغيرات على كل من توقيت الحركة وموضعها وبذلك يكون السيناريو الثالث هو الأهم والأدق ، تاريخيا .

وعندما يقال عليا (بشدة وكسرة تحت اللام) ان الوسيلة التقنية تتماثل في الحاجة اليها وعدم الاستغناء عنها تماما مثل الدوافع ، فان هذا لا يعنى وجود صلة بين الحدين . والأمير عكس ذلك . فبمقدور ظهور أية تكنولوجيا جديدة أن تعزز أو تولد تفجر دافع من الدوافع مما ييسر تحقيق الغاية المنشودة ، ويجعلها مقبولة لرخصتها . وعلى عكس ذلك ،

فقد يحفز أى دافع البحث عن الوسائل المناسبة ، ومن هنا يتوجب علينا أن نتحرك بين موقفين حتميين خطرين : الموقف التكنولوجى (ما يجب أن يجرى سبجى) والموقف السيكلوجى : « اذا وجدت الارادة وجدت الوسيلة » . وما يقدمه هذا البحث اذن ليس محاربة الموقفين اللذين اشتركا بالفعل فى الحوار الذى دار حول اسباب الامبريالية الجديدة ، وانما اضافة بعد جديد اليه .

ومن بين الوسائل والسبل التى استعان بها الأوروبيون للتغلغل فى امبراطوريتهم بآسيا وأفريقيا فى القرن التاسع عشر ، وأنجزوا بها فتوحاتهم : المركب البخارية . فمنذ عهد فاسكو داجاما حتى الحرب الروسية اليابانية ، كان الأوروبيون يسيطرون على البحار ، وان كانت سلطتهم لم تتجاوز ما هو أبعد من السواحل . ولربما أقدم المحاربون عند إبحارهم بعيدا عن شواطئ الصين أو اليابان أو أفريقيا على اهانة الأهالى أو مضايقتهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من غزو بلادهم . اذ كان من الصعب على السفن الحربية الأوروبية الرابضة فى الموانئ والأنهار المؤدية الى المدن الداخلية أن تناور ، وكانت تتعرض للاضطهاد بالأرض ولنيران مدفعية السواحل . وكانت القيود المفروضة على قوة الأساطيل تتحكم فى علاقة بريطانيا بالصين قبل حرب الأفيون . فبينما كان فى استطاعة السفن الانجليزية اطلاق نيرانها على القلاع الصينية عند مصب نهر « يزل » - وفعلت ذلك منذ عهد باكر يرجع الى ١٦٣٧ ، الا أنها لم تكن قادرة على تهديد مدينة مثل كانتون أو أية مدينة مهمة أخرى ، فلا عجب اذا تصور الصينيون الانجليز « كبربرة قادمين من البحر » ، واذا رفضوا النظر بمنظار الجدة الى توسلات سفراء مرموقين من أمثال اللورد ماكرتنى ١٧٩٣ أو اللورد أمهرست ١٨١٦ .

كان البخار اذن هو الذى فتح الأنهار والمياه الضحلة فى العالم أمام الأوروبيين . فلقد فشلت الممارسات الباكورة لتسخير القوة البخارية فى تحريك السفن ، كما أثبت المركيز دى جوفروا دابان فى نهر الرون ١٧٨٣ وجون فيتش فى نهر ديلاوير ١٧٨٦ ووليم سمنجتون وباتريك ميلر فى نهر كليد ١٧٨٨ . ويعزى هذا الفشل الى عدم وجود محرك يجمع بين صغر الحجم وكفاية القوة . وفى العقد الأول من القرن التاسع عشر ، ذلت التحسينات التى جرت على المحرك البخارى هذه الصعوبة . وفى ١٨٠٧ ، أثبتت الباخرة « كلبرمون » لروبرت فالتون أن بمقدور السفينة البخارية النجاح فى المهام التجارية . وساعد هذا البيان على تسريع خطى التقدم . وفى العقد الثانى من القرن ، تم انشاء بواخر من مختلف الأنواع فى أمريكا وانجلترا وفرنسا ، وبلغت هذه الانشاءات القروية عند تسيير خط ملاحه منتظم بين انجلترا

وايرلاندة ١٨١٦ ، وفي أول عبور للأطلسي نهضت به المركب « سافانا »
اعتمادا على البخار والقلاع ١٨١٩ .

وما لبثت البواخر أن شقت عباب مياه آسيا بعد ذلك . وانجزت أول
محاولة الباخرة ديانا التي بنيت في كيدر بور بالقرب من كالكتا ١٨٢٣ .
وكانت هناك باخرة أخرى (بلوتو) دشنت قبل ذلك بعام ، ولكن لم يتحقق
الوصل بين محركها وعجلة التجديف الا ١٨٢٤ . وفي السنة التالية ،
وصلت « انتربرايز » وهي أول باخرة تصل آسيا من أوروبا ، بعد رحلة
استغرقت ١٠٣ أيام ، استعمل فيها البخار لتحريكها خلال ٦٣ يوما .

ومرغان ما غدت هذه المستحدثات أول بوادر الحركة الامبريالية .
ففي ١٨٢٤ شنت شركة الهند الشرقية المبجلة أول حرب نهريّة على نطاق
واسع في التاريخ الحديث ضد مملكة بورما ، وسخرت البواخر الثلاث
رسميا للمشاركة في أعمال حربية . وعملت انتربرايز في أعمال نقل
القوات وعبورها ، ونقلت الامدادات من كالكتا الى بورما . واستخدمت
« بلوتو » بعد تجهيزها بمدافع وبأربعة مدافع كارونيد صغيرة الحجم
كبطارية مدفعية عائمة أثناء الهجوم على شاطئ اراكا . ولعبت الباخرة
ديانا « كنجمة الحرب » ، اذ ساعدت في استكشاف ايرواي ، وطاردت
سفن الحرب التابعة لبورما ، وعبرت البحر ناقلة للجنود ، واستخدمت في
جر المراكب الشراعية وقذف مواقع العدو بقذائف كونجراف ، وأطلق عليها
أهل بورما اسم « الشيطان الناري » ، وما كان بمقدور شركة الهند الشرقية
كسب الحرب بدونها، ولعلها ساعدت على تعجيل احراز هذا النصر ، وبفضلها
استولت بريطانيا على اراكا وبيجو وتناسريم . وبذلك بدأ عهد الامبريالية
المعتمدة على القوة البحرية المجهزة بالمنفع .

ورغم هذه النجاحات ، فقد أحاطت البواخر الأولى عنة اشكالات . فلقد
كانت هياكلها معرضة لجميع أوجه النقص المعهودة في جميع السفن
الخشبية ، كالتآكل والتقشر والتسوس وتسرب المياه . وعانت هذه البواخر
أيضا من المشكلات التي استطاعت المراكب الشراعية تفاديها . اذ كانت
المعدات الآلية شديدة الثقل والضغط على الهيكل الخشبي . واحتلت
محركات وخزانات الوقود والمخازن والمستودعات حيزا ثميناً على حساب طاقم
المركب ، وكانت السفينة الخشبية تتعرض لخطر اندلاع النيران من جراء
مدير المدافع والنيران المتدلعة أثناء تفجير العبوة على سطحها والشرار
المتطاير من المدخنة . وأخيرا اتضح ضعف متانة الأخشاب ، وعدم اتساع
المراكب الخشبية بالقدر الذي يساعد على حمل الآلات والمدافع . ولم يكن
بالمقدور بناؤها بارتفاع بسيط يناسب الرحلات النهرية ، واكسابها في

ذات الوقت المتأنة التي تساعدنا على تحمل الرحلات الطويلة عبر المحيطات وأماواجها .

وجاء الحل باستعمال الحديد فى صنع السفن . ومنذ وقت باكر يرجع الى ١٧٨٧ قام جون ويلكنسون الخبير الكبير فى سبك الحديد وصناعة المدافع باجراء تجارب على مركب مصنوع من الحديد على نهر سيفرن . ولكن عمليات التجريب تعطلت ثلاث سنوات من جراء تدخل بعض العقليات المحافظة لصناع السفن البريطانيين ، الذين قالوا : اذا سلمنا بان الحديد لا يطفو على الماء ، فمن يضمن علم غرق أية سفينة مصنوعة من الحديد ؟ الا ينتظر ان تصاب بالصدأ أو يجتذبها البرق ، أو تتحطم بعد تفتتها الى شظايا فى البحار العميقة ، أو تزداد سخونتها الى حد الاحتراق عند تعرضها للشمس ؟ . وازاء هذه التخمينات ، لم تصنع أية سفينة حديدية قادرة على شق عباب البحر الا ١٨١٥ . ولم تظهر أية باخرة مصنوعة من الحديد الا ١٨٢٠ . وأثبتت احدى البواخر(*) قدرتها على الابحار عبر المانش وحتى نهر السين . واتضح ان المركب الحديدية ليست قادرة على الطفو فحسب ، ولكنها أيضا أخف وزنا وأعظم اتساعا من أية مركبة خشبية تشغل حيزا مماثلا ، لان أية عارضة حديدية سمكها سبعة سنتيمترات باستطاعتها أن تحمل محل كمرة من الخشب الزان سمكها ٦٠ سنتيمترا . وأثبت الحديد أيضا أنه أكثر ليونة من الخشب ، وأقل عرضة للتلف عند لمس الأرض ، ومن السهل اصلاحه . وبالمقدور صنع سفينة من الحديد تتخللها جدران لا تنفذ من خلالها المياه ، وبذلك تتضاءل أخطار عطبها . وأهم من كل ذلك ، امكان تشكيل السفن المصنوعة من الحديد فى أشكال شتى ، وبأبعاد من الصعب تحقيقها فى حالة الخشب ، كالمراكب النهرية التي تدفعها تيارات ضحضاحة (قايلة العمق) أو عابرات المحيطات الضخمة . ويرجع الفضل فى الحق للحديد فيما تحقق للسفن التي ظهرت فيما بعد من تنوع وتخصص يفوق التصور .

ولم تكن فكرة الباخرة الحديدية مقنعة فى ذاتها ، ولكنها احتاجت الى مفكرين أصحاب مخيلات فذة . وأدى تحقيق هذه الفكرة فى أحد الاتجاهات الى ابتكار عابرة المحيطات التي بلغت ذروتها فى الباخرة العملاقة جريت ايسترن(**)، وانتهى الاتجاه الآخر الى ابتكار ربما بدا أقل شموخا وفخامة، وان كان قد أدى الى ابتكار البواخر النهرية . ويرجع فضل الريادة فى هذا المجال الى أسرة لايرد من بركنهد . ففى ١٨٢٩ ، أنشأ وليم لايرد

وابنه جون مصنع وليم لايرد وابنه لبناء أول مركب حديدية زنتها ستون طنا ، لاستعمالها في بحيرات ايرلاندة . وبعد ذلك بعامين ، وصلت الأنباء عن ابحار ريتشارد لاندو في مجرى نهر النايجر بقارب من « بوسا رابيدز » الى الدلتا ، وبذلك اكمل الرحلة التي بدأها مونتجو بارك(*) قبل ذلك بثلاثين سنة . ثم صمم ماكجريجور لايرد أصغر أبناء وليم ، وأكثر أبناء الأسرة ولما بالمخاطرة على الوصول الى نهر النايجر عن طريق البحر ، وفتح طريق التجارة البريطانية والنفوذ البريطاني في أفريقيا . واختلطت في دوافعه التي جاهر بها عوامل الخدمة الاجتماعية وإيمان المسيحي وشهوة الكسب ، التي كثيرا ما نلاحظها في روايات المكتشفين حينذاك : « ولحق أسواق جديدة واسعة لسلعنا ومصنوعاتنا ولاكتشاف موارد جديدة ، ورفع مستوى أقراننا من الأوروبيين بعد أن تردى وضعهم وأصبحوا يفتقرون الى الشعور القومي والأخلاقي لمساعدتهم على بلوغ مستوى أقرب الى صورة الخالق الذي خلقوا على شاكلته » .

بيد أن هذا الرجل المنحدر من صلب «مراكبية» كان متحمسا للتقدم التكنولوجي نفس حماسه للنشاط العملي التي لم تنسيه غيرته على الدين:

« نحن نملك بين أيدينا قوى أخلاقية ومادية وميكانيكية . وتستند القوة الأولى على الكتاب المقدس ، وتستند الثانية على قدرة الجنس الانجلوسكسوني الرائعة على التكيف وجميع الأجواء والمواقف والظروف . ولقد ورثنا القوة الثالثة عن عالمنا الخالد جيمس وات . فبفضل اختراعه انفتحت جميع البحار لنا ، ونجحنا في اختصار الوقت وتقصير المسافات ، ولو قدر لروحه الاطلاع على مدى نجاح اختراعه على الأرض ، فلا أخال وجود شيء آخر سيرضى عنه مثل مشاهدته للسفن البخارية وهي تمخر عباب أنهار جبارة كالسيبى والأمازون والنايجر والنيل والاندوز والجانبج ، وهي تحمل بشارات السلام المبهجة والخير لجميع البشر ، الى مجاهل الأرض المفعمة حاليا بمظاهر القسوة » .

وانشأ لايرد بالاشتراك مع رجال أعمال آخرين من ليفربول الشركة التجارية للتنمية للكشوف الحديثة للاخوان لايرد على نهر النايجر . وكانت لديهم سفينتان من صنعهما : الأولى واسمها كورا وهي باخرة مصنوعة من الخشب حمولتها ١٤٥ طنا ، وطولها ٣٧ مترا تقريبا ، وعمقها متران ونصف ، ولها محرك قوته ٤٠ حصانا . وحمولة الثانية ٥٥ طنا ، واسمها البوركا(**)

وطولها ٢١ مترا ، وعمقها متران تقريبا ، وقوتها ١٦ حصانا ، ومصنوعة من الحديد . وسلحت السفينتان تسليحا ثقيلًا . قالى جانب المدافع اليدوية ، كانت « كورا » تحمل مدفعا متحركا وزن دانتة أربعة أرتال . ومدافع كارونية (نسبة الى كارون) زنة دانتها ١٨ رطلا ، و٨ عربات مدفع (عيار ٤ أرتال) . وتحمل البوركا مدفعا عيار أربعة أرتال و ٦ مدافع متحركة عيار (رطل واحد) .

وفى ١٨٣٢ ، تحرك ماكجريجور لايرد وريتشارد لاندرو وباخرتاها مصحوبتان بمركب شراعى صوب دلتا نهر النايجر . ولعلها المرة الأولى التى تخاطر فيها باخرة صغيرة مثل البوركا فى الدخول الى عرض المحيط ، ووصل الأسطول (!) بسلام الى خليج بنين ، ومن هناك نجحت الباخرتان فى الإبحار داخل الدلتا ، والى نهر النايجر عند نقطة التقائه بنهر بنى (*) . وحقت الحملة نجاحا باهرا ، وأثبتت قدرة قوة البخار على اختراق افريقيا . أما من حيث كونها مخاطرة ، فقد فشلت فشلا ذريعا . فعندما تحاول الوسائل المتقدمة تكنولوجيا التغلب على إحدى العقبات الطبيعية ، فإنها كثيرا ما تسلط الضوء على عقبة أخرى . فمن بين طاقم السفينتين وعددهم ٤٩ من البيض الذين اشتركوا فى هذه الحملة ، مات أربعون ، وعاد لايرد بالذات ١٨٣٤ منهك القوى بعد أن فقد ثروته وصحته فى افريقيا . نعم لقد توافرت جميع الدوافع ، ولكن الوسائل لم تكن كافية ، مما حث الأوربيين على التمهّل فى تغلغلهم داخل افريقيا ، والانتظار عشرين سنة أخرى .

وعلى الرغم من أن افريقيا الاستوائية قد ظلت مغلقة أمام تغلغل الأوربيين ، الا أن آل لايرد قد نجحوا فى اثبات قيمة البواخر الحديدية . وبدأ مصنعهم ينتج عددا كبيرا منها لديه القدرة على اجتياز مسافات طويلة ، وكانت باخرة آل لايرد : جون راندولف التى أرسلت الى الساقانا هى أول باخرة تعمل فى المياه الأمريكية . وفى ١٨٣٦ ، اكتشف فرنسيس رودون شيرنى نهر الفرات (بالعراق) على باخرة سماها باسم النهر ، وبنائها لايرد . وفى ١٨٣٧ ، اشترى محمد على الكبير الباخرة اجبشيان للابحار فى نهر النيل . غير أن نجاح آل لايرد الأعظم قد تحقق فى الشرق الأقصى حيث ساهمت سفنهم بقدر كبير فى تضخيم قوة بريطانيا .

وكانت أول باخرة تصل الى الصين هى الباخرة فوربس التى وصلت الى هناك من كلكتا ١٨٢٦ أو ١٨٣٠ . وسرعان ما اعترفت المستعمرة التجارية الانجليزية فى الصين بالقيمة المحتملة للبخار فى عمليات النقل

النهرى . وفى ١٨٢٥ ، التحسبوا من أقرانهم الصينيين إرسال الباخرة الصغيرة جارددين عبر نهر بيرل من ماكاو الى كانتون .

وكانت العلاقات الانجليزية الصينية متوترة ، وفشلت عدة بعثات دبلوماسية انجليزية فى اقناع الحكومة الصينية بالسماح لها بالتجارة . وفى ذات الوقت ، اشتهى الانجليز الشاي الصينى ، وتفاقم اشتهاى الصينيين للأفيون . وعندما فقلت شركة الهند الشرقية ١٨٣٤ احتكارها للتجارة الصينية ، هرع التجار المغامرون الى التزام لتحقيق أرباح طائلة من تجارة الشاي والأفيون . وما ساء التجار الانجليز أعمالا حرة وصفه الراسميون الصينيون بالتهريب والقرصنة . وما بدا لهؤلاء الصينيين فرصا مشروعة للقانون ، ارتأه التجار تدخل غير مشروع ونزوائى .

ومن هنا لم يشعر الصينيون بالارتياح لفكرة قيام باخرة نارية (*) ، كما سموها ، بالابحار الى كانتون . وأمرها الحاكم المستول بالابتعاد : « واذا تغابى القبطان وأصر على عدم اطاعة الأمر ، فأننى بصفتى الحاكم المستول قد أصدرت أوامرى الى جميع الحصون باطلاق النيران الهادرة بمجرد وصول البواخر ، ومهاجمتها » . وعلى العموم ، ولما كان قد اقترب من حدود الأسرة السماوية (**) ، فمن الصواب أن يطيع قوانين الأسرة السماوية . ولقد أمرت الأجنبى بالتمعن فيما ذكرت مليا ، وأن يمثل من الآن فصاعدا ، وأن ينصاع للقوانين . « ولكن الأجانب لم يمثلوا أو ينصاعوا لتهديدات النيران الهادرة من التحصينات الممتدة بمحاذاة النهر . فكما قال وليم جارددين - وهو أحد التجار الأثرياء (١٨٣٤) : « لا ينبغي أن يسمح لتجارنا النفيسة ودخلنا الكبير من كل من الهند وبريطانيا العظمى بأن يظل خاضعا لنزوة من النزوات التى بمقدور حفنة من مراكبنا المجهزة بالمدافع والمثلثة حول هذه المدينة التعلب عليها باطلاق القليل من مدافع الهاون » .

وأدت هذه التوترات فى نهاية المطاف الى نشوب حرب الأفيون . اذ كان يكمن وراء استعداد الانجليز للهجوم على واحدة من أفضل شركاتهم « معرفتهم أنهم أصبحوا يملكون الآن القليل من السفن المجهزة بالمدافع ، التى تمكنهم من الاستهزاء بالنيران المتصاعدة من الحصون الصينية . وفى ١٨٣٦ ، عرض جون لايرد على البحرية الملكية فكرة بناء طراد مزود بالمدافع ، ولكن القيادة البحرية رفضت الفكرة . ولم تكن شركة الهند الشرقية بعد ان تدعمت بالخبرة فى بورما ، متقاربة مع هذه الشركة فى شدة نزعتها المحافظة . وفى ١٨٣٩ ، كلفت اللجنة السرية لمجلس المديرين جون لايرد

بصنع مركب من طراز غير مألوف على الإطلاق أسمتها « نمسيس » . وكانت أضخم السفن المصنوعة من الحديد التي ظهرت حتى ذلك العهد . فطولها ١٦ مترا ، وحمولتها ٦٢٠ طنا ، وتعمل بمحركين بخاريين قوة كل منهما ٦٠ حصانا . وسلحت هذه السفينة بمدفعين محمليين على ركيزتين وعيارهما ٣٢ زطلا وسلحت أيضا بخمسة مدافع عيار ستة أرتال ، وعشرة مدافع صغيرة - متحركة وقاذف للصواريخ وبمقدورها حمل ٩٠ رجلا . ورغم حجمها فانها لم تكن قادرة على سحب أكثر من ١٨٠ سم من الماء عندما تكون كاملة الحمولة ، وتقل كمية السحب في حالة تأهبها للمعركة . لم تكن هذه السفينة البخارية مجرد سفينة بخارية وحسب، ولكنها كانت سلاحا للحرب الامبريالية « ومعدة خصيصا لهذا الدور بالذات » ، كما قال قبطانها وليم هول .

وفي ٢٨ مارس ١٨٤٠ ، أبحرت الباخرة نمسيس من انجلترا في طريقها الى ميناء أوديسا بروسيا ، « مما أثار دهشة الجميع ، وإن كان من سمحت لهم الظروف في التمعن في هذا الخبر ، لم يصدقوا احتمال أن تكون أوديسا هي وجهتها الحقيقية » . وبمجرد نزول الباخرة الى البحر ، أعلن القبطان للطاقم أنهم سيبحرون تجاه سيلان بدلا من أوديسا . وبذلك أصبحت نمسيس أول باخرة حديدية تمر من رأس الرجاء الصالح . وفي سيلان ، تلقى هول الأوامر بالاتجاه صوب ملقا (في اسبانيا) ، وهناك أخطر في النهاية بأن وجهته الحقيقية هي الصين ، فوصل دكاكر في ٢٥ نوفمبر ١٨٤٠ .

لم تكن « نمسيس » الباخرة الوحيدة التي تشترك في عمليات حرب الأفيون . فلقد توجهت الى الصين مجموعة من البواخر الخشبية قادمة من خليج البنغال (البواخر أتلانتا ومغشقر وكوين ، بل والسفينة القديمة انترابرايز) ووصلت الى هناك أيضا فلبجتون (*) وهي من صنع لايرد ، وقد أعدت للعمل كباخرة حديدية نهريية . وعلى نهاية الحرب ، كان عدد البواخر المشتركة في عمليات الصين ثمانى عشرة باخرة ، تنتمى خمس عشرة منها الى شركة الهند الشرقية . وبعد وصول البواخر ، ووصول نمسيس بالذات ، اكتسبت العلاقات الصينية الأوروبية طابعا جديدا كلية . فلم تتخذ هذه المواجهة مظهر المواجهة الكلاسيكية عديمة الجوى بين الحوت والفيل ، بعد أن نقلت البواخر الحرب الحديثة الى قلب الصين .

وكانت الصين مجهزة على خير وجه لحرب القرن السابع عشر ا ، وارتكن دفاعها ضد الهجوم الغربى أساسا على خط من التحصينات المحاذية

لنهر البوج (*) عند مدينة تاكو القريبة من جنوب كانتون في مواجهة بكين ، وفي عدة نقاط أخرى محاذية للساحل . وقد سلحت هذه التحصينات تسليحا كثيفا ، وإن كانت مدافعها - وبعضها يرجع عهده الى قرنين من الزمان - مجهزة بقذائف مشحونة بالبارود الضعيف التأثير الذي لا يعتمد عليه . والمدافع مثبتة في الابنية مما يصعب تحريكها وتصويبها الى الاهداف . وفي ١٨٤٠ ، تيسر اسكات تحصينات نهر البوج بنيران المدافع المثبتة في جوانب السفن من الخط الذي استولى عليه جنود البحرية . وكانت السفن الصينية متخلفة بالمثل ، ومسلحة بأسلحة تتراوح بين مدفعين أو ستة مدافع مثبتة في ألواح الخشب ، ومن المتعذر الاعتماد على تصويباتها . وكانت طواقمها مسلحة بالسيوف والرماح والجنجال (**) . وأثبتت محاولات اصلاح هذا الحال عدم جدواها . فقبل أن تبدأ الحرب ، اشترى القوميسور لبن السفينة الحربية كيمبردج التي كانت غير مجهزة بالمدافع اللازمة . وكانت السفن الصينية مفتقرة أيضا الى الملاحين ذوي الكفاءة لتسيير السفن الأوروبية . وبدت السواحل الصينية وهي تواجه عتاد السفن الانجليزية أشبه بشواطئ خالية من الدفاعات . بعد أن امتلك الانجليز « البواخر » التي تساعد على حل المشكلات التي كانت تواجه الاساطيل دائما عند تصديها للدفاعات الساحلية .

وفي بعض الحالات ، كما حدث عند الهجوم على تحصينات نهر البوج ، أو على مدينة تنجاي (***) ، استعملت البواخر كقاطرات لجبر السفن الضخمة من « الخط » الى مواقع تساعد على اطلاق نيران مدافعها المثبتة في جوانب السفن على العدو . وفي بعض حالات أخرى ، استخدمت لجبر سفن تحمل البحارة الى مواقع الهجوم البرمائي . وكانت البواخر المجهزة للتحرك في المياه الضحلة مثل « نمسيس » قادرة على خوض مثل هذه العمليات . واعتمادا على قدرتها على المناورة السريعة ، والقاء مقنوغاتها الكونجريف ، كان بمقدور البواخر النهرية اغراق السفن الحربية الصينية دون مشقة . وأدت دورا فعالا أيضا ضد تكتيك صيني مفضل آخر : القوارب المجهزة بالنيران التي تحتوى على أقطان منقوعة في الزيت ، تشعل ثم تقذف لكي تتناثر كشطانا لمواجهة المحاربين الانجليز ، واكتفت البواخر بالتقاطها بخطاطيفها وازاحتها من طريق السفن الحربية .

Bogue

(*) نهر

(**) gingals أو Jingsals مدافع صغيرة تطلق من حالة الثبات ولا تزيد

دانتها عن الرطلين .

(Tinghai)

(***)

ولعل أروع المشاهد التي عرفتھا البخارة نمسيس هي الهجوم على كانتون من الخلف في فبراير ١٨٤٢ . فبينما كان الأسطول مبحرا في نهر في طريقه الى نهر بيرل ، شقت «نمسيس» طريقها عبر قنوات داخلية ضيقة ، لم تتجرا أية سفينة حربية على دخولها قبل ذلك ، وحطمت المراكب الصينية ، وأعطرت التحصينات بوابل من قنابلها ، مما أثار الذعر بين الأهالي .

وإذا كانت الحرب لم تنته على الفور ، فإن هذا دليل يثبت كم أمضت الحكومة الصينية من وقت لى تترك ماهية الخطر الذى يواجهها . ومع الاعتراف بالهزيمة التى حلت فى معركة كانتون ، إلا أنها لم تكن قد تحولت بعد الى كارثة . وشن البريطانيون بعد ذلك بسنة هجوما كبيرا على نهر اليانجتسى شاركت فيه ثمانى سفن من «الخط» وعشر بواخر ، وعدد من السفن الأصغر حجما . وواجه الصينيون الهجوم اعتمادا على قوارب مسلحة بالمدافع تدار بعجلات التجديف . غير أن افتقارها الى سرعة البواخر فى حركتها قد جعل منها فريسة سهلة للبواخر البريطانية . وفى شنجيانج ، استولى الأسطول البريطانى على مفترق التقاء نهر اليانجتسى بالقنال الكبير ، وأدركت الحكومة الصينية عند هذه النقطة قدرة البريطانيين على قطع امدادات الأرز عن بكين . ومن ثم قررت الاستسلام . وبذلك انتهت بريطانيا الى وسيلة لفرض ارادتها على الصين .

وليس من شك أن حرب الأفيون كانت أعظم الأمثلة المثيرة التى أثبتت أهمية البواخر فى المغامرات الامبريالية ، ولكنها كانت بعيدة تماما عن أن تكون المحاولة الأخيرة . فعندما أقدم البريطانيون ١٨٥٢ مرة أخرى على مهاجمة بورما ، كانت البواخر قد غلت مألوفة فى المياه الهندية كسفن نهريه وعابرات للمحيط أيضا ، اذ كانت لشركة الهند الشرقية خدمات للبواخر على الأنهار الرئيسية فى الهند ، وكانت شركة بواخر الملاحة الشرقية تعمل فى الشرق الأقصى فى رحلات منتظمة . وكان من اليسير اصدار أمر بمصادرة نوعى البواخر ، بالإضافة الى بعض السفن المتخصصة المجهزة بالمدافع (*) ، لضمان نجاح هذا الهجوم .

وحكاية زيارة الكومندور بيرى الى اليابان (١٨٥٣ - ١٨٥٤) معروفة الى حد كبير ، مما يجعلها لا تستأهل إعادة الذكر . بيد أنه من الجدير بالإشارة أن هذه القصة لا تنتمى فقط الى تاريخ اليابان وتاريخ أمريكا ، ولكنها مرتبطة أيضا بتاريخ التكنولوجيا . ففي ذات الوقت الذى كان فيه

بيرى مبحراً فى خليج طوكيو ، ظهر الأسطول الروسى تحت قيادة الأدميرال بوتياكين ، وكان من ضمن سفن الأسطول : بعض البواخر التى تقف بعيداً عن شاطئ اليابان ، وكان البخار هو الذى حطم أسرة توكوجاوا التى كانت تحكم اليابان وليس فرداً بالذات أو بلداً بالذات .

واتبعت بعض الحروب الامبريالية فى آسيا فى ذات الوقت نفس الأسلوب . وكانت حرب الأفيون الثانية (١٨٥٦ - ١٨٦٠) تكراراً للحرب الأولى ، من ناحية الأسلحة والأساليب المتبعة . فلقد استعانت البحرية الملكية بخمس وعشرين سفينة مجهزة بالمدافع أو يزيد ، وعدد من البواخر الصغيرة فى الهجوم على كانتون وعلى الأسطول الصينى وعلى تحصينات تايكو بالقرب من بكين . وبرز دور السفن المجهزة بالمدافع فى غزو الفرنسيين لتكونكين (١٨٧٣ - ١٨٧٤) وفى آنام ١٨٨٣ . وفى الحرب الثالثة بين الانجليز وفرنسا ١٨٨٥ ، وعلى نهاية القرن ، لم تعد البواخر والسفن النهرية المجهزة بالمدافع مجرد عتاد حربى وحسب ، ولكنها أصبحت أيضاً رموزاً للتسلط الأوروبى على شعوب الشرق الأقصى التى تملك شواطئ ساحلية وأنهاراً صالحة للملاحة . ولقد أجمل الموقف الكولونيل لورى (*) وهو أحد أنصار الفتوحات الاستعمارية حينئذٍ عندما قال : « كانت البواخر من المحرضات السياسية بفضل ما تحتويه من عتاد قادر على نطق لغة مفزعة فى عصر التقدم » .

وفى افريقيا ، وكما لاحظ ماكجريجور لايرد ١٨٣٢ ، لم تساعد الباخرة ، على توطيد أقدام الأوربيين داخل البلاد . اذ كانت العقبة الكؤود فى حالتها هى الملاريا . ولم تثبت الأساليب التكنولوجية المتقدمة فاعليتها الا بعد التغلب على هذا المرض الوبيل . ولقد ظهرت أبحاث علمية لفيليب كورتين (**) ، وميكائيل جلفاند وآخرين عن تأثير الملاريا على العلاقات الأوربية الأفريقية . وتكفى هنا الإشارة الى خلاصة مجملة لكشوفهم .

على الرغم من أن تفشى الملاريا فى أجزاء كثيرة من العالم ، الا أن هناك نوعاً (***) منها ، لا يوجد فى غير افريقيا كان أكثرها فتكا بضحاياها ، وتعكس معدلات الوفيات للواقدين الجدد الى وسط افريقيا هذه الظاهرة . ففي تسعينات القرن الثامن عشر ، بلغت معدلات الوفيات ما بين ٤٦٪ و ٧٢٪ بين أفراد القوات المسلحة الأوربية المراقبة فى افريقيا الغربية ممن استطاعوا البقاء على قيد الحياة بعد سنة من تلوئهم للبلاد . وهبطت نسبة الوفيات

Colonel W.F.B. Laurie.

(*)

Gelfand, Curtin

(**)

Pla moélum Falciparum.

(***). النوع الذى تحدثت جرثومة

فى السنوات التالية بمقدار ١٠٪ تقريبا . وظهر من دراسة أجريت عن الحقبة الواقعة بين ١٨١٧ و ١٨٣٦ ان معدل الوفيات سنويا للجنود البريطانيين فى بريطانيا كان ١٥٣٪ ، بينما بلغ هذا المعدل فى سيراليونى ٤٨٣٪ وفى ساحل الذهب ٦٦٨٣٪ . وشاركت الحمى الصفراء والتعنية (الدوسنتاريا) وغيرهما من الأمراض ببلور فى هذه الوفيات ، الا أن الملاريا بلغت القمة فى هذا المضمار . واضطرت الحكومة البريطانية الى سحب معظم الأفراد العسكريين البيض من افريقيا الغربية ، وأحلت محلهم افريقيين أو جنودا من غرب الهند ، تميزت معدلات وفياتهم بصغر نسبتها .

وتسببت الملاريا أيضا فى الكوارث التى حلت بما لا حصر له من الحملات داخل افريقيا . فلقد تعرضت بعثات البرتغال الى الكونجو (١٨٤٥) والى داخل موزمبيق لخسائر فادحة . ولم يكن المكتشفون البريطانيون فى أواخر القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر أوفر حظا . اذ فقدت بعثة وليم بولت الى خليج ديلاجوا (١٧٧٧) ١٣٢ شخصا منهم ١٥ من أعضاء البعثة من الأوروبيين ، وفقدت بعثة مونجو بالك الى أعالي النايجر (١٨٠٥) جميع الأوروبيين ، وفقدت بعثة جيمس تاكى (*) الى الكونجو (١٨١٦) ١٩ من بين ٤٥ شخصا ، وكان « لاندر » بين الضحايا . وبين ١٨٤١ و ١٨٤٢ ، أوفدت الحكومة البريطانية حملة كبرى تحت قيادة الكابتن تروتر الى النايجر على ظهر ثلاث بواخر مغلقة بالحديد (**) . وتكررت المأساة مرة أخرى . فقد سقط ١٥٢ من الأوروبيين صرعى ، مما زاد من انزعاج الحكومة .

ورغم هذه الاخفاقات ، الا أن سحر افريقيا قد ظل محتفظا بقوته . ويرجع جانب من استمرار اندفاع الأوروبيين نحو افريقيا الى أسباب اقتصادية وأسباب انسانية ، وان كان الجانب الأكبر من الأسباب يرد الى شدة حماسة ماكجريجور . ففي ١٨٥٢ ، أنشأ هو وبعض أقرانه من رجال الأعمال شركة البواخر الافريقية - وهى أول خط ملاحى يقوم بخدمات شهرية منتظمة بين انجلترا وافريقيا ، واشترك هذا الخط الملاحى فى أعمال التجارة العادية مع وسطاء وسماسرة الساحل . على أن لا يرد أدرك أنه بالاستطاعة تحقيق أرباح أوفر لو أمكن التغلب على عائق المرض داخل افريقيا ، مما ساعد على تقادى اشتراك الوسطاء ، ومن ثم أصر على تشجيع زيادة الحملات الموفدة .

وبعد الحل الذى اهتدى اليه للتغلب على الملاريا انتصارا للتكنولوجيا التجريبية ، أكثر من كونه انتصارا للعلم . فلم يتحدد بلازموديوم الملاريا

James Tuckey

(*)

(**) هذه البواخر هى Albert و Wilborfirce و Soudan

حتى ثمانينات القرن التاسع عشر ، ولم يكشف دور بعوضة الأنوفليس في الإصابة بها إلا ١٨٩٨ ، ثم ظهر آتشد دواء وقائي عملي هو الكينين الذي ظل يستعمل سنوات عديدة . وكان الأوروبيون قد عرفوا مزايا لحاء شجرة الكينا في مقاومة الملاريا منذ القرن السابع عشر . غير أن مفعوله قد تعرض للتعويق من تأثير جملة صعوبات . إذ كان من الضروري استيراده من جنوب أمريكا ، حيث يتعرض للتلف والتلوث ، وأيضاً للاحتيال في تقدير سعره . وكان السعر يعلو ويهبط تبعاً للموضة ، في عالم الطب . واستعمل كعلاج أكثر من استعماله للأغراض الوقائية . والأدهى من ذلك هو عدم استساغة مذاقه . وبعد أن شاع فترة من الزمان في القرن الثامن عشر ، فقد الأطباء البريطانيون الثقة في شجرة الكينا ، لأنها لم تفلح في علاج أحد أنواع الملاريا (*) ، كما أنها لم تثبت فاعليتها ضد الحمى الصفراء وغيرها من الحميات التي كانوا يخلطون بينها ، وكانوا يصنعون للعلاج بدلاً منها لاسالة اللعاب الزئبق والنقاط واستنزاف الدم والكالوميل للتطهير . ولم تفلح هذه الوسائل ، إلا في قتل عدد أكبر كان سيكتب لهم البقاء أحياء لو أنهم لم يعالجوا على هذا النحو .

وبعد ذلك وفي سنة ١٨٢٠ ، نجح عالمان من علماء الكيمياء الفرنسيين (**) في فصل الكينين القلواني من شجرة الكينا . وابتداءً من حوالي ١٨٢٦ ، أجريت عدة تجارب ، وبخاصة من قبل أطباء البحرية الانجليز الراسين في ساحل افريقيا الغربية من بين المهتمين اهتماماً خاصاً بالأمراض الاستوائية . وبدأت نتائج بحوثهم تثبت احتمال قدرة الكينين على العمل كمحصن ضد الملاريا . وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، أمكن انتاج الكينين بسعر مهادد يسر شيوع استعماله . وضعف الإقبال على عملية الاستنزاف . وفي أربعينيات القرن التاسع عشر ، اتجه استخدام الزئبق والكالوميل الى التضاؤل . وما أن جاءت ١٨٤٨ حتى كان الأوروبيون المقيمون في الساحل الذهبي يحتفظون بأقراص الكينين قريبة من فراشهم لابتلاعها بمجرد ظهور أوهى علامة على بدء الإصابة بالحمى . وظهرت مؤلفات للثقافات في الموضوع (***) عن قيمة الكينين في علاج الحمى المتفجرة .

. Falciparum

(★) الملاريا

Joseph Blenaimé Caventou و Pierre Joseph Pelletier. (★★)

On the Value عن T.R.H Thomson كتاب الدكتور (★★★)

Dr Alexander Bryson of Quinine in African Remittent fever. Report on the Climate and Principal Diseases of the African Station On the Prophylactic Influence of Chinine. وكتب

وظهر البرهان الساطع ١٨٥٤ عندما تلقى ماكجريجور لايرد عقدا من رئاسة البحرية بتكليفه بإنشاء باخرة أخرى في حوض السفن الذي يملكه شقيقه جون . وسميت الباخرة « بالبلياد » ، وكانت مدرعة بالحديد ، ولها شراعان وحمولتها ٢٦٠ طنا ، ومجهزة بمحرك بخاري قوة ٦٠ حصانا يدير رفاصا . وكان قبطانها طيبيا يدعى وليم بالفور بابكي الذي كان يحرص كواجب ديني على إعطاء نزلاء السفينة من الأوروبيين أقراص الكينين يوميا . وأبحرت السفينة الى نهر النايجر ، ثم عادت أدراجها بعد اتمام رحلتها ، ولم يمت أحد .

وفتح التحصين بالكينين أبواب الغزو الأوربي لأفريقيا . فسرعان ما ظهرت في أعقاب الباخرة « البلياد » بواخر أخرى بدأت بالقيام برحلات منتظمة ذهابا وإيابا في نهر النايجر ، متخطية وسطاء الدلتا ، وناقاة التجارة الانجليزية . وانتهى الأمر بسيطرة الانجليز على الجزء الخلفي نيجريا ، وحمل المكتشفون من أمثال ريتشارد بيرتون وجون سبيك وجوستاف رولنس وفرنيه كامبيرون وهنري ستانلي معهم شحنات من الكينين . وأصيبوا جميعا بالمalaria ، ولكنهم برأوا منها ، وواصلوا رحلاتهم . وكان دافيد ليفنجستون يحمل معه أقراصا سماها باسم « أقراص ليفنجستون » مؤلفة من الكينين والراوند والكالونيل (*) . وكان يعطيها للبيض المرافقين له . وقد تعرض كثيرون منهم للإصابة بالمalaria ، ولكن قلائل منهم ماتوا . وعندما سرق من بعض الأقراص أثناء حملته الأخيرة ، كتب في مذكراته : « شعرت كأنني تلقيت حكما بالاعدام » . ومات بعد ذلك بفترة قصيرة .

واستعمل مستكشفون من أمثال ليفنجستون وستانلي وغزاة مثل دي برازا في الكونجو ودودز في داهومي وجنتيل في تشاد البواخر عندما سمحت لهم الظروف بذلك . فاذا راعينا وعورة تضاريس البلاد ، وأشجارها وغاباتها الكثيفة في الكثير من ربوع أفريقيا ، سيتضح لنا أنه كان من الصعب على الأوروبيين التغلغل في القارة بسرعة أو السيطرة عليها سيطرة كاملة ، لو أنهم أقدموا على ذلك سيرا على الأقدام . ومن المؤكد أنهم ما كان بإمكانهم أن يفلحوا في ذلك البتة بغير تناول العقاقير المضادة للمalaria . وهكذا بلغ الاقبال على الكينين شأوا كبيرا بحيث عجزت أشجار بيرو التي يستخرج منها على الاستجابة لكل الاحتياجات التي تطلب منها . وفي ١٨٥٤ ، أي في نفس السنة التي شهدت تحرك عملية « البلياد » شرع الهولنديون في زراعة شجرة لحاء الكينا (**) في جاوة باستخدام بذور مهربة من بوليفيا ، وبعد ذلك بست سنوات زرع الانجليز هذه الشجرة

(*) ومادة أخرى تدعى resin of julep

Cinchon

(***)

فى الهند ، وفى مشارف القرن العشرين ، كانت جميع احتياجات العالم من الكينين تقريبا تستورد من هاتين المنطقتين . وهكذا مهدت الحركة الاستعمارية الأوروبية فى آسيا شرطا لا غنى عنه لحركة الزحف على إفريقيا (*) .

وتمثل البواخر ومحصات الكينين نوعى التكنولوجيا اللذين نجحا فى التصدى لمعوقات الطبيعة . غير أن الأوربيين عندما أقدموا على المخاطرة فى مواقع أخرى ، فإنهم تعرضوا لمقاومة الأهالى الوطنيين . وتطلبت هذه المقاومة الالتجاء لقوة الأسلحة والتكتيكات ، وبذلك يكون تاريخ الاستعمار قد سار فى خط مواز لتطور فن الحرب .

ولقد اعتمد تفوق الأوربيين فى الحروب البرية على أسس ترجع الى عهد بعيد ، غير أنه فى الأماكن القصية من العالم ، حيث يتمتع الوطنيون بمميزات التفوق فى العدد ومعرفة الأرض ، لم تقتصر حاجة «الامبريالية» على ميزة التكافؤ فى جميع المقومات ، ولكنها كانت تحتاج الى التفوق الساحق والتفاوت الكبير فى القوة ، الذى يساعد القوات مهما تضائل عددها - حتى فى مناسبات الاستكشاف الفردى وجماعات الاتجار - على امكان التغلب على مقاومة الوطنيين . ولم تتكشف هذه الدرجة من التفوق الى أن جاء منتصف القرن التاسع عشر ، كنتيجة لما حدث من ثورة فى الأسلحة النارية .

فلم يسبق لأى عصر فى التاريخ أن أحدث تطورا مذهلا فى أسلحة المشاة يتشابه مع ما حدث فى القرن التاسع عشر . فمن ناحية قوة النيران المؤثرة ، يعد الفارق بين بندقية الحرب العالمية الأولى وغدادة مسكيت فى عهد نابليون أعظم من الفارق بين « مسكيت » نابليون والقوس والسهم . وخلافا لما حدث فى حالة التحصين باستعمال الكينين واستخدام البواخر النهرية ، تطورت البندقية الحديثة اعتمادا على استخدام الأوربيين والأمريكان لها ، وكانت الاستعانة بها فى الحرب الاستعمارية مجرد شئ هامشى عابر ، ولكن من سخریات القدر ، أن تغير هذه التكنولوجيا الحديثة توازن القوى فى العالم غير الغربى أكثر مما حدث فى الغرب ذاته .

ويعزى تطور المدفع الحديث الى سلسلة معقدة من الخطوات التقسيمية الصغيرة ، اشتركت فى خطوها مصادر عديدة شتى ، يرجع بعضها لقرون خلت ، وبمقدورنا أن نفرق بين مرحلتين . ففي المرحلة الأولى ساعدت مبتكرات مثل غطيان الطابة والششخنة والطلقات الاسطوانية والحراطيش

المصنوعة من الورق على بلوغ عملية تعميم المدفع قمة الكمال . وبدأت المرحلة الثانية بعد ظهور عملية التعميم من ناحية الترباس بفضل البروسيين ، وبلغت ذروتها في المدفع ماكسيم . ولم يكن الانتقال من عملية التعميم من فوهة الماسورة الى عملية التعميم من النهاية الخلفية للماسورة في ستينيات القرن التاسع عشر ، خطوة تقدمية بسيطة في عالم التكنولوجيا فحسب . فقد زادت الفجوة اتساعا في القوة الى حد مذهل بين الأوربيين وباقي الشعوب ، وأدت الى تفجر النزعة الامبريالية في نهاية القرن . ولو أردنا فهم أهمية هذا التحول الخطير ، علينا أن نتمعن في بحث حال الأسلحة والتكتيكات الأوربية وغير الغربية ، وما ترتب على ذلك من تفاوت في القوة قبل ستينيات القرن التاسع عشر وبعدها .

ففي بداية القرن التاسع عشر ، كان السلاح العياري لجندى المشاة هو المسكيت التي تعمر من فم الماسورة ذات السطح المصقول ، والتي يستطيع تثبيت السونكي عليها . وكانت البندقية (بس) بكسر الباء ، البنية اللون التي استعملها الجنود البريطانيون حتى ١٨٥٢ ، هي نفس السلاح الذي استخدمه جنودهم في بلنهام ١٧٠٤ . وكان المدى الرسمي لهذه البندقية ٢٠٠ ياردة يعنى ١٦٠ مترا ، وان كانت لا تتصف بالدقة حتى اذا صوبت على نصف هذه المسافة ، مما دعا الى اصدار الأوامر للجنود بالكف عن اطلاق النيران ، ما لم يروا بياض عيون أعدائهم ! . وبالرغم من كل هذا فانهم كما يقول صانع هذه البندقية (*) ، كانوا يطلقون كميات هائلة من الرصاص ، تتماثل في وزنها هي ووزن الجندى ، على كل عدو تصوب عليه لقتله ، ولما كان تعميم الماسورة يستغرق - عادة - دقيقة او أكثر ، لذا أثبتت هذه البندقية فائدتها كبلمة أكثر من نفعها كبندقية .

وكان أبكر تعديل أدخل على أسلحة المشاة هو شمشخنة ماسورة البندقية ، مما ساعد على دوران الطلقة حول محورها ، وانطلاقها في خط مستقيم . وكانت الفكرة قد اختبرت طويلا في البنادق الرياضية والبنادق التجريبية . فقد استعمل الجنود الأمريكان في حرب الاستقلال بنادق للصيد كان بالامكان تصويبها تصويبا مؤثرا لمسافة مائتى ياردة (١٦٠ مترا) أى ضعف مدى البندقية براون بس تقريبا . وتسارع بالمثل بعض الجنود الفرنسيين في الثورة ببنادق شمشخنة ، وجرى شئ مماثل في بعض وحدات قليلة من الجيش البريطاني ، غير أن بنادق بواكير القرن التاسع عشر ، كانت حافلة بأوجه النقص ، مما جعلها غير صالحة للحرب الجماعية ، اذ كان من الصعب تعميم الطلقات الكبيرة نوعا حتى تستطيع

الدوران دورانا صحيحا ، الى جانب سرعة اصابة الماسورة بالتلف مما يصعب تعيرها ، واذا كان بمقدور ممارسي الرياضة توجيه عناية خاصة الى بنادقهم والانتباه الى كل ما تستلزمها ، فان الجنود العاديين لا تتاح لهم فرصة مماثلة ، وبخاصة عندما يلتهب جحيم المعركة . وهذا يفسر لماذا استبعدت جحافل الكتل البشرية المتراصة في حروب نابليون البندقية . وبالرغم من كل هذا استمرت تجارب البنادق المششخنة ، وتساحت بها الوحدات الخاصة مثل لواء البنادق البريطاني (*) .

وحدث التقدم المهم الآخر في غطاء الطابة . فقبل أوائل القرن التاسع عشر ، كان البارود يشعل عن طريق ديك الصوانة ، وهي وسيلة لا تناسب أى جو غير الجو الجاف ، واستحدث الكسندر فورسايت استخدام الفرقة في عملية اشعال البارود . وفي ١٨١٦ ، سجل توماس شو اختراع غطاء الطابة ، وفي الاختبارات التي أجراها مكتب وولويش للجيش البريطاني ، لم يكذب اشتعال غطاء الطابة للبندقية برونزويك الا بنسبة ٤١ في كل ألف طلقة بالمقارنة بـ ٤١١ في الألف في حالة ديك الصوانة ، وتمخضت هذه الاختبارات عن تسليح وحدات بريطانية منتقاه ١٨٣٦ ببنادق برونزويك . وبالإستطاعة الحكم على تأثير هذه البنادق من التقرير الآتي عن احدى المعارك التي دارت بالقرب من كانتون ١٨٤١ : « هناك سرية من جنود الجيش البريطاني الهندي مسلحة بمسكيت تشتعل عن طريق ديك الصوانة التي لا تبلى بلاء حسنا في الجو المطير ، وقد حاصرت بضعة آلاف من الصينيين هذه السرية . وكانت مهددة بالخطر عندما أمرت سريتان من جنود البحرية المسلحة بمسكيت بغطاء الطابة بالتدخل ، فتشتت العدو على الفور بعد أن تكبد خسائر فادحة » .

وثالث تقدم مهم هو الطلقة الاسطوانية المخروطية التي صممت للتغلب على عدم دقة التعير من فم الماسورة ، ومن المنظور المثالي ، يتعين أن تتصف الطلقة بصغر الحجم حتى تنزلق بسهولة في الماسورة ، وان يجب أن يتوفر لها الحجم المناسب للتملص من الششخنة عند انطلاقها من الماسورة ، ولقد تركزت المحاولات الأولى على دفع الطلقة للتمدد لحظة اطلاق النار . ومن بين المحاولات الموفقة البندقية «ميني» (*) ، التي تميزت بطلقتها بطولها وطرفها المدب ، وبشمعة مؤخرتها التي تساعد على التمدد . ولم تقتصر مميزات طلقة ميني على تعسيقها في الششخنة ،

Chasseurs d'Orléans

(*) وتساحت أيضا في الجزائر ١٨٣٠ وحدة

(ملاردى اورليانز)

Minie

(**)

وقدرتها المسننة على البوران ، ولكن شكلها الانسيابي مباعدها على الانطلاق في خط مستقيم . وجاءت النتائج مذهلة . اذ استطاعت البندقية ميني أن تصيب الهدف على بعد ١٠٠ ياردة في ٩٤ر٥٪ من الوقت بالمقارنة بـ ٧٤ر٥٪ في حالة البندقية برونزويك ، وفي حالة ربعائة ياردة جاءت الأرقام ٥٢ر٥٪ و ٥٤ر٥ على التوالي ، وفي عام ١٨٤٩ وزعت بنادق ميني على وحدات الجيش الفرنسي ، ثم وزعت بعد ذلك بعامين على القوات البريطانية ، ولما كانت أوروبا حينذاك تنعم بالسلام لذا دعت الضرورة الى اختبار الأسلحة الجديدة في موضع آخر . وأرسل الفرنسيون إحدى وحداتهم (*) لمحاربة الجزائريين باستعمال بنادق ذات طلاقات طويلة مستحدثة ، واختبر البريطانيون البنادق ميني ضد الأفريقيين في معركة الكفرة ١٨٥٢ ، وبلغت هذه المرحلة من تطور البندقية ذروتها بين ١٨٥٢ و ١٨٥٣ عندما استعاض الجيش البريطاني ببندقية براون بسى ببندقية لي أنفيلد ، التي كانت تطلق أحدث أنواع الطلاقات ، وكانت هذه أول مرة تصنع فيها البندقية الحربية الأوروبية على غرار الأسلوب الأمريكي الذي يسمح بتبديل الأجزاء بقطع غيار ، وكانت ميزتها الكبرى مشابهة لميزة البندقية ميني الفرنسية ، أي مماثلة لها في الدقة ، إذ كان مداها الرسمي ١٢٠٠ ياردة ، أما مرماها المؤثر فبلغ ٥٠٠ ياردة ، وتمثل هذه الأعداد خمسة أو ستة أضعاف مرمى البندقية براون بس .

ورغم المرمي المذهل لهذه البنادق الحديثة ، إلا أنها اتصفت ببطئها ونقل وزنها ، وكان الجنود يحتاجون الى دقة كاملة لاعادة التعمير والوقوف ، ويؤدي ذلك الى تعرضهم لنيران العدو ، وهناك عيب آخر : السحب الدخانية التي تتصاعد من البنادق فتكشف الجنود ، بالإضافة الى الأخطاء الشنيعة في دقة اصابة الهدف ، والخرطوشة الورقية الرقيقة الشديدة التأثير بالجو الرطب ، وكان من الصعب اطلاقها أو اعادة تعميمها أثناء الجري أو عند امتطاء الجياد ، وبعد أن استخدمت في الحروب والمخاطر الامبريالية الأوروبية ، سرعان ما احتجبت بعد ظهور البنادق التي تعمر من الترياس .

وفي افريقيا ، اضطلعت البندقية بدور مكمل للدور الذي بدأه التحصين بالكيتين ، وقد سجل تأثيرها في بعض المجلات والكتب . على أن البندقية لم تكن بالشئ المستجد على معظم افريقيا ، فقبل ١٨٣٠ ، كان أهل الجزائر يصنعون بنادقهم بأنفسهم ، ويستعينون أحيانا

(*) وتسمى Chasseurs d'Afrique (قناصة افريقيا) ، وكانت تسمى قبل ذلك Chasseurs d'Orleans.

بمواسير وخزائن وسقاطات أوربية ، أما الأسلحة الأرخص والأكثر شيوعا فكانت تصنع بالكامل في افريقيا . وأدخل البرتغاليون والعرب الأسلحة النارية في الصحراء الجنوبية . وفي هذه البقاع ، قادرا ما صنع الافريقيون بنادقهم ، فقد أدى افتقارهم الى السواقي اللازمة لإدارة الكير في أعمال الحدادة الى عجزهم عن الحصول على درجة حرارة عالية تساعد على صنع المواسير الحديدية ، أما القاطنون قرب السواحل ، فانهم لم يصادفوا أية مشقة ، للحصول على البنادق والذخائر من التجار الأوربيين . وكانت أكثر البنادق شيوعا « البنادق الدانمركية » (*) التي كانت رخيصة ورديئة المصنعية وقابلة للتفجر ، الا أنها كانت مناسبة لحالة التكنولوجيا السائدة ، اذ كان بمقدور حطادي القرية اصلاحها عندما تصاب بعطب ، ولما كان البارود الافريقي غير مقدد ، لذا اتسم بقدر من الضعف مما جعله لا يتناسب وهذه الأسلحة ، ولكن رغم وداعة هذه الأسلحة ، الا أنها كانت أفضل حالا من الأسلحة الصينية التي استعملت في حرب الأفريون الى جانب « خزانة الايراء » (**) والرماح والسهام والأقواس والجينجال . ولما كانت جميع الأسلحة النارية التي استعملها الافريقيون مستوردة لذا ازدادت البنادق ندرة كلما توغلنا بعيدا عن الساحل . ومن المنظور العسكري ، كان داخل افريقيا ينقسم الى قسمين : ففي دول السافانا ، تقل اصابة الخيول بمرض النوم الفتاك . وفي هذه البقاع ، كان الفرسان هم عماد الجيش ، ويرتدون لباسا كالدثار أو مصنوعا من الجلد ، ويتسلحون بالدروع والسيوف والرماح . وتحمل قوات المشاة الأقواس والسهام والبلطات القتالية والهراوات والمزاريق . وتقام الأسوار والحنادق لحماية المدن ، وكانت الأسلحة النارية قليلة ومكلفة ، والذخيرة والبارود باهظي الثمن ، مما صعب استعمالها للتدرب على اصابة الهدف . وحرص بعض الحكام على عدم تسليم جنودهم البنادق الا في حالات اندلاع القتال فقط ، خشية تصرفهم فيها بالبيع ، وعلى الرغم من تصرف السودانيين على الأسلحة النارية منذ قرون طويلة ، الا أن دول السودان كانت قد دخلت بالكاد في عصر البندقية ، عندما اعترض الأوربيون سبيلها .

وفي مناطق الغابات وشرقي افريقيا وجنوبها ، ندر وجود الفرسان ، وكانت أنظمة بلدان المناطق الشاسعة مفككة ، واقتصر حمل السلاح الناري فيها على البدو الرحل والمسافرين والتجار الأوربيين ، وكانت

Dane Guns

Match Locks.

(*)

(**)

الأسلحة المفضلة هي الرمح والقوس والسهم المسسم والرمح المقدوف (*) .

وقبل ستينات القرن التاسع عشر ، كان المرضى وابتعاد الأوربيين عن مواطنهم الأصلية هما اللذين يحميان مناطق افريقيا المسلحة بأسلحة متخلفة . ولم يتجراً الأوربيون على الابتعاد عن الساحل الا في بقاع قليلة ، ففي حرب أشانتي ١٨٢٦ ، وأيضاً في الحرب الانجليزية البورمية الأولى وحرب الأفيون ، تحقق النصر للانجليز بفضل المدفعية وقذائف كونجريف ، واعتمدوا اعتماداً كبيراً على المياه المنقولة . أما تاريخ جنوب أفريقيا في مشارف القرن التاسع عشر فكان عبارة عن بعض المضايقات والمشاكسات التي استمرت طويلاً بين عدد قليل من البيض المسلحين بالمسكيت وعدد كبير من أهل افريقيا المسلحين بالرمح المقدوف والباط والقليل من البنادق ، ولم تتوقف هذه المشاكسات الا بعد أن حصل البيض بعد منتصف القرن على بنادق تعمر من ناحية الترباس ، وعلى مدافع ميدان .

وعندما هاجم الفرنسيون الجزائر ١٨٣٠ ، اكتشفوا تسليح القوات الجزائرية والتركية بالمسكيت وبنادق مائية لبنادقهم ، وغالباً ما تميزت بدقتها في التصويب على مسافات بعيدة ، وما لبث سكان المناطق البعيدة عن الساحل أن هبوا تحت قيادة الأمير عبد القادر الذي اشتهر بالفطنة والحنق في تزعم حرب العصابات ، واضطرت فرنسا عند غزوها الجزائر الى ارسال موجات متلاحقة من القوات ، وما أن اقتربت ١٨٤٦ ، حتى بلغت قواتها ١٠٨٠٠٠ رجل ، أي ثلث الجيش الفرنسي ، وكانوا يحاربون جيشاً مؤلفاً من نصف عددهم من الجزائريين . وثمائل الطرفان (الجيش الفرنسي وجيش عبد القادر) في التسليح بأحدث البنادق ، وفي أحد المواقف ، كان لدى جيش عبد القادر ثمانية آلاف بندقية ، من بينها ألفان من البنادق الانجليزية المهربة عن طريق مراكش ، واستمرت فرنسا تقاتل حروباً ضروسة مريعة زهاء عشرين سنة ، لفرض سيطرتها على هذه المستعمرة الجامحة ، وربما اتخذ فتح الجزائر مثلاً للامبريالية التي حققت مهمتها دون انتفاع بالتفوق التكنولوجي . اذ كانت الدوافع موجودة ، كما توفر الاستعداد للتضحية بكل مرتخص وغال وبالأفراد ، أما ما افتقر اليه الفرنسيون فكان المميزات التي وفرتها المستحدثات التكنولوجية للأوربيين في فتوحاتهم وغزواتهم الامبريالية الأخيرة .

أما أهم هذه المستحدثات فهو عملية تعميم البندقية من ناحية الترباس . وفكرتها بسيطة . فإذا أمكن فتح البندقية من ناحية الخزنة ، سيكون بالمقدور آتئذ إعادة التعمير بسرعة وأثناء الانبطاح على الأرض ، والأهم هو إمكان استعمال طلقات أصلب وأكثر تماسكا ، وبذلك تزداد فاعلية شحنة الماسورة ، ويزداد مرمى النيران وتزداد دقته . ويعد هذا الابتكار من المبتكرات التي استغرق تطويرها قرونا طويلة الى أن أثبتت فاعليته في نهاية المطاف ، ومساعد على فتح الطريق أمام خطوات أبعد ارتقاء .

وظهرت أكبر عمليات التعمير من ناحية الترباس للأغراض العسكرية في القرايينة (*) ، التي استعملت في الحرب المكسيكية الأمريكية ١٨٤٨ وفي إحدى البنادق (**) ذات الترباس والابرة التي استعملها الجيش البروسي في أربعينيات القرن التاسع عشر وخمسيناته ، واستمرت بعض البلدان تنظر الى هذه الأسلحة بقدر كبير من الإعجاب والانبهار ، كما يشهد بذلك اختيار الانجليز للبندقية لي أنقليد التي تعمر من فوهة الماسورة ١٨٥٣ ، غير أنه في حرب البروسيين مع الدانمراك ١٨٦٤ وفي حربهم مع النمسا ١٨٦٦ ، اكتسبوا من استعمال البندقية ذات الترباس الذي تبرؤ منه ابرة ضرب النار ميزتين كبيرتين : فلم يقتصر الأمر على إمكان إطلاق الجنود البروسيين النيران بسرعة تزيد ثلاث مرات على سرعة أعدائهم ، ولكنهم تمكنوا من تحقيق ذلك أثناء الوضع راقدا والوضع مرتكزا ، وما كاد التعمير عن طريق خزنة البندقية يثبت وجوده في المعركة ، حتى رأينا الفرنسيين يتجهون الى إعادة التسليح بإحدى بنادقهم العتيقة (**) ، التي أثبتت أفضليتها وتفوقها حتى على البندقية الألمانية ذات الابرة . أما البريطانيون الأكثر جنوحا الى النزعة المحافظة فقد حولوا بنادقهم (لي أنقليد) الى بنادق تعمر من الطرف الخلفي للماسورة عند الخزنة وزودوها بآليات سنايدر المائلة ، وبمسد أن أثبت التعمير عن طريق الطرف الخلفي للماسورة فاعليته في الحرب الفرنسية البروسية اتجهت جميع الجيوش الأوروبية الى اتباع هذه الطريقة .

وكانت البنادق الحربية التي تعمر من الطرف الخلفي للماسورة سريعة التعطل ، والتعرض لتسرب الغازات الساخنة من خلال الماسورة ، وكلما ازداد تعطلها ، ازداد تسريبها للغازات ، حتى اضطر الجنود لحملها

يطول ذراعهم عند اطلاق النيران . وأثرت هذه الطريقة كثيرا على كفاءتهم وأدركت المعامل الملكية الانجليزية في ووليتش ، لالتى أجرت اختبارات عديدة على التعمير من الطرف الخلفى للماسورة أن الضعف يرجع الى استعمال خراطيش من الورق . واكتشفت قيمة استعمال خراطيش من المعدن تساعد على حل هذه المشكلات . وفى ١٨٦٦ ، ابتكر الكولونيل بوكسر من العاملين بالمعمل خرطوشة من النحاس تحفظ الطلقة والبارود وغطاء الطبقة معا ، وتميزت بصلابتها وعدم نفاذ الماء بداخلها ، وأهم من ذلك أنها تحكم اغلاق الماسورة أثناء الانفجار ، وتسمح بالتصويب الدقيق ، وكانت البندقية سنايدر - انفيلد (١٨٦٧) هى أول بندقية حربية فى هذا الابتكار الجديد . وجاء مرماها مذهلا . فبينما سجلت البندقية ذات الترباس وابرة ضرب النار (الألمانية الأصل) مدى يصل الى ٣٥٠ ياردة يعنى ٣٠٠ متر وسجلت الشاسبو (٦٥٠) ياردة يعنى ستمائة متر تقريبا ، سجلت سنايدر - انفيلد رقما قياسيا بلغ ألف ياردة . وتنافست جميع الجيوش الأوربية على انتاج أسلحة مبتكرة بمقدورها استعمال الخرطوش المعدنى الجديد . وفى سبعينات القرن التاسع عشر ، تسليح الجنود البريطانىون ببندقية مارتينى - هنرى ، وتسليح الفرنسيون ببندقية جراس ، أما الألمان فتسلحوا ببنادق ماوزر .

وفى الثمانينات ، ظهر ابتكاران بلغا بصناعة البنادق الكمال . وكان أحد هذين الاختراعين هو المتفجرات بلا دخان ١٨٨٥ ، وفيه استخدم نوع من البارود قوامه القطن المفرق (النتروسيلوز) والنتروجلسرين ويتميز بعدم تكذيب طلقاته ، وعدم نفاذ الرطوبة فيها ، وتفوقه على البارود فى القوة ، وبمقدوره دفع الطلقات الأصغر بسرعة أكبر وخط مرور مسطح ، وبذلك أصبح باستطاعة الجنود إطلاق النيران دون الكشف عن موقعهم ، ودون تعرض للاعاقة من السحب والدخان . وبين ١٨٨٦ و ١٨٩١ ، تخلت جميع الجيوش الأوربية عن البارود القديم ، بل وابتكر البريطانىون نوعا أكثر ثباتا من المفرقات (الكورديت) يصلح للاستعمال فى أجواء المستعمرات الشديدة الحرارة .

وثانى اختراع هو الخزنة وتكرار آلية التعمير . وكانت البنادق التى تعيد التعمير موجودة أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، ولكنها كانت أميل الى التفجر عند حدوث تلامس طلقة بطلقة أخرى . وفى ١٨٧٧ سجل الساعاتى الاسكتلندى جيمس لى امتياز اختراع خزنة آمنة ، سرعان ما انتقل استعمالها الى كل الجيوش الكبيرة الأخرى ، وفى ١٨٨٠ تخلى الفرنسيون عن طراز « الجراس » ، واتبعوا آليات إعادة التعمير التى ينسب ابتكارها الى كروباتشيك ، الذى أجرى تعديلات فى « آليات (الجراس) » . وفى

١٨٨٦ ، استعاضوا عن النظامين باليات « ليبل » ، واختبرت جميع هذه الأسلحة في السودان . وفي ١٨٨٤ ، أدخل الألمان طريقة التعمير من الخزانة إلى بنادقهم الماوزر ، بينما خطا البريطانيون خطوة مماثلة لتعديل مختلف بنادقهم (*) . وما جاءت التسعينات حتى عفا الزمان على جميع البنادق المنفردة الطلقات في جميع ربوع أوروبا .

ولم يكن مستغربا منطقيا أن تؤدي البندقية التي تعيد التعمير إلى اختراع الرشاش ، وظهر أول رشاش « جاتلينج » في الحرب الأهلية الأمريكية ، وقبل الحرب الفرنسية البروسية اخترع الفرنسيون المتريليوز (**) . وجميع هذه الرشاشات متعددة المواسير ، وتحمل باليد ، ولا تختلف عن مدفعية الميدان في صعوبة تشغيلها في أي موقع قريب من مدى نيرانها . وفصلا عن ذلك ، فكثيرا ما تصاب بالأعطال وهي في « عز » المعركة . واشترى البريطانيون عشرة رشاشات جاتلينج ١٨٦٩ . وفي ثمانينات القرن ، زودوا سفنهم الصغيرة ومستعمراتهم بهذه الرشاشات . وفي ١٨٨٤ ، ابتكر هيرام ماكسيم أول بندقية قادرة على إعادة التعمير الذاتي ، بطريقة آلية صحيحة . وتميزت بخفة الوزن مما ساعد على سهولة حمل الجندي لها ، واحتلالها أي موقع دون أن ترى . وكانت قادرة على قذف ١١ طلقة في الثانية . وفي السنة التالية زار اللورد ولزلي الذي فتح آسانت مصانع ماكسيم ، وأعرب عن فائق إعجابه بالمهام التي تستطيع البندقية النهوض بها ، وبخاصة في حرب المستعمرات ، وقدم جملة مقترحات للمستمر ماكسيم ، وأثبت الرشاش ماكسيم قدرته على إحراز نتائج حاسمة في حروب المستعمرات في منطقتي القرن ، يتماثل ودور البندقية مريعة الطلقات في السبعينات والثمانينات .

وجاءت آخر خطوة في تقدم تطور البندقية كاستجابة لاحتياجات الإمبراطورية ، وكما قال المؤرخان اللذان عنيا بكتابة تاريخ البندقية (***) « . لقد رفضت القبائل الهمجية التي اشتبكنا في القتال معها دوما الانصياع والرضا بالطلقة نيرة ٢ . والواقع أنها كثيرا ما تجاهلتها تجاهلا تاما ، وبعد إطلاقها من أربعة أو خمسة مواقع سقطت في مواضع قريبة أثارت عذم الارتياح » . واهتدى نقيب يدعى برتنى كلاي من هيئة الذخائر في الهند في دوم - دوم إلى الحل الذي يقضى على هذا الابتعاد عن الارتياح . وكان هذا الابتكار هو الطلقة المعدة على طريقة عش الغراب

Lee-Metford, Lee-Burton, Lee-Enfield.

Montigny

Ommundsen and Robinson

(*)

(**)

(***)

التي سميت باسم « دوم - دوم » ، وأحدث هذا الاختراع بالذات آثارا شريفة ، لأنه كان يخترق الجسم ، ويحدث ثقوبا واسعة فيه مما دفع الأوروبيين الى اعتبار اصابة الأوربي لأخيه الأوربي ضربا من القسوة ، ولكن لا بأس من استعماله في الحروب الآسيوية والأفريقية لاصابة الوطنيين !

واكتملت ثورة البندقية في تسعينات القرن ، وتسنى لمعظم المشاة الأوروبيين آنثذ اطلاق ١٥ طلقة من الرصاص في بضغ ثوان ، والرقود دون أن يراهم العدو ، في أى مناخ ، ولدى قد يصل الى نصف الميل (ثمانمائة متر) . وربما حقق استعمال الرشاشات ما هو أكثر ، وبذلك انتهى عصر الشجاعة الصحيحة والصلب ، وبدأ عصر سباق التسليح وصناعة الآلات الفتاكة ، وان كان كبار الجترالات لم يتنبهوا لذلك لسنوات طويلة .

تتمثل ثورة البندقية هي وأى اختراع تكنولوجي آخر في عدم إمكان حصر الكلام عنها على مخترعيها . بيد أن انتشار البنادق الجديدة والتكتيكات الجديدة يعد عملية بالغة الصعوبة والتعقيد قد جعل منها نموذجا لدراسة كيفية انتشار التكنولوجيا تحت ضغط الضرورة والحاجة ، ففي الصين ، أدت هزيمتها مرتين في حربين ضد القوات الأوربية ، والصراع ضد الثوار (*) الى دفع كثيرين الى اعادة النظر في أسطورة التفوق الصينى في المسائل التكنولوجية والعسكرية ، وفي الستينات وبعد ذلك ، أقنعت « حركة التعزير الذاتى » الحكومة بشراء المدافع الغربية والسفن الحربية الغربية وانشاء أخواض للسفن وترسانات لصنع الأسلحة ، غير أن هذه المحاولات تعرضت للتعويق من أثر نقص الاعتمادات المالية المخصصة لتمويلها ، وفي ١٨٨٥ ، عندما شاهد المبعوث الصينى فى لندن (لى هوانج شانج) بندقية ماكسيم صرح بعدم قدرة الصين على تحمل نفقات سلاح يستهلك ما قيمته خمسة جنيهات ثمنا للخرطوشات (أو الطلقات) التي تطلق كل دقيقة . وكان نصف الجنود الصينيين حينذاك يحملون بنادق تعتمد على « خزانة الايراء » ، وربعهم يحمل بنادق من التي تطلق « بديك الصوان » . ولم يزد عدد المسلحين ببنادق تعمر من الطرف الخلفى للماسورة عن الربع ، أما انقوات الاحتياطية فليست مجهزة بأية أسلحة نارية على الاطلاق مكتفية بحمل الرماح والأقواس والسهام . ولما بعد ، وعندما حدثت ثورة بوكسر ١٩٠٠ ، تمكنت قوة روسية من مهاجمة بكين مستخدمة رشاشين وأربعة مدافع

ضد آلاف من الجنود الصينيين المسلحين بالمسكيت • وفى النهاية لعل اخفاق حركة « التعزيز الذاتى » يرجع الى انحلال زعامة هانشو والطبيعة المحافظة للمجتمع الصينى »

ونسللت ثورة البندقية الى افريقيا فى أشكال مختلفة • فبعد أن أعاد الأوروبيون تسليحهم بالبنادق التى تعمر من الطرف الحلقى للماشورة فى الستينات والسبعينات ، وبالبنادق التى تعيد تعمير نفسها فى الثمانينات ، تخلوا عن مقادير هائلة من الأسلحة الزائدة عن حاجتهم للوطنيين ، واستطاع الكثير من الأسلحة ، شق طريقه الى افريقيا عن طريق التجارة أو البحارة عبر افريقيا • وفى المناطق التى احتاج فيها الأوروبيون الى عمال أفارقة — كما حدث فى جنوب افريقيا فى خمسينات القرن التاسع عشر وبعد ذلك ، كثيرا ما لم يكن بمقدورهم الحصول على هذه الخدمات الا فى مقابل بيع الأسلحة • وفى كل مرة استطاع المستعمرون البيض الحصول على أسلحة جديدة ، اهدى جيرانهم السود الى السبل التى تمكنهم من الحصول عليها أيضا • غير أن البيض سواء أكانوا مستعمرين أو من العسكريين أو المبشرين ، كان لديهم مبرر للخوف من حصول الأفارقة على الأسلحة ، وحاولوا الحد من بيعها • ولقد نص قرار اجتماع بروكسل ١٨٩٢ على الربط بوضوح بين مصالح الأوروبيين وثورة البندقية ، كما يبين من الكثير من التعليمات التى كانت تصدر حينذاك • كقصر بيع البنادق ذات الزناد وديك الصوان على الأفارقة الذين يعيشون بين خط العرض ٢٠ شمالا وخط العرض ٢٠ جنوب خط الاستواء ، وتحريم بيع البنادق التى تعمر من الطرف الحلقى للماشورة تخريفاً قاطعاً ، غير أن هذه القيود لم تزد عن كونها قيوداً شكلية أو رمزية • اذ كان ما يهم الأفارقة فى نهاية المطاف هو الحصول على التكنولوجيا الأكثر تقدماً ، وشراء القدرة التى يتمتع بها الأوروبيون •

وتميزت الأسلحة الجديدة فى الستينات وبعد ذلك بشدة فاعليتها وفتكها ، بحيث استطاع من يملكها فى كثير من الأحيان أن يحصل على مآربه بمجرد التلويح والتظاهر بامتلاكها • فمن بين المكتشفين الأوروبيين لافريقيا كان بعضهم (*) يحققون أهدافهم عن طريق مصادقة الأهالى الذين يزورونهم ، غير أن هناك آخرين اضطروا الى شن حملات شبه عسكرية مثلما فعل صمويل وايت بيكر ، مكتشف منابع النيل برفقة ألف من

الرجال وقدر كاف من الأسلحة والذخائر تكفى للاستعمال سنوات طويلة ، واكتشف ستانلى الكونجو بمعاونة حملة مؤلفة من مئات الأفراد ، ولم يتردد عن استعمال البنادق المخصصة لصيد الأغنيال والمفجرات ضد أفارقة لم يروا مثل هذه الأسلحة النارية البتة . وبين هذين الطرفين المتقابلين ، كان معظم المكتشفين يحملون بندق قليلة ، لصيد الوحوش « وتهوئش » المواطنين بها ، واكتسب أحد السنغاليين الذين رافقوا مكتشفا فرنسيا ، كان الممثل الوحيد لفرنسا فى الكونجو شهرة واسعة بفضل استعماله لبندقية ونشستر التى تعيد تعمير نفسها ، واشتهر أيضا لبراعته بالصيد بها ، وكان جوستاف رولفس عندما يتجول فى شتى أنحاء جزيرة بورنيو يهدد الأهالى الوطنيين بين الفينة والأخرى ببندقيته . واعتمد هاوبتمان كلنج فى اكتشافه لغانا الوسطى على رشاش كان يحطم به جدران الأكواخ ويثير الهلع ، ولم يكن الفارق بين السسيح والغزاة مشوبا بالغموض مثلما كان فى أواخر القرن التاسع عشر فى أفريقيا .

وعند اقتراب القرن من نهايته ، تزايد ابتعاد الممارك الاستعمارية عن طابعها المهود . ويرجع ذلك الى الارتقاء المتواصل للأسلحة الأوربية ، ولابتعاد المناطق الافريقية المستولى عليها فى كثير من الأحيان عن السواحل مما جعل الحصول على الأسلحة الحديثة أمرا شاقا . وفى حروب الستينات ، كالحرب التى نشبت بين الاثيوبيين والبريطانيين ، أو بين دولة أورانج وسوثو ، كان لدى الأوربيين بندق تعمر من الطرف الخلفى للماسورة ومدفعية ميدان ، بينما لا يملك الأفارقة غير المسكيت والرماح ، نعم لقد كسب الأوربيون الممارك ، ولكنهم لم يحسبوا الموقف كما ينبغى بالاستيلاء على الأرض . وفى العنبريغات والثمانينات ، قام سياسة أوربا من قبيل التظاهر والعتجبية والاطمئنان على نحو لم يعهد من قبل فى حوليات الغزاة برسم خطوط على خريطة أفريقيا تبين المواقع التى ستقع فيها غزواتهم مستقبلا ، ولم يكن ما أقدموا عليه الا انعكاسا لايمانهم بالقوة المطلقة للأسلحة الأوربية ، وقدرتها على سحق أية مقاومة وطنية ، وفى حرب أشانتي (١٨٧٣ - ١٧٨٤) وحرب الزولو ١٨٧٩ ، أثبتت انتصارات الوحدات الأوربية والوحدات التى يقودها أوربيون على الجيوش الافريقية المؤلفة من عشرات الألوف ، الى حد تميزت بنادق البجاتلنج والبنادق التى تعمر من الطرف الخلفى للماسورة تفوقها وقوتها ، وفى ١٨٨٧ ، سحق جيش فرنسى مؤلف من ١٤٠ مسلحا (*)

بينادق تكرر تعميمها ، محمود الأمين ، واضطلعت الرشاشات ماركة جاردنر ونوردنفلت بنور مهم في عملية احتلال مصر (١٨٨٢ - ١٨٨٤) .

وفي التسعينات ، وبعد أن قاومت القيادات العليا بقوة الاستعانة بينادق ماكسيم في جيوشها الأوروبية ، وافقت على ارسال بعضها الى المستعمرات . وحولت هذه البنادق هي ومدافع الميدان والبنادق التي تعمر من الطرف الخلفى للماسورة متعددة الطلقات هذه المراكز الى مذابح من طرف واحد ، وفي ١٨٩١ ، وبالقرب من بورتوتوقو ، هزمت وحدة فرنسية مؤلفة من ٣٠٠ رجل جيش «فون» في معركة لم تستغرق أكثر من ساعتين ونصف الساعة بعد أن أطلقت ٢٥٠٠٠ طلقة من الذخيرة ، وفي ١٨٩٧ ، هزمت شركة النايجر الملكية قوات خليفة سوكوتو اعتمادا على سبعة مدافع صغيرة ، وست بينادق ماكسيم . وفي تشاد ١٨٩٩ ، هزمت قوة فرنسية قوامها ٣٢٠ رجلا معظمهم من الجنود السودانيين محاربى « رباح » (٢٠٠٠ مقاتل) ، وكانوا مسلحين بألفين وخمسمائة بندقية .

وفي أغلب الظن ، لعل أفضل حرب معروفة بين الحروب الاستعمارية هي غزو اللورد كتشنر للسودان ١٨٩٨ ، وقد رافقته سميت بواخر مسلحة تسليحا ثقيلًا وأربع سفن أخرى . وكان لدى جيشه ٢٤ قطعة من المدفعية و ٢٠ بندقية ماكسيم . وفي ٢ سبتمبر ١٨٩٨ ، واجهت الحملة الجيش الرئيسى للدراويش المؤلف من أربعين ألف شخص في أم درمان . ودون تشرشل وصفا للمعركة جاء فيه :

« أطلقت المشاة نيرانها بثبات وبلا اكتراث ، ودون تعجل أو اضطراب لابتعاد العدو عنهم . والتزم الضباط الحذر . وفضلا عن ذلك ، فقد كان الجنود شغوفين بعملهم ، وبذلوا جهدا كبيرا ، وان كان العمل البدنى الصريف قد بات مثيرا للملل في الحاضر . وطيلة الوقت استمرت على الجانب الآخر من السهل الطلقات تمزق الأجساد وتفتت العظام ، ونزفت الدماء بغزارة من الجروح ، وكافح الرجال الشجعان من خلال صفير قرقة الرصاص وتقجر القنابل وتناثر الغبار ، وهم يعانون يائسين ثم يموتون » .

وانتهت المعركة بعد ساعات قليلة ، وسقط فيها ١١٠٠٠ من القتلى من الدراويش و ٤٨ من البريطانيين . وعقب تشرشل على ذلك بقوله : « هكذا انتهت معركة أم درمان ، ولعلها أعظم دليل على انتصار أسلحة العلم على الهمج . ففي غضون خمس ساعات ، تم القضاء على أشجع جيش همجى وأفضل الجيوش التي تم حشدها حتى الآن ضد قوة أوروبية

حدثية ، بلا أقل ضعوية ، وبعد مواجهة خطر بسيط نسبيا ، فلم يتعرض المنتصرون الا لحسارة واهية ، . وكما لاحظ تشرشل فان أهم عامل لا غنى عنه حقا هو سلاح العلم الذى حقق أكبر تفاوت فى قوة النيران بين الأوربيين والأفارقة .

وتستأهل استراتيجية وتكتيكات الامبريالية الجديدة تنويعها خاصا ، لما تكشف عنه من تغير فى مقومات الحرب . فنادرا ما واجهت الجيوش الاستعمارية تكتيكات حرب العصابات . وبدلا من ذلك فانها كانت تهاجم المرة تلو الأخرى هجوما بالمواجهة تشنه كتل كبيرة من المقاتلين على الأرض المكشوفة للقتال . ويصح هنا الحكم عن الصينيين والزولو والندبيل (*) وال دراويش والغون وغيرهم كثيرون . وكثيرا ما كشفت هذه القوات عن أعلى درجات الانضباط والشجاعة ، وحاربت وفقا لأنسب تكتيك يتواءم ونوع الحرب التى اعتادوها . غير أن هذه التكتيكات قد أصبحت عديمة الجدوى فى مواجهة الأسلحة الأوربية . فقد أصبحت النيران تطلق أثناء التحرك ، ويعاد تعير البندقية فى الوضع واقفا ، أو عند اسراع العدو واقترابه بدرجة كافية لرشق رمح ، مما جعل هذه التكتيكات تتخذ مظهرا انتحاريا .

وآعدت القوات الامبريالية فى مواجهة الهجوم المكشوف لحشود المقاتلين احياء تكتيك « مربع الجيش » الذى عرف أيام نابليون ، يعنى انشاء قلعة بشرية محاطة بجدار من نيران الرصاص لا يمكن اختراقه . ويوفر هذا التكتيك دفاعا قويا ضد أية قوى مهاجمة مسلحة بأسلحة متدنية ، بغض النظر عن ضخامة عددها . وحدثت معركة من هذا القبيل بالقرب من زيمبابوى فى جنوب افريقيا . فقد واجه طابور يتألف من خمسين شرطيا بريطانيا من جنوب افريقيا محاربى ندبيل (خمسون ألف مقاتل) تحت قيادة الملك لوفينجولا . وكان الندبيل يحملون رمحا مقنوفة ودروعاً ، أما البيض فكانوا متسلحين بأربعة بنادق ماكسيم وبنادق نوردينفله وجاردنر . ووصف الألتحام المقدم جراهام هاتشسون - وهو كاتب بريطاني من عدمته مولعة بالعبارات الطنانة التى كانت شائعة فى العهد الامبريالى :

« اشتعل الحماس العنصرى المتعصب عند رجال القبائل الشرسنة فتسلحوا بالرماح وركبتهم المفاريت بينما كانت آلاف طبول الحرب تدق نغمات وخشية فتصاعدة داعية الى الأخذ بالثأر ، وسط الأكواخ المتناثرة . وعلى الرغم من أن وحداتنا قد تعززت على عجل بمتطوعين زوديشيين ،

وكانوا يواجهون من البداية عدوا يفوقهم عددا ، الا أنهم لجأوا للدفاع ، وأفموا معسكرا متنقلا لا يوا الأطفال والنساء والمؤن ، واستفزوا الماتابل (*) . وثبتت المدافع بعد توجيهها على زاوية خاصة من المعسكر . واستطاع مقاتلو الماتابل المرة تلو الأخرى إثارة الغبار لمسافات أبعد من رشقات الرمح القاتلة .

على أن الأوربيين لم يلتقوا في جميع الالتحامات بمقاتلين مسلحين يمثل هذه الأسلحة البالية ، والتكتيكات التي عفا عليها الزمان . فبعد أن تعلم بعض الأفارقة والآسيويين وجوب التسليح بنفس نوعية هذه الأسلحة الحديثة حتى يتمكنوا من محاربة العدو المسلح بنفس هذه الأسلحة ، لجأوا الى حرب العصابات . ولم يروا بأسا من اتباع الأسلوبين معا . وهناك أمثلة عديدة دالة على ذلك عند اليابانيين والافغان وسوثو وريفي . ويكفي هنا الاستشهاد بمثلين :

ففي غرب السودان ، واجه الفرنسيون ساموري توريه (**) - وهو ممن أنشأوا دولة على الطريقة البدائية ، ومن الزعماء الدينيين ومن المجددين في فن القتال . وشكل جيشه في البداية من خمسمائة مقاتل و ٣٦ بندقية ، تعيد تمير نفسها (١٨٨٧) . واستطاع بقدوم ١٨٩٨ تجميع أربعة آلاف بندقية من هذا النوع المتقدم . وتمكن بفضل تكتيكات العصابات الصمود وإيقاف تقدم الفرنسيين زهاء عشر سنوات ، ولكنه تعرض في النهاية للخذلان بعد أن قطعت امداداته من الأسلحة الجديدة والخرابيش الجديدة اثر توقيع الاتفاق بين انجلترا وفرنسا .

أما امبراطور الحبشة منليك فكان أسعد حظا . اذ بدأ بقاعدة ضخمة مزودة بأحدث الأسلحة ، وواجه عدوا أضعف منه ، وأثبتت معركة عدوة ١٨٩٦ ، والتي هزم فيها الايطاليون تحلى الاثيوبيين بالشجاعة ، وكانت نذيرا باقتراب اليوم الذي ستتقن فيه الشعوب غير الغربية استعمال الأسلحة الغربية الفتاكة ، وبذلك تضيق فجوة القوة بينهما .

ولقد كسبت القوى الامبريالية الأوربية في أواخر القرن التاسع عشر التي اشتبكت في أضخم عمليات هجومية استراتيجية منذ عهد جنكيز خان معظم معاركها باتباع تكتيكات دفاعية (***) . وأشاد العقيد

(*) Matabele قبائل من الزولو . أرغمهم البوير في جنوب افريقيا على النزوح الى الترنسفال .

(**) Samori Touré

(***) أساليب ال Laager وال Square Wagon

تشارلز كولول (*) بهذه الطريقة العجيبة التي جمعت بين الاستراتيجية الهجومية والتكتيكات الدفاعية ، ولكنه لم يتابع كوامن مثل هذه الخطة . فلقد سلم بمبدأ التفوق في الأسلحة ، ونادرا ما علق عليه ، وبدلا من ذلك أشار في صفحات كتابه بتفوق الأوربيين والجنود المدربين على الطريقة الأوربية على الشعوب التي وصفها بالقطعان والمتعصبين والهمج والمتوحشين ، أو نعمتها على أحسن تقدير بالشعوب شبه المتحضرة ، ونسب انتصارات القوات الغربية الى الحمية والتصميم والعزيمة والجرأة والمبادرة والحبوية والجسارة ، وغير ذلك من الخصال الحميدة .

ولو صح القول بأن تفسير كولول قد مثل بنى جلده وزمانهم - وأظن ذلك كذلك - فإن ما قاله سيساعدنا على توضيح ما حدث في الحرب العالمية الأولى . فلم تحارب الجيوش الأوربية زهاء أكثر من أربعين سنة غير هذه الحروب الاستعمارية ، وأحرز أغلبها نجاحا عظيما . وكان ما عزز غزواتها الاستعمارية النظرية النابوليونية بأن النصر حصيلة عاملين : الاستراتيجية الهجومية الجسورة ، ويران الأسلحة الكاسحة . أما ما غاب عن فطنتهم فهو كون الأسلحة الجديدة أسلحة دفاعية ، وأن ما صنع لهم امبراطورياتهم - هو التكتيكات الدفاعية . فلم يكن ثمة اختلاف من حيث الوقفة المنيعة بين الجندي القابع في أحد الخنادق بالفلاندر ممسكا برشاشه أو بندقيته وبين نظيره الرابض في « المربع » في أم درمان أو « عربة المعسكر » في ندبلاند . فلقد أغشت الأوصاف العنصرية التي استعملها كولول وأقرانه في منعطف القرن في وصف الشعوب غير الأوربية ، وأنستهم حفيظة مرة المذاق ، وهي أنه عندما يقع الجندي تحت وابل من الرصاص المتلحق من الأسلحة الجديدة لن يكون للشجاعة والسورة الحيوية أى نفع ، لأن الجندي الأوربي عندما كان يتقدم الى الصفوف الأمامية من الجبهة الغربية كان يكتشف أنه بلا حول ولا قوة ، ومعرضا للتهلكة مثل أى درويش أو مقاتل من الزولو . ومن هنا يصح القول بأن الممارك الحديثة في أرض المعركة بأوربا كانت متعارضة أيما تعارض وحالها في المستعمرات . وبدلا من أن تحقق النصر السريع المنشود القليل التكلفة الذي تتوقعه الكافة ، فانها جعلت الانتصار مستحيلا .

المراجع

- W. Baumgart, *Imperialism : The Idea and Reality of British and French Colonial Expansion (1880-1914)*, 1982.
- W. Brunschwig, *French Colonialism, 1871-1942. Myths and Realities* (1966).
- B. Cohen, *The Question of Imperialism : The Political Economy of Dominance and Dependence* 1973.
- W. B. Cohen, *The French Encounter With Africans : White Response to Blacks 1530-1880* (1980).
- P. Curtin, *The Image of Africa : British Ideas and Actions 1780-1850*. (1964).
- C. C. Eldridge, *England's Mission : The Imperial Idea in the Age of Gladstone and Disraeli 1868-1880* (1974).
- D. K. Fieldhouse, *Economics and Empire 1839-1914* (1973).
- D. R. Headrick, *The Tools of Empire : Technology and European Imperialism in the Nineteenth Century* (1981).
- R. Koebner and H. D. Smith, *Imperialism : The Story and Significance of a Political World 1840-1960* (1964).
- W. H. McNeil, *The Pursuit of Power : Technology, Armed Force, and Society Since A.D. 1000* (1982).
- C. Reynolds, *Modes of Imperialism* (1981).
- R. Robinson and J. Gallinger, *Africa and the Victorians*, 1961.
- W. H. Schneider, *An Empire for the Masses : The French Popular Image of Africa (1870-1900)* 1982.
- W. D. Smith, *The German Colonial Empire* (1978).

الآدميون فى مواجهة النيران

ميكائيل هوارد

شهدت الحرب العالمية الأولى مصرع أعداد لم يسبق لها مثيل من الجنود من بين جميع المسكرات الأوروبية المتعاربة • فقد قتل مئات الآلاف من الآدميين ، وجرحوا فى فترات زمنية قصيرة بدرجة ملحوظة • فلماذا كرر القادة إرسال قواتهم فى عمليات هجومية جبهوية ضد قوات العدو التى لا يمكن أن ترى ، والتى كانت مسلحة بالرشاشات أو البنادق المتلاحقة الطلقات ، وما هى الأفكار والتجارب التاريخية التى اقنعت القادة العسكريين باتباع هذه التكتيكات ؟

قراءة منتصف القرن ، انقسمت الآراء حول هذه النقطة • فلقد أثبتت التغيرات فى التكنولوجيا والأسلحة العسكرية عدم جدوى أساليب المشاة التقليدية نسبيا فى كل من الحرب السبعينية وحرب البوير ١٨٩٨ • كما ثار الكثير من الجدل حول هل يسلح الفرسان بالبنادق الحديثة أم بالسيف التقليدية ؟ ويكمن وراء المجادلات عن جدوى هجوم الفرسان والمشاة سؤال كامن عن قيمة تكتيكات المعنمات على القوات العاملة فى قلب المعركة •

وفى ١٩٠٥ هزمت روسيا فى حربها ضد اليابان • وكان القادة اليابانيون قد أجبروا المشاة على الهجوم ، واستعان الجيش الروسى للنهزم بفرسان مسلحين بالبنادق • ودرست الحرب الروسية اليابانية بعناية فى جميع اللوائح العسكرية الأوروبية • وبناء على تجربة هذا الصراع أعاد أصحاب النظريات العربية فى أوروبا تأكيد الأهمية الرئيسية للهجوم ، وتكليف المشاة بالهجوم • وفى هذا الجو الهجوى الفتاك ، وغير المجدى ، أصدروا أوامرهـم الى مئات الآلاف من القوات خلال الحرب العالمية الأولى •

نقلا عن : International Security Vol. 9 No. 1 : Men Against Fire :
Expectations of War in 1914.

تأليف Michael Howard (١٩٨٤) •

في سنة ١٨٩٨ ، نشر بياريس كتاب من ستة أجزاء عن حرب المستقبل من المنظور التكنولوجي والاقتصادي والسياسي(*) ، وكان هذا الكتاب ترجمة لسلسلة من المقالات التي ظهرت في روسيا، وتمثل ثمرة عدة أبحاث ، راجعها شخصية رائدة في عالم المال والصناعة في روسيا : ايفان (جان دي) بلوخ (١٨٣٦ - ١٩٠٢) بعد أن راجعها ونقحها بأستاذية لامعة . وقد وصف المؤلف أحيانا بالمصرفي البولندي . ولعل هذه الصفة نسبت اليه بفضل موهبته الادارية التي تضعه في مصاف آل روتشيلد في العالم الغربي أو كارنجي في الولايات المتحدة . ولقد جمع بلوخ ثروته من منشآت السكك الحديدية ، ثم اكتسب خبرة من جوانب استثمارية شتى . ويرجع اليه الفضل فيما حدث من انتعاش في الاقتصاد الروسي في تسعينات القرن التاسع عشر . وألف بغزارة في المشكلات الاقتصادية للامبراطورية الروسية ، وشعر بانزعاج متزايد من مقدار تعقده آنئذ ، مثلما هو الآن ، من جراء ضغوط الاحتياجات العسكرية لتبوا الصدارة في عصر تتطور فيه التكنولوجيا بسرعة فائقة ، وللمحاق بركب الدول الأثرى والأرقى في الغرب . ولما كان بلوخ قد عهدت اليه مسئولية تنظيم الامداد بالسكك الحديدية للجيش الروسية ، في حربها مع الامبراطورية العثمانية في الحقبة الواقعة بين ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ، لذا توافرت له خبرة فذة بمسائل الاحتياجات العسكرية . وأقدم على دراسة الحرب اعتمادا على نوع جديد تماما من العقلية ، التي تجمع بين القدرة التحليلية للمهندس الاقتصادي وعالم الاجتماع . والواقع ان كتابه يعد أول مؤلف في التحليل الحديث للعمليات الحربية . ولم يضاهه في الجمع بين الرسوخ وسعة الأفق أي كتاب حتى الآن .

ولم يترجم الى اللغة الانجليزية سوى الجزء الأخير من الكتاب تحت عنوان : هل تعد الحرب الآن مستحيلة ؟ (**) . ويلخص هذا الجزء على نحو مقبول حجج السفر بأكملها . ولخص بلوخ نظراته في مقابلة مع الصحفي الانجليزي ستيد (***) وأرفق حديثه بالطبعة الانجليزية للكتاب ، وفيه يستهل الكلام بطرح الخلاصة التي انتهى اليها : « لقد غلت الحرب بين الدول الكبرى الآن مستحيلة ، ولعلها ستصبح أقرب الى الانتحار » . اذ أدى الاسراف في التسليح الحديث ، وما طرأ على تنظيم المجتمع من تبدل « الى تصعيب اشغال نار الحرب ، واقترباها من المستحيل » . وبالمقدور اثبات ذلك على نحو تقريبي باستخدام لغة الأرقام . فبعد أن ازداد مدى الأسلحة

(*) La Guerre Future ; aux points de vue technique, et économique, et politique.

Is War Now Impossible

W. T. Stead.

(***)

(****)

النارية الحديثة - ، وازدادت دقتها ومعدل نيرانها - بعد أن أصبحت البنادق قادرة على تصويب اصابات قاتلة من بعد ألفى متر - والمدفعية من بعد ستة آلاف متر - أضحت متعذرا الآن وقوع « معارك حاسمة » كذلك التي كانت تحدد نتيجة الحروب فيما مضى . فلم تعد المشاة قادرة على الاقتحام باستعمال السلاح الأبيض ، ولم يعد باستطاعة الفرسان الهجوم بالسيف . واضطرت الجيوش الى حفر خنادق للاحتباء بها من العاصفة العاتية للنيران المتدفقة على أرض المعركة الحديثة ، وبذلك « غدا الفأس مماثلا في أهميته للبندقية ، كسلاح للجندى » ولعل هذا السبب أحد الأسباب التي تصعب نشوب معارك في المستقبل القريب وسوف تستمر المعارك أياها معدودة ، وان صعب في نهاية الأمر التيقن من تحقق نصر حاسم » .

والى هنا لم يأت بلوخ بجديد . ونغاية ما اهتدى اليه هو طرح مشكلة سبقت دراستها من قبل جميع أصحاب الفطنة من ضباط جميع الجيوش الأوروبية ، منذ تجربة الحرب الفرنسية البروسية ١٨٧٠ ، والحرب الروسية التركية (١٨٧٧ - ١٨٧٨) اللتين كشفتنا على نحو أرجح ، من الحرب الأهلية الأمريكية ، وبطريقة أكثر مباشرة تأثير الأسلحة النارية الحديثة على ساحة المعركة . فلربما دفع « البارود عديم الدخان » في ثمانينات القرن التاسع عشر ، وزيادة مدى جميع الأسلحة النارية وازدياد دقتها ، وامكان الاقتراب من العدو دون أن يرى مستعملو الأسلحة الحديثة ، الى تفاقم تعقيدات الهجوم وفداحة خسائره . بيد أنه رغم الاعتراف بجميع هذه المؤثرات فقد ساد الاعتقاد بعدم تأثير الطبيعة الأساسية للمشكلة بها .

وأعتقد أن الرد يكمن في تقدم قوة نيران المهاجم، وبخاصة المنطلقة من المدفعية . واستوجب ذلك اقتراب المشاة المهاجمة من مواقع القوات الملتزمة بالدفاع ، والاستعانة بالسواتر حتى يتسنى لها نشر وابل من نيران البنادق على مواقع المدافعين . ويتوجب على المدفعية أن تتعاون عن كثب ، مع الحرص على ارغام المدافعين على خفض رؤوسهم ، باستعمال الشرايين ، ودفنهم في خنادقهم بتعريضهم للقذائف الشديدة الانفجار . أما فيما يتعلق بالرشاشات فترى أنها بفضل سرعة حركتها وقوة تركيز نيرانها ، فمن المحتمل أن تزيد من قوة الهجوم أكثر من زيادتها لقوة الدفاع . فلا ننسى ما قاله الكولونيل فردينان فوش في محاضرات مدرسة الحرب ١٩٠٠ : « الكلمة الأولى للنيران » حقا فان تفوق النيران يعد أهم عقومات القيمة القتالية للمشاة . ولكن لا بد أن تجيء ان عاجلا وان آجلا اللحظة التي يتوقف فيها التقدم عن المضي قدما قبل الوصول الى نطاق يكاد يتعذر اختراقه ، ولا توجد فيه أية خطوط اقتراب مستورة ، لحماية

المهاجمين من وابل طلقات الرصاص ، مما يؤدي الى اضطرار المقاتلين الى اختيار أحد سبيلين : « الهروب أو الهجوم » . واعتقد قوش ومعظم المفكرين الفرنسيين حين ذاك أن الهجوم مازال أمرا ممكنا ، وبلاستطاعة انجاحه اعتمادا على الكثرة العددية : « ويقصد بالهجوم هنا الهجوم بأعداد كبيرة ، وبذلك يتحقق تأمين القوات » . فاذا زدنا عدد المدافع سيتسنى لنا اسكات مدافع العدو . ويصح القول نفسه عن البنادق والسونكيات ، اذا تمكنا من معرفة كيفية استعمالها ، واذا لم يتوافر للآخرين نفس القدر من الاطمئنان لموقفهم . فلقد فضل الألمان الذين كانوا مازالوا يذكرون بعد ثلاثين سنة من الذكريات الحية دماء جنود مشاتهم التي أريقَت في معركة جرافلوت(*) ، وكانوا يفضلون لو أمكن « تدبيس » العدو في مكانه عن طريق النيران الموجهة اليه من الأمام ، ولم يدركوا أن الهجوم يجب أن يشن على أحد جناحي العدو . فلم يكن هناك من يشك حتى ١٩٠٠ بما في الهجوم بالمواجهة من مشقة ، وبفداحة تكاليف النجاح من الخسائر الجسيمة للغاية . والحق لقد كان هناك قدر كبير من الاتفاق مع الحسابات التي ذكرها بلوخ فيما يتعلق باحتياج التفوق عند الهجوم الى أن تكون نسبة تفوق المهاجم ثمانية أضعاف قدرة المدافع لضمان تحقق النجاح .

الحرب في المستقبل عند بلوخ

مواجهة بين مجتمعين

لقد سبق بلوخ معاصريه بخطوات في النتائج التي استخلصها من دراسة الساحة الحديثة للمعركة . ولا يرجع ذلك الى ما بينه وبين هؤلاء المعاصرين من اختلاف ، ولكن مرد ذلك هو عدم اعارتهم المشكلات التي بحثها أي اهتمام على الاطلاق .

فلقد تساءل بلوخ عن ماهية النتيجة النهائية التي يحتمل أن تترتب على التوقف في العمليات الذي يحتمل حدوثه في ساحة المعركة ؟ . « فأولا - سيزداد سفك الدماء ، وسيزداد لدرجة بشعة بحيث يغدو من المستحيل دفع المعركة الى نتيجة حاسمة ، ومن ثم وبدلا من شن الحرب الى نهايتها المريرة وخوض سلسلة من المارك الحاسمة ، سيتعين علينا الاستعاضة عن ذلك بفترة طويلة من الاستنزاف المتواصل لقوى المعسكرين المتحاربين ومواردهم » . وسيعنى ذلك « القضاء المبرم على الصناعة وقطع أواصر جميع موارد الامدادات التي يعتمد عليها المجتمع ، والتي يقع على عاتقها وحدها العبء الثقيل للحرب » . ان هذا هو مستقبل الحرب :

(*)

الاجاعة بدلا من القتال ، وافلاس الشعوب بدلا من ذبح الأدميين ، واصابة النظام الاجتماعى كله بالتصدع » . وفى مثل هذه الحالة ستتخذ الصدارة بين العوامل الحاسمة : « مستوى الخشونة - القدرة على التحمل - الصبر على الحرمان - العناد فى مواجهة الظروف المعاكسة ، والاحباطات . . . نعم سيصبح العامل المؤثر الذى يعتمد على مسلك المدنيين هو العامل الحاسم فى الحرب الحديثة أكثر من أى عامل آخر » . ويختتم بلوخ تحليله بالقول : « قد يحارب جنودك تبعاً لمشيتهم » . ولكن القرار الأخير سيكون للجوع . وسيكون الجوع هو أول من يوجه ضرباته الى العناصر البروليتارية الأكثر استعدادا للثورة ، فى المجتمعات المتقدمة صناعيا .

ومن المهم أن ندرك وقوع بلوخ فى عدد لا بأس به من الأخطاء . كزعمه تعذر نهوض السلطات العسكرية المسئولة بالمهام التى تستغرق وقتا طويلا والخاصة بالأعاشة ، والتموين ، وإدارة الجيوش الضخمة التى قد يتطلب الموقف استخدام معدات النقل لتحريكها من مكان لآخر ، وتصوره سرعة اصابة الجيوش فى ميدان القتال بالانهلال والتعرض للجوع ، ولأحداث العصيان الجماعية ، أو تكهنه باتخاذ عملية العناية بالمرضى وإخلاء الجرحى أعبادا يصعب التحكم فيها ، وما يترتب على ذلك من تكس الموتى والمحتضرين فى أرض المعركة ، مما يجعلهم من العراقيل التى يتعين الخلاص منها لحماية الأحياء من نيران العدو . وارتاب بلوخ مثلما فعل كثيرون من الجنود المحترقين فى قدرة الجنود الاحتياط الذين انتقلوا وهم مازالوا فى حالة غضة من الحياة المدنية - على تحمل مشاق القتال : « فمن المتعذر الاعتماد على الجيوش الحديثة ، واستعدادها للتضحية والحرمان بالقدر الذى يطالب به أصحاب النظريات من العسكريين ، الذين يتناسون ما لحق أخلاقيات المجتمع الغربى من مكتسبات » . والواقع أن كفاءة أعاشة الجنود الذين تجاوز عددهم الملايين فى الميدان ، والنجاح الذى أثبتته الخدمات الطبية - مع بعض استثناءات مريئة - للنهوض بالمهام العديدة التى واجهتها وحدات جميع القوات المحاربة ، وذكرنا بسجايا الرواقين فى الفكر اليونانى القديم قد أثبتت قدرة القوات المحاربة على مواجهة مشاق أبشع مما خطر ببال بلوخ . ولعل هذه النواحي كانت من المظاهر الملحوظة والرائعة للحرب العالمية الأولى . وبذلك يكون بلوخ مثل الكثيرين من أصحاب النبوءات المتشائمين - بما فى ذلك العاملون بالقوات الجوية قبل ذلك بجيل - قد بخسوا قدرات المجتمعات البشرية على تكيف نفسها فى مواجهة الظروف المعاكسة .

غير أن بلوخ كان حاد البصيرة فى نواح أخرى تثير الدهشة ، عندما أشار مثلا الى اعتماد معدل الخسائر الحربية على براعة القادة ، « وعندما

حشنا على أن لا تتناسى عدم تعرض أعداد وفيرة من أصحاب الرتب العليا من الضباط في الجيوش الحديثة للنيران على الإطلاق ، ، بينما ارتفع معدل الخسائر بين صفار الضباط عندما كانوا يؤدون وظائفهم القيادية (على خير وجه) . وأخيرا فقد حدثنا عن مشكلة تدير اقتصاديات الحرب ، وما يحتمل أن تكون آثارها في المدى البعيد ، واستنتج بلوخ من ذلك : « اذا افترضنا أن الحكومات سترغم على التدخل في وضع نظام للأسعار ودعم أهل البلاد ، فهل سيكون من السهل آنئذ التخلي عن هذه الممارسة وإعادة الأوضاع الاقتصادية الى سابق عهدها قبل الحرب ؟ » . وهكذا يتضح أنه اذا توقفت الحرب وانتهت بالنصر أو الخسارة ، سيكون النظام القديم مهددا بالتغير من عل ، ان لم يحدث هذا التغير عن طريق الثورة من أسفل . »

ان هذا المخطط البالغ الدقة للحرب التي اندلعت في أوروبا ١٩١٤ ، واستمرت أربع سنوات ونصف السنة ، ولم تنته الا بعد حدوث تفسخ اجتماعي للمحاربين المهزمين ، وبعد أن أنهكت القوى الاقتصادية للجميع ، لم يكن هذا المخطط ثمرة لرؤية بعيدة ، وانما جاء نتيجة لتحليل فاحص دقيق للأسلحة والقدرات والأنظمة العسكرية والعقائد الاستراتيجية والبيانات المالية والاقتصادية . ولقد شغل هذا المخطط خمسة أجزاء سمان مازالت تعد مرجعا ممتازا لدارس الأحوال العسكرية والتكنولوجية والاقتصادية لأوروبا في نهاية القرن التاسع عشر . ولم يبحث أحد حجج بلوخ الاقتصادية أو يحاول اثبات بطلانها . لقد تجوهرت فحسب . ولربما تساءلنا لماذا لم يعرفها السياسة والقادة العسكريون الا القليل من الانتباه ؟ ولماذا تابعوا السير في طريق كان سيؤدي حتما الى تحطيم النظام القديم ، كما تنبأ بلوخ دون أن يقع أى خطأ ؟ والسؤال من الامثلة الوثيقة الاتصال بعصرنا ، على نحو لا يدعو الى الارتياح .

بطبيعة الحال ، الرد على ذلك هو أنه ليس بالمقدور احداث تحول في نمط العلاقات الدولية بين عشية وضحاها ، بناء على نبوءة واحدة ، مهما كانت درجة اقناع حجتها . والحق لقد أدت رؤية بلوخ وتأثيره الى استحثاث القيصر نيقولا الثانى على الدعوة لعقد مؤتمر السلام الدولى الأول الذى اجتمع فى هيج فى مايو ١٨٩٩ ، بل ولعلها كانت بعيدة الأهمية فى تعبئة الدعم العام فى شتى أنحاء أوروبا لغايات المؤتمر . غير أن هذا المؤتمر لم يزد عن فقاعة فى تيار السياسة الدولية . اذ كانت المشكلة الأكثر إلحاحا كما أشار بلوخ مرارا - هى علم وجود جهات فى أوروبا مسئولة عن مهمة التفكير فى مشكلات الحرب بأى صورة من الصور الشاملة ، بقدر اشتغالها بالمسائل الهامشية والمسائل الحرفية التى تخص

العسكريين • أما فيما يتعلق بالعسكريين المتخصصين ، فلم يكن من المتوقع اعترافهم بأن المشكلات التي تواجههم غير قابلة للحل ، وانهم سيعجزون مستقبلا عن تسيير الحرب بفاعلية وتصميم ، كما كانوا يفعلون في الماضي •

دروس من حرب البوير

لقد أثبتت حجج بلوخ فائق صحتها ، عندما شبت الحرب في جنوب افريقيا بعد أشهر قليلة من نشر كتابه (*) • وقد تسليح المعسكران المتحاربين في هذه الحرب لأول مرة بالتكنولوجيا الحديثة كالبنادق التي تعمر من الحزنة ، والمدافع التي يستطاع إطلاقها بسرعة الرشاشات • وجرت الأحداث في ميدان المعركة على نفس الوتيرة التي تكهن بها بلوخ • فقد كان الجيش البريطاني يتحرك في تشكيلات منضمة ، ويطلق وابلا من النيران ، ولم يكن باستطاعته الاهتداء الى موقع قريب من العدو ، الذي لم يكن يراه • وقوبل بمقاومة عنيفة من البوير في مواقع (**) عندما هاجمها بالمواجهة • وتكبد خسائر فادحة • وكما كتب الكولونيل هندرسون (***) الذي رافق الجيش في جنوب افريقيا بعد ذلك بوقت قصير :

« لقد حدثت محاولة مستمرة للمواعة بين المعركة وأرض القتال حتى يكون نجاحها معتمدا على الشجاعة والولاء ، والتكيف بين الذكاء وشخصية المقاتلين والظروف التي يتعرض لها القتال • فلم تكن قد تكشفت حتى الآن الاغلوطة عن امكان حماية أى خط كثيف من النيران في الأرض الخلاء لنفسه اعتمادا على النيران وحدها ، اذ كان مصدر هذه النيران خارج المرمى المؤثر لنيران العدو • ولم يكن هناك من تنبه الى أن المدافع عندما يحتل خنادق منشأة بذكاء ، ويستعمل بارودا بلا دخان ، سيكون محصنا - عمليا - من تأثير كل من المدافع والبندقية » •

ويجنح الملاحظون الأوروبيون من غير المتعاطفين على الجيش الانجليزي الى غمط. أهمية تجربة جنوب افريقيا على أساس أن الجيش البريطاني وقادته لم يدرّبوا تدريباً صحيحاً لمواجهة عدو « متحضر » بعد أن شعروا بالتعب من أثر الانتصارات التافهة التي حصلوا عليها في مصر والسودان • وفوق كل ذلك ، فلقد أشاروا الى أثر الاختلاف في أرض المعركة وحيلولته

La Guerre Future

(*)

Magers fontein, Modder River, Colenso, Spion Kop. مثل (**)

G. F. B. Hendersen.

(***)

دون الاستفادة من دروس الحرب مثلما حدث في حالة الحرب الأهلية الأمريكية عندما لم تتواءم دروسها مع ما يجري في المسرح الأوربي . وبينما كان البريطانيون أنفسهم قد عجزوا عن انكار عدم ملاءمة تكتيكاتهم وتدريباتهم التقليدية للتواءم والأحوال المتغيرة للحرب ، إلا أنهم رغم ذلك كانوا قادرين على الإشارة إلى أنهم بمجرد المامهم بالتقنيات الضرورية قد أفلحوا في التحول نحو الهجوم ، وكسبوا الحرب من جراء ذلك . وتحقق النصر بعد أن نجحوا في « تدبيس » البوير في مواقعهم بفضل قوة نيرانهم ومناوراتهم على أجنحة مواقعهم اعتماداً على الفرسان ، الذين لم يتبعوا الدور التقليدي القائم على أحداث صدمات في أرض المعركة ، ولكنهم أقدموا على ابتكار نوع من سرعة الحركة الاستراتيجية التي اقتضتها الموقف ، للتغلب على المشكلات الناجمة عما حدث من ازدياد في القوة الدفاعية . وعندما أوضح بلوخ (١٩٠١) لبعض مستمعيه في معهد (*) الخدمات البريطانية الملكية المتحدة ، كيف مثلت تجربة الجيش البريطاني في جنوب أفريقيا حجة في صورة مكبرة دقيقة ، كما يتوقع أن يجري في أوروبا ، أشار الحاضرون إلى انجاز اللورد روبرتس ، الذي أثبت إمكان الجمع بين المزايا التكتيكية لقوة النيران والمزايا الاستراتيجية لحفة الحركة عند الفرسان وبذلك تمكن من تحقيق النتائج الحاسمة التي ظن بلوخ أنها مستحيلة في المستقبل .

ويبين من أية دراسات للمؤلفات العسكرية الوفيرة التي ظهرت حينذاك (بين ١٩٠٠ و ١٩٠٥) اجماع المفكرين الاستراتيجيين الأوربيين حول نقطتين : النقطة الأولى هي الأهمية الاستراتيجية للفرسان كقوة نيران خفيفة الحركة . فلو صح الأخذ بما قيل عن استحالة اقدام الفرسان على مهاجمة المشاة دون تعرضهم لخسائر فادحة بفضل قوة النيران المتوفرة للدفاع - وهي النظرية التي قبلت على مضض منذ وقوع كارثة الحرب الفرنسية البروسية ١٨٧٠ - فإن الدرس المستفاد من ذلك هو وجوب انماء الفرسان لقوة نيرانهم بعد تعزيزها بالمدفعية خفيفة الحركة القادرة على اطلاق نيران سريعة وبلاستعانة بالرشاشات ، مع استغلال الفرصة على نطاق لم يحلم به أحد منذ عهد الحرب الأهلية الأمريكية . ولقد نبهت تجربة جنوب أفريقيا الفرسان ، وبخاصة في انجلترا ، إلى دراسة الحرب الأهلية الأمريكية ، ربما للمرة الأولى في الأغلب . وفي الجيش البريطاني تم التسليم بوجوب اتخاذ القرينة أو البندقية من الآن فصاعداً كسلاح أساسي للفرسان . غير أن معظم رجال الفرسان قد رأوا انحراف هذا الاتجاه عن الصواب . فليس هناك أي بلد في أوروبا يرضى بجعل هذا السلاح

الأكثر اكتفاء واعتدادا بذاته ، وأبعد الأسلحة عن روح العصر ، يتضاءل في مكانته ويتحول الى سلاح للمشاة الراكبة . فيكفي ترك هذا النوع من الواجبات لمروضى الحيول في المستعمرات ! لاحظ الجنرال الألماني فردريش فون برناردى(*) بمرارة في وقت متأخر يرجع الى ١٩١٢ : « ان الفرسان ينظرون الآن الى عملية الهجوم في المعركة على أنها واجبهم الأسمى . ويكاد كل منهم يغمض عينيه عن ادراك التغيرات البعيدة الأثر التي طرأت على الحرب . وعندما فعلوا ذلك سدوا الطريق أمام تحقق نجاحات أوفر ، ومن هنا تارت الخلقات داخل صفوف الفرسان في كل جيش أوربي ، ولم يتم حسمها الا باتباع ما يشبه الحل الوسط ، وقد عبرت عنه موسوعة الفرسان البريطانية (**) ١٩٠٧ بقولها :

« يكمن جوهر روح الفرسان في الحفاظ على التوازن الصحيح بين قوة النيران والتحرك لاجداث الصدمات . فلا بد أن يقبل من حيث المبدأ القول بأن البندقية ورغم ما عرف عنها من فاعلية لا يمكن أن تحدث نفس الأثر الذي يحدثه الحصان بسرعته الفائقة : فلا بد من الجمع بين مغناطيسية الهجوم والرعب المنبعث من الصلب البارد » (***) .

ولعل أفضل من عبر عن روح رجال الفرسان في بداية الحرب العالمية الأولى هو التحليل الذي تضمنته العقيدة العسكرية البريطانية ، ونشر ١٩١٤ :

« من الناحية التقنية ، أصبح الدور الحاسم لهجوم الفرسان في الجبهة الرئيسية في ذمة التاريخ . أما التدريب على تكتيكات الصدمة فمن الأمور التي يطالب بها جميع الثقات في الفروسية . فما زالت هذه التكتيكات ضرورية للاستعمال الاستراتيجي للسلاح . وحتى في أرض المعركة ، ما زالت تكتيكات الصدمة في بعض ظروف معينة ممكنة تصورا . بينما ستتاح في أغلب الظن يقينا فرص لامة لممارسة القوة التي ستكتسبها الفروسية عندما تجمع بين خفة الحركة ، والقدرة على اطلاق النيران أثناء الحركة . فهما اختلفت التكتيكات التي ستتبع ، مستظل الرغبة في اتخاذ موقف الهجوم دوما باعشا لحيوية الفروسية ، وعندما يتعذر اجراء تكتيكات الصدمة ، فلا بد أن يند الفرسان العدة للتضحية بأخر رجالهم أثناء تقدمهم سيرا على الأقدام ، وهم مسكون بالبندقية في أيديهم ، لو كان هذا هو الطريق الوحيد لتحقيق النصر » .

Friedrich von Bernhardi.

(*)

British Cavalry Manual.

(**)

Magnetism of the charge and the terror of cold steel.

(***)

وهكذا استمر التدريب على تكتيكات الصدمة ، اذ كان أصحاب النظريات الاصلاحية أنفسهم مرغمين على الاعتراف بمطالبة الفروسية بمواجهة فروسية العدو ، ودحرها ، ومن ثم رأينا فون برناردى يكتب ١٩١٢ : « سيتميز استهلال حرب المستقبل بالمعارك الكبرى للفروسية » .

وبذلك واصلت الفروسية التدريب على القتال بالسيوف ، واستمرت المشاة ، لنفس السبب ، فى ممارسة تمارين السونكى . ولم ير الكاتب الالماني فيلهلم بالك(*) سببا يدعو الى اجراء أى تعديل للعقيدة العسكرية التى دعا اليها فى الطبعة الأولى لكتابه الجسيم عن التكتيك ، عندما أعاد طبعه ١٨٩٦ :

« لابد أن يتعلم الجندى عدم تهيب الهجوم بالسونكى والتعرض لطعناته . ولكن عليه أن يسعى اليه . . . ولو انتزع السلاح الأبيض من المشاة واذا زعم استحالة القتال بالسونكى . . . ستظهر مشاة غير لائقة للهجوم ، وتفتقر الى صفة عظيمة الضرورة ، يعنى الروح المعنوية التى تساعد على الاقتراب من مواقع العدو . . . (واستطرد بعد ذلك مستشهدا بما قاله الجنرال الروسى دراجوميرف - وهو من المعروفين بتعصبهم لهذه الفكرة) : « ليس بالمقدور استبعاد السونكى ، لأنه السلاح الوحيد الذى تتجسم فيه ارادة القوة التى تتفرد فى كل من الحرب والحياة اليومية بتحقيق الأغراض التى تسعى اليها ، بينما يقتصر دور العقل على تيسير الاهتداء الى الغرض ، هذا هو السبب الأساسى ، ان لم توجد أسباب أخرى » .

وعبرت نشرات هيئة الأركان البريطانية عن نفس المعنى مع تعديل طفيف : « ان الأثر المعنوى للسونكى أبعد كثيرا من تأثيره المادى ، وليست أقل هذه المميزات أهمية المساعدة على تعزيز الروح الهجومية . . . ويتشابه حرمان المشاة من استعمال السونكى هو وحرمان الفرسان من استعمال سيوفهم ، وسيترتب على ذلك - الى حد ما - سلبهم الرغبة فى الاقتراب من العدو » .

وتنقلنا هذه النقطة الى نقطة أخرى أثارت اضطرابا أكبر عند محاولة الاجماع عليها ، وتعرف عليها المفكرون العسكريون الأوروبيون كنتيجة لحرب جنوب أفريقيا . انها الصعوبة التى لم يسبق لها مثيل فى اجراء الهجوم بالمواجهة حتى فى حالة توفر دعم مدفعى جوهري ، والتى حتمت زيادة

Wilhelm Balck

(*)

Tactics. . .

(**)

انتشار التشكيلات عند الهجوم . ولقد شبت خلافات متواصلة حول هذه النقطة منذ ١٨٧١ . اذ كان التشكيل المألوف لهجوم المشاة والموروث عن عصر نابليون يتألف من ثلاثة خطوط : الخط الأول ويتألف من المناوشين في تشكيل مفتوح . يحتوى بالسواتر كلما استطاع سبيلا للوصول الى موقع استطاع استعماله لاطلاق نيران مركزة على العدو الذى يسير في تشكيلات منتظمة . ويتم ذلك بالتعاون مع المدفعية « لكسب حرب النيران » . ويسير خلف هذا الخط خط الهجوم الرئيسى في تشكيل منضم عادة تحت السيطرة المباشرة للضباط للهجوم بالسونكى . واخيرا يجرى خط الوحدات المعاونة ، يعنى الاحتياطى التكتيكى المباشر .

ونزع الجيش الالماني دائما بعد تذكره لمنايع مشاته في الهجوم في بعض المعارك (*) الى اتباع نظرة ترى أنه بمجرد تعرض المشاة للنيران سيتعذر اتباع التشكيلات المنضمة على الطريقة العتيقة . ومن ثم فعلى خط الهجوم الاساسى أن ينتشر ويشق طريقه قدما لتكثيف خط المناوشين ، او لكى يزيد خطهم امتدادا اذا شعر بتهديد لاجنحته . ومن الناحية الفعلية ، أصبح « المناوشون » هم الذين يتحملون صدمة الهجوم ، ولن يتحقق النجاح الا اذا سيطروا بنيرانهم . واذا حدث واستعمل السونكى ، فانما سيرجع ذلك الى محاولة جنى الحصيلة التى اكتسبت بالفعل عن طريق البندقية والمدافع .

هذه هي العقيدة التى اتجه اليها دراجوميروف واتباعه في كل مكان بانظارهم . ويتعين الاعتراف باحتوائها على مشكلات حقيقية . فبمجرد تعرض القوات المهاجمة للتشتت ، وتركها على سجيبتها بعيدة عن سيطرة الضباط الذين تتركز مهمتهم على الهامهم بسواء السبيل ، وبعيدة عن ضباط الصف الذين يعملون على « افزاعهم » ، فهل سيبقى بعد ذلك أى حافز لديهم للتقدم ومواجهة نيران العدو ؟ فبمجرد انبطاحهم على الأرض وراء ساتر ، هل يتوقع نهوضهم مرة أخرى ؟ لقد حدثت عدة أمثلة شهيرة ١٨٧٠ ، عندما شعرت بالضياح نسبة عديدة كبيرة من التشكيلات الهجومية الالمانية ، على نحو لم يعمل حسابه . ونشر أحد كبار الضباط (**) ، ممن قتلوا في هذه الحرب ، والذين احتوى كتابه على بعض أذكى الملاحظات التى نشرت عن الروح المعنوية للقوات المسلحة وصفا لشعور الجندي بانعزاله المفزع في أية معركة حديثة (وحتى قبل استعمال البارود الخالى من الدخان) بمجرد تجرده من معاونة رفاقه المنتشرين على جانبه بعرض

(*) في معركة St Privat, Woerth في أغسطس ١٨٧٠ .

(**) Colonel Ardent du Picq وقد نشر كتاب Etudes sur le Combat

بعد مقتله .

الجبهة . وكان لهذا الوضع دور عظيم في تشجيع الرجال على مواجهة الموت منذ أيام الحشود الرومانية : « فالجندي شخص غير معروف حتى عند أقرانه ، ويشعر بافتقاده لهم عندما تضطرب المعركة ، وتفقد اتجاهها فيلغى الجندي نفسه وكأنه يحارب وحيدا ، بعد اختفاء الاشراف الذي يساعد على توكيد التضامن المتبادل بين الجنود . فلقد أصبح كل شيء الآن يعتمد على الروح المعنوية ، وامكان الاعتماد على الوحدات الأصغر . فلقد شامت الظروف تحويل جميع المعارك في الوقت الحاضر الى معارك جنود ، فهل يتوقع أن يتحول هؤلاء الرجال المفزوعون للوحدة بعد أن حرمتهم من صوت الطبول وأبواق الحرب وتشجيع قادتهم وعون رفقاتهم الى شجعان يقبلون على الموت بصدر رحب ؟ » .

وقد شعر الجيش الفرنسي بتقاليد في القيادة العسكرية والتشكيلات المنظمة عند الهجوم ، والتي سبقت من حيث الزمان حتى عصر نابليون ، شعروا بالاحجام عن قبول المنطق الحديث لقوة النيران . وحاول قاداته بعد عشر سنوات من سنة ١٨٧٠ ، فرض تكتيكات التشكيلات المفتوحة على وحداتهم . ولكنهم لم ينجحوا نجاحا فعليا على الاطلاق . وتضمنت تعليمات ١٨٨٤ مرة أخرى الاشارة الى « مبدأ الهجوم الحاسم ، ورفع الرأس عاليا ، دون مبالاة بالخسائر » . أما تعليمات ١٨٩٤ السيئة السمعة ، فقد أعلنت صراحة وجوب تقدم القوات المهاجمة في تشكيل منظم تكاد أذرع المتحاربين تتلاصق فيه ، وبعدم احداث تصدع في التشكيل للاستفادة بسميزات الساتر . فيجب أن يتم الهجوم كتلة واحدة (*) « بعد تلقى الأمر من نوبة البروجي والطبول » . ولم ينفرد بتفضيل اتباع هذا الأسلوب المؤمنون بهذا الهراء والفرنسيون . فهكذا فعل الروس أيضا رغم تجاربهم التي اقتضت منهم مثل معركة بلفنا في بلجارية (١٨٧٧) التي خاضوا غمارها ضد الأتراك . والأمر بالمثل فيما يتعلق بالانجليز أيضا . فلقد عادوا هم الآخرون بعد عشر سنوات من حيرتهم متأثرين بأحداث ١٨٧٠ لتقاليدهم القديمة . ففي التعليمات التي صدرت ١٨٨٨ كتب العقيد هندرسون :

« لقد أعاد السونكي تأكيد دوره مرة أخرى . وسيعهد للخط الثاني المزود بالسلاح الصلب الأبيض (السونكي) وحده . كما كان الحال في عهد شبه الجزيرة البريطانية - سيعهد اليه بواجب التعجيل بانهاء المعركة . ويرجع الاضطراب الذي حدث في المعارك الروسية الى حد كبير الى اعتناقهم المادى الثابتة التي لا تتغير للتكتيك . وهم قدوة سيئة علينا أن نتفادى التأثير بها وتقليدها . ان حكمة شعبنا مرشد أكيد . واذا أردنا الاقتداء

بعد ١٨٧٠ بأحد فلتكن هذه القلوة تكتيكات الحرب العظمى الأخيرة التي
شنها الجنود المتحدون بالانجليزية .

وكان الأمريكان فى الجانبين (الشمال والجنوب أثناء حربهم
الاهلية) يشنون دائما هجوماتهم بالمواجهة فى تشكيلات منضمة بعد أن
اكتشفوا : « انه للحيلولة دون تدهور المعركة وتحولها الى صراع مستعر
ممتد بين جيشين محصنين فى الخنادق ، ولتحقيق نتائج سريعة وحاسمة ،
فان مجرد الزيادة فى النيران لن تعد أمرا كافيا » . وكان الدرس واضحا :
« النظام (التشكيل) المنظم عندما يتيسر ذلك . ويقتصر الالتجاء الى
التشكيل المفتوح عندما يكون اتباعه أمرا لا مندوحة منه » .

وفى ١٩٠٠ ، ازداد هندرسون شعورا بالأسى . وازدادت آراؤه
اتصافا بالحكمة ، بعد أن بينت أحداث جنوب افريقيا للعالم انه عند التعرض
لنيران فان التشكيل المنظم لن يكون ميسورا ، وما يقال عن أثره الحميد
على الروح المعنوية يثير الضحك : « عندما تعاني أغلبية الحشود من خسائر
ضافية ، وعندما يشعرون مثلما سيشعر آخرون أنه كان بالاستطاعة
اتباع سبل أخرى أقل تكلفة لتحقيق الغاية ذاتها ، فاطننا نعرف ما الذى
سيحل بروحهم المعنوية ؟ ويردف هندرسون فيقول : « ان أعظم الانتصارات
الهجومية المعية لم تظهر فى المارك التى كانت أقرب الى عراق بالشوم » ،
والتي استنزفت أكبر قدر من الدماء ، وانما هى التى اكتسبت عن طريق
المفاجأة والمناورة الحاذقة ، وتعمية العدو وتضليله ، بعد حسن الاستفادة
بتضاديس الأرض . انها المارك التى قلت فيها الذبائح (أى تضاءلت
فيها الأرقام المثبتة فى فاتورة الجزارة) . وبعد ذلك بجيل رأينا ليدل
هارت مواطن هندرسون ينمى هذه الفكرة البصيرة ويحولها الى فلسفة
كاملة للحرب . ولكن قبل ١٩١٤ بفترة طويلة ، تخلى الجيش البريطانى
عن هذا الاقتراح الهدام والذى مؤداه أن التبصر ربما كان أفضل جوانب
الجسارة .

على أنه عند المفاضلة بين التشكيلات المنضمة والتشكيلات المفتوحة
عند الهجوم رثى ان تجربة جنوب افريقيا تعد بوجه عام قد حسمت هذه
المسألة . فحتى القيادة الفرنسية العامة ، قانها بينما نسبت الكوارث
التى لحقت بالبريطانيين الى ما يتصف به الانجلوسكسون من تبك ،
قانها عندما أعادت كتابة تعليماتها ١٩٠٤ ، تخلت عن التشكيلات القائمة
على «التصاق المرافق» (*) التى اتبعتها ١٨٩٤ ، وأشارت باتباع التقدم فى
شكل جماعات صغيرة تستر بعضها بعضا بالنيران . أى نوع تكتيكات

المشاة التي عم اتباعها في الحرب العالمية الثانية . ومع هذا فمن المشكوك فيه أن تكون هذه الارشادات العاقلة قد تركت انطبعا عند جيش أصيب باضطراب ادارى يقترب من الفوضى اثر قضية دريفوس . ومن المؤكد أن أداء المشاة الفرنسية ١٩١٤ لا يكشف عن أى دلالة على ذلك . وعلى العموم فإن هذه التكتيكات تتطلب من الجندي العادى قدرا من المهارة والاعتماد على الذات لم يتوقعه الجيش الفرنسى ، أو أى جيش أوربى آخر (مع امكان استثناء الألمان) . ولم يحاولوا غرسه فى صفار الضباط أو الرتب الأخرى .

وبقيت دون حل المشكلة الأساسية الدائمة الالحاح ، يعنى مشكلة الروح المعنوية التي استفحلت بعد ان أصبح السواد الأعظم من جميع الجيوش يتألف من جنود احتياطيين ممن يخشى أن تكون معنوياتهم قد تسللت اليها عناصر هدامة من تأثير موهنات الحياة المدنية . واتجه المفكرون الأوربيون العسكريون الى التعميم واعتبروا الاهتمام بالروح المعنوية للجيش متصلا بالروح المعنوية للشعوب فى جملتها . ولم يتركز هذا الاهتمام على هل ستستطيع هذه الشعوب الصمود أمام ما سيعترى الاقتصاد من تضعضع - والذي يكاد بلوغ أن يكون قد انفرد بالتكهن بأهمية هذا العامل - ولكنه تركز حول هل سيكون باستطاعتها غرس ذلك الازدراء الرواقى للموت فى شبابهم ، حتى يتسنى لهم مواجهة فظائع الهجوم ، وقهرها .

الحرب الروسية اليابانية

وانتصار الروح الهجومية

وحدث عندما بلغ الاهتمام بقيمة الروح المعنوية ذروته ان شبت الحرب بين اليابان وروسيا فى الشرق الأقصى . ففى فبراير ١٩٠٤ ، شن الأسطول اليابانى هجوما مباغتاً على الأسطول الروسى فى بورت آرثر . وبعد أن نجحت اليابان فى السيطرة المحلية على البحر ، أنزلت قوات برمائية على ساحلى كوريا ومنشوريا ، واستغرق الجيش اليابانى سنة كاملة لتوطيد أقدامه فى المنطقة المتنازع عليها فى منشوريا ، واستولى على بورت آرثر بعد هجوم برى ، وشق طريقه فى محاذاة السكة الحديدية بالاستيلاء على القاعدة الروسية الأساسية فى موكلدن فى معركة دامت أسبوعين ، اشترك فيها أكثر من نصف مليون رجل . وكانت حربا يستعمل فيها الطرفان أحدث ما أنتجته التكنولوجيا . فلم يقتصر الأمر على استخدام البنادق التي تعبّر من الخزينة ومدفعية الميدان ذات الطلقات السريعة ،

وانما اشتركت أسلحة ومعدات أخرى كالدفاع الثقيلة السريعة الحركة والرشاشات والألغام والأسلاك الشائكة والانوار الكاشفة والاتصالات التليفونية ، بل وقامت الخنادق بدور مهم في هذه الحرب . وأثبتت الحرب الروسية اليابانية بما لا يتطرق اليه الشك أن أنفع سلاح لجندى المشاة بعد البندقية هو المجرفة (*) . وعلى الرغم من اتصاف هذه الحرب بطابع خاص تميزت به ، وهذا أمر محتوم ، إلا أن الطرفين حاربا في النهاية بعد أن امتدت خطوط تموينهما في مناطق قاحلة غير آهلة بالسكان ، قيدت قدرتيهما على الزج بقوات اضافية للاشتراك في الحرب . وهذه مسألة لا يصح الاستهانة بها ، كما فعل عديدون من المفكرين المحافظين في أوروبا عندما لم يعترفوا بحرب البوير باعتبارها مجرد حرب استعمارية بعيدة الصلة بالحرب بمعناها الصحيح . وكان الجيش الروسي واحدا من أعظم جيوش أوروبا ، وأشرف على تدريب القوات اليابانية ، وتجهيزها ، أوروبيون ، وبخاصة من الألمان ، على أعلى المستويات الأوروبية . وأرسل الأوربيون - والأمريكان - مراقبين عسكريين وبحريين لمرافقة القوات المسلحة ، ورجعوا بتقارير فنية عن العمليات التي استوعبتها قياداتهم ، وأمعنت النظر فيها مليا ، ورأت الجيوش البريطانية والفرنسية والألمانية جدارة ما كتب عن تاريخ الحرب الروسية بالعديد من المؤلفات المتعددة الأجزاء ، واستمر زهاء عشرات السنوات تحليل دروسها تحليلا ضافيا دقيقا من قبل بعض النحارير في المجلات الحربية ، الى أن خبا الاهتمام بها من تأثير الأحداث القريبة من بلادها . ولم تكن حرب البوير أو الحرب الأهلية الأمريكية ، أو حتى الحرب الفرنسية البروسية هي التي خطرت ببال المتخصصين العسكريين الأوروبيين عندما نشرت قواتهم ١٩١٤ . ولكن ما شغل أذهانهم حينذاك كان القتال الذي جرى في منشوريا (١٩٠٤ - ١٩٠٥) .

وجنح المتخصصون - كما جرت العادة - الى تفسير تجارب الحرب على النحو الذي يرضى أهواءهم ويتجاوب وأمانتهم ، فلاحظ رجال الفرسان المحافظون اخفاق الفرسان الروس - الذين تدربوا على استعمال البندقية - في تحقيق أى شيء على أكمل وجه لا داخل المعركة أو خارجها . اذ أدى الافتقار الى الروح الهجومية الى صبح غارات هؤلاء الفرسان واستكشافاتهم بطابع عديم الفاعلية . وعلى عكس ذلك ، لاحظ المصلحون كيف تمكن اليابانيون من نشر فرسانهم بكفاية ، وكيف نجحوا في استثمار قوة النيران الخفيفة الحركة ، ولاحظوا أيضا الدور المهم الذي قاموا به في معركة

موكلن ، واتفق الجميع على الاعتراف بالأهمية الفائقة التي اكتسبتها المدفعية بفضل ما لديها من دقة وقدرة على إصابة الأهداف البعيدة وارتفاع معدل النيران ، ورأوا وجوب حرصها دوماً على استعمال النيران غير المباشرة والشرابيل أكثر من اعتمادها على المقنوفات شديدة الانفجار باعتبارها أشد قاعلية ، وإن كانت هذه المميزات لا تنسينا نهم المدفعية في استنفاد الذخيرة . وتلقى المسئولون دروساً ثمينة تخص مشكلات الامدادات والاتصالات وضرورة ارتداء زي لا يلفت الأنظار . وسرعان ما أعاد الجيش الأوربي لباس جيوشه زياً عسكرياً من اللون البني والرمادي بمختلف درجاتهما . ويرجع تأخر الفرنسيين في الاحتذاء بالآخرين الى أسباب سياسية محافظة وليس لأسباب عسكرية ، مما عاد عليها بالعواقب الوخيمة . ولكن الأهم من كل هذا هو الاجماع العام على اعتبار هجوم المشاة بالسونكي مازال ممكناً ، بل وضرورياً ، بالرغم من تجربة جنوب أفريقيا . فلقد اتبعه اليابانيون المرة تلو الأخرى ، وحقق عادة نجاحاً حاسماً .

ولم تكن هجمات اليابانيين بالسونكي تجري الا بعد عمليات تقديمية طويلة حذرة . وكانوا يقتربون أثناء الليل بقدر الاستطاعة ، ويحفرون مواقعهم قبيل الفجر ، ويسترخون بالنهار ، ثم يكررون في الأيام التالية نفس الخطوات الى أن يتمكنوا من تقدمهم الى ما هو أبعد . ثم ابتعدوا تماماً عن التقليد الأوربي الذي يتبع التقدم في خطوط متراصة ، فكانوا ينقضون أو ينطلقون قلماً في جماعات صغيرة تتألف كل منها من عشرة أو عشرين جندياً ، ويحدد لكل جماعة هدف خاص بها ، وتنتقل من سائر الى آخر الى أن تقترب اقتراباً كافياً من الهجوم . ووصف أحد المراقبين الفرنسيين هذه الحالة بقوله :

« لقد أصبحت الجبهة اليابانية بأسرها تتوهج ببريق السونكيات بعد انتزاعها من جرابها . وغادر الضباط الملاحي مرة أخرى ، وهم يصيحون صيحات مجلجلة « بانزاي » ! ، تردد صدها بين جميع الرتب . وتقدموا متمهلين ، وإن وجب عدم انكار نجاحهم في شق طريقهم وغم الأسلاك الشائكة والألغام والحفر ووابل الطلقات التي لا ترحم . وتعرضت وحدات بأكملها للإبادة ، وحلت وحدات أخرى مكانها . وتوقفت الموجات الزاحفة للحظات ، ثم عاودت الزحف الى الأمام . ولقد أصبحوا بالفعل قيد أمتار من خنادق العدو . وبعد ذلك رأينا على الجانب الروسي جبهة ترتدى اللون الرمادي وتطلق بدورها غلابة من النيران ، وبعد أن تطلق بعض القذائف العلوية في نهاية الغلابة تهرع بسرعة الى الطرف البعيد من التل » .

وتكبد اليابانيون خسائر جسيمة في هذه الهجمات ، ولكنهم نجحوا ،
ومن هنا يصح القول بأن مثل هذه التكتيكات ستنتج مرة أخرى ، هكذا
رأى أصحاب النظريات من الأوروبيين . وكما عير عن ذلك أحد الكتاب
المسكروين الانجليز : « لقد أثبتت تجربة منشوريا المرة تلو الأخرى ان
السونكي ليس على أى نحو سلاحا عفا عليه الزمان . اذ ربما اعتبر
الاقتحام أهم من الحصول على التفوق في النيران الذى يسبقه ، لأن
الاقتحام بمثابة لحظة الذروة في القتال . ويعتمد عليه في حسم النزاع
... ومن هذه الأمثلة المجيدة يصح أن نستخلص وجوب عدم النظر الى
أى واجب قتالى مهما بلغت درجة صعوبته على أنه مستحيل ، اذا اضطلع
بانجازه جنود مشاة حسنو التدريب ومنضبطون يتمتعون بروح معنوية
عالية ، »

نعم لقد كان ما أسر انتباه جميع المراقبين هو « هذه الروح المعنوية
وهذا الانضباط » ، وأجمعوا على الاتفاق بأن هذه الخصائص لا تنفرد
بالتميز بها القوات المسلحة ، ولكنها سمة الشعب الياباني عن بكرة أبيه .
ولاحظ الجنرال كوروباتكين قائد القوات الروسية متاسيا في مذكراته :

« في الحرب الأخيرة ، كانت روحنا المعنوية أضعف من الروح
المعنوية لليابانيين . وترجع هزائمنا الى هذا النقص ، وليس الى أخطاء
القيادة ، ... لقد تأثر اصرارنا على القتال بوجه خاص بافتقارنا الى
الروح القتالية وارتفاع الروح المعنوية والنوازع البطولية . وفي حالات
كثيرة لم يتوافر لنا التصميم الكافى على قهر خصوم مثل اليابانيين ، ...
وآثارت نفس المميزات اهتماما مائلا عند الجنرال ايان هاملتون ممثل
الانجليز لدى حلفائه اليابانيين :

« ان ما يقلقنى الآن ليس مراهنتنا على الحصان الخاسر . ولكن
ربما شعر الساسة الأوروبيون ببعض القلق عند تناسى شعوبهم وجود
ملايين خارج الحلقة السحرية للحضارة الغربية على استعداد لانتزاع
الصولجان من الأيادى الواهنة ، التى سمحت لروحها العريقة بالاستكانة
... ومن حسن الحظ أن اليابان حليفتنا .. ومن ثم فلدى انجلترا الوقت
الذى يساعدنا على إعادة ترتيب شئوننا العسكرية . الوقت الذى يسمح
بفرس المثل العسكرية الأعلى فى أفئدة أبنائها ودفعهم للتعلى بها .
الوقت للاستعداد للقرن العشرين . وما سيتصف به من اضطراب وقلق .
فعلينا أن نبدأ بدور الحضانة ، ولعبها ، وبمدارس الأحد ومدارسنا
الحربية ، وأن نركز الدعوة لحث الجميع على الولاء والالتزام بالتقاليد فى
برامج التعليم حتى يستتب فى العقول الفتية لأبناء الجيل الصاعد من

صحية الانجليز والفتيات الانجليزيات الشعور بالاحترام والاعجاب بالروح الوطنية لدى أسلافهم » .

وبالاستطاعة العثور على تعبيرات مماثلة للاعجاب بعقيدة بوشيدو التي انتشرت حينذاك على نطاق واسع في المؤلفات العسكرية ، أو التي تتحدث عن موضوعات عسكرية . على أن ما يهمنا بوجه خاص لما نسعى تأكيد هو الاعتراف العام بأن الاداء الياباني قد أثبت التفوق المعنوي والعسكري الكامل للأسلوب الهجومي . فلقد أدت سلبية اختفاء خفة الحركة عند الروس - بالرغم من جميع المميزات التي كان يوسعهم التمتع بها بحكم اتخاذهم موقف الدفاع - في المدى البعيد الى تأكيد هزيمتهم . كانت هذه هي النتيجة التي تبناها - بقلوب راضية - العسكريون في كل مكان بعد الشكوك السقيمة التي ترتبت على حرب البوير . وكتب اللواء سيرنوكس بكل بساطة ١٩١٤ : « ليس أسلوب الدفاع أسلوبا مقبولا للبريتون على الاطلاق . فلقد أثبت - يقينا - على المدى الطويل أنه وراء كل هزيمة لحقت بمن يتبعه » . أما وزير الدولة للشئون الحربية هالدين فكان قد كتب قبل ذلك ١٩١١ : « ليس التركيز على مبدأ الدفاع السلبي هو الذي ساعد جنودنا على تحقيق المجد الذي تنعم به بلادنا حاليا » . وعندما تقاعد الجنرال الألماني فون شليفن كرئيس لهيئة الأركان ١٩٠٥ أوصى خلفاءه بالحرص على أن تتبع الجيوش النموذج الذي اتبع في الحرب السبعينية : « الهجمات والمزيد من الهجمات الشرسة » صحيح أنها أحدثت خسائر منقطعة النظير ، ولكنها حققت النصر أيضا . ومن المحتمل أن يكون من الصحيح أيضا القول بأنها هي التي تحسم المعركة » . وعلينا أن لا ننسى أيضا تأييد فون مولتكه الأصغر الذي خلف شليفن في منصبه لهذه الوصية : « لقد تعلمنا الهدف الذي سعى (شليفن) لتحقيقه وهو عدم الحصول على نجاحات محدودة ، بل يجب توجيه ضربات قوية قاضية . فالهدف هو القضاء على العدو ويجب أن توجه جميع الجهود لتحقيق هذه الغاية » .

على أن الدرس لم يقابل في أي موضع آخر بالمزيد من الامتنان الا في فرنسا . فلقد وصف الماريشال جوفر ، الذي ينظر الى عملياته الهجومية ابتداء من ١٩١٤ عبر ١٩١٦ على أنها سلسلة من المهالك الثقيلة الوطأة ، وصف رد الفعل الفرنسي تجاه الحرب الروسية اليابانية في مذكراته باخلاص ودون شعور بأي أسف ، فكتب :

« بعد حرب البوير ، تهاطلت سلسلة كاملة من العقائد العسكرية الزائفة ... التي نزعنا الى اضعاف حتى المشاعر الهجومية الواهنة التي ظهرت في مذاهبنا الحربية ... اذ أدت الدراسة المبتورة للأحداث التي

وقعت في حرب واحدة الى اعتقاد صفوة المفكرين في جيشنا . ان ارتقاء الأسلحة النارية وقوة توجيه النيران قد عززا من مبدأ اتخاذ الموقف الدفاعي ، حتى فقد الموقف الهجومي المقابل له جميع مميزاته ، .

ومع هذا فبعد الحرب الروسية اليابانية رأينا يقول :

« أخيرا برأ شباب صفوة مفكرينا من آثار المرض الذي ألم بالعالم العسكري من جراء تعلقه بهذه الاكليسيات ، ورجع الى تصور أسلم للأحوال العامة السائدة في الحرب ، .

واعترف القائد الفرنسي جوفر بأن هذا الولع الجديد بالهجوم « قد اتخذ طابعا بعيدا عن العقل الى حد ما » . واستشهد بمحاضرات الكولونيل جرانميزون الشهيرة ١٩١١ كمثال . فقد صرح جرانميزون لمستمعيه « بأن الأصح هو وصف هذا الاتجاه بأنه ابتعد تماما عن العقل » . « فعلينا حقا أن ننجح دائما عندما نقاتل في انجاز أشياء تبدو مستحيلة اذا نظرنا اليها نظرة فاترة . فمثلا . . . التقدم تحت وابل النيران . . . علينا أن نعد له العدة ، وأن نعد الآخرين له بأن نفرس في كل واحد منهم ما يحمل طابع الروح الهجومية . ولربما دل اتباع هذا الطريق الى حد المغالاة ، على أننا لم نسترسل في متابعته بالقدر الكافي » .

ولم يتضمن كلام جرانميزون أية اشارة لبيان الاستعمال الحريص للأرض ، والتعاون المتبادل بين الأسلحة ، أي المميزات التي تميزت بها التكتيكات اليابانية الفعلية . وهي تكتيكات اقترنت على نحو ملحوظ من المبادئ التي وردت في التعليمات الفرنسية للمشاة ١٩٠٤ ، والتي نظر اليها بعد ذلك بازدراء . غير أن جرانميزون لم يكن يطرح عقيدة عسكرية بقدر نزوعه الى ترديد شعارات قومية مستندة الى توكيد الذات والتعصب الشوفيني الذي كان مهيمنا على المؤسسات الفرنسية من مدنية وعسكرية على السواء في سنة ١٩١١ و ١٩١٢ . انها روح بذلت جهدا كبيرا لاستعادة الروح المعنوية لجيش محطم ومضطرب ، بعد ما حدث في قضية دريفوس من تجاوزات ، ولكنها لم تكن قادرة في ذاتها على ابتكار مهارات مبدائية ، كتلك التي تميز بها الجيش الياباني ، وبدونها لا تكون « الروح الهجومية » مجرد تأكيد للمعنوية القومية بقدر كونها رغبة عامة للموت . وكانت هذه الروح هي التي صحبت الضباط الفرنسيين عندما قادوا الهجمات في أغسطس وسبتمبر ١٩١٤ ، والتي تمخضت خلال ستة أسابيع عن وقوع خسائر تقدر بـ ٣٦٥٠٠٠ ، من بينهم مائة ألف من القتلى .

ومات بلوخ ١٩٠٢ ، ولكن كان بمقدوره الشعور بمزيد من الارتياح
لما أسفرت عنه تجارب الحرب الروسية اليابانية . اذ كانت معاركها طويلة
ومكلفة وغير حاسمة . لقد تحقق النصر عن طريق الانسحاق ، وعنت
الهزيمة بالنسبة لروسيا الثورة التي تولدت عنها . ولكن نقاد بلوخ
بمقدورهم القول بالمثل بأن فكرته الأساسية قد أثبتت عدم صحتها . فلقد
أثبت استمرار الحرب أنها ليست مستحيلة ولا انتحارية ، بل ظلت أداة
فعالة للسياسة ، تتبعها أية أمة عندما تتوافر لها الشجاعة لمواجهة أخطارها،
وتتوافر لها القدرة على تحمل أعبائها ونفقاتها . خصوصا ما تنكبده حتما
من خسائر في الأرواح البشرية يمكن التكهّن بها . وقال هؤلاء النقاد : على
الشعوب التي لا تعد نفسها لجعل مصيرها موقع اختبار ، عليها أن لا تتوقع
أية رحمة أو شفقة في الحرب الشرسة للصراع على البقاء التي تميز بها
دوما التاريخ البشري ، والتي بدأ محتملا أن تشن في القرن التالي بقدر
أكبر من الشراسة . وبهذه الروح وهذه الآمال ، توجهت الشعوب الأوروبية
صوب الحرب ١٩١٤ .

المراجع

- L. Albertini, The Origins of The War of 1914 (3 Vols.) 1952, 1957.
- T. Ashworth, Trench Warfare 1914-1918 : The Live and Let Live System 1980.
- V. Berghan, Germany and the Approach of War in 1914 (1873) (1981).
- W. Y. Carman, A History of Firearms from the Earliest Times to 1914, (1955).
- F. Fischer, Germany's War Aims in the First World War (1967).
- O. J. Halle, The Great Illusion 1900-1914 (1971).
- P. Kennedy, The Rise of the Anglo-German Antagonism 1860-1914, (1980).
- P. Kennedy, The War Plans of the Great Powers 1880-1914 (1978).
- L. Iafore, The Long Fuse (1965).
- J. H. Miller, Military Strategy and the Origins of the First World War (1985).
- J. H. Morrow (Jr.) German Air Power in World War I (1982).
- D. Porch, The March to the Marne : The French Army, 1871-1941, (1981).
- K. Robbins, The First World War (1984).
- Z. Steiner, Britain and the Origins of the First World War. (1977).
- L. C. F. Turner, Origins of the First World War (1970).

اضطرابات عمال بتروجراد فى الحرب العالمية الاولى

تسيوشى هازيجاوا

اندلعت الثورة فى روسيا ١٩١٧ • وفى نوفمبر ١٩١٧ ، سيطر البلاشفة على الثورة ، وعلى الرغم من أن المطالم والافتقار للكفاءة والمساوى، الاجتماعية التى صحبت الحكومة القيصريّة ، كانت وراء الأسباب بعيدة المدى للاضطراب السياسى فى روسيا ، إلا أن ما حدث كان نتيجة لتجربة الحرب العالمية الأولى التى عجّلت بالأحداث على نحو لم ينخيله أحد البنة قبل ١٩١٤ • ولقد ترتب على المجهود الحربى الروسى سلسلة من الهزائم العسكرية المهلكة على الجبهة وعلى الأحوال الفظة للانتاج داخل البلاد ، مما زاد من حدة سخط العمال ، الذى كان مستعرا بالفعل قبل وقوع الصراع •

وكانت بتروجراد (سان بطرسبورج الآن ، والتى سميت فى مرحلة الشيوعية بلينتجراد) محور اضطرابات العمال • وتضم المدينة أكبر تجمع عمال فى الصناعات المتصلة بالحرب • ولقد تزايدت قوة العمال أثناء الصراع ، وفى ذات الوقت ، وباستثناءات قليلة ، هبطت الأجور الفعلية هبوطا حادا ، بعد زيادة ساعات العمل ، وبعد أن تفاقم النقص فى الغذاء ، وردت الحكومة بالقمع المسلح على سخط العمال • وبالرغم من ذلك ، سعى عمال بتروجراد الى حماية مصالحهم بالاستعانة بالسبل القانونية القليلة المتاحة لهم ، مثل حركة التأمين واتحادات العمال وتعاونيات العمال ، وأندية القراءة والثقافة • وتحولت جميع هذه المؤسسات الى منابر للأنشطة السياسية والتنافس السياسى بين المعسكرات السياسية المتعددة للطبقة العاملة •

بيد ان الوسيلة الكبرى لاحتجاج العمال في بتروجراد كانت
الاضراب . ونظم العمال والثوريون المحترفون الاضرابات على الرغم من
الجو السائد المتأثر بالهزيمة العسكرية والصفوط القيصرية ضد أعضاء
البرلمان الروسى (الدوما) لليبراليين ، اذ كانت اسباب الاضرابات
واهدافها متصلة اتصالا مباشرا أكبر باهتمامات العمال انفسهم ، التى
تركزت على الأجور والفداء والقمع البوليسى . وبين ١٩١٥ و ١٩١٦ ،
ارتفع عدد المشاركين فى الاضراب ارتفاعا مفرعا . وفضلا عن ذلك ،
اشترك عمال ينتمون الى مختلف الصناعات تدريجيا فى هذا الاضراب ،
واتصفت موجة الاضرابات التى بدأت فى فبراير ١٩١٧ بروحها النضالية
وبتفشيها ، وادى ما حدث من اضطراب الى تصدع حكومة القيصر ونشوب
الثورة . ومن بين الجماعات الثورية المختلفة الساعية لاضعاف النظام
القيصرى ، نجح البلاشفة بمهارة فائقة فى لقاء شبانهم التى ضمت اهدافهم
السياسية وسط احتجاج القوة العاملة ببتروجراد على الأوضاع الاجتماعية
والاقتصادية .

لم يكن هناك ما هو أخطر على النظام القيصرى من « العزلة السياسية
الاجتماعية للطبقة العاملة التى كانت تحيا بمعزل عن النظام الاجتماعى
القائم » ، فلم تحظ بأى نصيب فى امتيازات المجتمع ، وشاركت فى اثاره
الطبيعية المتفجرة الهدامة للطبقة العاملة عناصر كثيرة كالتركيز الشديد
للعمال فى القليل من المدن الكبيرة ، وغلبة الأنشطة الصناعية الكبيرة
الحجم ، والخليط الغريب الذى يجمع بين التكنولوجيا المتقدمة وتخلف
التقدم الصناعى الروسى . نعم لقد رحب العمال باندلاع الحرب ، ولكن
حماسهم الوطنى سرعان ما انطفأت جذوتها ، بعد وقوع الهزيمة
الحربية ، وفساد الحكومة ، وشعورهم بالاحباط ثم الغضب ، بعد أن
ارتفعت تكاليف الحياة ارتفاعا حادا . وأدت سياسة القمع التى اتبعتها
الحكومة ، التى استبعدت من الناحية الفعلية جميع السبل القانونية
الرئيسية للاحتجاج الى اندفاعهم نحو الاشتغال بالتطرف . وفى أواخر
١٩١٦ ، اتجه العمال بعد ان أجبروا على التزام الصمت بعد بدء الحرب
الى الانصات لمثيرى الشغب ، وهم ينادون مطالبين بقلب النظام القيصرى ،
ومن هنا رأينا الاهتمام بفحص مصدر النزوع السريع نحو التطرف الذى
حدث بين عمال بتروجراد .

كانت بتروجراد أضخم مركز صناعى فى روسيا ، ففي بداية
١٩١٧ ، كانت تضم ٨٣٪ من مصانع البلاد داخل حدودها ، وتنتج
٢٢٪ من الناتج الصناعى الكلى ، وكان أكبر عدد من العمال متركزا فى

بتروجراد . ففي بداية ١٩١٤ ، بلغ عددهم ٢٤٢٦٠٠ أو ٩٪ من المجموع الكلي للعمال في روسيا ، وارتفع هذا العدد في أول ثلاث سنوات من الحرب إلى ٣٩٢٨٠٠ ، أي بزيادة قدرها ٦٢٪ . وهناك ٢٤٠٠٠ آخرون كانوا يقيمون في المناطق المجاورة خارج العاصمة حيث توجد بعض المصانع الكبرى (*) . وبذلك وصل عدد العمال في بتروجراد وضواحيها إلى ٧٤١٠٠٠ ، أو ما يقدر بـ ١١٫٩٪ من جميع العمال بروسيا .

وارتبط هذا التوسع السريع في صناعة بتروجراد ارتباطا وثيقا بالحرب . ففي أغسطس ١٩١٦ ، عمل ٩٤٪ من العمال و ٦١٪ من مصانع بتروجراد في الانتاج الحربي ، وأحدثت الحرب تغييرا بالغ الأثر في تكوين العمال ونوعية عملهم ، فتضاعف عدد العاملين بالتعدين إلى ٢٣٧٠٠٠ أو ٦٠٪ من المجموع الكلي للعمال في بتروجراد . وعلى الرغم من حدوث تضائل في عدد عمال النسيج خلال الحرب ، إلا أنهم كانوا يحتلون المركز الثاني بين عدد العمال في روسيا (٤٤٠٠٠ أو ١١٫٢٪ من العدد الكلي للعمال) ويأتي بعدهم عمال الصناعات الكيماوية الذين ازدادوا بنسبة ٨٠٪ فبلغ عددهم ٤٠١٠٠٠ ، أو ١٠٫٢٪ . وثمة أثر مهم للحرب هو ازدياد عدد المصانع الكبيرة . إذ ارتفع متوسط عدد العمال في المصنع من ٥٣٦ (١٩١٣) إلى ٩٧٤ (١٩١٧) . وفي بداية ١٩١٧ ، ضم عدد ١٣٢ مصنعا فقط ١٣٪ من مجموع العاملين بالمصانع ، التي كان يعمل بها ٣١٧٣٢٨ أي ٨٠٫٧٪ من المجموع الكلي لقوة العمال في بتروجراد . وكان متوسط عدد العمال في المصنع من هذه الفئة هو ٤٠٤٫٢ ، وأكبر المصانع هو مصنع بوتيلوف ، وكان يعمل به أكثر من ٢٤٠٠٠ ويملك مصنع الأنابيب في بتروجراد (١٩٠٤٦) ترويجولنك (**) (١٥٣٣٨) وأوبوخوف (***) (١٠٦٠٠) والمفرقات أوجتا (١٠٢٠٠) ومصنع الخراطيش بتروجراد (٨٢٩٢) ، وجميع هؤلاء العمال يشتغلون في الانتاج الحربي ، وتملك الدولة جميع هذه المصانع باستثناء مصنع ترويجولنك .

ولابد من ملاحظة أن إعادة احياء حركة العمال أثناء الحرب كانت مصحوبة في خلفيتها بحركة توسع هائلة في الصناعة الروسية ، وبخاصة في القطاعات الوثيقة الاتصال بالانتاج الحربي ، وخلق هذا التوسع أزمة نقص حادة في العمال ، وعلى الأخص بين العمال المهرة المشتغلين

ومصانع المدافع
Schlueselburg

Treugol'nik

Obukhov

(Izhora, Sestroretsk)

(*) مثل مصانع الاسلحة

(***)

(***)

بالتعدين • واضطلع هؤلاء العمال بالذات بدور نشط في حركة الاضراب، وكانوا أقدر على التعبير عن مطالبهم من افرانهم المصنعين بالصناعات الأخرى الذين لم يتماثلوا معهم في حالة الرخاء التي نعموا بها أثناء فترة الانتعاش التي خلقتها الحرب • وبعد الحرب بوقت قصير ، توقفت الحكومة عن تجنيد العمال المهرة في الجيش ، وعاد من سبق تجنيدهم تدريجياً الى المصانع •

ولم يكن من تصدروا الحركة الراديكالية للعمال من العمال المميزين في أكبر المصانع ، حيث كانت الأجور والعلاوات العرضية أفضل حالا من مثيلاتها في المصانع الأصغر حجماً ، وحيث توجه الحكومة مزيداً من العناية ، وتمارس أساليب الثواب (الجزرة) والعقاب (العصا) • اذ جاء معظم المشاركين النشطين في حركة الاضراب أثناء الحرب من بين عمال مصانع التعدين في مقاطعة فيبورج التي كان يعمل بها ما بين ألف عامل و ٨٠٠٠ عامل ، ومن ليستر الجديدة (٦٥٠٠) وبارفينين (٣٠٠٠) وفونكس (٧٣٠٠) وايفيز (٤٠٠٠) وروميت (٣٠٠٠) وفونكس (١٩٤) واريكسون (٢٢٠٠) ونوبل (١٦٠٠) وعلى الرغم من احتياج النتائج الأكثر دقة الى اجراء المزيد من البحث والتنقيب ، الا أن الظاهر أن عمال مصانع الذخيرة الكبرى التي تملكها الحكومة كانوا اقرب الى التقدم في السن ، وعملوا بنفس المصنع لسنوات عديدة • اما عمال مصنع فيبورج فكانوا اقرب الى صغر السن ، ومعدل استبدالهم بعمال آخرين أعلى ، ولو صح هذا الاستنتاج ، فاعلم الظن أن الباعث الأكبر لجنوح عمال بتروجراد نحو التطرف قد جاء بتحريض من عمال التعدين الأعلى مهارة ومن شباب العاملين بالتعدين ممن كانوا يتمتعون بمميزات اقتصادية أفضل من العاملين في القطاعات الأخرى من الصناعة ، ان لم يتماثلوا في المهارة هم والعمال الأقدم في مصانع الحكومة الكبيرة ، كما أن حجم هذه المصانع لم يبلغ حداً من الضخامة يحول دون الاتصال السريع بين عمال المصانع ، ولم يتصف بضالته بقدر كان يتيم للمستهلن عن ادارة المصنع والشرطة قمعهم بسهولة ، مما سهل سرعة تعبئة العمال •

وأول مؤثر شارك في إعادة احياء حركة العمال ابان الحرب هو حدوث انخفاض في الأجور ، وعلى الرغم من أن أجور عمال بتروجراد كانت أعلى بمقدار مرة ونصف من المتوسط القومي للأجور ، الا أن التضخم التهم هذا الاختلاف • اذ كانت الأجور القعاية لعمال بتروجراد (١٩١٦)

ما بين ٩٠٪ و ٩٥٪ من مستوى أجور ١٩١٣ ، وفي فبراير ١٩١٧ هبطت بمقدار من ١٥ الى ٢٠٪ . على أن هذه الأرقام لا تكشف التحولات الواسعة بين مختلف الصناعات ، مثلما تكشف ما بين العمال المهرة وغير المهرة من اختلاف ، فلم تحدث زيادة في الأجور الفعلية إلا في قطاعين من قطاعات الصناعة : قطاع صناعة التعدين وقطاع الصناعات الكيماوية ، وكانت هذه الزيادة ما بين ٢٠٪ و ١٣٪ على التوالي ، وفي الصناعات الغذائية وصناعة النسيج ، حيث كانت العمالة الغالبة من النساء والأولاد ، كانت الأجور أقل من نصف أجور عمال التعدين ، وتعد الزيادة غير العادية في تكاليف المعيشة مسئولة بصفة مباشرة عن تدهور الأجور الفعلية . وفي أكتوبر ١٩١٦ ، عندما قورنت الأسعار بأسعار ١٩١٣ اتضح حدوث ارتفاع في سعر الشيلم بمقدار ٢٤٣٪ ، وفي سعر دقيق القمح بمقدار ٢٦٩٪ وارتفع سعر الحنطة السوداء ٣٢٠٪ وسعر اللحوم ٢٣٠٪ وسعر السكر ٤٥٧٪ والأحذية والملابس من ٤٠٠ الى ٥٠٠٪ . فلا عجب إذا رأينا أهم مطلب اقتصادي للعمال أثناء الحرب يتركز على زيادة الأجور .

ويعتقد بعض الكتاب (*) في وجود عمال أرسقراط خلال الحرب ، ارتفعت على اكتافهم الدعامة الاجتماعية للاشتراكيين المعتدلين ، ويبين من البيانات الخاصة بتوزيع الأجور في لستر الجديدة ما يأتي : ٢٧٪ كانوا يحصلون على ما هو أقل من ٦٠ روبل و ٢٥٪ (ما بين ٦٠ و ١٠٠ روبل) و ٢٠٪ (ما بين ١٠٠ و ١٤٠ روبل) و ١٩٪ (ما بين ١٤٠ و ٢٠٠ روبل) ويظن الكاتبان أن ما بين ٥٪ و ٧٪ من عمال بروجراد كانوا ينتمون الى العمال الأرسقراط الذين يتقاضون أكثر من ٢٥٠ روبل شهريا . ولا يستبعد وجود تناسب عكسي بين مقدار الدخل والاستعداد للمشاركة في حركة الاضراب ، ولعل شباب العاملين المهرة بالتعدين الذين مثلوا صميم حركة الاضراب لم يكونوا من بين من يحصلون على أعلى أجور ، ولكنهم كانوا يحصلون على ما هو أكثر من العامل المتوسط . ومع هذا فما زالت النتائج الأدق تنتظر دراسة احصائية أوفى وأشمل .

ومن العوامل المؤثرة على الاقبال على الاشتراك في حركة الاضراب طول ساعات العمل . إذ كان متوسط ساعات العمل في مصنع التعدين (من ١١ الى ١٢ ساعة) يوميا . وكثيرا ما كان بعض العاملين في مصانع النسيج والجلود يعملون أكثر من ١٢ أو ١٣ ساعة يوميا ، وأدت هذه الاطالة في ساعات العمل الى حدوث زيادة في التعرض لمحوادث وحالات

المرض لما يقرب من ضعف مستوى ١٩١٣ ، وضعف ونصف هذه السنة . واكتشف مفتشو المصانع (١٣٧٢ حالة انتهاك للشروط الصحية وتعليمات الأمن) ١٩١٥ ، ولم يحكم بالغرامة الا على عشرة من أصحاب المصانع بما قيمته ٣٦٥ روبل ، وفي ذات السنة ، كانت هناك أحكام بالغرامة تقدر بمبلغ ٣٢١٨٩٨ وقعت على العمال ، وبذلك بلغ مجموع الغرامات ١٠٩٦٣٣ وكثيرا ما أدى التهاون في تطبيق اجراءات الأمن الى وقوع أحداث مأسوية . ففي ١٦ ابريل ١٩١٥ ، دمر انفجار وقع في مصنع ذخيرة المدافع « أوختا » ورشتين وثمانية أبنية سكنية في الضواحي ، وقتل ١١٠٠ شخص وجرح أكثر من ٢٢٠ ، وفي ١٥ نوفمبر ١٩١٥ ، أدت رداءة التهوية في إحدى ورش ترويجلنك الى إصابة ٣٩ من العاملات بالتسمم بالإضافة الى ظهور أعراض هستيرية تمثلت في شكل صياح وبكائيات وضحكات ، وبعد ذلك بخمسة أيام ، أصيب أحد عشر عاملا بالتسمم في الورشة نفسها . وفي ١٠ أكتوبر ، أرسل خمسون عاملا في لاجنتير - لم يذكروا أسماءهم - التماسا الى مفتش المصنع يطلبون منه التدخل لصالحهم لإنشاء أنبوبتين وفتحتين للتهوية تركبان بالورشة بعد أن شكوا جميع العمال من الصداغ الناشئ عن «الدخان ورائحة الزيت» ، ورفضت إدارة المصنع المطلب ، وردت عليه بقولها : « لستم بحاجة الى مثل هذه الأنابيب ، لأنكم ستشعرون بالبرودة ، عندما تتسرب البخوة من فتحة الأنابيب ، وسيلحق الهواء ضررا جسيما بكم » .

وتحمل العمال الكد والكبح طيلة اليوم في ظروف خطيرة ، ولم تتوافر لهم في بيوتهم سبل الراحة أو اليسر ، ولقد سبقت الإشارة الى شدة الازدحام في أحياء العمال ، وأدى اكتظاظ العمال الجدد في بتروجراد الى نشوء أزمة سكن حادة في الايواء ، وإلى اقدام إدارة المصانع الكبرى على انشاء عنابر للنوم في مجمعات المصنع ، وارتفعت قيمة الايجارات الى أن بلغ عنان السماء متوسط الايجار الشهري ١٩١٦ بمقدار ١٢ روبل ، بالمقارنة بثلاثة روبلات أو أربعة قبل الحرب ، واضطر كثير من المستأجرين الى المبيت بالطرقات لمعجزهم عن دفع قيمة الايجار .

غير أن أهم مشكلة واجهت عمال بتروجراد بعد صيف ١٩١٥ ، كانت موارد الغذاء ، اذ هبطت كميات الدقيق التي تنقل الى قطاع بتروجراد بمقدار ٦٥ مليونا بود (والبود يعادل ثمانية عشر كيلوجراما) وإلى ٢٨٦ مليون بود ١٩١٧ ، أي انقص بمقدار ٤٤٪ عن مستوى ١٩١٣ . وفي خريف ١ٹ١٥ ، اختفت اللحوم ودقيق القمح والسكر والزبد من الأسواق ، وتعذر شراء الكبريت والصابون والشموع والكبروسين . واضطر العمال الى

الوقوف في طوابير طويلة بعد انتهاء العمل لشراء رغيف من الخبز ،
وكثيرا ما يكون قد نفذ عند مبارحتهم لمقار عملهم .

ولم يتوافر للحكومة أى حل لمشكلات العمال ، ولكنها لجأت الى
القمع في كثير من الأحيان لاحتوائهم ، ودفعت اتحادات العمال الى
الانزواء عن الأبدصار والالتجاء الى الوسائل غير المشروعة فور اندلاع
الحرب وأوصدت أبواب دور النشر الخاصة بالعمال ، وقبض على رؤساء
تحرير صحفها . وبعد القبض على المناضلين الحركيين ، تم الخلاص من
منظمات صندوق المرضى من العمال ، وتوقعت اجتماعات مجالس التأمين
في طول المدينة وعرضها ، بعد القبض على جميع أعضائها عدا اثنين
فقط ، وقال أحد المخبرين السريين (أوخران) مزهوا : حتى الآن في
بتروجراد ، توقف العمل في اتحادات العمال ، وتعد نقابة الصيادلة هي
الوحيدة التي مارست عملها أثناء الحرب . واعتبرت الاضرابات مخالفة
للقانون ، وعوقب المضربون بالأشغال الشاقة لمدة تتراوح بين أربعة
شهور وأربع سنوات . ونشرت إحدى جرائد موسكو (*) : « بعد جميع
الاضرابات التي تؤدي بالقطع الى تباطؤ تزويد الجيش باحتياجاته مساعدة
صريحة وسافرة لعدونا . ولا يمكن أن ننظر اليها الا على أنها خيانة
شريرة لجنودنا البواسل ، وخيانة لوطننا » ، وفي ٢ سبتمبر ١٩١٥ ،
أصدر الجنرال فرولوف قائد حامية بتروجراد تحذيرا للعمال قال فيه
ان أى اشتراك في الاضرابات سيؤدي الى التعرض للمحاكمة أمام محكمة
عسكرية والحكم بالنفي لمدة غير محدودة .

ولم تحل مثل هذه الاجراءات القمعية دون استمرار اضرابات
العمال ، التي ظلت الوسيلة الفعالة الوحيدة للتعبير عن الضمير . وعندما
كثفت حركة الاضراب في صيف ١٩١٥ عن بوادر عودة اندلاعها ، بحثت
الحكومة احتمال تجنيد العمال . وفي أغسطس ١٩١٥ ، قدم وزير التجارة
والصناعة اقتراحا الى مجلس الوزراء بوضع جميع الصناعات المانزمة
بالانتاج الحربي تحت امرة وزير الحربية والبحرية واخضاع العمال
للانضباط العسكري ، وبناء على هذا الاقتراح « يحرم العمال من حق ترك
العمل والتوقف عن ممارسته ، وأداء الخدمة » ، غير أن مجلس الوزراء
قرر عدم الأخذ بهذا الرأي خشية أن يثير مثل هذا الاجراء ثائرة العمال ،
لأنه سيؤدي الى تحويلهم الى مجندين . وفي أواخر ١٩١٥ ، تزودت حركة
الاضراب بقوة دافعة . وفي بداية ١٩١٦ ، عاود مجلس الوزراء النظر في
مسألة تجنيد العمال ، وتقرر توقيع العقوبات على المضربين بدلا من ارسالهم

الى الجبهة ، وذكر المؤرخان لايفوف وشخاراتان الأرقام الآتية : لقد تم تجنيده ما مجموعه ستة آلاف من متزعمي الاضراب بالجيش خلال الحقبة بين يوليو ١٩١٥ وديسمبر ١٩١٦ ، وبيانهم كالآتي : ٣٠ عاملا من لستر الجديدة واركسون وحوض السفن « نيفا » ، وفي يوليو ١٩١٥ جند ثمانون عاملا من مصنع التعدين ببتروجراد و ١٧٥٠ عاملا في المصانع الرئيسية في أكتوبر ١٩١٦ . ويبين من هذه الأرقام التجاء الحكومة الى العقوبة لتثبيط الاضرابات دون أن تدرك مغية اتباعها لهذه الوسيلة التي ساعدت على نشر المشاعر الثورية في وحدات الجيش .

واستمر أصحاب المصانع يتبعون أساليب القوائم السوداء - يعنى توزيع « قائمة بأسماء غير المرغوب فيهم سياسيا » على أعضاء جمعية أصحاب المصانع لعدم تشغيل كل من ذكر اسمه في القائمة ، الا أن النقص في العمال المهرة ، وسهولة اخفاء الحركيين لهويتهم قد جعل « القوائم السوداء » عديمة الجدوى .

وعلى الرغم من اجراءات القمع التي قامت بها الشرطة ، فقد حرص عمال ببتروجراد على الحفاظ على شبكة أنشطتهم المشروعة وغير المشروعة . فخلال الحرب ، حاولت أربعة أنماط من التنظيمات القانونية حماية مصالح العمال ، وهذه التنظيمات هي منظمة التأمين واتحادات العمال وتعاونيات العمال ، والأندية والحلقات الثقافية والتعليمية .

ومنح قانون التأمينات ١٩١٢ العمال حق انشاء ادارة لصندوق المرضى بالمصانع من اختصاصه ايفاد ممثلين لمجالس التأمين والإقليم والمدن ، وعلى الرغم من أن مجالس التأمينات قد تألفت أساسا من ممثلي أصحاب المصانع ، ووضعت تحت الاشراف الدقيق لوزير التجارة والصناعة ، الا أن العمال حصلوا على متنفس قانوني ييسر لهم حماية مصالحهم الجماعية ، وشن العمال في الحقبة الواقعة بين ١٩١٢ و ١٩١٤ حملة لنشر التأمين ، فأنشأوا صناديق للتأمين على الماضي بالمصانع . وانتخبوا ممثلين للعمال في مجالس التأمينات وأنشأوا مجلة (*) ، وخضعت هذه المجلة لتأثير البلاشفة ، وأصبحت الصحيفة الشرعية للبلاشفة ، وبعد اندلاع الحرب ، منعت الحكومة صدور المجلة ، وألقت القبض على زعماء الحركيين في الحركة التأمينية ، وان كانت لم تستبعد تماما جميع المنظمات التأمينية . وعلى الرغم من توقف الجماعات العمالية في مجالس التأمينات عن العمل ، فإن صناديق المرضى في مستوى المصانع واصلت أنشطتها ، وزودت العمال بمنظمتهم الشرعية الحيوية الوحيدة ، وفي

بواكير ١٩١٥ ، شرع الحركيون في منظمات صندوق المرضى ، معاودة الاتصال فيما بينها ، وما أن جاء شهر فبراير حتى بدأت جماعة تأمين العمال تمارس عملها ، وعادت مجلتها للظهور ، وتولى تنظيم هذه الحملة - كما كان الحال قبل الحرب - البلاشفة الذين عاودوا مرة أخرى الاشراف على مجلة التأمين ، واستعانوا بها لنشر نفوذهم بين عمال بتروجراد . وشغل محترفون من النوريين البلاشفة (*) ، عمل الخبراء في مسائل التأمين في جملة مصانع مختلفة ، وشن الحركيون حملة انتخابية في ديسمبر ١٩١٥ ويناير ١٩١٦ لشغل الأماكن الأحد عشر التي خلت بعد القبض على ممثلي الأعضاء الخمسة عشر في مجلس التأمينات ، وأسفرت النتيجة عن انتصار ساحق للبلاشفة الذين انتخبوا في عشرة من المقاعد الشاغرة ، ولم يتخلوا عن أكثر من مقعد واحد للمناشفة (المنشعك) واعتبرت مجلة أوخرانا المنظمات التأمينية ككتائب احتياطية للاشتراكيين الديموقراطيين ، وكانت محقة في ذلك ، واضطهدت الحركيين بلا هوادة . فمن أغسطس ١٩١٤ حتى ديسمبر ١٩١٦ ، شنت الحكومة ٧٧ حملة تفتيشية وتدميرية ، على منظمات صندوق المرضى ، ولما كان قد تم القبض على أربعة من العمال في خريف ١٩١٦ ، ولم يبق منهم سوى اثنان ، لذا أجرى انتخاب آخر في أكتوبر ١٩١٦ ، حصل فيه البلاشفة على أربعة مقاعد من خمسة .

لقد زودت « حركة التأمينات » العمال بقاعدتهم التنظيمية المشروعة ، وسعى الحركيون في صناديق المرضى للحصول على الحد الأقصى من الحماية للعمال ، كما نص عليها قانون ١٩١٢ . وعلى الرغم من تقيدها بالرقابة الحكومية ، إلا أنها سعت لإصدار مجلة قانونية - أو بصفة شرعية - ترمي الى تعريف العمال بالمشكلات الاقتصادية ، رغم ما تضمنته من صفحات بيضاء محنت بأمر الرقابة ، واستفاد البلاشفة ممن قادوا حملة التأمينات خلال الحرب من كل مناسبة لنشر شعاراتهم السياسية المتخفية وراء الأنشطة التأمينية ، وما أن هلت نهاية ١٩١٦ حتى بلغ عدد منظمات صندوق المرضى في بتروجراد ثمانين منظمة ضمت بين صفوفها أكثر من ١٧٦.٠٠٠ يعنى ٤٥٪ من المجموع الكلى لعمال بتروجراد .

وكانت المنظمة الأخرى التي حاول العمال استعادتها خلال الحرب هي اتحاد العمال ، ولقد كرر العمال التماسهم للحكومة بالسماح بإعادة تشكيل الاتحادات المعترف بها شرعياً . وقسم خمسة عشر اتحاداً مختلفاً مثل هذه الالتماسات بين ديسمبر ١٩١٤ وفبراير ١٩١٧ ، ولكن الحكومة

M. T. Kalinin, V. V. Kuibyshev, S. Roshal, A. A. Andreev. (*)

لم تسمح بإعادة أكثر من خمسة اتحادات . وبعد أغسطس ١٩١٦ رفض إنشاء أية اتحادات عمالية جديدة ، وأثناء الحرب ، وحتى فبراير ١٩١٧ ، كانت بتروجراد تضم أحد عشر اتحادا للعمال يعمل سرا ، وثلاثة اتحادات شرعية لغير العمال (للكتبة فى مصانع الطباعة والصيدالة والبوابين) . ولم يضم حتى أكبر الاتحادات (يعنى اتحاد عمال التعدين) أكثر من أربعة آلاف عضو من بين ٢٣٧٤٠٠ من المشتغلين فى هذه الحرفة . وتعرضت ممارستهم لواجبهم للتعويق من أثر الخصومات الجزية بين البلاشفة والمناشفة ، والصراع على السيطرة على الاتحاد ، ولم تشرف باقى الاتحادات على أكثر من بضع مئات من العمال ، على أكثر تقدير ، وبوجه عام ، فإن وجودهم غير القانونى قد جعل وضعهم عديم الفائدة ، ومن هنا فضل الحركيون بذل جهدهم من خلال مناقذ قانونية أخرى .

ودفع التضخم الذى لم ينته قط الى انشاء نوع آخر من المنظمات القانونية : تعاونيات العمال ، وأنشئت المنظمة التعاونية الأولى فى نوفمبر ١٩١٥ بفضل الجهود المشتركة لأصحاب المصانع ، وبعض زعماء المنشفيك وكانت المهمة الرئيسية للتعاونيات شراء الأغذية ، وغير ذلك من الضروريات وتوزيعها بأسعار مخفضة على المستهلكين . وفى أقل من عام ، ظهر أحد عشر جمعية تعاونية للعمال فى مختلف أنحاء المدينة ، ونجحت فى تجنيد ١١٠٠٠ عضوا . وفى فبراير ١٩١٧ ، كان هناك ٢٣ جمعية تعاونية تضم خمسين ألف عضوا ، وإذا كانت الحركة التأمينية قد نمت برعاية البلاشفة ، فإن المناشفة المعتدلين هم الذين تزعموا الحركة التعاونية ، التى أشرفت على تحرير مجلة « ترود » وهى المجلة التى تخصصت فى الدعوة للحركة التعاونية ، وفى ابريل ١٩١٦ ، تشكل اتحاد بتروجراد لرابطة المستهلكين كمركز للتنسيق بين جميع الجمعيات التعاونية فى بتروجراد ، بيد أن الحركة التعاونية لم تبق مجرد منظمة اقتصادية . . فقد استغل المناشفة الجمعيات التعاونية كنقطة اتصال بين حركة العمال والمعارضة الليبرالية ، وأيضا كقاعدة لتدعيم نفوذهم بين الجماهير الواسعة من العمال ، وفى بداية ١٩١٦ ، ذكر أحد المخبزين الصحفيين لمجلة « أوخرانا » ، « ان العناصر ذات العقلية الثورية تحاول استغلال الجمعيات التعاونية كمجرد شكل من أشكال الامكانيات القانونية . . » .

وتمت شبكة أخرى لحركة العمال الأندية الثقافية والحلقات الثقافية فى المصانع والفصول المسائية التى نظمها الحركيون الليبراليون للخدمات الاجتماعية . وفى بيوت الشعب وفى الكثير من المصانع الكبرى ، كانت هناك أندية شبه قانونية وحلقات للمطالعة . وكانت مادة المطالعة والمناقشات والمناظرات فى هذه الأندية سياسية سافرة ، ومنظمة لغرس

الوعي الطبقي بين جموع العمال ، وعملت أيضا كمراكز سرية لالتقاء الحركيين ، وتجنيد رفقاء الكفاح . وكثيرا ما استغلت بطريقة غير مشروعة كاماكن تجمع لمنظمى الأحزاب لوضع المخططات . ولا يعرف عدد ما وجد من مثل هذه الأندية والحلقات ، أو كيف شارك العدديون من العمال فيها ، ولكن دورها في تزويد الحركيين بمكان يلتقون فيه لا يعد أمرا بعيدا عن الأهمية .

وبالرغم من كل هذا ، فإن أعظم سلاح توافر للعمال ظل هو الاضراب ، وإن كانت هذه الحركة سرعان ما هدأت حدها فور اندلاع الحرب . ففي ١٩ يوليو ، واستجابة لحركة التعبئة ، نظم المتشددون في حركة العمال - وعددهم حوالي ٢٧٠٠٠ من بين المصانع الكبرى للتعدين في مقاطعة فيبورج مظاهرة ضد الحرب ، ولكنها طوردت على عجل من قبل الشرطة الراكبة . وزحفت مظاهرة عابرة أخرى تضم خمسين شخصا - بجرأة - صوب نيفسكي بروسبكت ، ولكنها تعرضت لهجوم ساخط من الجماهير الوطنية الغاضبة . وتعد هاتان المظاهرتان رد فعل لحركة الاضراب التي بلغت ذروتها في الاضراب العام قبل نشوب الحرب بأسبوعين . وبعد ذلك توارت حركة الاضراب حتى صيف ١٩١٥ . فبينما بلغ المضربون ١١٠.٠٠٠ عاملا في ٩ يناير ١٩١٤ (ويمثل ذكرى الأحد الدموي) لم يحتفل بذكرى هذا اليوم التقليدي للاحتجاج ١٩١٥ سوى ٢٦٠٠ عاملا . وعندما قبض على المبعوثين البلاشفة « في السوما » في نوفمبر ١٩١٤ ، لم تحدث أية اضرابات . وعندما قدموا للمحاكمة في فبراير ١٩١٦ ، نظمت الاضرابات في ستة مصانع فقط ، وضمت ٣٤٠ عاملا . وأحدثت الحرب تأثيرين سيكلوجيين على العمال : أولا - لم تشتعل الحماسة الوطنية الا عند حفنة صغيرة من العمال في بتروجراد . ومما أثار ذهول الثوريين من قدام المحاربين في المقاومة السرية ان هؤلاء العمال قد ساروا على رأس مظاهرات وطنية وهم ينشدون « حفظ الله القيصر ! » . وأسف أحد الحركيين البلاشفة وقال : « ان صراعنا الطبقي قد ابتلعت المجارى » أو ذهب في أدراج الرياح . وفي بعض المصانع ، طالب العمال بطرد المهندسين وملاحظي العمال ممن يحملون أسماء المانية . ثانيا - لقد شاع الهلع بين العمال من احتمال تجنيدهم في الجيش : « ان العمال (يتشعلقون) بالمخرطة . مثلما يتعلق الغريق بقشة حتى يبقون بالمصنع » .

بيد أن هزيمة الجيش الروسي في ربيع وصيف ١٩١٥ بدلت روح « العمال » الى حد كبير . ففي ٤ يوليو ١٩١٢ ، أضرب أكثر من ١٥٠٠ عاملا في لستر الجديدة مطالبين بزيادة الأجور ، وبذلك أعطوا إشارة البدء لموجة جديدة من حركة الاضراب . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، اتخذ عمال

لستر الجديدة الصدارة في كل اضراب رئيسي حدث ايان الحرب في بترو - جراد . ففي غضون اسبوع ، تفشى الاضراب وعم المصانع الاخرى ، بما في ذلك دار صناعة السفن في موتيلوف ودار صناعة السفن في نيفا واريكسون . وفي المصنعين الآخرين ، تشكلت لجنتان من قبل الحركيين في المقاومة السرية الثورية لتنظيم الاضرابات غير المشروعة ، وضمت بلاشفة ومناشفة . وأزعج التزايد المباغت للاضرابات السلطات المسئولة ، وحذر قائد الحامية العسكرية في بتروجراد الجنرال فرولوف باحتمال توقيع عقوبة على المشاركين في الاضرابات . وفي ١٢ يوليو ، قبضت الشرطة على أعضاء لجنة الاضراب في دار صناعة السفن في نيفا و١٠٣ من المضربين في اريكسون ممن امتنعوا عن العودة لأعمالهم .

وفي يونيو ، أدى الاضراب في مصنع كبير للغزل والنسيج في كوستروما - وهي مقاطعة شمال غربي موسكو - الى اطلاق الشرطة للنيران ، فقتلت ١٢ عاملا وجرحت ٤٥ ، ولم يحدث رد فعل فوري لذلك كاتارة الاحتجاج القوى من عمال بتروجراد . ولكن في ١٠ أغسطس ، بلغت الشرطة في رد فعلها ضد مظاهرة لعمال الغزل والنسيج في ايفانوفو وفورييسند ، فأطلقت الرصاص عليهم وقتلت ٣٠ وجرحت ٥٣ . وفي ١٧ أغسطس ، وعندما بلغت الأنباء بتروجراد ، أضرب العمال في مصنع ايفار . وفي اليومين التاليين ، انتشر الاضراب ، وعم المصانع الكبرى في فنبرج ونارفا ومقاطعات بيترهوف ، واشترك فيه ٢٢٥٠٠ عاملا ينتمون الى ٢٣ مصنعا قاموا جميعا بالاحتجاج على مذبحه ايفانوفو . وتوافقت الاضرابات في أغسطس آنيا هي وتساعد الاضرابات الاقتصادية . فاول مرة منذ ٩ يوليو ١٩١٤ ، اصطدم المضربون بالشرطة ، وحدثت بعض حالات سلب ونهب لمخازن الأغذية . وفي أحد الشوارع القريبة من ثكنات لواء سمينوفسكى ، انضم بعض المجندين المستجدين في لواء ايجر الى حشد من النسوة وهاجموا الشرطة ، وجرحوا عشرين من رجالها ، واضطروا الى الالتجاء الى الشرطة العسكرية لاستعادة النظام .

وبادرت السلطات برد فعلها ضد حركة الاضراب في اسرع وقت . ففي الفترة الواقعة بين ٢٩ أغسطس و ٢ سبتمبر ، قبضت الشرطة على الثوريين الحركيين في المقاومة الشعبية في حركة التأمينات . وفي مصنع بوتيلوف وحده ، قبض على ثلاثين عاملا ، كان من بينهم ٢٣ من البلاشفة (خمسة منهم أعضاء في لجنة بطرسيبورج البلشفية) ، وستة من الاشتراكيين الثوريين وأحد المناشفة . وأثارت عمليات القبض الجماعية اضرابا عاما في المدينة كلها . ففي ٥ سبتمبر أضرب أكثر من ٦٠٠٠ عاملا في مصنع بوتيلوف ، وتجمع عمال من سبع ورش مختلفة في بوتيلوف في فناء

المصنع ، وأعدوا قرارا تضمن بضع مطالب : أولا - استدعاء المبعوثين البلاشفة من المنفى . ثانيا - الافراج عن عمال بوتيلوف المقبوض عليهم . ثالثا - تعيين وزارة مسئولة . ورابعا - تجنيد رجال الشرطة بالجيش . وخامسا وأخيرا - زيادة الأجور بمقدار ١٥٪ واحتجوا أيضا على تخصيص بعض مقاعد لشخصيات بالذات في البرلمان . واشتمل القرار على بعض ملامح منشفية قوية . وردا على اضراب بوتيلوف ، عجل الحركيون في مختلف تنظيمات المقاومة الشعبية بتشكيل لجنة للاضراب تمثل مختلف أنحاء المدينة . وتحمس عمال المصانع الأخرى لمواصلة اضراب بوتيلوف ، ولانشاء سوفيت يضم مبعوثين من العمال . ورد عمال بتروجراد باعلان الاضراب أربعة أيام . وفي ٢ سبتمبر ، اشترك ٣٧ مصنعا في الاضراب الذي ضم ٢٥٨٠٠ عاملا ، وحدث اضراب ثان في ٤ سبتمبر (في ستين مصنعا) وضم ٧٠٠٠٠ عاملا ، وبلغ مجموع المضربين المشتركين في الأيام الأربعة ٨٢٧٠٠ ينتمون الى سبعين مصنعا .

ومن المثير للاهتمام أن يلاحظ تأييد « لجنة الاضراب في جميع المدن » لفكرة انشاء رابطة لمبعوثي العمال السوفيت ، وقامت هذه الرابطة بدور أساسي في تزعم حركة اضراب العمال في بطرسبورج في ثورة ١٩٠٥ . وبالرغم من تعذر التيقن من أين بدأت المبادرة بانشاء « سوفيت » أثناء اضراب سبتمبر ، الا أنه من الجدير بالذكر أن لجنة البلاشفة في بطرسبورج هي ولجنة المناشفة قد أيدتا الفكرة . واذا راعينا عدم وجود تنظيم عمالي نشط بمقتوره تنسيق الاضراب والنهوض بدور فعال في تزعم العمال بالمدينة بأسرها ، فاننا لن نعجب اذا رأينا كيف عادت للحياة فكرة « السوفيت » بين الحركيين . فلا بد أن يكون بعضهم قد شارك في الكفاح ابان ثورة ١٩٠٥ . وقبل ان عمال بوتيلوف قد شرعوا في انتخاب مبعوثيهم الى السوفيت في ٢ سبتمبر ، وأن انتخابا قد جرى في اليوم التالي في عدد من مصانع فايبورج .

غير أن الاضراب العام قد كشف وجود اختلافات بينة بين زعماء الحركة العمالية . اذ خشي مبعوثو الاشتراكيين الى البرلمان أنه في حالة افلات حركة العمال من رقابتهم ، فانها ستتفرغ للاندهاج أو التحالف الممثل للكتلة التقدمية ، وتبعده عن الكفاح ضد الحكومة . وفي مساء ٥ سبتمبر ، ناقش الاجتماع الموسع للجنة الاضراب في سائر أنحاء المدينة مسألة امكان مواصلة الاضراب . ودافعت الجماعات ماعدا جماعة البلاشفة عن صرف النظر عن الاضراب ، الذي انتهى في سبتمبر .

وتوافقت حركة الاحياء المفاجئة لاضراب العمال في بتروجراد - آنيا - هي وهزيمة الجيش الروسي والأزمة السياسية التي حدثت في

علاقة الحكومة بالبرلمان (الدوما) . قال أى حد أثرت هذه الأحداث في حركة الاضراب ؟ وهل كانت اضرابات العمال احتجاجا ضد هزيمة الجيش الروسى ؟ وهل أعلنت كرد على قمع الحكومة لحريات البرلمان ، ومن قبيل التعاطف على المعارضة الليبرالية ؟ لقد حدثت اضرابات الأيام الثلاثة (من ١٧ الى ١٩ أغسطس) كرد مباشر على مذبحه ايفانوفو ، وليس هناك من دليل على أن العمال كانوا مهتمين بمصير الجيش الروسى في المعركة ، أو أنهم تظاهروا تعاطفا على الكتلة الليبرالية التى تشكلت . ولعل التضامن البروليتارى وعدم الاكتراث التام بالنزاع القائم بين الحكومة والمعارضة الليبرالية كانا من بين مؤشرات الاتجاه الذى تنوى الحركة العمالية اتباعه فى المستقبل . ومن العوامل المؤثرة الأخرى على حركة الاضراب فى صيف ١٩١٥ ، الضيق والغضب من الأوضاع الاقتصادية . فإذا صح القول بأن هزيمة الجيش الروسى قد أثرت على حركة العمال ، فإنها ستكون قد أحدثت تصدعا فى « الوحدة المقدسة » ، وكشفت عن حالة وعن استغلالها العمال للتعبير عن غضبهم .

وتوافقت الموجة الثانية من موجات الاضراب (من نهاية أغسطس الى بدايات شهر سبتمبر) هى وتعطيل البرلمان (الدوما) غير أن اجراءات القمع التى اتخذتها الحكومة ضد الليبراليين لم تكن عاملا أساسيا . اذ كان ما أشعل فتيل المعركة هو الاحتجاج على القبض على عمال بوتيلوف . وعلى الرغم من أن القرار الذى اتخذته عمال بوتيلوف قد اشتمل على الاحتجاج على تعطيل البرلمان وعلى المطالبة بتشكيل وزارة مسئولة ، إلا أن هذا يبدو استثناء . فلم تحتو تقارير « أوخرانا » التى روت أحداث اضراب الأيام الأربعة بالتفصيل ، على أية إشارة أخرى للبرلمان . ومن ثم فالظاهر أنه كما يعد اضراب الأيام الثلاثة من سبتمبر رد فعل على مذبحه ايفانوفو ، كذلك يعتبر اضراب الأيام الأربعة من سبتمبر رد فعل على قبض الشرطة على المضربين فى بوتيلوف . ولقد اتخذت حركة اضراب العمال أثناء الحرب طابعا طبقيًا ملحوظا . فلقد تمت بمعزل عن المعارضة الليبرالية وصراعها مع الحكومة . ولم يكن هناك قاسم مشترك بين الليبراليين وحركة العمال وميلوكوف وماكلاكوف وغيره من الليبراليين المعتدلين الذين كانوا يخشون اضراب العمال أكثر من خشيتهم اقدام الحكومة على قمع الحركة ، وكان لدى الحكومة مبرر قوى لذلك .

وعلى الرغم من تعرض الاضرابات السياسية للوهن الشديد بعد اضراب سبتمبر ، إلا أن الاضرابات التى حدثت لأسباب اقتصادية ، حافظت على المستوى الجديد للاضرابات التى نشبت فى يوليو ١٩١٥ . ولم تتجاوز الاضرابات الاقتصادية عشرة اضرابات فى الحقبة الواقعة بين

يوليو ١٩١٤ ويونيو ١٩١٥ ، ولكنها جنحت الى التذبذب في الشدنة والكثرة بين ١٣ و ٩ ، من يوليو وخلال ديسمبر ١٩١٥ . ولم يكتفد العمال بالمطالبة بزيادة الأجور ، ولكنهم طالبوا أيضا بالحلول محل المسنين بالمصنع وإعادة العمال المرفوتين الى الخدمة ، وتحسين احوال المعيشة (كانشاء نظام جديد للتهوية واصلاح سقوف الأبنية وصرف صابون للدورات المياة) ، وحسن معاملة الادارة للعمال . وتجدر الاشارة أيضا الى أن كثيرين من عمال النسيج ممن لم يشتركوا في الاضرابات السياسية قد شاركوا في الاضرابات الاقتصادية في النصف الأخير من سنة ١٩١٥ ، وأيضا في خريف ١٩١٥ ، اشترك عمال بتروجراد في محاولات حية تتعلق بانتخاب ممثلي العمال في مجلس الصناعات الحربية .

وتكشف التغير في روح العمال الذي نما خلال السنة على نحو جلي في الاضرابات التسعة التقليدية في يناير ١٩١٥ و ١٩١٦ . ففي ذكرى « الأحد الدموي » ١٩١٦ ، لم ينضم الى اضراب ١٩١٦ أكثر من ٦١٠٠٠ عاملا ينتمون الى ٨٦ مصنعا . وتستمرعى هذه الأرقام الانتباه ، اذا راعينا المعارضة المعتدلة للمنشقية وجماعة العمال في مجلس الصناعات الحربية ، على أساس عدم اجماع العمال بالقدر الكافي لكي يصبح الاضراب حاسما . وفي ذلك اليوم ، أظهر العمال روحا نضالية فاقت الروح التي كشفوا عنها عند مواجهتهم للشرطة ، وبخلاف السنة السابقة ، لم يجر أي تظاهر في مقاطعة فيبورج . وعندما واجه المتظاهرون الشرطة (*) ، اندفعت شاحنة عسكرية تنقل الجنود ، واصطدمت ببعض خيالة الشرطة كانوا يهاجمون المتظاهرين ، وسط تهليل الحشود التي شاهدت الحادث .

وبلغت حركة الاضراب ذروتها مرة أخرى في فبراير ومارس ١٩١٦ . ففي فبراير ، أضرب ٤٢٣٠ من عمال الودش الكهربائية في مصنع بوتيلوف مطالبين بزيادة الأجور بمقدار ٧٠٪ ، وعلى الفور ، استغل الحركيون في المقاومة الشعبية اضرابهم الاقتصادي . فقد قررت الجموع البلشفية التي تراوح عددها بين ٨٠ و ١٠٠ في مصنع بوتيلوف بالتعاون مع الجناح المتطرف في المنشقية (**) التوسع في الاضراب بحيث يضم المصنع بأسره . والتقى جمع حاشد في فناء المصنع ، وألقى بعض الخطباء البلاشفة خطبا نارية تستهوي العمال (***) ، وتدعوهم الى موازرة عمال الكهرباء . وفي ٦ فبراير ، أغلقت الادارة المصنع ، وأعلنت احتمال طرد العمال الذين لا يعودون فورا الى العمل ، والتقى زعماء الاضراب في مكتب صندوق

Samponievskii Prospect .

. Mezhraiontsky

(*) في

(***)

(****) خطب بعض الفلاسفة من أمثال ايجوروف عضو لجنة بطرسبورج وايغوموف

(...)

Mezhraionets من I. I. Bogadang .

المريض ، وقرروا دعوة باقى العمال لمواصلة اضراب بوتيلوف . وأوفد
 ايجوروف الى مقاطعة فيبورج لتنسيق عملية هجوم العمال بين اضراب
 بوتيلوف ومقاطعة فيبورج ، وشعر العمال من مختلف المستويات فى مصنع
 بوتيلوف بالانزعاج لقيام الثوريين المحترفين بالهيمنة على حركة الاضراب .
 وبعد أن أحس العمال بالفرح من احتمال فقدانهم لوظائفهم ، وبعد أن
 اقتنعوا باستعداد الادارة - جزئيا - للاستجابة لمطالبهم ، عادوا للعمل فى
 ١٠ فبراير ، غير أن الاضراب العام الذى كان الحركيون البلاشفة يأملون
 فى وضعه موضع التنفيذ لم يتحقق .

ولم يرض العمال عن تنازل الادارة ، الذى تمثل فى زيادتها الأجور
 بمقدار تراوح بين ٣٪ و ٢٨٪ لمن يتقاضون أقل من ١٠٠ روبل شهريا .
 وفى ١٨ فبراير ، أضرب العاملون بالورشة الحديثة للقنابل ، وطالبوا
 بزيادة فى الأجور تصل الى ٧٠٪ . وما لبث الاضراب أن تفشى وانتقل الى
 باقى الورش . وفى ٢٢ فبراير ، لجأت الادارة الى تعطيل العمل مرة
 أخرى ، ورفقت المضربين ، وصدرت الأوامر لأكثر من ألفين من المضربين
 فى بوتيلوف باخطار ادارة التجنيد بأسمائهم ، وفى ٢٩ فبراير ، قرر
 المجلس الخاص للدفاع تنحية المسئولين عن مصنع بوتيلوف ، واىكال
 عملية ادارته للمختصين فى المدفعية . واستفز هذا الاجراء العنيف عمال
 فيبورج ، ودفعهم الى القيام برد فعل قوى . وفى ٢٩ فبراير نظم عمال
 من جهات مختلفة (*) اضرابا تعاطفيا . وفى الأيام الثلاثة التالية (من
 أول مارس الى ٣ منه) أضرب عمال المصانع الكبيرة واشترك فى الاضراب
 ٧٣٠٠٠ عاملا ينتمون الى ٤٩ مصنعا .

وأصر عمال نيولستر على تزعم حركة الاضراب فى بتروجراد ١٩١٥
 و ١٩١٦ . فمن بين ستة آلاف عامل ، كان أقوى المشاركين من البلاشفة
 الذين ناهز عددهم ستة آلاف عامل ، ومن بينهم أربعة أعضاء من لجنة
 بطرسبورج (**) تولوا قيادة المقاومة الشعبية السرية . وفى مارس أضرب
 ١٧١٦٠٠ عاملا فى ورش القنابل الصغيرة والمعدات فى نيولستر ، وطالبوا
 بزيادة الأجور من ١٠٪ الى ٦٠٪ . وفى اليومين التاليين ، انضم الى الاضراب
 ١٩٢٠ من عمال الورش الأخرى ، وطالبوا بزيادة الأجور وحسن المعاملة ،
 ورفع مستوى الخدمات الصحية ، وأنشئ مجلس للاضراب يضم خمسة
 أعضاء تحت قيادة أحد البلاشفة (***) ، وفى ٢١ مارس ، أضرب جميع

Parviainen, Nobel, Baranovskii, New Lessner

(*)

T. K. Kondratiev, — R. R. Bolarskii, N. P. Komarov,
 V. V. Schmidt.

(**)

N. V. Kopylov.

(***)

عمال المصنع ، ولجأت الادارة الى تعطيل العمل به ، ووفت المضربون ، وجند منهم ستمائة عامل ، وكانت هزيمة اضراب نيولستر باهظة التكاليف . اذ أسفرت عن استبعاد معظم العمال السياسيين من المصنع ، ومن بينهم جميع البلاشفة ، وبجرد وقوع هذه الهزيمة ، خمدت الحركة على الفور .

وبلغت حركة اضراب العمال مرحلة جديدة ، وطبقا لما جاء في دراسة لايبروف ، فانه في غضون ثلاثة عشر شهرا (بين يوليو ١٩١٤ ويوليو ١٩١٥) ، اشترك في الاضرابات الاقتصادية ما جملته ٧٦٣٦٢ ، ينتسبون الى ١٤٧ مصنعا ، وارتفعت هذه الأرقام الى ٥٤١٨٥٨ (في ٦٣٣ مصنعا) . وارتفع المتوسط الشهري من ١١٣٪ مصنعا و ٨٧٤ر٥ مشتركين في الاضراب في الشهور الثلاثة عشر الأولى الى ٤٨٧ر٧ مصنعا و ٤١٦٨١ مضربا في نفس المدة الزمنية التالية . وفي الشهور الستة التالية من سبتمبر ١٩١٦ الى فبراير ١٩١٧ ، أي قبل ثورة فبراير ، ارتفع المتوسط الشهري مرة أخرى الى ٨٨٣ر٣ مصنعا (٩٨٢٢٥ مضربا) .

وما من شك أن تردى موقف التموين وأزمة السلطة العامة ، قد ساهما في تجدد حركة الاضراب في خريف ١٩١٦ . وبلغ استياء العمال من التضخم ونقص الغذاء حدا دفع حتى الزعماء المعتدلين لجماعات العمال في مجلس المصانع الحربية الى الاعتراف « بأن حدوث مجرد استفزاز واحد كفيل باشعال نيران القلاقل في العاصمة مما قد يسفر عن ضحايا يقدرون بالآلاف بل وبعشرات الآلاف » ، ولو صح أن جماعات العمال قد استخلصت من ذلك امكان اقدام زعماء حركة العمال على عملية لكبح الجراح ، فان البلاشفة حاولوا استغلال أزمة التغذية لصالح الكفاح العام ضد النظام القيصرى . وفي بداية أكتوبر ، أخطرت لجنة بطرسبورج عمال الحزب : « بأن يشبتوا لجموع الشعب وثوق الصلة بين ارتفاع تكاليف الحياة والكفاح من أجل اقامة حكومة جمهورية ديموقراطية وانهاء الحرب » . وعقدت جماعات العمال في عدة مصانع (*) بعض الاجتماعات ابتداء من ١٣ أكتوبر لمناقشة مشكلات التضخم والنقص التموينى ، وحاول بعض العمال اقامة مظاهرات في الشوارع الرئيسية ، ولكن الشرطة نجحت في تفرقتها . وأدت هذه الاهتزازات الى حدوث انتفاضة مباغتة في ١٧ أكتوبر . ومما أدهش حتى الحركيين المتطرفين اشتراك بعض العمال (**) في الاضراب وتظاهرهم في الميدان الرئيسى (***) . وعندما

Erikson, New Lessner, Phoenix

(*) مثل

وسيارات رينو الروسية ، ونيولستر .

(**) من مصانع

Sarponievski Prospekt

(***) ميدان

اقترب المتظاهرون من ثكنات اللواء المشاة ١٨١ حيث قوبلوا بترحاب من حشود الجنود الذين كانوا يتفرجون على المظاهرات من وراء أسوار الثكنات ، هاجمت الشرطة المتظاهرين ، وغضب الجنود لهذا المسلك ، فحذفوا الشرطة بالحجارة وهم يصيحون : « اضربوا الشرطة ! » وففز الجنود من فوق الأسوار ، وزحفوا تحت سور الثكنات . ونظرا لتفودهم في العدد على الشرطة ، فقد تمكنوا من محاصرة رجالها وتجريدتهم من سيوفهم ، ومسدساتهم . ولم تهدأ الحالة الا بعد أن وصل القوزاق وقسم التدريب في لواء موسكو الى منطقة الصدام ، وتبعاً لما ذكره أحد الجنود ممن شاركوا في المظاهرة واسمه ايفانوف وكان عاملاً سابقاً في مصنع بوتيلوف : كان هناك كثيرون من بين جنود اللواء ١٨١ ممن اشتركوا قبل ذلك في الاضراب ، وواصلوا عمليات الشغب السياسى في الوحدات العسكرية ، وقبضت السلطات العسكرية فيما بعد على ١٨٣ جندياً ، وأقصى لواء المشاة ١٨١ عن بتروجراد . وعندما شارف اليوم على الانتهاء ، كان عدد المشاركين في الاضراب في مقاطعة فينبورج ٢٧٣٠٠ عاملاً ينتمون الى عشرة مصانع ، وفي اليوم التالى (٨ أكتوبر) انتشر الاضراب ، وبلغ عدد العمال المشتركين فيه ٤٦٣٠٠ ينتمون الى ٣٤ مصنعا في مقاطعات فينبورج وبتروجراد وفاسيلفسكى . وفي ١٩ أكتوبر ، ارتفع العدد الى ٧٥٤٠٠ عاملاً و ٦٣ مصنعا في جميع أنحاء المدينة .

وتبع اضراب الأيام الثلاثة موجة أخرى من الاضرابات في نهاية أكتوبر . وكان الاضراب الثانى اضراباً سياسياً بحتاً . وكان البلاشفة هم الذين تبناه . فلقد قررت لجنة بطرسبورج التوسل الى العمال لتنظيم اضراب سياسى للاحتجاج على محاكمة البحارة البلاشفة فى أسطول البلطيق الذين قبض عليهم لنشاطهم الثورى ، وللاحتجاج أيضاً على القبض على جنود لواء المشاة ١٨١ . وفى اليوم المحدد لبدء المحاكمة (٢٦ أكتوبر) شارك ٢٥٠٠٠ عاملاً من عمال المصانع الثلاثة عشر فى الاضراب الذى عم فشميل ٥٢٠٠٠ عاملاً فى ٤٧ مصنعا فى ٢٧ أكتوبر ، وفى اليوم الثالث ، بلغ عدد العمال المشاركين ٧٩٠٠٠ فى ٧٢ مصنعا . ولو تذاكرنا أن نداه لجنة بطرسبورج ودعوتها للاضراب (بعد القبض على مبعوثى البرلمان البلشفى) لم يستجب لها سوى ٣٤٠ عاملاً فى ستة مصانع ، فى فبراير ١٩١٠ ، سيبين من عدد المشاركين فى اضراب النصف الثانى من أكتوبر مدى تزايد التطرف بين عمال بتروجراد ، والتأثير المتفاقم للبلاشفة . وأدى ذلك بدوره الى نزوع جماعة من العمال الى التطرف ، بعد ادراكهم ما اعترى تأثيرهم من تعثر ، فحاولوا استعادة أرضهم المفقودة .

وبعد أكتوبر ، هدأت حركة الاضراب . وهذا هو المصير المحتوم لكل تفجر ينجم عن اضراب العمال ، وقبض على الزعماء ، وقطعت أواصر

شبكة الاتصالات والأنظمة ، واحتاج العمال الى بعض الوقت للبرء مما أصاب مشاعرهم من اجهاد . اذ كان من طردوا في حاجة الى البحث عن أعمال أخرى ، وكثيرا ما كانوا يحصلون على عمل اذا أخفوا هويتهم . ومع هذا فلم تكن حالة المد في حركة العمال في نوفمبر وديسمبر اصابة العمال بالتبلد والخمول . صحيح أن الاضرابات قد خمدت ، ولكن الهجمات الفردية المتفرقة على مخازن المواد الغذائية انتشرت ، وعندما استردت حركة الاضراب قوتها الدافعة مرة أخرى في يناير ١٩١٧ ، بعد توقف دام شهرين ، فانها حرصت في هذه الأثناء على استدراج جمع أكبر من عمال بتروجراد بحيث يستطيع في نهاية المطاف اشغال نيران الثورة .

وبالمقدور تقسيم عمال بتروجراد الى أربع فئات تبعا لاشتراكهم في الاضرابات التي وقعت أثناء الحرب : أولا طلائع حركة الاضراب ، ويندرج في هذه الفئة عمال التعدين في ايفاز (٤١٠٠ عاملا) وبارانوفسكي (١٣٠٠) وفولكان (١١٠٠) ودينسامو (٢١٠٠) ونوبل (١٦٠٠) وبروميت (٣٠٠٠) وبارفيانين (٧٠٣٠) ولسنر القديمة (١١٠٠) ولسنر الجديدة (٦٥٠٠) وفونيكس (١٩٠٠) وديافلون (٨٢٠) واريكسون (٢٢٠٠) ويناهاز عدد هذه المجموعة ٣٣٠٠٠ ويمثلون العمود الفقاري لكل اضراب كبير حدث أثناء الحرب . وكانت جميع هذه المصانع الاثنى عشر تمثل مواقع في مقاطعة فايبورج ماعدا دينامو (مقاطعة ناروا) وفولكان (مقاطعة بتروجراد) وديافلون (مقاطعة بتروجراد) . ويملك جميع هذه المصانع أفراد باستثناء مصنع دينامو . واذا استثنينا مصنع ديافلون واريكسون سنرى أن جميع هذه المصانع كانت تشتغل بصناعة الأسلحة والذخائر ، أما مصنع ديافلون فكان ينتج الآلات الكهربائية والآلات الميكانيكية ، وتخصص مصنع اريكسون في صناعة التليفونات ، وأثناء الحرب توسع في الانتاج وعمل بصناعة الأسلحة أيضا .

ثانيا : تضم الفئة الثانية العمال الذين يرجع انضمامهم للاضراب أساسا الى أسباب اقتصادية ، وإن كان بعضهم قد انضم في بعض حالات متفرقة الى الاضرابات السياسية ، وتنتمي الى هذه الفئة ثلاث نوعيات مختلفة من العمال : ١ - عمال أكبر مصانع الذخيرة التي تملكها الدولة كدور صناعة السفن في نيفا (٦١٠٠) وأونجوف (١٠٦٠٠) والتعدين ببتروجراد (٦٧٠٠) ودار الصناعة بوتيلوف (٤٢٠٠) ، ولكن هناك مصانع ذخيرة أخرى لم تشترك في أية اضرابات أثناء الحرب من أمثال الترسمانة (٤٠٠٠) وبتروجراد للخراطيش (٨٣٠٠) وأوريدنسكي (٣٥٠٠) وكابل (٢٣٠٠) ودار صناعة سفن الأدميرالية (٤٥٠) وأوختا (للمفرقات) (١٠٢٠٠) وأوختا لانتاج ذخيرة المدافع (٥٧٠٠) .

وتتضمن النوعية الثانية عمال مصانع التعدين المشتغلة غنى انتاج الأسلحة :
 روزينكرانتس (٣٨٠٠) ولانجنستسين (٢٠٠٠٠) واكفال (٣٠٠)
 ورينو الروسية (١٧٠٠) وسيمينوف (٧٠٠) وأرماتونى (١٠٠٠)
 وسيمتس شوكرت للأشغال الكهربائية (٢٠٠٠) وكوبل (٦٠٠)
 وبتروجراد للمركبات (٢٠٠٠) وبوذيريف (٢٠٠) والمحركات الروسية
 الباطيقية (٤٠٠) وشركات أخرى (*) ٣٠ - وتتضمن النوعية الثالثة ،
 عمال النسيج (**) . ويبلغ العدد الاجمالى لهذه النوعية مائة ألف اشتركوا
 فى الاضراب ، وكافحوا لتحقيق مكاسب اقتصادية ، ولكنهم لم يكونوا
 دائما أعوانا فعالين للاضرابات السياسية ، وعلى الأخص عمال الغزل
 والنسيج ، الذين لم يشتركوا فى الاضرابات السياسية الا عند بداية
 ١٩١٧ .

٣ - وتتضمن الفئة الثالثة عمال المصانع الذين أضربوا مرة أو مرتين
 خلال الحرب ، ولكنهم على الجملة قد التزموا موقفا سلبا . وتتضمن هذه
 الفئة عمالا ينتمون الى مصانع الورق ، والخشب ، والصناعات الكيماوية
 الخ . وبلغ عددهم جميعا ٥٤٣٠٠ . أما مجموع الفئات الثلاث فيقدر
 بـ ١٨٧٤٠٠ ولما كانت هذه الأرقام تمثل عمال جميع المصانع التى
 أضربت فلا يستبعد أن تكون قد جنحت الى الاسراف فى الاتجاه نحو الحدود
 القصرى ، ومن ثم فيعتقد أن المشاركين الفعليين فى الاضرابات أقل بكثير
 مما يفترض . ومع هذا فان هذا العدد المبالغ فيه لا يمثل أكثر من ٤٧٧
 من مجموع العمال فى بتروجراد فى يناير ١٩١٧ ، أى حوالى نصف
 العمال . أما النصف الآخر فيمثل الفئة الرابعة ، أى فئة من لم يشتركوا
 فى أى اضراب طيلة أيام الحرب .

بيد أنه لا مبرر للاعتقاد بأن الأغلبية التى التزمت السكينة من
 هؤلاء العمال قد قبلت حالة الشقاء التى كانت ترزح فيها باستسلام . إذ
 يبين من الاتجاه العام لحركة الاضراب أن الحركة التى قادتها طلائع من
 عمال التعدين كانت تستدرج تباعا الأفراد الذين اعتادوا التزام الحذر
 من عمل المصانع الكبرى، وأيضاً القطاعات الأقل تنظيماً من الطبقة العاملة .
 ولقد بينت الاضرابات السياسية والاقتصادية التى تمت على أوجه مختلفة
 خلال ١٩١٥ وبداية ١٩١٦ ظهور اتجاه لضم الصفوف فى تيار واحد فى
 أواخر ١٩١٦ .

Slusarenko,

Russian — Baltic Aeronautique

(*)

Nikoliskaia, Chesher, Liutch. Voronin

(**)

كان عمال بتروجراد هم المصدر الأساسي للاضطراب في السياسة الروسية خلال الحرب ، وسرعان ما تبددت الروح الوطنية التي تكشفت عند اندلاع الحرب ، بعد أن اصطدمت بحقائق الواقع . فإذا راعينا استبعاد العمال من النظام الوطيد للمجتمع وحرمانهم من تأليف التنظيمات الشرعية للتنفيس عن شكائاتهم ومظالمهم - « وان كان قد طلب منهم الاستمرار في التضحية بكل مرتخص وغال في سبيل الشرف القومي والعزة القومية » - فإننا لن نعجب اذا استجاب العمال لنداء مشيرى الشغب الداعين الى التطرف .

المراجع

- J. H. Bates, *St. Petersburg : Industrialization and Change* 1976.
- W. H. Champerlin, *The Russian Revolution 1917-1923* (3 Vol), 1950-53.
- J. L. H. Geep, *The Russian Revolution. : A Study in Mass Mobilization* (1976).
- L. H. Harmson ed, *The Politics of Rural Russia 1905-1914*, (1979). and the July 1917 Uprising 1968.
- N. M. Naimark, *Terrorists and Social Democrats : The Russian Revolutionary Movement under Alexander III.*
- R. Pearson, *The Russian Moderates and the Crisis of Tsarism 1914-1917*, (1977).
- A. Rabinowitch, *Prelude to Revolution : The Petrograd Bolesheviki and the July 1917 Uprising* 1968.
- A. Rabinowitch, *The Bolesheviki Come to Power* 1968.
- S. Schwarz, *The Russian Revolution of 1915 : The Workers' Movement and the Formation of Boleshevism and Menshevism* (1967).
- T. H. Von Laue, *Why Lenin ? Why Stalin ?* (1964).
- A. Ujam, *The Bolsheviki : The Intellectual and Political History of the Triumph of Communism in Russia* 1965.
- A. K. Wildman, *The End of the Russian Imperial Army. The old Army and the Soldiers Revolt* (March-April 1971), 1980.

حشود الشباب الفاقد من الانجليز

روبرت وول

امتدت آثار الحرب العالمية الأولى الى أبعد الحدود ، فأحدثت قلدا من المعاناة التي تدير الرؤوس وتفقد الصواب ، وترقت عليها تغيرات اجتماعية شديدة الاثارة للذهول والحيرة ، وجاءت تسوية السلام مخيبة للآمال مما دفع الكتاب الى تأملها ومعاودة التمعن فيما جرى ، وظهرت في العالم الغربي في نهاية عشرينات القرن العشرين أشعار وروايات وسير ذاتية ومذكرات تلور حول الحرب ، ولم يقتصر ما جاء في هذه المؤلفات على إعادة رواية قصة الحرب العالمية ، ولكنها تضمنت تفسيرات أوفى لمعنى ما حدث .

وشتت هذه الكتابات في انجلترا أسطورة أو خرافة تزعم أن أفضل أبناء شباب الجيل من الراشدين قد دفعوا للتهلكة في أتون الحرب العالمية ، وأسفرت هذه الخسارة التي حلت بمواهب وقلبات من المتعلم تعويضها عن تعرض طابع الحياة الانجليزية ومكانتها في الامبراطورية البريطانية لتدهور شنيع . وتستاهل هذه المقولة الكثير من الشك . ولا تكافأ وقائع هذا الموقف هي وما تزعمه هذه الخرافة . غير أنه في العقود التي أعقبت الحرب العالمية الأولى استند الادعاء الشائع عن فقدان الانجليز لما كانوا يهتمون به من حضوة ونفوذ على ما حل بهم من خسارة بعد ضياع هذا « الجيل الذهبي » .

هناك خرافة تتعلق بتاريخ انجلترا في القرن العشرين ، وكثيرها من خرافات فانها تتمثل في صور شتى ، اشتركت في صنعها عدة عقول . وعلى الرغم من أنها لم تسجل بحذافيرها في أي مكان ، إلا أنه بالاستطاعة الاهنداء الى شذرات منها في كتب عديدة . كما أنها تعيش في الذاكرة

Robert Wohl تأليف The Generation of 1914

(*) كتاب

• (١٩٧١)

القومية والتراث الشفهي • وتتخذ هذه الخرافة صورة مماثلة للصورة الآتية :

في يوم من الأيام قبل الحرب العالمية ، عاش جيل من أفاذاذ الشباب ، يتميزون بالشجاعة والجرأة والاقدام والوسامة • وجمع هذا الجيل بين القوة البدنية وعمق العلم الكلاسيكي • ولما كانوا شعراء في صميم أفئدتهم ، فانهم كانوا يعشقون كل ما أبدعه العقل لبائته ، واستبعدوا بصفافة من الكفاح العام • وعلى الرغم من انحدارهم من شتى ربوع انجلترا ، الا أنهم كانوا موجودين على الأخص في اكسفورد وكيمبرج ، وفي حالة صفار الفتية ، فاننا كنا نصادقهم بين أفضل أبناء المدارس الارستقراطية ، وعندما شبت الحرب تطوعوا للخدمة في القوات المسلحة ، وقاموا بما كان في مقدورهم القيسام به للتعبيل بتدريهم حتى يتحقق لهم اللحاق بميدان المعركة ، وكان أخشى ما يخشونه هو أن تنتهي الحرب قبل أن يصلوا الى الجبهة • فلقد شبوا على تعظيم انجلترا ، وأداء واجبهم ، واعتنقوا قضية بلادهم ، وقبلوا عن طيب خاطر احتمال موتهم وهم في ريعان الشباب • ولقد قتل معظمهم على أرض المعركة في غاليبولي وايبير ولوس والسموم وباسنسنديل وكمبراي ، ومن لم يقتل منهم تعرض لاصابة في عقله أو بدنه ، ورجعوا الى بلادهم ١٩١٩ وهم عرجى ، واكتشفوا أن تضحياتهم ضاعت هباء منثورا • فلقد عاد أصحاب الوجوه الجهيمة والقلوب المتحجرة من العجائز الى الامساك بزمام السلطة بقبضة من حديد • لقد قهر العجائز فتوتهم ، وتلقت الحضارة ضربة قاضية • وكانت أعدادهم قليلة • ولقد أجهدوا وأصابتهم صدمة القنابل المتفجرة ، ثم شعروا بالاحباط لما رأوه في عقر دارهم • ولقد جلسوا عاجزين خلال سنوات ما بين الحربين يتأملون شيوخ الساسة ، وهم يتعثرون لعجزهم ، ويبددون المكاسب التي حققها هؤلاء الشباب • وضاع السلام ، وضاعت السيادة الانجلزية على العالم ، وضاعت الامبراطورية ، بل وضاعت أيضا القيم الانجليزية ، بعد أن خضع الانجليز لطغيان النماذج الأجنبية المستوردة • وأخيرا شبت حرب عالمية ثانية لكي تصدق بخاتمةها على فظائع الحرب الأولى ، وانزلت انجلترا بعد خوار عزمها ، وانحطت قوتها الى مستوى دول الدرجة الثانية • ان كل شيء كان سيختلف أمره لولا ما حدث من اهدار لدم شباب ١٩١٤ في ساحات الفلاندرز ومواحل غاليبولي •

وردد شعراء الحرب « لحننا » مؤداه أن الشبيبة التي كتبت عليها اللعنة قد ساقها العجائز غلاظ القلوب – دون تبصر – لكي تلقى حتفها لمجرد أنها كانت في ريعان الشباب • غير أنه كان لابد من مرور عشر سنوات حتى يزدهر هذا اللحن ويترجم الى كلمات منشورة على نحو منهجي

أو علمهم بالأدلة ، تتدفق في سيل من الكتب عن جيل ١٩١٤ وتجاربهم في الحرب - وحظي كثير منها بالاعجاب ، واعتبر من أروع ما صدر من كتب ، واتصفت هذه الكتب بروحها المتشائمة وشدة الخبث ، وأحيانا بالوحشية ، وبما ينضج منها من مرارة ، وبلى جميع هذه الكتب ، وكأنها أضافت ألمية لحكم بارباروسا في كتاب « تحت النار » (*) التي وضعها ساسون (زيجفريد) في صدر مجموعته الشعرية ١٩١٨ ، والتي قال فيها ان الحرب قد كشفت عن كل ما يتصف به الانسان من سفالة : « الخبث والشقاوة الى حد السادية ، والأناثية الى حد البشاعة ، واشتهاء المتعة الى حد الخبل » . وألف معظم هذه الكتب أشخاص ولدوا في تسعينيات القرن التاسع عشر ، ممن تخرجوا - بالكاد - من المدرسة عند وقوع الحرب ، وعلى الرغم مما بدا في هذه الكتب من فطنة عند كتابتها ، الا أن أفكارها لم تتوارد لخاطر مؤلفيها بسهولة ، لأن كثيرين ممن حاولوا الكتابة عن تجاربهم فور انتهاء الحرب ، أخفقوا أو أصيبوا بالاحباط الذي حال دون استمرارهم في الكتابة ، ولم يستأنفوا المحاولة الا بعد أن شعروا بأن عامة الناس قد أصبحوا على استعداد لسماع أشياء عن الحرب ، فبحثوا عن مخطوطاتهم في حقائبهم ، وبدأت الصحف تناوره وينطلق منها عشرات الكتب عن الحرب ، لترفع عندها في نهاية الأمر الى مئات حتى صاح النقاد طالبين الرحمة بهم ، والتهمل في اصدار الأحكام ، وبينما ركزت هذه الكتب على حقبة الحرب ، الا أن أكثريتها حاولت الاطالة بالفترات السابقة للحرب ، والتالية لها أيضا . وهكذا جمعوا - على أقل تقدير - في ذاكرتهم بين عالمين وشذرتين من الحياة مزقتهما الحرب اربا . واتخذت بعض هذه الكتب شكل الرواية ، وفي كثير من الأحيان ، تخلى المؤلفون عن الزعم بأنهم يؤلفون روايات ، وأسموا مؤلفاتهم « بالذكريات » أو « المذكرات » أو السير الذاتية ، التي قد تلقى الضوء على التجربة الجماعية لجيل بأكمله يشترك في نفس السن والمصير .

وظهر أول الأمر كتاب ادmond بلوندين (**) وكتاب ساسون (***) . وتكهن بلوندين المولود سنة ١٨٩٦ بشكل الحرب التالية ، وساعد على التعريف بطابع الحرب التي ستجيء فيما بعد بعد أن تخلى عن أية محاولة لوصف سياق أحداث الحرب التي صادفها في تجربته الشخصية ، مكتفيا بالتركيز على « الأشياء التافهة » التي تشغل صدر الحياة فخصها باستهلال الكتاب . وكان في أفضل حالاته عندما استرجع الذكريات المريرة لما تبدد ، وكيف نمت هذه المرارة ١٩١٧ ، بين من ظلوا على قيد الحياة بعد معركة

. Under Fire (x)

Unrertones of War : Edmund Blunden.

(★★)

Memoirs of a Fox Hunting Man. : Sassoon

(★★★)

السوم . وكتب ذلك بأسلوب أدبي ثقيل في أغلب الأحيان ومتكلف بقصد :
 « عدم جدوى الاتجاه الهجومى ، والتباين من حيث الكيف بيننا وبين
 الملامح العامة للسنة السابقة ، والاعتقاد بأن الأهالى المدنيين لا يدركون
 شيئا عن حالتنا وتلوة الفكر ، وتفاقم الشدة واكتساح القوى الهدامة ،
 وتسبب هذه النظرات فى خلق روح أفانية مثلما تلحظ فى عبارة : سنوات
 جميعا - كما يفترض - حول ايبر ، أما مذكرات ساسون التى جنحت
 نوعا للطابع القصصى ، ونشرت أول مرة دون ذكر اسم المؤلف فى طبعة
 صغيرة ، فكانت تثير الإعجاب أساسا لما فيها من تركيز على السخرية
 (بطريقة على القوم) والتى لجأ اليها الشاعر - الذى أصبح مشهورا
 الآن - عندما مقارنته العالم الذى نشأ فيه - العالم الفردوسى - الروضة
 الخضراء المحاطة بسيج النبتات الشائكة المبللة بالندى ، والتى ازدادت
 تألقا وبهاء عندما انعكست عليها ضياء شمس الصباح . ولا وجود فيها
 لتاعب الاخفاقات . وفيها خيول رفاق وسيدات ذوات حسب ونسب
 تفيض قلوبهن بالرحمة والمحبة ، وخدم من مختلف الأشكال والألوان
 ولصوص « حلنج » من دساكر لندن فى مقابل الجبهة الغربية فى الحرب
 العالمية الأولى بقتامتها وتجهمها وقبحها . وقد عاش بطل روايته جورج
 شرستون ١٩١٦ فى غمار عالم الحرب والقبح الذى لم تهيئه حياته السابقة
 لفهمه . وعندما ينتهى الكتاب فى يوم الأحد فى عيد الفصح ١٩١٦ نرى
 ساييس شرستون قد مات فى الجبهة بعد إصابته بالالتهاب الرئوى ،
 وقتل صديقه ديك تلتوود الذى كان بمثابة « خلاصة لامعة لجيله المصاب
 بالمرارة » أثناء توليه اصلاح السلك . ويدرك شرستون أسفا أن الحرب
 ستحطم ماضيه . وعندما وقف فى « الخندق الموحش » لم يهتد الى أى
 عزاء وسلوان « عندما تذكر صعود المسيح الى السماء » .

وبلغ نشر كتب الحرب ذروته ١٩٢٩ ، عندما نشر فى هذه السنة
 ما يقرب من تسعة وعشرين كتابا بالمقارنة بواحد وعشرين كتابا نشرت
 ١٩٢٨ ، وستة كتب فقط نشرت ١٩٢٦ ، وكان أهمها هو ترجمة كتاب
 كل شيء هادى فى الميدان الغربى (*) ، وكتاب روبرت جرافز (**) وكتاب
 ريتشارد الدنجتون (***) . وتماثل علاقة هذه الكتب الثلاثة بكتاب
 بلوندى والمذكرات اللطيفة لساسون بنفس صلة أحاديث أحد الجنود بإحدى
 صونيتات بروك . ويعد كتاب « ريمارك » الذى صادف نجاحا باهرا فى
 إنجلترا ، وبيع منه ٢٥٠ ٠٠٠ نسخة فى السنة الأولى لنشره بعد أن

Im Western nichts Neues وكتاب Erich Maria Remarque (*)

Goodbye to All That — Robert Graves. (**)

Death of a Hero. (***)

نشر متسلسلا في صحف يوم الأحد ، وناقش بذلك مسرح العرائس الشهير جوينول (*) في شكل قوطي مجلد . فالجنود عند ريمارك يتساقطون كالذباب ، وتتناثر أشلائهم عند جدار الخندق ، مما يسر لك كنسها بمنقعة ودفنها في صفيحة قمامة الميس (مكان تناول طعام الضباط) . وقبل موتهم ، يفرون من الخدمة ، ويرفضون الطاعة خشية التعرض للتهلكة ، ويسرقون ساعات رفاقهم الجرحى ، ويتسابقون للاستيلاء على حذاء صديق مائت . ولا يكشفون عن أى اهتمام يفوق اهتمامهم بشهواتهم الجسدية ، وكما أوضح ريمارك في رسالته الى الجنرال سير ايان هاملتون قائد حملة الدردنيل : « ان ما يرمى اليه هذا الكتاب هو تصوير مصير جيل من الشباب سيقوا لمواجهة الموت عندما كانوا في ريعان الشباب يتهياون للاحساس بنبضات الحياة » .

أما كتاب « وداعا لكل ذلك » ، فابتعد عن روح الكتاب السابق ، وتضائل فيه الشعور بالمرارة ، وازداد اقترابا من تقاليد المدارس الارستقراطية البريطانية ولهجتها المتعالية . وساعدت هذه الصفات على تقريبه لذوق النقاد الانجليز الذين وصفوه « بالكتاب المرح الجريء لما فيه من محاولة للنقد والحفاظ على روح الدعاية » . بيد أن هذا الكتاب الذى ألفه جرافز قد استهزا أيضا بالقيم المتحضرة للشجاعة المستلهمة من الروح الوطنية عند القوات ، عندما أشار الى توقف مدى فاعلية أى ضابط من الضباط فى المشاة من الواقفين على خط النار وخماسته الى حد كبير على المدة التى أمضاها فى هذا الخط . « والتعساء هم الضباط الذى عانوا الأمرين سنتين أو يزيد من الخدمة المتواصلة بالخنادق ، وأصيبوا فى كثير من الحالات بنوبات من الخبل » . ان هذه الملاحظة البادية البراءة لم تعد تصدم أحدا فى أيامنا هذه ، ولكنها أحدثت صدمة عند نشرها ١٩٢٩ ، عندما كان التظاهر ما زال سائدا ، فكانوا يعتقدون أن الافراط فى الشرب مرض من أمراض الأوساط الدنيا ، وليس مصدرا للشجاعة عند الضباط وأولاد النوات . ولا يحارب الجنود - عند جرافز - فى سبيل الملك والوطن أو الله ، وإنما من أجل شرف لواتهم ، أو لأجل خاطر أحد أصدقائهم ، أو أحيانا لأنهم يستمتعون بذلك ، وهم لا يتصفون بأية صفة دالة على الشهامة . فالحق أنهم يعبرون عن عدم الاحساس على نحو مؤسف بمصير رفاقهم ، ولا يتذكرون دائما محاولتهم أسر أحد من الأعداء ، ولا بد أن يكون جرافز قد قصد بطرفه أحداث صدمة ، وان كان الكتاب كاد يقترب أحيانا فى لهجته من الكتب الهزلية . ولكن عندما أحس الكاتب بالارتياح من احتمال عدم ادراك القارئ لتظرته الى الحرب أوضح ذلك فى رسالة

الى رئيس تحرير ملحق التايمز ، استخفت بالحرمان قال فيها : « ان الجنود البريطانيين العاديين فى حرب ١٩١٤ خلّقا لأسلافهم من نفايات السجون الذين نهبوا بيازيد ، كان من الضرورى أن يخدعوا عن طريق الدعاية الكاذبة ، وبحملة ترمى الى اثارة اشتهاهم للدماء بأن يقال لهم أن أصم شرط للمحارب الناجح هو القظاظلة وانعدام الخلق . وهذه هى السمة القذرة التى اتسمت بها الحرب العظمى ، ولا شىء فى مثل هذا الكلام يدخل فى باب الهزل . »

وكان كتاب الدينجتون « موت بطل » أعلى هذه الكتب صوتا ، ولا يوصى النقاد أحدا - بوجه عام - بقراءة هذا الكتاب اليوم ، وان كان لابد من نصيح كل من يحاول فهم نفسية من استطاعوا الافلات من الموت فى الحرب بقراءة الكتاب ، الذى كتب فى صورة رواية حملت اتهامها غاضبا لجيل أواخر عهد فيكتوريا الذين لم يدركوا مغبة ارسال أبنائهم للموت فى معارك فرنسا والفلاندرز . وحاول الدينجتون (١٨٩٢) إقامة علاقة بين النفاق الجنسى فى عهد فيكتوريا وروح الوطنية المسرفة التى سادت انجلترا فى الحقبة الواقعة بين ١٩١٤ و ١٩١٨ ، وصاح قائلا : « لقد كانت أساليب الجمعية قبل الحرب هى التى جعلت الالتجاء للجمعية ايان الحرب أمرا سهلا بدرجة ملمونة . وعندما بلغنا سن الرشد ، سلمنا الفيكتوريون صكا صغيرا لطيفا بمبلغ عشرين جنيهها مقابل واحد وخمسين شهرا فى الجحيم ، وما تبع ذلك ، . وينتهي بطل رواية الدينجتون الذى سمى « جورج ونتربورن » ، بعد أن ارتدى زى البطولة للقاء حتفه فى نوفمبر ١٩١٨ ، فى صورة حطام انسان جرفه شلال الحرب الدوارة ، ولم تفتقده زوجته وأمه لأنهما اهتديا الى ما يشغلها ، أى عشاقهما ، أما أبوه فقد أفلح فى تبرير ما حدث بنسبته الى ارادة الله الخفية ، ولم يسبق لأى كتاب آخر من كتب الحرب أن قام بمثل هذه المباشرة اللاذعة بين من لم يغادروا عقر دارهم وظلوا قابعين خلف الخطوط - وبخاصة النساء - وبين العاملين بالجبهة ، الذين تعرضوا للشقاء دون أن يبتلوا بالشراسة والقسوة ، وحاربوا وماتوا فى سبيل قضية لم يعد هناك من يؤمن بها . وأعجب المعلق الأدبى فى ملحق التايمز - وكان من المحاربين السابقين - بالكتاب فقال : « اننا ما كنا نرغب له أن يكون البطل فى كتاب (موت بطل) شخصا آخر غيره ، أى انسانا ذعر من اللاانسانيات التى حلت فجأة بمن كانوا فى زهرة الشباب ، ويأملون كل خير من الحرب ، ثم قلبوا ظهر المجن ضد من اعتبروهم مسئولين عما قاموا به من تضحية لم يدروا عنها شيئا . »

وتلاحق ظهور كتب الحرب سنة ١٩٣٠ . وأهم ما ظهر منها هو كتاب ساسون (*) وكتاب مانينج (**) وكتاب هنرى وليمسون (***) . ولخص هذا الكتاب الأخير فى لغة منثورة فظة أشبه بطلقات « المترليوز » مغامرات الجندى جون بولوك وهو من الموظفين الكتابيين الذين تطوعوا للخدمة فى أغسطس ١٩١٤ ، وعاد الى داره بعد اصابته بمرض ١٩١٧ ، ونكشفت له حقيقة الحرب ، وأدرك فى بعض اللحظات « أنها نوع من العبودية » . وعرض وليمسون فى نص ثقل صفحاته عن المائتين ومجلى بالرسوم الكاريكاتورية كوكبة من الأحداث المخزية قصد بها الكشف عن جوهر الحرب وحطتها ، كما كان يحياها هو ومن تماثلوا معه فى المرتبة ، ويعرف الكاتب القارئ فى شريط من الأحداث السريعة المتلاحقة حكاية جندى أطلق على نفسه الرصاص لعجزه عن تحمل ضغوط الحياة فى الجبهة ، وحكاية عصيان فى القوات البريطانية بعد أن تعرضت لعملية قمع شديد ، وحكاية هجوم مات فيه ستمائة جندى من بين سبعمائة فشلوا فى العودة لوطنهم ، ومحاوله بطل لجأ الى مضغ الكورديت (الذى يستعمل فى المفرقات) لكى يصاب بحمى تبقية بعيدا عن خط النار ، وزيارة لموس تبعها اقراط الجنود فى الشراب مما حال بينهم وبين حضور عروضها الترفيهية ، الى جانب عقوبة ميدانية لمدة أسبوعين وقعها عقيد فظ ، والمركة الثالثة فى ايبير والتى فقد فيها أعز أصدقاء جون بولوك قدمه . وبقدوم ١٩١٧ ، لم يعد جون بولوك يعبأ بالموتى من المقاتلين أو بمن جرحوا أو حملوا فى النقالات ، وكان ما دفعه للاستمرار هو أمل واحد : الأمل فى أن (يجرح فينقل بعيدا عن الحرب) . وفى كل مرة يتعالى فيها طنين القذائف ويتحول الى أزيز مباغت عميق ووحشى ينذر باقتراب اقتحام العدو ، كان يجنو على ركبتيه ويتربص ويتصبب العرق من بدنه وهو يرتجف . وعندما يؤمر جون بولوك بالاقترام ، كان يلبي النداء وهو يقشعر من الخوف ، ثم ينتهى الأمر بسقوطه فى احدى حفر القنابل ، ويعود الى داره دون أن يرى جنديا ألمانيا واحدا ، مما أثار تفرز والده ، وارتياحه . اذ كان يأمل أن يعود ابنه حاملا بين ذراعيه واحدا من الهون (الألمان) على أقل تقدير . وفى نهاية الكتاب نرى جون بولوك بساق واحدة ، جالسا يستنشق الهواء فى احدى حدائق لندن فى يوم وقف النيران . ولا يخفى أن الوطنى الغيور قد تحول آخر الأمر الى انسان زائف عن الحاجة سرعان ما ستنسى تضحيته .

Memoirs of an Infantry Officer : Sasson. (*)

Her Privates We : Fredrick Manning. (**)

The Patriot's Progress : Henry Williamson. (***)

وبذلت جهود مناهضة هذه النظرة الى الحرب ورد فعلها على الجيل الذى اکتوى بنارها ، قالف دوجلاس جيرولد (١٨٩٣) كتابا غاضبا كشف فيه عن « الاكاذيب والاباطيل التى رويت عن الحرب » ، ووصف كتب الحرب التى صدرت (١٩٢٩ - ١٩٣٠) بأنها زائفة ، لأنها حولت ما هو نادر الحلوث الى شىء شائع ، وابتعدت عن الدقة التاريخية عندما زعمت أن من حاربوا فقدوا كل ايمان بما كانوا يحاربون من أجله . ويصر جيرولد على القول : « لا أحد يتحلى بالأمانة والاخلاص والابتعاد عن الهوى عندما يتذاكر ما جرى فى الحرب ، سبرى أن ما صادفه المتواضعون العقلاء من أصحاب الضمائر الحية من ذكريات ومعان قصية لا يمكن التعبير عنها بالكلمات ليس بوسعها أن تعكس سوى مزيج من الخير والشر ، ازدادت سرعة تكثفه فى الزمان عما يجرى فى أوقات السلام ، وان كان سببا هناك تكافؤ أساسى بين الحالين ، وأشار جيرولد أيضا الى أن كتب الحرب الجديدة قد أحدثت تأثيرها الفعال بأن ركزت على معاناة الجندي الفرد ، وفصلته عن الوحدات الأكبر التى كان جزءا منها ، وعمدت الى التعتيم وأغفلت النظر الى الدور الجماعى للحرب ، وأن هناك قضايا جماعية هامة قد غدت فى خطر . وزعم تشارلز كارينجتون ١٨٩٧ (*) زيف خرافة ازالة الوهم التى لجأ اليها الانهزاميون . فما يقال عن « ازالة الوهم » لم يظهر الا بعد أن ساد السلام ، وليس أيام الحرب . لقد كان الحديث عن السلام فى البداية « كلاما فارغا » ، وشعر محارب سابق آخر بعد قراءة هذه المؤلفات باختلاف الحزب عن الوصف الذى جاء فى هذه الكتب الجديدة :

« لم تكن فى حالة هجوم دائم ، كما لم تكن دوما معرضين لواابل النيران . ولم يقتل أصدقاؤنا دائما ، وفى تلك الأيام كان لدينا أصدقاء ، أما الآن فنكاد نكون بلا أصدقاء الا فيما ندر ، وكانت الصداقة حلوة فى فترات الراحة الوجيزة فى بعض القرى الفرنسية خلف خطوط النار ، حيث كنا ننعم أحيانا بالربيع ، وكانت هناك أشجار فواكه ما زالت تثمر وتزدهر ، وطيور تغرد ، وشجيرات قمح فى أول مراحل نموها . وحتى بعد حدوث أول حالة احباط شديدة أعقبت معركة السوم ، التى وصلت أخبارها الى انجلترا عن طريق الجنود العائدين الى أرض الوطن ، كان صفار الملازمين ما زالوا يتخرجون من المدرسة وقلوبهم مفعمة بالحماسة . اذ كانوا يشتهون الذهاب الى هناك بأنفسهم ، لكى يروا ما يجرى فى الميدان حتى وان عرفوا مسبقا ما ينتظر أن يرونه » .

ولكن هذه الأصوات المتفردة وعديمة التأثير أخفقت في هداية السواد الأعظم من الانجليز المشتغلين بالكتابة ، أو ثنيهم عن عزمهم في الاسترسال في ترديد ما أصبح يعرف الآن بالفكرة المستحوذة ، فواصلوا ترديد ما قاله ساسون بأن الحرب كانت حيلة قذرة لعبها الجيل الأقلم ، وتحايل بها على الجيل الأصغر ، وأنها كانت جريمة ضد الانسانية ، وأنها مسئولة عن معظم البلايا التي ابتليت بها انجلترا ، ان لم تكن مسئولة أيضا عن جميع الأخطاء . وعندما نتذكر الآن ما جرى سيتيسر لنا بقدر كاف فهم لماذا فعلوا ذلك . فعلى نهاية عشرينات القرن العشرين ، اعتقد جميع المفكرين الانجليز أن الحرب كارثة عامة يجب أن لا يستهان بها ، وأن انتصار انجلترا لا يزيد - في الحق - عن هزيمة لحقت بهم ، ومن ثم فإن من تسببوا في دخول انجلترا الحرب والقتال والخوض في مذابح دموية ، اما أن يكونوا أوغادا من المرتزقة ، أو من الحمقى الخطائين . وربما اشترك في ترديد مثل هذه النغمة المتطرفون والرجعيون على السواء .

فمن المنظور المحافظ ، بدا واضحا أن الحرب قد قضت على العالم القديم ، بحيث لم يعد هناك أى أمل في اعادته الى سواء السبيل ، واكتشف أبناء الطبقة الراقية حدوث تزايد في تقييد المولة لأفعالهم ، وأصبحت حقوقهم الموروثة مهددة من حزب العمال واتحادات العمال ، وتعرضت ثرواتهم للتضاؤل بعد حدوث هبوط وتقلبات في سعر الجنيه الاسترليني . وأرغمت ضريبة الارث بعض ملاك الأرض من الاستقراط على تقسيم أملاكهم وبيعها للتجار الذين اغتنوا من الحرب (أو أضافوا ثروات جديدة الى ما لديهم) في الوقت الذي يتعرض فيه الملاك الأصليون للموت في الميدان . ومن الحق أيضا حدوث تدهور في قوة الانجليز ، ونفوذهم في العالم ، الى جانب أنه لم يعد هناك من يخدع نفسه بتوهم أن بريطانيا تسيطر على موجات جميع البحار والمحيطات ، أو أن انجلترا تحل الصدارة (*) في نادي القوى العالمية . فمن كان يجرؤ في الكتابة ١٩٢٩ مثلما كتب صحفي معروف بثقة قبل ذلك بعشر سنوات : « بأن الامبراطورية واثقة من استمرارها في البقاء نفس الملة التي عاشتها الامبراطورية الرومانية في أقل تقدير ؟ » . قصارى القول لقد ماتت انجلترا عهدي فيكتوريا وادوارد وولى عهدا الى الأبد .

ومن منظور اليسار ، بدت الأشياء في صورة أفضل نوعا . ألم تساعد الحرب على تيسير شق الطريق نحو مستقبل جديد أكثر دينامية ؟ فلقد أثبتت الصفوة العريقة بزعامة ستانلي بلدوين (السياسي المحافظ ورئيس الوزراء في الثلاثينيات) أنها عاجزة عن إعادة البلاد الى سابق عهدها . ولكن العسكريين قد تماثلا في عدم رضائهما التنازل عن زمام

Primus inter pares.

(*) .

السلطة ، ودلفا يترويحان من شدة الإرهاق ، ومن تنازل آخر كجيش منكسر مجهود يتراجع على مهل ، وظهر حزب العمال لفترة وجيزة في مظهر يبشر بمعايير المستقبل ، ولكن ما أن هلت ١٩٣١ حتى أحبط هذا الحزب آمال أنصاره . فقد حصلوا على أغلبية كبيرة في انتخابات ١٩٢٩ ، ساعدتهم على الاستيلاء على السلطة ، ولكن زعماء الحزب أسرعوا بالتعبير عن ولائهم للاتجاه المحافظ في المسائل المالية ، وكشفوا عن الخوف والارتعاب من الأفكار الجديدة ، واتضح عدم وجود اختلاف بين الاشتراكي رامزاي ماكدونالد والمحافظ بلدوين . كما أن الحرب لم تحقق السلام لأوروبا . إذ استمرت حالة التوتر بين بلدان أوروبا ، والموجة الصاعدة للقومية الجرمانية كعوامل تذكيرة إضافية بأن « الحرب لانها الحرب » كانت صحيحة جوفاء ، ولم تجد فتىلا ، فهل هناك ما هو أكثر مسايرة لطبيعة الأشياء من لقاء اللوم على « عواجيز » العهد الفيكتوري المتشددین غلاظ القلوب ممن افتقروا إلى الشجاعة والرحمة والخيال . وهكذا شعر بالأسف المفكرون الذين سمحت أعمارهم بتذكر عالم ما قبل الحرب ، وإن كانوا قد تماثلوا هم والفتية السذج إلى حد ما في أسفهم على جيلهم « الفارغ » وترحمهم على الأيام الخوالي التي كانت حافلة بالجهاذة من الرجال ، وتكهنوا باتجاه انجلترا - كأوروبا - نحو كارثة محققة ، وإن كان قلائل قد ارتضوا الذهاب بعيدا مثلما فعل سير أوزوالد موسلي (١٨٩٦) الذي انسل من حزب العمال ١٩٣٠ ، وأعلن الحرب على العواجيز « الذين ضلوا جيل ، وساقوتا إلى حرب ١٩١٤ ، والذين عكروا صفو حياتنا ١٩٣٠ ، وأوقعونا في أزمة ١٩٣١ » . انهم العواجيز الذين بددوا سلطان انجلترا وأمجادها .

وانزلق موسلي نحو الفاشية ، وتبعه هنري ويليمسون وحفنة من المفكرين . ووصف موسلي الاتحاد البريطاني للفاشين الذي أنشأه في أكتوبر ١٩٣٢ بأنه تحالف بين « جيل الحرب » والشبيبة الانجليزية موجه ضد زمرة المعجزة المسنين . غير أن انجلترا اختلفت عن ألمانيا ، لأن فكرة الأجيال ربما كانت أكثر شعبية فيها أكثر من شعبيتها عند مفكرى اليمين . ولقد تحدثت عن المثل الكلاسيكي للجيل الانجليزي الضائع في الأدب ، الذي عرضته فيرا بريتان (*) فكان بمثابة شهادة لامرأة تؤمن إيمانا قويا بالنزعة الاشتراكية وحقوق النساء . وكانت بريتان طالبة في اكسفورد عندما شبت الحرب وتطوعت للخدمة خارج انجلترا كمرضة ، بعد أن قتل خطيبها أثناء العمليات الحربية في فرنسا ، وقبل أن تنتهي الحرب ، فقدت أخاها واثنين من الأصدقاء الذكور كانت متعلقة بهما . وصممت ١٩٢٥ على تأليف رواية مستندة إلى تجاربها . على أنها لم تشرع في كتابة

مسودة الكتاب حتى نوفمبر . وفي ذات الوقت ، وبعد أن رأت ما صادفته رواية « نهاية رحلة » من نجاح منهل ، وبعد أن قرأت كتب الحرب (١٩٢٨ - ١٩٢٩) ، اقتنعت بجدارة قصتها بالكتابة ، وأن عليها أن تصوغها في صورة ذكريات تمثل جيلها : « بعد قراءة هذه الكتب ، بدأت أتساءل : لماذا يحتكر هؤلاء الشباب الحرب لأنفسهم ؟ ألا توجد حرب للنساء أيضا ؟ ... ودرست مذكرات بلوندين وساسون وجريفر بعناية علمية دقيقة ، وأيقنت عدم اختلاف قصتي عن قصصهم من حيث الطرافة ، وإلى جانب ذلك ، فلقد مررت بتجارب أخرى لم يعرفها أحد منهم ، كما أن رؤيتي لبعض ما رأوا تمثل منظورا مختلفا » .

وكتاب « شهادة الشباب » مسرف في الاستغراق في الذاتية ، وشديد الاشفاق على الذات ، ويفتقر افتقارا كبيرا الى الاستهانة بالأنانية المستهجنة ، مما لا يبيح ادراجه ضمن الأدب الجيد ، ولكنه حقق نجاحا كبيرا في مبيعاته ، وحقق لمؤلفته شهرة كبيرة عندما نشر سنة ١٩٣٣ . ويدين هذا الكتاب بنجاحه الى أنه عرض « على المكشوف » سرد مسلسل اتبعه كثير من الانجليز الذين بقوا أحياء بعد الحرب عنه تذكروهم لماضيهم ، وهو ما لم يفعله أي كتاب آخر عن الحرب . وهذا الشكل الأدبي صورة « مكيفة » لرومانس القرون الوسطى . ويبدأ الكتاب بمرحلة البراءة أو السذاجة التي تزامنت هي والسنوات السابقة لسنة ١٩١٤ . وبعد أن تخرج الشباب من أبطال فيرا بريتان من مدرستهم الارستقراطية في يوليو ١٩١٤ ، لم يلمحوا أية نذر بما يتوعدهم من كرب ، وبالشدائد التي ستتعثر فيها أقدامهم . وجاءت بعد ذلك محنة الخدمة بالحرب في فرنسا . وعندما تطوعوا كانوا يشتعلون حماسة ، ونفضوا أوهامهم البطولية قبل أن يموتوا في الحرب التي أصبحوا ينظرون اليها على أنها شريرة عديمة الجدوى ، وتأتي المرحلة الثالثة في السرد بعد العودة الى إنجلترا . وبعد أن اقتلعت « الريح العاصفة » كل شيء ولم يبق سوى قلة من الأحياء قدر لهم العودة الى ديارهم ، اكتشفوا تحولهم الى أشباح وافدين من زمان ليس بمقدور أي مستقبل غرس الحياة فيه . فلقد حكمت الأقدار عليهم بالتجوال على غير هدى بقلوب محطمة ، دون اعتناء الى بر أمان يرسون عليه ، ويجيء آخر احباط عندما يكتشف الأحياء أن تضحية من ماتوا قد ضاعت هباء . فلم يزد الانتصار المزعوم عن ردة للحضارة ، وستعاود الحرب الاندلاع ، وسيتحطم جيل آخر من أصحاب المتزع المتشالي .

وتختتم رواية « شهادة للشعب » بهذه النغمة المفعمة بالتشاؤم . فلقد فشل جيل الحرب في رسالته ، أما من بقوا أحياء ، فلا يزيدون عن قلائل ، وهنت عزائمهم من تأثير محاولتهم تجريد العجائز من السلطة : « لعل أفضل ما تترك لنا لكي نفعله هو أن نرفض النسيان ، وأن نعلم

أخلافنا ما نذكره أملين أن تتوافر لهم عندما يحين يومهم قوة أكبر لتغيير الحال في العالم ، أكثر مما استطاع أن يحققه هذا الجيل المفلس والمستت - ولربما استطاعت توجهات فيرا بريتان أن تلمس بعض المشاعر الدفينة عند جمهور القراء الانجليز . ففي غضون ست سنوات ، بيع من كتاب « شهادة شباب » ١٢٠٠٠٠ نسخة ، ثم أعيد إصداره ١٩٧٨ .

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ، استقرت فكرة الجيل الضائع في أذهان الانجليز ، وكانت على وشك التجمد والتحول الى تفسير مقبول للتاريخ الانجليزى القريب العهد . وما من شك فى شيوع هذه العبارة فى أعلام الصحفيين وكتاب المذكرات وفى مرائى الوفيات وأحاديث الدوائر الأكاديمية . غير أنها تسلمت أحيانا الى كتب المؤرخين الجادين ومقالاتهم . وفى ذات الوقت ، حدث تحول مثير للاهتمام فى استخدام هذه العبارة . اذ تزايد النظر الى عبارة « جيل ضائع » على أنها مرادفة لعبارة « الجيل المفقود » . فقد خضعت فكرة فقدان الاتجاه والاتصال للأحياء بالغياب المادى ، الى حد أن العبارة تستعمل أحيانا ، وكأنه لم يعد هناك من استمر على قيد الحياة ممن تستحق شخصيته التنويه بها اطلاقا .

ولقد انتشرت هذه الفكرة الغريبة مثلما تنتشر الشائعة ، وتعرض للتخريف فى كل مرة يعاد فيها ترديدها . فلقد نشرت ١٩٣٠ مجلة انجليزية رائدة (*) مقالا جاء فيه ما يلى : « لو نظرت حولك فانك لن تجد فى انجلترا فى عالم السياسة أو ميدان الأعمال أى شاب من ذلك الجيل يشغل الوظائف التى تتقاضى أجورا أسمى وأفضل » . ولم يعترض أحد من رؤساء التحرير على هذا الكلام . ويردف الكاتب على سبيل الاعتراض : « لم يعد هناك الا قلة من الأحياء من الجيل المفقود ، والقلائل الذين بقوا منه قد نشطوا فى العمل خارج انجلترا فى السنوات التى تلت الحرب مباشرة ، وكان استمرارهم على قيد الحياة كان غلطة بحق ، وكانهم من الأشياء التى كان يتعين تواريتها حتى « ينسى » أمرها . وفى ١٩٤٢ ، عبر المؤرخ وودورد عن شعور بالمرارة وخيبة الأمل من المعاملة التى عومل بها جيل الحرب من قبل الأكبر سنا ، ولاحظ فى غلو : « ان من عاينوا من الحرب قد انحطت قيمتهم فى العالم السياسى لبلادهم فى أغلب الظن . أكثر من أى جيل ابان القرنين أو ثلاثة القرون الماضية » . وعنما قيم ريجنالد باوند - وهو كاتب سيرة معروف ، وكان ممن تطوعوا فى الحرب - تفسير التاريخ على هذا النحو - فى كتاب عنوانه الجيل الضائع (**) ، استخلص حدوث الخسائر الحقة فى الحرب العالمية فى الامكانيات الثقافية

(*) The Nation .

(**) Reginald Pound فى كتاب The Lost Generation

وفي الشخصيات : « لم يحدث ادراك لدى ما حل بالفكر الخلاق من ضحور ، أو لما أصاب التعليم والأدب والعلم من جراء تحطم كثير من أصناف العقول الخصبة القوية » . وقال باوند متعجبا : « ألم يكن بمقدور هؤلاء المفقودين أن يقاوموا القوى الشيطانية التي غزت الفنون ؟ ألم يكن بوسعهم الحيلولة دون احتلال أصحاب المواهب من الدرجة الثانية لمواقع الموهوبين من الدرجة الأولى ، أو ألم يكونوا قادرين على إيقاف تحول انحدار الغضب للعنوى الى تسامح خال من البطولة » . ورأى باوند أن الحياة القومية البريطانية قد كشفت - « كما لم يحدث من قبل - عن حالة تشوش جسيمة » . نعم لقد حدث اجذاب في مختلف القومات « . وتأثر ناشرو هذا الكتاب بهذه المخاطر لدرجة أنهم وضعوا مقتبسات منها في الصفحة الاستهلالية ، وأعادوا ذكرها عند النويه في نبذة قصيرة على ظهر الكتاب مما جاء فيه . والخرافة ملفنة للغاية لحد أن أحد المؤرخين وقع فريسة لها عندما حاول تصحيحها ، وتساءل حديثا روبرت سكيدلسكي (*) : ألم يكن بإمكان موسلي عدم التراجع في تمرده ضد الأحزاب العتيدة : ١٩٢٠ ، لو أنه لم يقتل في الحرب مثل هذا العدد الوفير من القريبين له في السن ؟ واعتقد سكيدلسكي بعد أن راجع نفسه أنه لم يكن هناك عدد كاف من شباب المحافظين والعمال والأحرار لتأييد وجهة نظر موسلي عندما أقدم على انشاء حزب جديد ، « ولكن اذا بحثنا بين أبناء الجيل فائنا كنا سنبحث على العديدين من بينهم » . ولعل تاريخ انجلترا كان سيتغير آنذا .

ان أي مؤرخ ينوى إعادة كتابة التاريخ البريطاني من منظور الطبقات التي لا تتخذ الصدارة لن يصادف أية مشقة عندما يحاول تحطيم أسطورة الجيل المفقود . اذ كانت الخسائر البريطانية أقل نسبيا من خسائر البلدان الأوربية الرئيسية الأخرى التي اشتركت في الحرب ١٩١٤ . فخلقد مات في فرنسا - التي تتساوى تقريبا هي وانجلترا في عدد السكان - ضعف العدد . ولو أن خسائر بريطانيا تساوت في معدلها هي ومعدلات خسائر ألمانيا لارتفع عددها الى مليون ومائتي ألف بدلا من سبعمائة ألف . نعم لقد هبط عدد الذكور (الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ سنة و ٤٠ سنة) في كل ألف من السكان بين ١٩١١ و ١٩٢١ . ولكن هذا الانخفاض لم يزد عن الهبوط من ١٥٥ الى ١٤١ . ويصعب القول بأن ما حدث كان تغيرا مهلكا أو راديكاليا ، لو نظرنا الى هذه المسألة نظرة احصائية . فبعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات ، ضم تعداد السكان أكثر من خمسة ملايين من ولوا بين ١٨٨٢ و ١٩٠١ ، وتحملت الفئات التي يقم سننها في هذه المرحلة من العمر خدمات الخدمة في الصفوف الأمامية للحرب .

وجاءت الخسائر بينهم مريعة ، ولكنها لم تكن بالجسامة التي تؤدي الى القضاء على جيل ، اذا عرفنا الجيل في جملته بأنه مجموعة من الأشخاص الذين يتقاربون في السن ويرتبطون سويا بتجربة تاريخية مشتركة ، وبمسير مشترك .

غير أن مثل هذه الأرقام التي ذكرناها لا توضح صميم أسطورة أو خرافة « الجيل المفقود » ، لأن الأسطورة تعتقد أن أفضل الأشخاص قد ماتوا ، أي يفترض أن من سقطوا صرعى في ساحة الوغى كانوا الأنقى سريرة والأسمى والأشجع والأعظم ثقافة ، وأن من استمروا أحياء كانوا الأضعف والأقل شجاعة . ويعنى هذا الانتقاء المعكوس ، ويجر في ذيله ما حدث من اخفاق وبلايا في كل فرع من فروع الحياة الانسانية ، وبلت هذه الظاهرة عند بعض كأنها المستولة عن تدهور انجلترا وتشوب الحرب العالمية الثانية .

وهناك شعور بالميل الى رفض هذه الفكرة باعتبارها هراء ومن أوهام النخبة . فأولا - كان من بين الصفات المميزة لحرب الخنادق خلال الحرب العالمية الأولى أنها لم تكن موجهة ضد أشخاص ، وأن الموت كان يصيب الشجاع والجبان بلا تفرقة ، اذ كانت هناك احتمالات أكبر في تعرض أحد الأشخاص للموت من رصاص رشاش غير مرئي أو قنبلة تسقط « عمياتيا » من خندق العدو ، أو اصابة عرضية للمدفعية أكثر من التعرض لرصاصة أحد القناصة ، أو لطعنة سونكي فيما يشبه القتال المباشر ، أو وجها لوجه . فلقد مات عديدون دون أن يلمحوا العدو ، وليست هناك علاقة بين من استمروا أحياء وبين الطهر والسمو ، وإن أمكن المجادلة والقول بأن الأقوى والأفضل تغذية من القطاعات الأوفر حظا وميسرة من المجتمع كانت لديهم فرصة أفضل لتحمل صرامة الجو وأخطار العدوى والتعب المترتب على العمل المضني وعدم انتظام النوم ، فلقد مات كثيرون من تأثير الاجهاد مما حال دون تمكنهم الاحتماء بسائر ، أو لأنهم كانوا شديدي التبلد أو اليأس مما جعلهم لا يحرصون على التفرقة بين الحياة والموت . وساعد الذكاء أيضا في ابقاء بعض أفراد أحياء ، فلقد رفض بعض جنود - بعناد - ارتداء أقنعة الغاز ، أو تجاهلوا الانتباه الى وجود قناصة ، عند ارتيادهم بعض القطاعات لأول مرة . ولعل هذه الحالات هي التي خطرت ببال جرافز عندما أحدث صنعة لقس الابرشية ورفاقه فيها في احدى الصلوات التذكارية التي أقيمت فور انتهاء الحرب عندما قال لهم : « ان من سقطوا في الحرب وتحطموا كأنهم سقطوا من فوق برج « سيلوآم » ، لم يكونوا فضلاء بوجه خاص أو آئمين بوجه خاص ، ولكنهم كانوا أوساط الجنود » - وجاءت نصيحته لمن بقوا أحياء « أن

يشكروا الله لأنهم ما زالوا أحياء ، وأن يبذلوا ما في وسعهم للحيلولة
دون وقوع حروب في المستقبل .

من هذا يتضح عدم وجود مبرر للاعتقاد بأن الجماعات المشتركة في
سن واحدة ممن قاتلوا في الحرب قد تناقص عددها مما صعب نهوضها
بدور في انجلترا في أعقاب الحرب ، أو للظن بأن من استمروا أحياء
كانوا أسوأ حالا - أو أفضل - من الذين ماتوا ، فما الذي ساعد على
تغلغل تصور « الجيل المفقود » في انجلترا على هذا الوجه ؟ أولا - أن
هذا يرجع بلا شك لما تتميز به الصفوة الانجليزية من صغر في حجمها
وتحديد للامحها ، ولأنها لم يسبق لها الاشتراك في أى قتال فعلي في
الحرب . فما أسهل نسيان اختلاف بريطانيا عن القوى الأوربية الأخرى
في نظام الخدمة العسكرية . فقبل ١٩١٤ ، لم تكن هذه الخدمة اجبارية
بصفة مطلقة ومفروضة على جميع المواطنين الذكور من أصحاب البنية
السليمة ، ولكنها كانت حرفة تمارسها قلة مميزة ، بوجه عام ، يعنى
الأقل تمتعا بالموهبة من أبناء الطبقات العليا ، وملاذا وخاتمة مهلكة لأبناء
المراتب الأدنى ممن عجزوا عن شق طريقهم في الحياة المدنية ، أو لم يرغبوا
في ذلك . وتغير هذا الوضع بأسره في الفترة الواقعة بين ١٩١٤ و ١٩١٨ ،
وتحول الجيش الى مصير اشترك فيه السواد الأعظم من الرجال المولودين
بين ١٨٨٠ و ١٨٩٩ ، وتعرض لهذا المصير رجال من جميع الفئات
الاجتماعية . على أنه في السجلات التي بقيت للأخلاف وفي الحوليات التي
ضمت أسماء من حصلوا على أعلى قدر من الثقافة ، ارتبط هذا المصير
بأبناء الطبقات الوسطى والعليا ، وربما اقتصر عليهم .

وعندما نتذكر ما حدث سيتضح بما فيه الكفاية لماذا حدث هذا ،
وكيف ؟ فعلى الرغم من تدفق اناس من جميع الخلفيات الاجتماعية على
مكاتب التطوع في المراحل الباكرة ، فإن من كانوا ينتمون الى الطبقة العليا
والطبقة المتوسطة ، كانوا أسلم صحة وأمتن بنيانا . وكانوا أقدر على
التخلي عن اشغالهم في وقت السلام (لو كان لديهم مثل هذه المشاغل) ،
ومن ثم كان تقرير صلاحيتهم للخدمة في الميدان أقرب للاحتمال ، فأوفدوا
الى فرنسا أو الفلاندرز حيث قتل خمسة محاربين من بين كل تسعة ، أو
أصيبوا بجراح أو فقدوا . وجاءت الخسائر من بين خريجي الجامعات
والمدارس الثانوية العامة (الارستقراطية) عالية بوجه خاص ، لأنهم كانوا
المفضلين لشغل وظائف صفار الضباط . وتعرض الضباط الأصغر
لخسائر أفدح مما تعرض لها الرجال الذين خدموا تحت قيادتهم . إذ
كانت مهمة الضباط الأصغر هي تولى القيادة في الهجمات والافتحامات ،
وتسيير الحملات ، والاطمئنان الى اصلاح الأسلاك الشبائكة المحيطة

يخنادقهم ، وكانوا يخاطرون بحياتهم عندما يطلب منهم ذلك ، لأنهم كانوا يدركون أن واجبهم يحتم اتخاذ رجالهم هؤلاء الضباط قدوة لهم . ومن ثم كان هناك تناسب طردي بين صغر سن الضباط وامتيار تعلمه واحتمالات قتله .

وأحدثت الخسائر الثقيلة التي لم يسبق لها مثيل بين جماعات صغار السن من أبناء الطبقة العليا والطبقة المتوسطة جرحا جماعيا اشتدت خدته بمرور كل سنة من سنوات الصراع ، وكان من بين الوسائل التي لجأ إليها من بقوا على أرض انجلترا لمواجهة هذه الخسائر صب جام غضبهم على العدو الألماني ، والتبليغ عن الجواسيس المزعومين المتقاعسين ، الذين لا يؤدون واجبهم على الوجه الصحيح ، والوسيلة الأخرى هي تكريم الموتى ، والتظاهر بأن من ماتوا قد استشهدوا وحالفهم الحظ . وكانت جريدة التايمز تنشر نعي القتلى في ميدان الشرف ، وترفقها بعزاء من آبائهم وأمهاتهم وأصدقائهم ومعلميهم ، وتلصق لافتات تتضمن الإشادة ببطولتهم . أو تقام لهم تماثيل نصفية في المدارس والجامعات . وفي حالات كثيرة ، كانت تجمع أشعار الضباط الشهيد ومراسلاته وتنشر . وباختصار ، كانت تتخذ جميع الوسائل التي تساعد على تخليد ذكرى الفريد - أو فريد الصفوة بمعنى أصبح - حتى تبقى ذكراه حية عطرة في قلوب أجياله . وفيما بعد وعندما انتهت الحرب وتكشف شع ثبارها ، تحولت هذه الخسائر إلى وسيلة - في نظر الشعب - للتدليل على ما حدث من تدهور للبريطانيين .

لم يكن هناك إذن أساطير تتعلق بهذه الخسائر ، ولا يحزنون . ولعل الأساطير قد ظهرت في الحكايات التي رويت لاستغلال هذه الفكرة فيما بعد . فلقد سقط الأولاد الأبنكار من أبناء انجلترا بأعداد مريعة خلال الحرب الكبرى . وبالمقدور تصوير ذلك بهذه الأرقام التي أختيرت بطريقة شبه عشوائية . فمن بين ٥٥٨٨ من خريجي كلية إيتون ممن خدموا بالحرب ، قتل ١١٠٩ وجرح ١٦٤٩ . وقدر روبرت فيقولس عدد من ماتوا في السنوات ١٩١١ و ١٩١٢ و ١٩١٣ من أبناء كلية أكسفورد ، ممن اشتركوا في الحرب بواحد وثلاثين قتيلا ماتوا أثناء العمليات الحربية أو متأثرين بجراحهم من بين ١٣٦ . ومات ١٢٨ من كلية تشابمان في أكسفورد . أما في كلية المسيح فمات عدد يمثل الملتحقين بهذه الكلية خلال ثلاث سنوات ، وفقدت عائلات كثيرة من عليا القوم أبنكارها ، بينما فقدت بعض عائلات أخرى اثنين أو ثلاثة من أبنائها في بحر سنة واحدة .

غير أنه ما زال بالاستطاعة القول بأن أغلب من خدموا بالمدان ، حتى بين الصفوة قد رجعوا سالمين . وشغل اثنان منهم منصب رئيس

وزراء انجلترا : أنطوني آيدن وهارولد ماكميلان . والتحق عدد لا حصر له منهم في البرلمان ، وشغلوا مناصب أقل مكانة ، وإن كان لها أهميتها في الحياة العامة . فقد كانوا من المسئولين في الوزارات والأحزاب السياسية ودور النشر ، ومن المشتغلين بالكتابة في الصحف أو التأليف أو الكتابات النقدية . وكان من بينهم من أسسوا مؤسسات عامة أو عملوا أساتذة بالجامعات أو أداروا معاهد علمية أو معامل ، أو مثلوا بلادهم في الخارج ، وكان لهم دور في تشكيل عقول مواطنيهم على أنحاء شتى عديدة ، وتركوا مذكرات تملأ العديد من رفوف المكتبات ، ونسى قلائل من بينهم الإشادة في كتبهم بمن كانوا يفضلونهم ، أو كانوا ألح منهم ممن ماتوا من أصحاب الأعمار المماثلة أو المقاربة . وتثير هذه الحالة سؤالاً يدعو إلى الحيرة . أنه سؤال أشد مراوغة من التساؤل عن الأصول التي انحدروا منها ، والذي فرغنا من التحدث عنه . هذا السؤال هو : لماذا ثبت الأحياء الذين خرجوا سالمين من الحرب العالمية هذه الأسطورة ؟ وما هو السند الذي يحتمل أن يكونوا قد ارتكبنوا عليه في حفاظهم على بقاء فكرة الجيل الضائع أو الفاقد ؟

والرد على ذلك هو أن أسطورة الجيل الفاقد قد أتت بصورة ذاتية هامة لمن بقوا أحياء من داخل دائرة صفوة المثقفين ، وجاءت أيضاً بتفسير مريح سيكولوجيا ، بل وضروري في أغلب الظن لما جرى لهم بعد أن عادوا من الحرب . وهكذا غلت « عبادة » الموتى وسيلة لتفسير ما حدث من احباط في الحاضر . وما من شك أن أصل هذه « العبادة » يرجع إلى تجربة الحرب ذاتها ، فهي تعكس الشعور بالذنب المتوقع عند من بقوا على قيد الحياة ، وكانوا يعرفون أن الحياة لم تعد من حقهم بعد أن مات من كانوا حولهم ، وتعكس مشاعرهم الغاضبة التي تميزت بقوتها في انجلترا أكثر من أي بلد آخر ، لأنهم كانوا ضحايا حيلة قذرة لعبها التاريخ المتجسم في الصورة الشريرة للجيل الأعجز . ولقد رددت أشعار أوين (*) عن الحرب بالفعل معظم هذه المعاني الأساسية : الإشادة بالقوات المقاتلة - خيانة الأكبر منا للشبيبة - الطبيعة المأسوية لمصير جيل أوين ، غير أن الشاعر التي عبرت عنها قصائده ، وبما يكون أثرها قد أصيب بالوهن بمرور الأيام . أما ما حدث من تجدد في الأنشطة فقد تأيد بعد العودة إلى انجلترا ، ومن تجربة الحياة أثناء العشرينيات وبدايات الثلاثينيات . فما رآه الباقون أحياء لدى عودتهم لم يكن داراً تليق بالأبطال ، وإنما كان عطلة طويلة لنهاية الأسبوع ، شعروا خلالها « بأن الحياة في انحدار مستمر » ، وبشاعر معاكسة . وفي هذا الجو الممثل للانحدار

قامت عدة مؤثرات كالحنين للماضى والأزمة المؤجلة التى مرت بها انجلترا بين الحربين وأسطورة الجيل الفاقد بكل ما تحمله من اشارات ومعانى بدور هام فى نظر من استمروا أحياء . فلقد استحضرت ذكريات عالم الطفولة الذى فقدوه ، ومن اختفى فى الحرب من أصدقاء ومعارف ، و « التوهان » والاغراب الذى صادفوه لدى عودتهم لديارهم ، والمعارك التى حاربوها وخسروها ، خلال عقدين من الزمان أعقبا ١٩١٨ . وفى ذات الوقت ، فإنها فسرت عجزهم عن تحقيق أحلام العظمة التى شبوا على الاعتقاد بأنها ستكون من نصيبهم ، والتى اعتقد كثيرون أنهم حققوها ، حتى وان كان ذلك بصورة عاجلة عابرة فى ميادين قتال الحرب العالمية ، وخنادقها ، وفسر الأحياء من أبناء الطبقات المميزة التفاوت بين أحلامهم ومنجزاتهم بالتركيز على الفضائل الفذة التى اتسم بها من سقطوا فى ساحة الوغى ، وبالإشارة الى ما فى مراتبهم من ثغرات وفجوات ، وألقوا تبعة ما حل بهم على مقاومة الجيل الأقدم .

وانفرد لورنس (توماس ادوارد) ، وكان من بين أشهر من بقوا أحياء من المشتركين فى الحرب من الانجليز وأفصحهم بيانا باستهجانه للاستغلال الخطير لأسطورة « الجيل الفاقد » ، ويشير هذا الموقف الكثير من الدهشة ، لأن لورنس بالذات ، كما يبين من أفعاله وكتاباتة قد ساهم فى تثبيت هذه الأسطورة ومصداقيتها فى الفترة التى أعقبت الحرب مباشرة . وتمائل لورنس هو وروبرت بروك فى قيامهما بتحويل نفسيهما الى أسطورتين ، قبل أن تبدأ الحرب . بيد أنه فى حالة لورنس ، كان هناك قدر كبير من المواد المدعمة للأسطورة ، والكثير من الخفايا الحقيقية التى أحاطت بأحوال معيشتة . فلقد هجر أبوه توماس تشابمان - وهو من النبلاء الايرلنديين الذين يعتنقون البروتستانتية - أمه وأربع بنات ، ومكانة مرموقة ومركزا ماليا متينا هاربا برفقة مربية الأسرة الاسكتلندية ، وبذل الاثنان اسميهما الى لورنس ، وأنجبا خمسة أبناء ، كان ثانيهما توماس ادوارد المولود ١٨٨٨ ، واستقرت الأسرة فى نهاية المطاف فى اكسفورد حيث عاشت حياة متواضعة بدخل ثلثمائة جنيه استرليني سنويا . وأدى هذا الوضع الاقتصادى الى اضطراب توماس تشابمان الى التخلي عن أسلوب الحياة الذى اعتاده فى ايرلاندة ، وأرغم الزوجان على حياة الضيق ، واستعاضة الماديات بالروحانيات . ودلت جميع الدلائل على أن هذه الروحانيات كانت عظيمة الأثر . لذ كانت سارة لورنس من اتباع كالفان فى شدة التزامها بالفضيلة ، وإيمانها العميق ، مما دفعها الى السعى عن التكفير عن خطيئتها الفظيعة باختطاف زوج امرأة أخرى ، بالعيش حياة طاهرة زاهدة لا غبار عليها . ونجحت بفضل عزميتها الجديدية وتصميمها الذى لا يلين فى فرض قيمها على زوجها وأبنائها .

واختار أحد الأبناء الخمسة العمل مبشرا دينيا ، وتزوج آخر ، وتأثر جميع الأبناء بدعوة أمهم بوجوب قيام الزوج بدور الحارس الصارم والتصدي لشهوات الجسد وورثته . وعلمت سارة أبناءها أيضا بأن يتخذوا كمال الانجاز غاية لهم ، وأن لا يقنعوا بأنصاف الأفعال . واتخذ هذا الشعور في حالة توماس صورة تطلع للمغامرة ، وحرص على إبقائه حيا وحارا في صباه ومراهقته بفضل قراءة رومانسات العصر الوسيط .

وإذا تأملنا الصور الفوتوغرافية لورنس ، سنجد كم تصعب الموازنة بين الصورة والأسطورة . غير أن من عرفوا لورنس في شبابه عن كثب يذكرون أنه كان صبيا فذا وسط زمرة من « الأخوة الأقذاذ » في « وكر صغار النصور » ، كما وصفهم خريج أكسفورد دون ارنست باركر . وكان توماس هو أسرعهم وأكثرهم انطلاقا وتحورا . وأظهر منذ حداثة قدرته على تعلم اللغات ، وتحمل الجهد البدني ، وتمتع بذاكرة ساعدته على حفظ أدق التفاصيل الأثرية ، وكان مبهورا بصفة خاصة بالفن المعماري للقرون الوسطى ، ولا سيما بطريقة انشاء الأبنية الشبيهة بالقللاع العسكرية . وعندما بلغ الثامنة عشر من عمره ، كان قد اكتسب معرفة وخبرة بميدان القتال . وكان مولعا بالرحلات ، ومن محبي المخاطر - بعكس بروك . وبين ١٩٠٦ و ١٩٠٩ ، زار القلاع والكنائس الفرنسية راكبا دراجة ، وأحيانا كان يقطع فوق دراجته مسافة تقارب مائتي وخمسين كيلو مترا في اليوم ، ويقتصر طعامه على اللبن والجبن والفاكهة ، لو تمكن من الحصول على هذه الأصناف . ولعل هذه الرحلات كانت تدريباً على للمغامرات الكبرى التي سيقدم عليها في السنوات القليلة التالية . ففي ١٩٠٩ ، زار الشرق الأوسط لأول مرة في رحلة على الأقدام في سوريا لجمع بيانات للرسالة التي قدمها لجامعة أكسفورد عن قلاع الصليبيين . وعلى الرغم مما لاقى في رحلته من مرض وعناء وإزعاج ، إلا أنه انبهر بالبلد وأهلها حتى أنه عاود الرجوع إليها في ديسمبر ١٩١٠ للنهوض بمهمة التنقيب عن الحفريات في كارشميش (موقع له قيمة حضارية من عهد آشور وبابل) على نهر الفرات ، وأثناء إقامته في كارشميش ، أتقن اللغة العربية ، وأثبت قدرته على اكتساب احترام العرب ، وثقتهم . وعلى الرغم من أنه كان قادرا على التطلع إلى تحقيق مستقبل باهر كعالم أثري ، إلا أنه أثر خلال هذه الحقبة تصور نفسه فنانا متميزا ورحالة يبحث عن الأشياء المثيرة . وما كاد يعود إلى أكسفورد في إجازة قصيرة حتى بدأت الحرب .

وتطوع ثلاثة من الأخوة لورنس هم (توماس وفرانك وويل) للخدمة العسكرية ، وورقوا إلى رتبة الضابط . وفي سبتمبر ١٩١٥ ،

فارق اثنان منهما الحياة في فرنسا . وكان توماس الأوفر حظا وتالقا . فبعد عام ونصف أمضاها في القاهرة في اشغال بعيدة نسبيا عن الخطورة في مكتب المخابرات الحربية الانجليزية ، طلب نقله الى المكتب العربي المنشأ حديثا ، وعلى الرغم من صغر سنه وحدائه رتبته فقد استطاع القيام بدور محوري في تخطيط الثورة العربية على الأتراك ، وتنفيذها . وفي أكتوبر ١٩١٦ ، قام بأول رحلاته الى بلاد العرب حيث توطدت صلته بالأمير عبد الله والأمير فيصل (الملكين بعد ذلك) تجلى الملك الحسين شريف مكة . وفي ١٩١٧ و ١٩١٨ ، أصبح القائد الفعلي ومخطط استراتيجية فيصل ، ورافقه عند دخوله دمشق ظافرا في أكتوبر ١٩١٨ . أما قصة حملات لورنس في الصحراء ، وما أنجزه وما عجز عن انجازه ، وما زعم أنه حققه فما زالت موضع خلاف ، ولا يستبعد أن تظل على هذا الحال دوما ، وما يهمنا من منظور بحثنا هو أن لورنس قد نجح في عالم الواقع في تحقيق أحلامه الرومانسية التي حلم بها كثيرون عندما شاركوا في الحرب ١٩١٤ . فلقد نسف معابر ، وأجرى عمليات استكشافية (تجسسية) وراء خطوط الأتراك ، وشارك في حرب العصابات ، ولم يعرف قط حرب الخنادق الساكنة ، التي لا تساعد على إبراز الشخصية الفردية ، والتي أصابت بالكرب أمثال ساسون وجرافز وأوين ، فلقد أصبح بطلا بالمعنى الحقيقي للكلمة واعترف به العالم كذلك .

بيد أن لورنس تأثر بتجاربه في الحرب ، وانعكس ذلك على طباعه وأرائه . فبعد أن كان يمثل المتطوع الوطني المتشامخ (في ١٩١٤ - ١٩١٥) تحول الى شخصية هاملت ، وما عرف عنها من تعاسة وشكوك في الذات ، حتى أصبحت هذه الشخصية ترمز الى فقدان الايمان بالحرب عند من قاتلوا فيها ، ولقد عرفنا لورنس نفسه الدلالات الكثيرة التي تفسر لماذا وكيف وقع هذا التغير ، فقال لقد اعتل جسمه من تأثير ثمانية عشر شهرا من الكد والحرمان ، وتحطمت روحه المعنوية وتداعى اعتزازه بنفسه بعد وقوعه في أسر الأتراك لفترة وجيزة تعرض فيها للضرب المبرح ، وربما أيضا للاغتصاب . وازدادت صورة النقاء تداعيا عندما اكتشف في نفسه القدرة على اشتهاء الدم والثأر التي نسبها قبل ذلك للشعوب البدائية وغير الأوروبية . ان أية تجربة من هذه التجارب كانت كفيلا باشعال فتيل التغير الذي حدث لشخصية لورنس ، غير أن الواقعة الكامنة وراء الأصل الحقيقي لجرحه السيكلوجي تكمن في موضع آخر . فلورنس بوصفه شخصية جمة التعقيد ، لم يكن قادرا على تحمل أعباء نجاحه . فلما كان ابنا غير شرعي لتوماس تشابمان فإنه لم يستطع التخلي عن الشعور بأنه يحقق طموحات وأوهام طفولية على حساب اناس يموتون وشعوب يستهان بمصائرهم أو مصالحهم . لقد عجز عن التوفيق بين الدورين اللذين كان

يقوم بهما ، أى كعميل للمصالح البريطانية القومية فى الشرق الأوسط .
وكمحرر للعرب من السيطرة الأجنبية ، لأنه أدرك - أو لعله ارتاب - فى
تعارض كل دور مع الدور الآخر . وامتزجت درايتيه المتزايدة بعجزه عن
الوفاء بوعدده للعرب بالألم الناتج عن تصوره المندس لنفسه ، مما خلق
عنده موجة عارمة من التقزز وكراهيته لذاته . وفى ١٨ يوليو ، اهتدى
لورنس الى تصور « ضخامة » المهمة الملقاة على عاتقه ، وتراوت له جميع
الاشياء فى صورة أوهام ، « وكأنه قد تحول الى حالم يقظة ، أو ممثل
على مسرح أجنبى (يرتدى زيا من الأزياء التتكرية ويتكلم لغة غريبة) ،
ويتوقع أن يوجه اليه اللوم ، اذا لم يتحقق كل شيء على خير وجه » .
« فالانجاز اذا تحقق سيصبح احباطا ، ولكن هذا الاحباط لن يكون
بالجسامة الكافية القادرة على ايقاظ الانسان الكامن داخله من سباته » .

وتحقق الانجاز ، وإن لم يحدث ذلك بسهولة ، وعاد الى لندن ،
ثم انتقل منها الى باريس أثناء انعقاد مؤتمر السلام فى فرساي ، وحارب
لورنس من أجل مصالح فيصل والعرب ، وساعد كونه عقيدا يحمل على
صدره النياشين والميداليات ، واشتغاله مترجما ومستشارا للأمير فيصل ،
واسمه (لويل توماس) على تحوله الى شخصية عالمية شهيرة ، قادرة على
التحرك ، وإنما لفترة وجيزة ، فى قمة الأروقة السياسية ، وانصت اليه
جورج لويد وكليمنسو وويلسون ومكتب المستعمرات . وكان واحدا من
المحاربين القدماء الذين شهدوا مؤتمر السلام من داخل أروقتهم . غير أن
ما شاهده لم يرضيه . فلقد شعر بالأسى والاحباط المتفاقم لما حدث عندما
أطيح بالامكانات التى أتاحها النصر لاحداث التغير ، ففى حالة الشرق
الأوسط ، تمت التضحية بقضية العرب تجنبيا للاصطدام بطموحات
الفرنسيين ، فأوكل أمر المملكة السورية التى حارب فيصل فى سبيلها ،
والتي نعهد البريطانيون بتمكينه منها الى فرنسا فى صورة بلد تحت
الانتداب الفرنسى ، وتلاشى حلم لورانس بانشاء ثلاث ممالك عربية ترتبط
برباط حر ببريطانيا العظمى ، وتوارى خلف غبار العهود التى لم تتحقق .
وعبر لورنس عن مشاعره بالخيانة والهزيمة فى تمهيد غريب وجميل لأول
طبعة من طبعات كتابه اعمدة الحكمة السبع (*) التى روى فيها تاريخ
الثورة العربية . وعلى الرغم من امتلاء هذا الكتاب بالاشارات الى الحملات
العربية ، وما بدا فيها من روح ايجابية عند عرض تجربة الحرب ذاتها ،
الا أن الكتاب يقع ضمن الكتب التى اتبعت طريقة السرد التى تميزت بها
المؤلفات النثرية الانجليزية فى أواخر العشرينيات وبواكير الثلاثينيات :

يفتح البراءة المثبوتة بالشغور ببيانة الجيل الأقدم والتعرض للهزيمة على يديه :

• لقد كان كل منا مولعا بالآخر ، وجصعت بيننا ذكريات الزحف في الأماكن المفتوحة ، وتذوق الرياح العاتية وضياء الشمس والآمال التي كانت تدفعنا للعمل • وبدا الوقت كأنه نهار ، تنعشه نسائم العالم الذي نشتهي • لقد عشنا جملة أعمار في هذه المعارك الدوارة ، دون أن ندخر وسعا للبحث عما هو خير وما هو شر • ولكن بعد أن أنجزنا مهمتنا وأشرق فجر العالم الجديد ، خرج المواجهين مرة أخرى من جحورهم ، وسلبونا نصرنا ، وأعادوا تشكيله على غرار العالم القديم الذي عرفوه • أجل ! إن بمقدور الشباب أن ينتصر ، ولكنه لم يتعلم كيف يحافظ على النصر ، وشعر بالضعف الى درجة تثير الشفقة في مواجهة الطاعنين في السن • ولقد تأتانا وتلجلجنا عندما قلنا اننا عملنا في سبيل تحقيق مثل جديدة وإنشاء بلد جديد ، وتلقينا شكرا عطوفا ، وتبعته عملية السلام • وعندما سنكون في نفس سنهم ، لا أظننا سنسلك نحو أبنائنا نفس المسلك •

وسعى لورنس لتحقيق السلام لنفسه ، فهرب من بريق الشهرة التي حصل عليها • غير أن صيته قد طارده وتعبه بلا هوادة كظله ، وعاد لفترة وجيزة للاشتغال بالسياسة (١٩٢١ - ١٩٢٢) بناء على طلب تشرشل عندما انهارت تسوية الشرق الأوسط التي وضعت في فرساي ، وساعد في اجلاس فيصل على عرش العراق ، وتخصيص مملكة شرق الأردن لعبد الله (شقيق فيصل) ، ثم انتهز أول فرصة للانسحاب من الحياة العامة • وما أدهش أصدقاء وأذلهم ، وكانوا آنثذ يمثلون حيرة العقول الرائدة والشخصيات السياسية التي تزعمت انجلترا ، أن يتخلى لورنس عن زمالته في إحدى كليات اكسفورد ، ويغير اسمه الى روس ، وينضم الى سلاح الجو البريطاني كمتطوع بسيط ، ولم يكن هذا الاجراء منافيا للعقل ، كما بدا لأصدقائه حين ذاك • اذ كان لورنس يعشق الآلات والعربات السريعة ، وشعر شعورا قويا • بأن غزو الفضاء هو أعظم مهمة يتعين على أبناء جيلنا النهوض بها ، فلقد مل قيادة الآخرين ، ولما كانوا قد نسبوا اليه صفات لم يعتقد أنه يستحقها ، لذا أراد أن يجرب العمل بالقوات الجوية من أول درجات السلم • والأهم أنه كان يتطلع للهروب من نفسه وماضيه الذي تخيله كابوسا يجثم على صدره ، ولعله كان يأمل أن ترد اليه القوات الجوية الاحساس بوجود هدف لحياته ، وتعيد اليه الشعور بالزمالة الحميمة والانضباط الذي افتقده منذ ترك الجيش •

وفي ذات الوقت ، أكمل لورنس كتابه عن تاريخ الثورة العربية ، وكان يأمل أن يكون من آيات العصر ، وفق نفس مكانة نفائس التراث العالمي ككتاب الاخوة كارامازوف لبوستويفسكي وزرادشت لنييتشه وموبى ديك لميلفل ، كلاسيكياته الاثيرة . واعتقد أن مستقبله يدعو الى احتراف الكتابة ، وشرع يتعلم هذه الحرفة ويتقنها اتقاناً تاماً حسب ظنه مرة أخرى ، وعلى الرغم من شدة إعجاب أصدقائه من الكتاب ، وإغداقهم المديح عليه عندما قرأوا كتاباته ، فإن كتاب أعمدة الحكمة السبعة قد جانبه التوفيق ، وأدرك لورنس ذلك ، إذ اتسم الكتاب بطابعه الشخصي واقتصراره على مشاعر الكاتب وتجاربه . بحيث لا يصح النظر اليه كبيان عن الحرب ضد الأتراك . وفي الوقت نفسه ، فإنه أخفى الكثير ، واتسم بطابعه الغيبي بحيث لا يجوز وصفه بالصورة الصادقة للرجل الذي قاد الثورة العربية ، فلا هو تاريخ ، ولا هو رواية أدبية ، ولكنه خليط عجيب من الشيثين ، أغفلت فيه جميع الروابط التي كان لابد من وجودها لفهم القصة ، ونزع لورنس بالذات الى الاحساس بما أصاب رؤياه للحرب من مسخ من تأثير حالة الاحباط التي كانت تلازمه عندما ألف هذا الكتاب ، وأخبر فردريك ماينينج أنه لو أقدم على تأليف الكتاب فيما بعد لما كان من المستبعد أن يجيء أكثر اشراقاً وأكثر موضوعية .

ودفع عدم رضا لورنس عن كتبه التي ألفها عن الحرب الى النزوع الى النظر بعين الارتياب الى كتابات الحرب التي ألفها معاصروه . ففي ١٩٢٩ ، عندما بدأت حركة انتعاش كتب الحرب في الانحسار ، وتحولت حالة الاشفاق عند من ظلوا على قيد الحياة بعد الحرب الى اتجاه يحظى بالتقدير ويحقق الكسب ، حذر لورنس أصدقاءه من اللقاء المسئولية على الحرب . ولاحظ كيف ظهرت الحرب بمظهر مريع عندما تحولت الى ذكرى ماضية ، أكثر مما بدت لهم عندما خاضوا غمارها ، واعتقد أن ما طرأ على من بقوا أحياء بعد الحرب من تغير وتحول هو الذي أغشى رؤيتهم ، وعندما ظهرت الترجمة الانجليزية لكتاب « كل شيء هادئ في الميدان الغربي » في انجلترا ، شجبه لورنس ووصفه بالعمل المنبعث من حالة تشويق حالم لحياة ما بعد الحرب ، انعكس على الحرب ذاتها ، وبأنه « صرخة انسان ضعيف » وشكا الى هنري ولیمسون بأن أسوأ صفة يتصف بها جيل الحرب عندما ينظرون داخل أنفسهم هي العجز عن الحفاظ على الروح المزدهرة في داخلهم ، وكرر المرة تلو الأخرى « وجوب تجاوز الحرب باعتبارها فترة مضيئة فقدنا فيها مواطن أقدامنا المعتادة » . والظاهر أن لورنس كان يخشى أن تغدو أسطورة الجيل الفاقد مبرراً للتقاعس والاستغراق في الذات عند كثيرين من أمثاله ممن حاربوا ، وحققوا امتيازاً في الحرب . وقال على سبيل الاعتراض : ليس صحيحاً ما يقال بأنه لم يبق بين

الناجين من الحرب أى فطاحل أو جهابذة • فكم كنا جيلا وحشيا محبطين ، نحن أبناء فترة الحرب • لقد قالوا أن أفضل الأشخاص قد قضوا نحبتهم • غير أنه ما زال هناك كثير من المؤهوبين على قيد الحياة •

لقد أصبحنا الآن أقدر على الابتعاد عن الأسطورة على نحو لم يتسن للورنس تحقيقه ، وغدونا أقدر على التفرقة بين الحقيقة ، والوهم • وتماثل الأسطورة الانجليزية عن الجيل الفاقد هى ومعظم الأساطير فى وجود تناظر بينها وبين الواقع ، فبالاستطاعة ردها الى الخسائر المريعة التى لحقت بنخبة صغيرة من الطبقة العليا ، ذات الملامح المحددة ، وردها أيضا الى الصعوبات التى عاناها أبناء هذه الطبقة (وآخرون ينتمون الى طبقة أدنى) للتوافق مع الحقائق السياسية والاجتماعية فى انجلترا بعد الحرب • نعم لقد عانت عائلات من مختلف شرائح المجتمع ، ولكن الأباكر فى الصفوة السياسية والثقافية الحاكمة ماتوا بأعداد لا تتناسب وضالة عددهم ، ونشرت أخبار فقدهم على نحو غير متناسب مع الحدث ، كما يظهر لنا الآن ، ان فهم هذا المعنى على وجهه الصحيح ، لقد عنى مصطلح الجيل المفقود فى انجلترا الصفوة المفقودة • وعنى مصطلح الصفوة المفقودة ، الإبادة ، والدمار الجزئى ، وانقلاب الأوضاع ، سيكلوجيا ، بالنسبة لخريجى المدارس الارستقراطية والجامعات الذين حكموا انجلترا خلال نصف القرن الماضى • واذا قرأنا مؤلفات الجيل الفاقد قلما نذكر أنه من بين سبعمئة ألف من المقاتلين الذين ماتوا خلال الحرب ، لم يكن بينهم أكثر من ٣٧٤٥٢ من الضباط ، وان كان هذا العدد الأخير ، وليس الوحدات التى تولوا قيادتها ، هو الذى خلق هذه الأسطورة •

ومن المؤكد أن كثيرين من أبناء الصفوة قد غابوا عن ساحة ما بعد الحرب • بيد أنه حتى اذا استمروا عائشين ، فانهم كانوا سيكتشفون - مثلما فعل سيجفريد ساسون - ان عالمهم قد ولى بعد ان سرعت (بشد الرء) الاتجاهات الراسخة والتى لا تقبل الارتداد اتساع فرصة الصعود للسلطة السياسية وتفاقم بيروقراطية الحكومة والتطلع لمجتمع الرفاهية ، وبزوغ أنظمة تضم رجال أعمال وعمالة تتحدى حكم أولاد النوات والأعيان الاقطاعيين ، وسيشاهدون انحلال الامبراطورية ، فلا عجب اذن اذا شعروا • بسقوطهم فى الفجوة التى تفصل بين الحربين •

من هذا يتضح أن ما افتقدته انجلترا أثناء الحقبة الفاصلة بين الحربين لم يكونوا أصحاب القدرات والمواهب ممن سقطوا فى ساحة الوعى • ان ما فقد كان الظروف الضرورية لتحقيق أحلام « الأباكر » بين من خرجوا سالين من الحرب ، وأيضا أحلام اليقظة بالاستمتاع بالسلطة

والهيلمان التي نشأ في ظلها أبناء المحظوظين من جيل ١٩١٤ . وكان من الضروري التخلي عن هذه الأحلام كما أدرك لورنس فيما بعد ، وأن تحل محلها أحلام أخرى أنسب للتواءم والحالة التي ألفى الانجليز والأوربيون والآخرون أنفسهم يحيون في ظلها الآن . وكانت هذه المهمة ملحة وباعثة على الكدر ، وعجز السواد الأعظم من أبناء هذا الجيل عن الاضطلاع بهذا الدور أو عزفوا عن القيام به ، مثلما فعل لورنس عندما تخلى عن أوهام السلطة ، وانضم إلى القوة الجوية الملكية كطيار بسيط . لقد أنحى الجيل الانجليزي ١٩١٤ باللائمة على الحرب واعتبروها مستولة عن فقدانهم لعالمهم . ولكن الحقيقة هي أن جزيرة ايثاكا - التي حدثنا عنها هوميروس في الياذته - قد بدأت ملامحها تتغير قبل أن يبحر الجيش إلى طروادة بفترة طويلة .

المراجع

1. Bergonzi, Heroes Twilight : A Study of the Literature of the Great War (1980)
2. Field, Three French Writers and the Great War : Studies in the Rise of Communism and Fascism 1975.
3. Fussel, The Great War and Modern Memory 1975.
- H. Klein, ed. The First World War in Fiction : A Collection of Critical Essays 1976.
- A. Marwick, The Deluge : British Society and the First World War 1965.
- R. N. Strombery, Redemption by War : The Intellectuals and 1914. (1982).
- A. J. P. Taylor, English History 1914-1945. (1982).
- M. P. A. Travers, German Novels on the First World War and Their Ideological Implications 1916-1933. (1976).

ثامناً

المواجهة السلطوية والدبلوماسية فى منتصف القرن العشرين

ظهرت أوضاع سياسية ودبلوماسية جديدة من تأثير وحشية معاهدة السلام بباريس ، وتفكك المجتمع فى أعقاب الحرب ، وانتصار البلاشفة فى الثورة الروسية .

فى ألمانيا ، اضطرت جمهورية فيمار الحديثة الانشاء الى التصدى للتدابير التى وردت فى معاهدة فرساي ، والتى ألزمتها بدفع التعويضات للدول المنتصرة فى الحرب . غير أن « سالى ماركس » ترى أن التعويضات التى احتدم الجدل حولها ربما كانت أقل إثارة للتصدع الاقتصادى ، مما اعتاد السياسة ومعظم المؤرخين الزعم منذ ذلك الحين ، وتلاحظ « ماركس » أيضاً كيف اعترضت حكومة فيمار على التقديرات التى طولبت بدفعها .

وبالرغم من كل هذا ، فقد ظلت التعويضات فى نظر كثير من الألمان خلال عشرينات القرن تبدو كرمز للهزيمة . وساعدت الحالة العقلية والتمزق الاجتماعى المترتب على الحرب ، والتضخم فى مشارف العشرينات على ظهور الأحزاب السياسية المتطرفة . ويصف ريتشارد هاريس كيف جند أوائل أعضاء الحزب النازى ، وكيف تحووا من جنود ألمان مهزومين ومتعطلين عن العمل فى أغلب الأحيان الى أعضاء حزب مخلصين وغيورين .

وأثناء كفاح جمهورية فيمار لتحقيق الاستقرار الداخلى والاحترام فى الخارج ، شرعت الحكومة البلشفية الثورية فى إعادة تنظيم روسيا

وتحويلها الى اتحاد سوفيتى . وأثناء عزلة روسيا عن باقى العالم ابان العشرينات ، شب صراع طويل على السلطة والسياسة داخل الحزب الشيوعى الحاكم . ويحلل روبرت تاكر كيف وطد ستالين أقدامه كحاكم أوجد للدولة وللحزب الشيوعى السوفيتى فى وجه منافسة حزبية داخلية ضارية .

وساعد استيلاء النازى على السلطة ١٩٣٣ على حث الألمان على بذل الجهد لمراجعة تسوية السلام ، وقوبل استهزاء الألمان بمعاهدة فرساي والتعديلات الأخرى بسياسة مهادنة بلغت ذروتها فى أكتوبر ١٩٣٨ ، بعد توقيع ميثاق ميونخ . ويبحث رونالد سمبلر الأهداف السياسية الألمانية من وجهة نظر زعامة الحزب النازى كمحاولة لفهم هل كانت هناك فرصة لنجاح سياسة المهادنة . ثم يفحص بعد ذلك وليمسون موراي الموارد العسكرية لقوى ١٩٣٨ ويتساءل هل كان الأصوب الدخول فى حرب مع ألمانيا ١٩٣٨ بدلا من ١٩٣٩ .

وانتهت الحرب العالمية الثانية السيادة الأوروبية على العالم . فبعد ١٩٤٥ ، انحصرت القارة الأوروبية بين قوتين عظميتين ضخمتين تتمتعان بأقوى نفوذ : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وفى ١٩٤٩ ونتيجة لامتداد النفوذ السوفيتى بعد الحرب فى شرق أوروبا وفرض الحصار على برلين ، أنشأت الولايات المتحدة وبلدان أوروبا الغربية منظمة الناتو التى تضم دول شمال الأطلسى ، والتى تعد بمثابة العمود الفقارى للتحالف الدبلوماسى بين الولايات المتحدة وأوروبا . ويبحث ميكائيل ماندلباوم كيف تأسس التحالف ، وحظه فى البقاء فى العصر النووى .

خزافة التعويضات

سالى ماركس

تركزت تسوية باريس للسلام ١٩١٩ علدا من المخلقات التى لازمت العلاقات الدولية ابان السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين . وضمت هذه المسائل مصير الدول التى نشأت حديثا فى اوربا الشرقية ، وعصبة الامم المشكوك فى امرها ، ورسالتها ، والتى انتهى بها المطاف الى ان اصبحت بلا حول ولا قوة ، واخفاق الولايات المتحدة فى التصديق على معاهدة الانضمام للعصبة ، بيد ان اكثر المشكلات اثارة للمتاب ، والتى زادت من حدة تعقيد العلاقات السياسية والدبلوماسية ، واشعلت فتيل القلاقل السياسية الداخلية فى المانيا ، كانت فرض التعويضات على المانيا ، والزعم بمسئوليتها عن الحرب التى ارتبطت بها .

والتعويضات عبارة عن صكوك مدفوعات تتيح للقوى المنتصرة حق الحصول من المانيا على مواد مثل الخشب والفحم وبعض الممتلكات التى تملكها الدولة الالمانية ، وفقا لما نصت عليه معاهدة فرساي من حيث المبدأ ووفقا للبيانات التى طرحها المفاوضون المبعوثون من قبل الحلفاء ، وانقسم الراى بدرجة ملحوظة بين القوى المتحالفة ، لاسيما بين فرنسا وبريطانيا حول قدرة المانيا على الدفع والوسائل المناسبة للاتباع للارغام على ذلك ، واحتدم الخلاف بوجه خاص ١٩٢٣ عندما غزت فرنسا حوض الروهر عندما ثارت مشكلة حول دفع التعويضات الاخيرة . وقرر الزعماء الالمان من شتى الاتجاهات السياسية الاعتراض على هذه الخطوة ، والامتناع عن تقديم الصكوك المطلوبة . ولجأوا الى جملة سبل لتحقيق ذلك ، كان من بينها تخفيض قيمة المارك بعد غزو الفرنسيين للروهر ، واجراء سلسلة من المباحثات كخطة دوز (*) (١٩٢٤) وخطة يونج ١٩٢٤ ، وعلى

نالا عن The Myths of Reparation تأليف Sally Marks طبع

Central European History Vol. 11.

Dawes.

(★)

الرغم من التعاطف التقليدي مع الألمان واعتبارهم ضحية عاجزة نسبيا لجشع الحلفاء ، فإن هذه التكتيكات نجحت بدرجة كبيرة ، ودفع الألمان نسبة صغيرة من المبلغ الكبير المطلوب سدادته . والواقع أن مقاومة الألمان للتعويضات قد وفرت عليهم الكثير وحرمت الحلفاء من الأموال التي كانت ستدفعها ألمانيا ، وتدفع كمعاشات للمحاربين من الحلفاء .

وكانت مشكلة التعويضات في صميمها سياسية أكثر من كونها اقتصادية . إذ كانت فرنسا تتوقع أن يساعد دفع التعويضات على إعادة توكيد هزيمة ألمانيا ١٩١٨ ، وكان اعتراض الألمان على دفع التعويضات مظهرا من جملة المظاهر التي اتبعت لاثباتهم رفض الاعتراف بأن الهزيمة نهائية ، ولتوكيد دورهم في العلاقات الدولية التي أعقبت الحرب ، ولقد تحقق هذا الهدف للسياسة الخارجية في ظل جمهورية فيمار قبل استيلاء النازي على السلطة .

[ملحوظة : على القارئ أن يلاحظ أن معدل تبادل العملة في هذا المقال كان أربعة ماركات مقابل الدولار الواحد ، وأن مصطلح بليون يمثل مصطلحا أمريكانيا قيمته ألف مليون]

بالاستطاعة تقسيم التعويضات بعد الحرب إلى نوعين : تعويضات لا ألمانية ستبقى إلى حد كبير ضمن الموضوعات المجهولة من المؤرخين ، وتعويضات ألمانية أشبه بغابة كثيفة متشابكة الفروع ، لم يغامر سوى قلائل من المفكرين البواسل بالتغلغل فيها والكشف عن أسرارها ، ولا يخفى أن معظم دأوسى تاريخ القرن العشرين قد آثروا السلامة ، وتجنب اقتحام مجال المسائل المالية الجمة المتعقيد ، وترتب على ذلك شيوع عدة إساءات لتصور تاريخ التعويضات الألمانية ، وليست هذه الخلاصة الموجزة موجهة للمنقبين الكادحين الذين يستحق جهدهم كل تقدير ، ولكنها تخص الكثيرين الذين تجنبوا الكد والبحث ، ووثقوا في الخرافات التي تروى عن التعويضات ، وما زالت تزدان بها دراسات تاريخ جمهورية فيمار وتاريخ ما بين الحربين العالميتين .

وتبدأ خرافة التعويضات الألمانية بمعاهدة فرساي ، ولم تتضمن المادة الخاصة « بمجرمي الحرب » ، التي طالما تعرضت للانتقاد (المادة ٢٣١) والتي قصد بها أصلا وضع أساس ثانوى للتعويضات ، أية إشارة إلى مجرمي الحرب ، فهي تخص بالذكر « مسئولية ألمانيا وحلفائها المرتبطين بها عن جميع الخسائر والأضرار التي تعرضت لها حكومات الحلفاء ، ومن أربطوا بهم وبشعوبهم نتيجة للحرب التي فرضت

عليهم من أثر اعتداء ألمانيا وحلفائها ، ولم تكن مسألة اعتداء ألمانيا على بلجيكا موضع نزاع على الإطلاق ، وتبعاً لنظرية المسؤولية الجماعية ضمن المنتصرون الجملة ذاتها بعد اتباع مبدأ مراعاة عدم تناسي بعض الاختلافات التي تقتضيها الضرورة (*) العبارة نفسها عند توقيعهم للمعاهدتين مع النمسا والمجر ، ولم تفسر أية دولة من هذه الدول العبارة على أنها تعني مجرمي الحرب . وفي السنوات الأخيرة ، أرغى المؤرخون والدعاة الألمان وأزبدوا وأفاضوا الكلام عن « مجرمي الحرب من طرف واحد » ، وأقنعوا الكثيرين ممن لم يقرأوا المعاهدات بما في هذه العبارة من تعسف .

وبينما طرحت المادة ٢٣١ احتمالات نظرية لا حدود لها ، رأينا المادة ٢٣٢ ، تحصر نطاق المسؤولية الألمانية في خسائر المدنيين ، كما تحددت في المحق ، ولقد سكب الكثير من اللاد لايضاح اشتغال الأضرار التي لحقت بالمدنيين على معاشات وأرامل الحرب ومكافآت من اعتمدت أحوالهم على الحرب ، وفي واقع الأمر ، ولما كان مشروع التعويضات قد كتب ١٩٢١ على أساس تقدير الحلفاء لقدرة ألمانيا على الدفع ، وليس على أساس مطالب الحلفاء ، لذا لم تتعرض هذه البنود لدى استعداد ألمانيا للدفع ، وإنما اقتصر على تعديل ما يوزع مما يقسم من تعويضات ، وبعبارة أخرى ، لقد زادت إضافة المعاشات والأعقاب إلى التعويضات من نصيب بريطانيا في الغنيمة ، ولكنها لم تضخم الغنيمة ذاتها ، وكانت أعظم آثار تضخم ما يطالب به الانجليز هي الزيادة الهائلة في مصاعب الاتفاق بين الحلفاء على إجراءات تسوية التعويضات ، وارتفاع أصوات السخط عند الألمان ، بعد ما قيل عن استعدادهم لدفع هذه المبالغ الطائلة ، (وكانت هذه الدعوة من قبيل التضليل) مما أثار رد فعل ناقد عند الرأي العام الألماني . وفي هذه المسألة ، كما هو الحال في الكثير من جوانب التعويضات ثمة تفاوت بين الظاهر والواقع ، مما ساعد على شيوع كثير من خرافات التعويضات .

ولقد ثار كثير من الجدل أيضاً لأن المعاهدة لم تحدد مقدار المبلغ الكلي الذي تستطيع ألمانيا دفعه كتعويضات . وعندما ثارت بعض الشكوك عند الألمان والدول المنتصرة حول هذه المسألة المالية ، نجحت ألمانيا في شن حملة دعائية مؤثرة عن مدى ما حل بها من ظلم ، بعد ارغامها على « توقيع شيك على بياض » . وكان التأخر - في الحق - لصالح ألمانيا ، وأدت المغالاة في مطالبات شعوب البلدان المنتصرة إلى بلوغ مجموع التعويضات التي توقشت في مؤتمر السلام رقماً فلكياً يتجاوز ستة عشر ضعف المبلغ الذي أدرج في نهاية المطاف ، وكان الخبيران البريطانيان :

. Mutatis Mutandis.

(*)

اللورد سامتر وكاتليف بعيدين عن الواقع حتى أطلق عليهما اسم « التوأمين السابحين في ملكوت » . وبمرور الوقت ، انخفضت أرقام التقديرات تباعا ، واقتربت (١٩٢١) من الواقعية الى حد ما .

وأخيرا حددت معاهدة فرساي فترة زمنية تنتهي يوم أول مايو ١٩٤١ ، تدفع ألمانيا قبلها مبلغ عشرين بليوناً من الماركات الذهبية ، الى أن يتسنى للجنة التعويضات حصر المجموع الكلي للدين ، والواقع أن جملة ما دفعته ألمانيا خلال تاريخ التعويضات بأسره لم يتجاوز عشرين بليوناً من الماركات ، ولم تدفع خلال الفترة المحددة سوى ثمانية بليون ماركاً على سبيل الائتمان نظير صكوك أملاك حكومية ، ومن الناحية الفنية ، لم ينظر الى أى شئ منها على أنه ضمن التعويضات ، بعد أن التهمت المصاريف الأولية التهاماً كاملاً ، وعلى الأخص نفقات الاحتلال وتكاليف إعاشة الألمان الأسرى ، بيد أنه بمرور الزمان ، تزايد الاعتراف ضمناً - بالبلايين الثمانية كتعويضات .

وتقرر أن تدفع التعويضات على جملة أقساط ، فكانت هناك مبالغ تدفع نقداً من حين لآخر ، وأخرى تدفع « عينياً » عن طريق مواصلة شحن بعض السلع ، وعُتبت عبارة « الدفع العيني » عند الألمان تسليم سلع مثل الفحم والخشب والأصباغ الكيماوية والعقاقير الطبية ، وفسرت عبارة أن تكون قيمة الشحن بالذهب على أنها تعنى الدفع بضمان فاتورة التعويضات الكلية المطلوبة من ألمانيا ، وباستثناء حالتين هما التعويضات الائتمانية التي تضمنت ممتلكات الدولة في المناطق التي استولى عليها المنتصرون مثل مناجم الفحم بأقليم السار وسكك حديد ألمانيا في الأقاليم التي تم اقتطاعها من ألمانيا وضمت لبولاندة ، وباستثناء حالة الالتزام واللورين ، فإن البلدان التي كانت تتبع ألمانيا قد نظر إليها على أنها جزء من ألمانيا الامبريالية ، وحملت نفقات الدين ، كما كان الحال في أول أغسطس ١٩١٤ ، وأخيراً تضمنت التعويضات بعض مطالب لا يتم الوفاء بها غير مرة واحدة . فلم تصرف تعويضات ائتمانية عن عودة نفائس الفن ، واكتفى بطلب ترميم مكتبة لوفان (*) المنهارة ورثى بالمثل خصم امدادات الدواجن والأدوات الزراعية وآلات المصانع ومواد البناء التي طلب تسليمها على سبيل التعويض عن عمليات الإزالة الشاملة أثناء الانسحاب الألماني ، من حساب التعويضات .

وتماثلت « فواتير » التعويضات في معاهدتي النمسا والمجر في الخطوط العريضة هي وتلك التي فرضت على ألمانيا ، فلم يذكر أيضا مجموعها الكلي ، واحتسبت تكاليف تنفيذ معاهدتي السلام كمصاريف أولية ومقابل للمدفوعات ولا تضاف لحسابات التعويضات ، ومع هذا فقد رثى منع ائتمانات للدفع الفوري ، والتسليم العيني ، ونقل ملكيات الدولة ، بينما تقرر أن تتكبد الدول التي حلت محل الدول التي انتهى أمرها بعد الحرب ، مسئولية دفع حصص جوهرية من الدين المستحق على دولة النمسا والمجر قبل الحرب ، وحددت المعاهدة البلغارية مبلغا محددا سرعان ما روجع وتم تخفيضه ، وفي معاهدة سيفر ، التي لم يصدق عليها ، خفض الدين المستحق على الأتراك تخفيضا حادا بعد مراعاة ضخامة حجم ما خسروه من أراض ، وفي معاهدة لوزان ، استبعد الدين استبعادا تاما ، وبلغت النمسا حدا من الفقر دفعها الى عدم دفع أية تعويضات اكتفاء بالتحويلات المستحقة نظير الممتلكات المنقولة ، بينما لم تدفع المجر الا القليل ، ولما بدا واضحا أن ألمانيا هي الدولة المهزومة الوحيدة القادرة على الدفع ، لذا تركزت الحركة على ارغام الدنيا على دفع التعويضات .

واحتدم الخلاف حول ائتمانات ممتلكات الدولة المنقولة ، وعمليات الشحن ، وإن كانت المشاحنات لم تتوقف حول مختلف التعويضات الألمانية ، النقدية والعينية على السواء . ورغم حدوث الكثير من الصعوبات في شحن مواد الصبغة ، إلا أن معظم المشكلات لم تكن من صنع الألمان ، وفي هذا المقام ، ينبغي أن يصحح الاعتقاد الشائع في هذا الشأن . فالحقيقة هي أن الولايات المتحدة كانت تطالب ألمانيا بما يقدر بـ ١٠ بليون ونصف دولار أو قرابة ستة بلايين مارك ذهبي ، وأنها كانت تتلقى شحنات منتظمة من مواد الصبغة حتى وقت متأخر ، يعني حتى ١٩٢٢ ، ثم تخلت عن حقها في الحصول على تعويضات عينية من مواد الصبغة . وإذا جمعنا المطالب المختلطة الأشخاص بصفته الفردية وتكاليف احتلال الراين وتعويضات الحكومة مبينين أن الولايات المتحدة قد تلقت في نهاية الأمر ماينوف عن ريعانة مليون مارك ذهبي .

على أن مواد الصبغة كانت مشكلة جانبية ، كما كانت مسألة التعويضات بالنسبة للولايات المتحدة مسألة هامشية ، وتركز الانتباه على الدفع نقدا ، وعن طريق أصناف كالقمح والخشب ، بينما كانت هذه المسألة تلقى أكبر عناية من قوى الحلفاء (فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وبلجيكا) ، وقد تلقت نصيب الأسد من هذه التعويضات ، وكانت مصاريف شحن القمح أقل من الحصص المقررة من البسداية على وجه

التقريب ، والتفق المنتصرون في مؤتمر سبا (*) الذي عقد في يوليو ١٩٢٠ على دفع قسط تأمين يقدر بخمسة ماركات عن كل طن فحم ، وذكر في التقرير الرسمي لهذا الاجراء انه لرفع مستوى تغطية عمال المناجم ، وتقديم قروض كبيرة لألمانيا لتيسير عمليات شحن الفحم ، غير أن هذه الحصص لم تنفذ . فقد نوقشت مسألة احتلال الحلفاء لحوض الروهر لأرغام ألمانيا على الوفاء بالتزاماتها لأول مرة في مؤتمر لندن (مارس ١٩٢٠) وأعيد بحثها جديدا في مؤتمر سبا ، ثم أثبتت المسألة بعد ذلك مرارا بعد أن تواصلت التجاوزات في المخطط الدائم الذي حل محل مشروع الاتفاقات الوقتية ١٩٢١ .

وبناء على ما طالبت به معاهدة فرساي ، أعلنت لجنة التعويضات في ٢٧ ابريل ١٩٢١ أن جملة المديونية الألمانية تقدر بمبلغ ١٣٢ بليون مارك ذهبي، ويعد هذا الرقم حلا وسطا انتهى اليه البلجيكيون بين المجموع الفرنسي والمجموع الايطالي الأكبر الذي يطالب به الفرنسيون والمجموع الأدنى الذي قلته الانجليز ، ويمثل أدنى قدر يرضى به الرأي العام في الدول المستحقة للتعويضات ، وكانت الضغوط البريطانية من أجل تخفيض المجموع الكلي للديون ، وتخفيض التعويضات الألمانية مستمدة من افتراض ارتكان استعادة الاقتصاد البريطاني انتعاشه على الرجوع السريع لأنماط التجارة التي كانت متبعة قبل الحرب ، والتي كانت تحتاج بدورها الى إعادة احياء فورية للاقتصاد الألماني . ولما كان الزعماء البريطانيون قد افترضوا أن أية مدفوعات ألمانية كبيرة لدفع التعويضات قد تاحق خسارة بالمنتجين البريطانيين ، لذا عارضوا أي ارغام على الوفاء بالتطلبات الأساسية للتعويضات من ألمانيا .

ولقد ركز المؤرخون على الرقم ١٣٢ بليون دون لحص لطبيعة القدرة على الوفاء بتسديده . فلقد استودعت قائمة لندن للمدفوعات في ٥ مايو ١٩٢١ هذا المبلغ ، وقامت في ذات الوقت بإلغاء وجوده ، وقدرت المديونية الكاملة لجميع القوى المركزية مجتمعة - وليس ألمانيا وحدها - بمقدار ١٣٢ بليون مارك ذهبي تحت العجز والزيادة ، وصنف القرض الألماني في ثلاث مجموعات من السندات « أ » و « ب » و « ج » . ومن بين هذه السندات ، كانت السندات « ج » التي ضمت الجزء الأكبر من الصكوك مصنعة على نحو وهمي ، إذ كانت بعيدة تماما عن الواقع ، ومهمتها الأولى هي تضليل الرأي العام في البلدان التي ستؤول إليها وإيهامها بأن الرقم ١٣٢ بليون متوافر عند الألمان . وكان خبراء الحلفاء

يعرفون أن ألمانيا ليس بمقدورها دفع ١٢٢ بليوناً من الماركات ،
وان ما يستطيع باقى قوى وسط أوروبا دفعه لا يتجاوز مبلغاً اقل من ذلك
بكثير ، وهكذا مثلت السندات أ ، ب ، ج - التى كانت صحيحة - تقدير
الحلفاء الفعلى لما يوسع ألمانيا دفعه . فكانت السندات « أ » - التى تقدر
بمبلغ اثنى عشر بليوناً من الماركات الذهبية تمثل الرصيد المؤقت المقدر
بعشرين بليوناً ، بينما تقدر السندات « ب » - بثمانية وثلاثين بليوناً ،
وهكذا مثلت السندات « أ » و « ب » جملة تعويضات المديونية الألمانية
التى كان على ألمانيا مواجهتها (القيمة الاسمية) بخمسين بليوناً من
الماركات الذهبية ، أو ١٢٥ بليون دولار ، وهو مقدار أصغر من المقدار
الذى عرضت ألمانيا دفعه . وتضمن جدول لندن أيضاً اختلافات الدفع
فى حالة استرجاع السندات أ و ب بعد سداد قيمتها ، وتتضمن جدولتين
بالحدود القصوى السنوية للحدود الثابتة والحدود المتغيرة .

وفى صيف ١٩٢١ ، واجهت ألمانيا أول عملية دفع فوري لمبلغ بليون
مارك ذهبى كاملاً ، ولقد نفذت هذه العملية ، لأن تقاضى رسوم الجمارك
كان تحت امرة الحلفاء . كما كانت المنطقة المحيطة بمدينة دوسلدورف
محتلة من قبلهم أيضاً . واتخذت هذه الاجراءات فى مارس ١٩٢١ ،
أولاً كمحاولة لحمل الألمان على دفع مبلغ مقبول ، واستمرت لارغام الألمان
على قبول « جدول » المدفوعات الذى وضعته لندن . وبعد الدفع النقدي
الصوري ١٩٢١ ، أمسك الحلفاء عن تقاضى الرسوم الجمركية ، ولكنهم
طالبوا دوسلدورف بها ، ثم دفعت ألمانيا بعد ذلك جزءاً صغيراً جداً من
المديونية المستحقة الدفع فى نوفمبر ١٩٢١ ، ومقادير صغيرة من الأقساط
السنوية المستحقة فى أوائل ١٩٢٢ ، ولكنها لم تدفع أى شيء نقداً بعد
ذلك حتى بدأت خطة « دوز » ، فى وقت متأخر ١٩٢٤ . وخلال ١٩٢٢ ،
استمر الدفع العيني ، وان لم يكن كاملاً البتة ، بينما أجريت شتى الحيل
لاصدار سندات كبديل للدفع النقدي ، ومع هذا فقد تحدد موعد انهاء
هذه الاجراءات الخاصة بالسداد الوقتى بنهاية ١٩٢٢ ، ورئى بعدها
اما أن تفرض خطة جديدة للتعويضات أو تضطر لندن بموجب ما جاء فى
جدولها الى فرض مطالبتها بالقوة .

وفى صيف ١٩٢٢ ، بدا واضحاً استحالة استعادة ما ورد فى جدول
لندن - والذى كان معلقاً بالفعل - غير أنه لم يحدث أى اتفاق على ما يتعين
القيام به . وانخفض حين ذاك سعر العملة الألمانية انخفاضاً حاداً ، وبدأ هذا
التدهور فى سعر العملة أثناء الحرب العالمية الأولى ، واستمر فى خطوات
شاردة ، واقرنت الحدود القصوى للتعويضات بالترنح المذهل لتضخم

المارك ، وأرجع الألمان ما حل بعملتهم الى تأثير التعويضات ، بينما اتفق الخبراء البريطانيون والفرنسيون على اداة المانيا لتعطيلها المارك عمدا تجنباً لاحداث اصلاحات في الموازنة والنقد ، والأهم من ذلك لتجنبها دفع التعويضات ، وأصاب خبراء الاتفاق الودى في هذه الناحية وجه الحقيقة ، أما المؤرخون الذين قبلوا الزعم الالمانى بأن التعويضات كانت سببا لحدوث التضخم ، فقد تناسوا أن التضخم قد سبق التعويضات زمنيا ، وتناسوا بالمثل أن التضخم قد انتشر في الحقبة الواقعة بين صيف ١٩٢١ ونهاية ١٩٢٢ ، عندما كانت ألمانيا قائمة بالفعل بدفع القليل من التعويضات . ولقد أخفقوا أيضا في تفسير لماذا توافقت الفترة التي انخفض فيها التضخم هي فترة دفع أكبر قدر من التعويضات في أواخر عشرينات القرن العشرين ، ولماذا زعم الألمان بعد ١٩٢٠ ، أن هذه التعويضات هي التي أحدثت التضخم ، وليس من شك أن ارتياب البريطانيين والفرنسيين في أواخر ١٩٢٢ كان له ما يبرره ، إذ يبين من الرجوع الى محفوظات مستشارية الرايخ أن زعماء ألمانيا ١٩٢٢ و ١٩٢٣ قد اختاروا تأجيل الاصلاحات الضريبية واجراءات تثبيت العملة ، يحدوهم الأمل في الحصول على تخفيضات جوهرية في التعويضات .

على أن « الاتفاق الودى » على الوقائع ثم يعد باى حلول ، بعد أن استخلص الفرنسيون والانجليز نتائج سياسية متعارضة من نفس التقديرات ، إذ رأى البريطانيون أنه لما كانت ألمانيا قد نجحت في تعطيل عملتها ، لذا يتوجب منحها حق عدم الدفع لمدة أربع سنوات كاملة لجميع المبالغ المدفوعة كتعويضات لتيسير عملية إعادة اصلاح موازنتها المالية ، بينما اعترض الفرنسيون على منح فترة « موراتوريوم » طويلة ، كأنها مكافأة على سوء السير والسلوك ، وأصرت على قيام الحلف بمصادرة كل شيء كالمناجم أو الغابات المملوكة للدولة ، ورسوم الجمارك أو أى شيء من هذا القبيل ، كضمان مدر للدخل يساعد على استئناف الدفع في آخر الأمر . وعارض البريطانيون الاستيلاء على « الضمانات الانتاجية » متذرعين بأن أى ارغام قد يساعد على تعطيل محاولة عودة الألمان لسابق عهدهم . بينما رأى الفرنسيون أن أى موراتوريوم سيبدل منع معناه نهاية التعويضات . وايران الجزء الأخير من ١٩٢٢ ، لم تهتد لجنة التعويضات ولا مؤتمرات الحلفاء الى أى حلول وسط .

وتصاعد التوتر في ديسمبر ١٩٢٢ عندما أعلنت لجنة التعويضات وبعد تأييد ثلاثة أعضاء واعتراض عضو واحد هو (انجلترا) تقصير ألمانيا في توريد الأخشاب ، ولم يحدث أى اختلاف حول ما حدث من تقصير أو إبعاده . وعلى عكس ما تردد في الخرافة التاريخية ، فإن

التقصير في توريد الأخشاب كان عملا جسيما ، حتى وبالرغم من أن حصص الخشب قد روجعت في كثير من الفئات على أدنى العروض المقدمة من الألمان ، ولم يحدث خلاف أيضا حول تفسير أسباب القصور ، الذي دل على وجود سوء نية عند الألمان . غير أن بريطانيا عرضت إعلان التقصير خشية أن يؤدي الإعلان إلى اندلاع الحرب . وكان الاجراء المجهى الوحيد « للاتفاق الودي » احتلال حوض الروهر ، والذي عارضته بريطانيا معارضة شديدة عندما اقترب موعد تنفيذه . وبينما لم يتخذ أى اجراء فعلا لمواجهة القصور في عملية توريد الألمان للأخشاب ، إلا أن اعلانه اثار مظاهرات حماسية حول الاعلان الرسمي عن حدوث قصور في الوفاء بتوريد الفحم في يناير ، بعد أن نفذ صبر فرنسا ، وصمم الزعماء الفرنسيون على اعتبار عملية تكرار التقصير عن توريد الفحم مبررا للارغام على تنفيذ معاهدة فرساي بحذافيرها ، وكانت حصص الفحم تسلم شهريا . ووفت ألمانيا بوعدها في يناير وأكتوبر ١٩٢٠ ، ولكنها فيما عدا ذلك قصرت بانتظام ، فكانت تسلم هذه الحصص بمقادير متفاوتة بالرغم من المراجعات التي أسفرت عن اجراء تخفيضات عديدة في الحصص المقررة ، وبخاصة بعد أن فقت ألمانيا حقول الفحم في شيليزيا . لذا بلغ عدد مرات التقصير في تسليم الفحم في بحر سنة وثلاثين شهرا (في يناير ١٩٢٢) ٣٤ مرة .

وفي يناير ١٩٢٣ ، التقت دول « لاتفاق الودي » في باريس ، وقدمت كل بلد - ماعدا بلجيكا - مخططا ونشرته على الفور ، وبذلك أشعلت حماسة الرأي العام في كل مكان . وجاءت الخطة الألمانية - التي قدمت ميثاقا لأرض الراين حجت به ميثاق لوكارنو - محاولة غير ناجحة لالهاء عن تقصير ألمانيا في دفع التعويضات . وطالب مخططا فرنسا وإيطاليا بتوقيع عقوبات اقتصادية محدودة ، وبإقامة وحدة تستند إلى « الاتفاق الودي » ، بالرغم من أن فرنسا قد أعلنت أنه في غيبة أى اتحاد كامل ، فانها ستتخذ خطوات شديدة . واستبعد الانجليز المخططين جانبا ، وأصروا على اعتبار مشروعهم الأساسي المشروع الأوحسد الذي يصلح قاعدة للتباحث . وقبيل رئيس الوزراء البريطاني الحديده أندرو بونارلو الذي كان مرعضا وعديم الخبرة بالعقوبات وغارقا لأذنه في السياسة الداخلية والأزمة التركية ، قبل خطة جون براد برى المفوض البريطاني في لجنة التعويضات . وكان هذا المشروع مجرد صورة أخرى من مشروع آخر سبق أن رفضته فرنسا ، ووصفه الألمان بأنه « متعذر التنفيذ » . وكان معقلا للدرجة يتعذر فهمها ، مما دفع كارل برجمان الخبير الألماني إلى التملل والقول بأنه يفضل دمع التعويضات.

على قدح زناد فكره لفهم مشروع براد بيرى . وكان من بين ملامحه غير المستساغة الأخرى امكان قضاء المشروع البريطاني على جميع المنافع التي ستجنيها بلجيكا من التعويضات ، بعد أن منح ألمانيا حق الامتناع عن الدفع نقدا وعينيا لمدة أربع سنوات (أى ضعف ما طلبته في ديسمبر) دون الاستناد الى أية ضمانات انتاجية ، ومطالبته بالالغاء الصريح للسندات « ج » (وهو اجراء صعب التنفيذ من الناحية السياسية) ، وانقاص عدد أفراد هيئة التعويضات ، واعادة تشكيلها لانتهاء غلبة الفرنسيين فيها ، ومنح الانجليز حق املاء سياسة اتذاق الجنتلمان في التعويضات غير الألمانية . ولما كانت هذه الخطوة قد عنت في نهاية الامر تصفية التعويضات ، لذا لم يكن بمقدور سياسة أوربا قبولها ، واستمرار بقائهم في مناصبهم ، ولم يقرها أحد ، وفشل المؤتمر .

وفي ٩ يناير ١٩٢٣ ، أعلنت بعثة التعويضات حدوث تقصير في تسليم الفحم (وكانت نتيجة التصويت ٣ : ١) وصممت في نفس الاقتراح على احتلال حوض الروهر . وفي ١١ يناير ، دخل الفرنسيون والبلجيكي والايطاليون حوض الروهر للحصول على الفحم مصحوبين ببعض قوات الطوارئ من الفرنسيين والانجليز ، ووقفت انجلترا موقف المتفرج ، ورفضت الاحتلال بوصفه لأخلاقيا وغير مشروع ، ولكنها قدمت بعض التفسيرات المتعارضة هي وهذا الرفض عندها وافقت على استعمال خطوط السكك الحديدية الانجليزية في أرض الراين . وبينما اعتمدت وجهة نظرها على أسس أخلاقية في أغلب الظن ، فان الرأي القانوني الانجليزي قد استند أكثر من ذلك على تفسير بعض الزعماء الانجليز لمعاهدة فرساي أكثر من اعتماده على ما قالته بالفعل ، وعلى الرغم من عدم امكان وضع القرارات موضع التنفيذ لاستحالة تحقيق اجماع في الرأي بين وفد التعويضات ، الا أن أية قراءة دقيقة لمعاهدة فرساي تبين شدة اعتماد نظرية الانجليز على أساس مشروع .

ولما كانت المقاومة السلبية الألمانية لاحتلال حوض الروهر قد تصاعدت وتحولت الى عملية حربية رئيسية ، لذا رفضت بريطانيا الانحياز الى أى طرف ، ومن ثم طالت الأزمة وأوغرت صدر الطرفين . وخشى بونارلو (رئيس وزراء بريطانيا) حدوث فجوة في العلاقات مع فرنسا ، ورفض الاعتراف بوصول هذه القوات . ولما كان قد رغب فوق كل شيء آخر عدم وصول الخلاف الى حد انشقاق وتعذر راب الصدع ، لذا لم يتخذ أى قرار لصالح أى طرف من الطرفين . كما أنه فشل في فهم وجهة نظر رئيس الوزراء الفرنسي المسيو ريمون بوانكاريه ، وتحامل بونارلو القرائن التي بينت سعي بوانكاريه لتجنب مثل هذه الخطوة

الشديدة الوطأة . ولم يدرك قط أنه بالاستتراك مع اليمين الفرنسي ، وبخاصة الكسندر ميراند (*) فانه قد أرفع بوانكاريه على دحول حوض الروهر بأن رفض الحلول الأكثر اعتدالا . وبمجرد اتخاذ الخطوة ، ادرك بوانكاريه أن فرنسا قد نعبت آخر ورقة في جعبتها ، وأنه من الواجب أن تربح ، لأن البديل سيكون هزيمة ساحقة ، اذ كانت فرنسا اصعب فطريا من ألمانيا ، كما يبين من اخفاساتها الفعلى ارغام الألمان على تسليم مجرمى الحرب المزعومين والحصول على قبول ألمانيا للعقوبات العسكرية من المعاهدة ، أو الحصول على أى مشاركة فعالة فى عمليات النعمير المكلفة للمناطق المهتمة فى فرنسا . ولو أن ألمانيا لم تدفع التعويضات ، وخففت بعض الأعباء عن فرنسا ، لأدى تفوقها الاقتصاى الكامن ، بالإضافة الى ما حدث من تضعضع متزايد لمعاهدة فرساي الى قلب ميزان القوى رأسا على عقب . وعندما طبق بوانكاريه العقوبات على ألمانيا فى آخر المطاف ، واحتل حوض الروهر ، فانه كان يقوم بمحاولة أخيرة لارغام ألمانيا على الاعتراف بهزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وقبولها معاهدة فرساي ، وكن يدرك تمام الادراك أن المشكلات الأساسية لاتنصب على الفحم والخشب ، ولكنها تخص بالأحرى استمرار سريان المعاهدة وانتصار فرنسا فى الحرب ، ولم يدرك الانجليز البتة انهم يشاهدون امتدادا للحرب العالمية الأولى ، ولما كانوا لم يدركوا المشكلات الأساسية ، ولم يدركوا أيضا حاجة فرنسا الحقيقية للفحم ، والمال ، لذا لم يتمكنوا من تفسير لماذا طار صواب بوانكاريه ، وتجهم ، عندما تخاذلت إيطاليا وبلجيكا .

وأعلن البريطانيون الذين كسبوا معركة الدعاية — كما لا يخفى — أن احتلال حوض الروهر عملية غير مربحة ، ووقعوا فى ضلال عندما قارنوا إيرادات حوض الروهر بجدول لندن للمدفوعات ، وتجاهلوا أن جدول لندن قد ولى عهده ، ولم يعد بالامكان احيائه ثانية ، وأن الاختيار الذى أصبح ميسورا لهم الآن هو بين إيرادات الروهر أو لا شىء ، واله اقم أن احتلال الروهر عملية مربحة ، حققت ربحا متراضعا فى البداية ، ولكنها حققت أرباحا طائلة بعد مقاومة سالبة . فبعد استبعاد المصارف وتكاليف احتلال أرض الراين ، يتضح أن ما حصلت عليه القوى الثلاث المشتركة والولايات المتحدة صافيا من حوض الروهر قد بلغ حوالى تسعمائة مليون ماركا ذهبيا .

(*) Etienne Alexandre Millerand (١٨٥٩ - ١٩٤٢) سياسى

ومصامى فرنسى .

واستفاد آخرون أيضا . فلما كانت الحكومة الألمانية قد مولت المقاومة السلبية من خزانة خاوية ، لذا بلغ المارك حد الخراب ، وكان التضخم الخرافي الذي نجم عن ذلك من نتائج السياسة الألمانية ، ولم يكن نتيجة للاحتلال بالذات ، ويسر التضخم للحكومة الألمانية دفع ديونها الداخلية ، بما في ذلك قروض الحرب ومشروعات الدولة مقابل ماركات لا قيمة لها . وكسب بعض أشخاص معروفون من رجال الصناعة المقربين من مجلس الوزراء الألماني أرباحا طائلة أيضا ، واستفاد الاقتصاد البريطاني المعتل كذلك بدرجة كبيرة من تفسخ الصادرات الألمانية ، وإن كان المسئولون الرسميون البريطانيون لا يعترفون قط بهذه الحقيقة ، حتى بينهم وبين أنفسهم . فلما كانوا مقتنعين بأن بياناتهم الاقتصادية لا تتصل بأية صلة بالحادث الشريفة (يعنى معاهدة فرساي) لذا لم يتوقفوا أبدا عن الدعوة لحل الأزمة .

غير أن دعواتهم قد أصبحت ضرورية بعد أن ألف جوستاف اشتريزمان حكومة جديدة ، وتخلي عن المقاومة السلبية في سبتمبر ١٩٢٣ ، وما لبث أن أنهى التضخم . وبات وضع تخطيط جديد للتعويضات أمرا ضروريا إلى جانب إعادة بناء السياسة المالية الألمانية ، ووضع مشروع لانتزاع حوض الروهر من أيدي فرنسا وبنجيكا ، وما لبثت قوى أخرى أن شاركت لتخفيف وطأة الدمار الذي حل بألمانيا ، وشيئا فشيئا ألغت فرنسا نفسها منعزلة ، وساعد هبوط قيمة الفرنك على زيادة وزن مركزها الدبلوماسي ، وعندما أوضح الرئيس كالفن كوليدج (*) أنه بالمقدور اشتراك الخبراء الأمريكيين بالمساعدة كمواطنين بصفتهم الشخصية لوضع خطة جديدة للتعويضات حتى تيسر المشاركة الأساسية للمصارف الأمريكية ، كان لابد أن يحدث قدر معين من رد الفعل لذلك ، وحاول بوانكاريه تعطيل تنفيذ هذه الفكرة ، وتمكن من اتخاذ الاجراء ، لكنه لم يكن قادرا على الحيلولة دون وقوع ذلك ، وهكذا بدأت لجنة « دوز » العمل في يناير ١٩٢٤ ، ودلت وأثبتت جهودها أنه بينما يصح القول بأن بوانكاريه قد كسب الحرب ، إلا أنه قد خسر السلام .

وعملت خطة دوز في ٩ ابريل في مستويين ، وتدين تفاصيلها التقنية الدقيقة بالكثير للدراسات البلجيكية (**) في ١١ يونيو ١٩٢٣ ، التي أجريت عن المصادر المحتملة لايرادات التعويضات ، بينما تعد التسوية السياسية - أساسا - والتي احتوت على فقرات غامضة متعددة

Calvin Colidge. (★)

Eludes. (★★)

من وضع خبير أمريكي (أوين - د - يونج) . وعلى الرغم من أن لجنة دوز قد بينت أن مشكلة احتلال الروهر خارجة عن نطاق جدول أعمالها ، إلا أنها قد احتوت - ضمنا - على اقتراح بالإنهاء الفوري للاحتلال الاقتصادي ، وتخفيف الاحتلال العسكري ، بحيث يقتصر على قوة رمزية (لانقاذ ماء وجه الفرنسيين) . وطالبت الخطة بإعادة تنظيم كاملة للمالية الألمانية ، على أن تخضع للإشراف الخارجى ، وتقديم قرض كبير لألمانيا ، وتعيين مفوض عام للتعويضات فى برلين للإشراف على التنظيمات الإشرافية المعقدة ، وطالبت الخطة بزيادة الإيرادات حتى تتمكن من دفع التعويضات، مع رهن الصناعة الألمانية وسكك حديد الدولة ، وعودة الحكومة الألمانية للاقتراض من الداخل ، وفرض ضرائب كاسحة لإنهاء الانحراف (وانتهاكات معاهدة فرساي) كما يبين من فرط تدنى معدل الضرائب فى ألمانيا بالمقارنة بما يماثلها فى الدول المنتصرة ، وبينما أثبتت بعض البيانات عكس ذلك ، إلا أن الواقع قد أثبت أن اجماع تكاليف الاحتلال ونفقات البعثة وجميع المصاريف السابقة الأخرى تحت اسم التعويضات الألمانية السنوية قد خفض من المجموع الكلى لهذه التعويضات ، بالرغم من أن حجم التخفيض لم يعد واضحا ، وأن مدة سريان الخطة لم تتحدد ، وطلب من ألمانيا دفع بليون مارك فى السنة الأولى ، من القرض الدولى أساسا ، ويزداد مقدار المبلغ المحصل بعد ثلاث سنوات ، ويدفع مليونان ونصف المليون ماركاً ذهبياً لمدة سنة ، وفيما بعد يطلب من ألمانيا دفع بليونين ونصف البليون ماركاً مضافاً إليها نسبة مئوية تتحدد بالرجوع الى دليل معقد يسترشده منه على مدى وغاء الألمان بعهدهم .

أما مسألة المطالبة بفرض ضريبة مكافئة فى مخطط دوز ، فكانت عملاً سياسياً خداعاً على غرار ما حدث فى سندات « ج » فى جدول لندن ، ولم تفرض معدلات ضريبية مكافئة للمعدلات السارية فى البلدان المنتصرة لأن الخبير البريطانى الرائد سيرجوشيا ستامب قدر احتمال تحقيق مثل هذه المعدلات فائضا يمكن الانتفاع به فى التعويضات مقداره أربعة ملايين مارك ونصف فى السنة ، ورأى أن هذا المقدار يفوق ما بالإمكان تحويله ، وكانت مشكلة التحويل (يعنى الصعوبات المتضمنة فى تحويل موارد حقيقية من بلد لآخر ، أو بمعنى أصح لتحويل الثروة الألمانية الى عملة أجنبية للتعويضات دون حط من قيمة المارك) مشكلة ابتلى بها تاريخ التعويضات ، وساعدت على الحيلولة دون دفعها ، وبوجه عام ، لقد لاذ بالصمت فيما يتعلق بالاستثمار على نطاق واسع لرأس المال الأجنبى فى ألمانيا قبل التفجر الذى حدث اثر احتلال حوض الروهر وبعده ، ممن تشددوا لأسباب سياسية ورأوا ضرورة إقامة العراقيل أمام تحويل

التعويضات . اذ كان هذا الاستثمار يمثل تحويلا لأموال حقيقية فقدما المستثمرون الأجانب بعد أن استفحل التضخم أو الامتناع عن تسديد ديون التعويضات ، وقد تزودت منها ألمانيا بعملية أجنبية لدفع التعويضات ، أما مدفوعات الألمان ذاتها ، فإن صعوبات التحويل التي ظهرت عند دفع البليون الأول (١٩٢١) ، والتي مثلت المدفوعات الأولى التي لها قيمة قبل أن يسرى مفعول مخطط دوز ، فقد كانت مدفوعة الى حد كبير من ألمانيا كمحاولة للتهرب من التعويضات . وفي أواخر عهد التعويضات ، بعد تخفيض المدفوعات ، بناء على ما ورد في خطة يونج ، فإن التحويلات لم تحدث أية مشكلة ، قطبنا لما جاء في خطة دوز ذاتها ، فقد تحققت الحماية ضد الصعوبات المحتملة للتحويلات ، بعد أن تحدد قيام ألمانيا بدفع التعويضات في بنك الرايخ الألماني الجديد ، وتفويض لجنة تحويلات الحلفاء التي يرأسها المفوض العام الأمريكي للتعويضات بتقرير الموعد الذي يستطيع فيه إجراء التحويلات بطريقة آمنة .

وعندما صدرت خطة دوز في إبريل ١٩٢٤ ، أجمعت البلدان المعنية على عدم التحمس لها لأسباب شتى ، وإن كانت كل بلد من هذه البلدان قد قبلتها لعدم عنورها على بديل لها . وبقيت مشكلة مسائل آليات تطبيقها ، وإعادة تكوين لجنة التعويضات ، والترتيبات لاجلاء فرنسا عن حوض الروهر . ولم يبت في هذه المسائل إلا في مؤتمر لندن في يوليو وأغسطس ١٩٢٤ . وبعد القرار الذي اتخذ حين ذاك انتصارا شخصيا للمستتر وامزاي ماكدونالد رئيس الوزراء البريطاني ، الذي يستاهل التقدير لأنه أرضى زملاءه المتبرمين ودفعهم الى قبول حل وسط ، وإن كان افتقار الوزير الأول الفرنسي ادوارد هريو للخبرة هو الذي ساعد على تيسير مهمة ماكدونالد . ومع هذا فقد حدثت ضغوط حاسمة من وراء الستار قام بها ممثلو شركة ب . مورجان التي كان رضاؤها ضروريا لدفع قرض كبير لألمانيا كما نصت خطة دوز ، وفضلا عن ذلك ، فقد واصل الفرنك الفرنسي الهبوط ، واحتاجت فرنسا - بالحاح - الى قروض من المصارف الأمريكية ، كما احتاجت لموافقة مورجان . وهكذا اضطرت فرنسا لقبول المشروع النهائي بالرغم من أن وكلاء شركة مورجان طالبوا ببعض التدابير التي تصعب توقيع أية عقوبات مستقبلا ، في حالة التقصير ، لأن القروض الأمريكية كانت ممتدة ٢٥ سنة ، يقضى النظر عما يحدث في أمر التعويضات . وأرغمت الأزمة المالية والعزلة الدبلوماسية فرنسا على ابتلاع أي شروط غير مستساغة . وكما لاحظ أحد الانجليز المتبصرين : « لقد بدأ مؤتمر لندن لرجل الشارع الفرنسي استعراضا جافلا للتخلي عن النفائس التي كان يعتز بها » ، فقد رأى كيف تخلى

المسيو هريو عن المهتمين التي حققت الغلبة للفرنسيين في لجنة التعويضات ، الواحدة تلو الأخرى ، كحق توقيع العقوبات في حيازة حدوث تقصير من الألمان ، والاحتلال الاقتصادي لحوض الروهر ، وخطوط السكك الحديدية الفرنسية البلجيكية . وأخيرا الاحتلال العسكري لحوض الروهر في بحر سنة واحدة

وبفضل خطة دوز ، تمكنت ألمانيا شرما من مواجهة التزاماتها -يا بالكامل تقريبا . ويرجع الفضل في ذلك الى حد كبير الى سبل الفروض الأجنبية التي تساوت على أقل تقدير هي والمبالغ المالية التي دفعت من قبيل التعويضات ، وكان يحدث في كل سنة تقصير هين يحتمل أن لا يكون متماشيا والقيم الأخلاقية ، ولكنه لم يرتفع الى درجة نشر الاهتزاز . غير أن ألمانيا نظرت دائما الى الخطة على أنها إجراء مؤقت - كما لاحظ الفرنسيون - وكانت تأمل في مراجعتها قبل أن يصبح الدفع ملزما . وبعد أن طالب المفوض العام للتعويضات بمشروع أكثر استمرارية في أواخر ١٩٢٧ ، قدمت ألمانيا انتقادا لهذا المشروع ١٩٢٨ ، أي عندما اقترب موعد دفع القسط المقرر وقدره ملياران ونصف المليار من الماركات، وفضلا عن ذلك، ففي بواكير ١٩٢٨ طالب اشتريزمان صراحة بالاخلاء الفوري غير المشروط لحوض الراين ، ولما أحس زعماء فرنسا - بعد أن أصابتهم الأزمة المالية بلطمة قوية (١٩٢٦) ولشعورهم بأن المساومة على اخلاء حوض الراين قد ضعف أثرها - بعد أن اقترب الموعد المحدد في المعاهدة للانسحاب - قرروا الانتفاع بالمبادرة بانسحاب القوات العسكرية الفرنسية ، وتأمين موقفهم المالي . وهكذا طالب المشروع المقدم لاجتماع جنيف الذي حضرته بعض البلدان لتوقيع ميثاق التفاهم مع الألمان بوضع خطة دائمة للتعويضات النهائية ، وطالب أيضا بالاخلاء المبكر للراين ، وتعيين لجنة لتقصي الحقائق تتولى عمليات التفتيش المستمرة للمنطقة المنزوعة السلاح .

ولما كانت خطة التعويضات هي أعقد عناصر الصفقة ، لذا رثى البدء بالنظر فيها . وبناء على ذلك اقترحت اللجنة التي رأسها أوين يونج اعداد خطة جديدة في ربيع ١٩٢٩ كمحاولة « للتصفية النهائية لآثار الحرب ، وتسوية مسائل ما بعد الحرب » . ونصت الخطة على أن تتولى ألمانيا دفع أقساط سنوية بمقادير متفاوتة ، تقل جميعها من الرقم السابق اقراره في خطة دوز (٢ ١/٢ بليون مارك) لمدة ٥٥ سنة ، وهي المدة المحددة لدين الحلفاء لأمريكا ، وتشتمل هذه الأقساط على جميع المصاريف بما في ذلك خدمات قرض دوز ، وراعت الخطة تحديد مبلغ ٦٦٠ مليون مارك (نحو الثلث بوجه عام من كل قسط

(سنوى) يدفع دون قيد أو شرط ، ويؤجل الباقي فى حالات الضيق الاقتصادى والمالى . وساعدت هذه الوسيلة على سد الفجوة بين توقعات (ميثاق التفاهم) ورؤيا المانيا لما هى قادرة على سداده ، ولم يلتفت لطالبة الفرنسيين بتأمين حصولهم على استحقاقاتهم ، واكتفى بمنحهم خمسة أسداس أقساطهم السنوية غير المشروطة . فضلا عن ذلك ، فقد نجحت المانيا فى تخفيض الأقساط السنوية للسنوات العشر الأولى الى ما هو أقل من بليونى مارك ، اذ كانت تتوقع فى هذه الأثناء ، اما الغاء التعويضات نهائيا ، أو اجراء تخفيض آخر خلال هذه الفترة ، وأخيرا حدثت محاولة للنظر الى مشكلة التعويضات على أساس تجسارى صرف ، بعد أن خفت حدة حماية التحويلات بقدر جوهرى ، وألغيت لجنة التعويضات ، وهيئة الاشراف الخاصة « بدور » الغاء تما ، وحل محالها مصرف التسويات الدولية فى مدينة بازل بسويسرا لتلقى التعويضات وتوزيعها ، بالإضافة الى الاضطلاع بدور وكالة للتعاون بين المصارف المركزية ، وكانت الحاجة ماسة لوجود مثل هذه الهيئة ، ومازال البنك موجودا كتذكارة لثرى لقضية التعويضات ، ويضطلع بثنائى الادوار التى أشرنا اليها .

وانشغل مؤتمر هيج الأول بتطبيق خطة يونج فى أغسطس ١٩٢٩ - الى حد كبير - بنزاع دول « التفاهم » حول توزيع الحصص المتلقاة ، وبالمسائل السياسية المتعلقة بهذه الناحية . وكان ما أغرى اشتريزمان - الذى هدفت غاياته الى « اخلاء حوض الراين دون قيد أو شرط » استنادا الى شرط آخر وهو اجراء تخفيض آخر فى مدفوعات التعويضات - هو تأليف وزارة عمالية جديدة فى انجلترا ، التى نجحت فى مسعاها الحصول على نصيب الأسد من الأقساط السنوية المشروطة ، والتى أعلنت احتمال انسحاب القوات البريطانية من الراين قبل حلول عيد الميلاد ، ولم تظهر الا القليل من الاهتمام بأمن فرنسا . وهكذا اضطرت فرنسا الى التخلي عن بعثة تقصى الحقائق وتقديم موعد انسحابها من حوض الراين ، حتى يتسنى لها كسب التسوية المخفضة للتعويضات التى يفترض أنها دائمة . وعلى الرغم من اتخاذ بعض القرارات الأساسية فى شهر أغسطس ، الا أنه بات من الضرورى عقد مؤتمر ثان بهيج فى يناير ١٩٣٠ لحسم الأمور ، ووضع تسوية شاملة لتعويضات البلدان غير الألمانية . وفى هذه الأثناء ، اشتدت حدة العداء لخطة يونج بالمانيا ، وقد عبر عن ذلك الاستفتاء الذى جرى فى ديسمبر ١٩٣٠ ، والذى استغله أدولف هتلر للفت الانتظار اليه ، وإثارة انتباه الكافة .

وكسب هتلر بفضلته تمويلا قيما من معسكر اليمين . وفيما بعد ، أعلن
٨٥ مليونا من الناخبين معارضتهم لخطة يونج . وعلى الرغم من أن هذا
الاجراء قد أثار التساؤلات حول التوايا الطيبة لألمانيا مستقبلا - والتي
تعد الضمان الوحيد لتنفيذ الخطة - إلا أنه لم يبلغ التصديق الألماني على
الخطة ، التي كانت مصممة بحيث يبدأ تنفيذها في أول سبتمبر ١٩٢٩ ،
ولكن تنفيذها بدأ بأثر رجعي ، فكانت ألمانيا تدفع أقل من نصف ما هو
مستحق عليها تبعا لخطة دوز ، وكوفئت نظير قبولها هذا التخفيض
بإخلاء الراين في ٣٠ يونيو ١٩٣٠ .

وعندما انزلت ألمانيا إلى الأزمة الاقتصادية الحادة التي جاءت في
أعقاب انتخابات سبتمبر ١٩٣٠ ، عكف الزعماء الألمان على الحصول على
الاعفاء من دفع التعويضات ، بالرغم من أن الأزمة المبدئية للائتمانات ذاتها
ترجع أساسا إلى الهروب الدرامي لرأس المال كرد فعل لنجاح هتلر في
الانتخابات ، ولكنها لا ترجع إلى التعويضات . ولما كان الفرنسيون قد
تصدوا لهذا الاجراء بوضع شروط سياسية ، وبخاصة فيما يتعلق باقتراح
إنشاء جمر ك نمسوى ألماني ، لذا انتهى الأمر إلى التعرض لمازق نجح
الرئيس هيربرت هوفر في التغلب عليه عندما اقترح فجأة إعلان
الموراتوريوم لمدة سنة تبدأ بأول يوليو ١٩٣١ على القروض التي تجزى
داخل الحكومة . ويمثل هذا التوقف عن الدفع رد فعل المستثمرين
الأمريكان لمواجهة الموقف المتدهور في ألمانيا ، وقصد به ضمان تأمين
الاستثمارات الخاصة التي كانت معفاة من الموراتوريوم بصفة خاصة .
قصارى القول ، فبالنسبة للبلدان الدائنة ، بما في ذلك أمريكا ،
رئي وضع الاستثمارات الخاصة في صدر الحسابات العامة .

وأدركت فرنسا ، التي كان من المتوقع أن تعاني خسارة فادحة
من جراء تنفيذ المشروع ، أن التعويضات بمجرد وقفها ، فإنها لن تستأنف
وبالإضافة إلى ذلك ، فإنها كانت تأمل الحصول على موراتوريوم (توقف)
سياسي عن مراجعة المعاهدة ، أي وقف إعادة تسليح الأسطول الألماني ،
واقامة الاتحاد الجمركي في مقابل التوقف عن دفع التعويضات ، وكما هو
متوقع ، احتجت فرنسا على اقتراح هوفر ، ولاحظت أن مشكلة ألمانيا هي
الدين ، وليست التعويضات ، وأنه حتى في حالة وجود التعويضات ،
فإن الميزانية الألمانية بمقدورها تحقيق التوازن المنشود بعكس ميزانات
معظم البلدان الأوربية . فمن المؤكد أن باستطاعتها دفع أقساط سنوية
غير مشروطة . وكانت ألمانيا تتوقع بحق دفع مثل هذا المبلغ الكبير . فقد
سلمت وزارة المالية البريطانية بتمتع ألمانيا بهذه القدرة ، ولكنها أصرت

على القول بأن المستثمرين لن يرضوا بما هو أقل من « الموراتوريوم » ، بعد شعورهم بالانزعاج ، ولاتخاذ ماء وجه فرنسا ، وللحفاظ على الخرافة العشوائية عن استمرار الدفع ، أصدرت ألمانيا صكوكا تنص على (مكافئ) دفعها التعويضات لنفسها ، وبذلك أصبح الموراتوريوم سارى المفعول .

وخلال السنة التى أعلن فيها هوفر الموراتوريوم ، تفاقم الكساد العالمى ، ولما اكتشف هوفر أنه من المستحيل سياسيا إعادة تحديد الموراتوريوم فى سنة الانتخابات الأمريكية ، دعت بريطانيا وفرنسا فى وقت متأخر دول اتفاقية التفاهم هى والمانيا للالتقاء فى لوزان فى يونيو ١٩٣٢ لوضع تسوية دائمة ، أما ما قاموا بإنجازه فكان أغرب من الخيال . إذ طلب من ألمانيا مقدارا من المال كمدفوعات تقدر بثلاثة بلايين مارك ذهبى ، بعد التصديق على الاتفاقية ، التى لم يصدق عليها قط ، لأن المستفيدين الرئيسيين الأربعة وقعوا اتفاقا بعدم اجراء ذلك ، الى أن يتم الحصول على قرض الفوت من أمريكا ، وعرف أن هذا المطلب متمدر التحقيق ، وبذلك أصبحت اتفاقية لوزان حبرا على ورق ، وفيما بعد ، طغت الأحداث على مسألة التعويضات ، بعد أن بدا واضحا للجميع عدم جدوى دعوة هتلر لمناقشة مسألة المدفوعات . ولم يتم إلغاء التعويضات رسميا قط ، ولكنها انطوت فى زوايا النسيان ، بعد أن تزايد النظر اليها على أنها مسألة بعيدة عن الواقع .

وبعد معاهدة لوزان ، لاقت التعويضات حتفها ، وان ظلت المشكلات التى صممت لحلها باقية . وجاءت النتيجة النهائية لاختناق الألمان فى دفع التعويضات بمقادير لا بأس بها فى صورة تحول العبء على كاهل المنتصرين لو كان مازال من الضرورى دفع تكاليف إعادة بناء وتعمير المناطق المنكوبة ، ودفع معاشيات للمحاربين القدماء المعوقين وأرامل الحرب . وعهد بهذه المهام الى قروض الحلقات ، وبذلك دفع المنتصرون الثمن فى نهاية الأمر . ولا يخفى أن النتيجة الصافية للحرب العالمية الأولى وتسوية السلام هى الزيادة الفعالة لقوة ألمانيا النسبية فى أوروبا ، وبخاصة بالنسبة لجيرانها المباشرين . وكما لاحظ جرهارت فاينبرج : « لقد أدى تحويل عبء التعويضات من كاهل ألمانيا الى أعدائها الى توكيد هذا التصددع » .

والى جانب تعزيز التفوق الاقتصادى لألمانيا ، فلقد خلق تاريخ التعويضات استنفالا فى المظاهر البيروقراطية تمنى فى تلال من المستندات الخفية والكثير من المرارة والدعاية التى لم تقف عند حد ، خلق خرافات تاريخية فاقت الحد ، وما ينوف عن عشرين بليوننا من

الماركات الذهبية ، أو ما يناهز خمسة بلايين دولارا ، كانت تحول في الأغلب من القروض الأجنبية ، وانتهى الأمر بعدم اعتراف هتلر بالدين منها . وكان من الواضح أن بمقدور ألمانيا - لو أرادت ، أن تدفع قدرا كبيرا ، وبخاصة لأنها لم تستنفد إلا القليل من مواردها الهائلة ، غير أن ألمانيا رأت عدم وجود ما يدعوها للدفع ، واعتبرت مسألة التعويضات من أولها لآخرها إهانة بلا مسوغ . وأما هل كان من الحكمة السعي وراء الحصول على تعويضات من ألمانيا ؟ فمسألة تحتل الخلاف ، وإن كانت عواقب عدم السعي لذلك ربما كانت أَوْخَم عاقبة ، مثلما أثبت الاخفاق في الحصول عليها بمرور الزمان ، وما من شك أنه لم يكن من الحكمة إلحاق الإهانة دون الاستناد إلى إجراء إرغامى صارم . على أنه بعد البحث والتحصيل ، ورغم أن مطالب التعويضات قد قصد بها تحويل الثروة الاقتصادية الحققة من ألمانيا إلى المنتصرين إلى قوى تدميرية تحت إمرة المنتصرين . ورغم التعقيدات المالية للمشكلة ، إلا أن مسألة التعويضات في صميمها كانت مشكلة سياسية ، يعنى : الصراع على السيطرة على القارة الأوروبية ، والحفاظ على القرار العسكرى ١٩١٨ ، أو عكسه .

وبعد أن شرده ذهن المؤرخين من جراء تعقيدات مسألة التعويضات ، فإنهم أما تجاهلوا الكلام عن هذه المسألة تجاهلا كاملا ، أو نزعوا إلى التركيز على بحث قدرة ألمانيا على الدفع ، غالباً على أساس المفترضات مشكوك فيها ، بدلا من أن يوجهوا الاهتمام إلى المسألة الأكثر ارتباطا بالمشكلة وهي رغبة ألمانيا في الدفع ، أو تصميمها على عدم الدفع ، لو توخينا الدقة في التعبير ، لقد أدرك زعماء ألمانيا بكل جلاء ما تجره مشكلة التعويضات - ضمنا - من عواقب سياسية ، ومن ثم كرسوا جهودهم من البداية للنهاية على تجنب الدفع ، أو تخفيض المدفوعات ، ولما غدا الجو السياسى أكثر اتساما بالروح العدوانية لمبدأ الالتجاء إلى القوة إبان العشرينات ، لذا شقت في نهاية الأمر طريقها في سبيل تأكيد وجودها وتكبدت في سبيل ذلك ثمنا باهظا ، تكبدته الآخرون أيضا . فلما كانت لا ألمانيا ولا بلدان وسط أوروبا قد توافرت لها نية الدفع ، لذا انكشبت مسألة التعويضات أن أن قضت نحبا ، وسيظل التاريخ الملموس للتعويضات يحير المؤرخين ، ويثبت أيضا عدم جدوى فرض مدفوعات ضخمة على بلدان أما أصيبت بالفاقة ، أو بالتبرم ، وتوافرت لها القوة الكافية لترجمة هذا التبرم إلى مقاومة فعالة .

المراجع

- D. H. Aldcroft, *From Versailles to Wall Street : The International Economy in 1920* (1976).
- E. W. Bennet, *Germany and Diplomacy of the Financial Crisis 1931* (1962).
- R. E. Bunselmeyer, *The Cost of the War 1914-1919 : British Economic War Aims and the Origins of Reparations* (1975).
- M. L. Dockrill and D. Goold, *Peace without Promise : Britain and the Peace Conferences 1919-1923* (1981).
- C. Kindleberger, *A Financial History of Western Europe*, (1984).
- C. S. Maier, *Recasting Bourgeois Europe : Stabilization in France, Germany and Italy in the Decade after World War I* (1975).
- K. L. Nelson, *Victors Divided : America and the Allies in Germany 1918-1923*, (1976).
- D. P. Silverman, *Reconstructing Europe after the Great War*, 1982.
- S. A. Schuker, *The End of French Predominance in Europe : The Financial Crisis of 1924 and the Adoption of the Dawes Plan* (1976).
- M. Tractenberg, *Reparations in World Politics : France and European Economic Diplomacy (1910 — 1923)* 1980.

تجنيد المناضلين وتدريبهم في بداية عهد النازي

ريتشارد • ف • هاملتون

من أين اجتذب الحزب الاشتراكي القومي أعضاء المناضلين ابان
عشرينات القرن العشرين ؟ والسؤال عويص ، لانه في بواكير العهد بدا
الحزب النازي وكأنه مجرد حزب آخر من الاحزاب السياسية المتطرفة التي
ظهرت في جمهورية فيمار المضطربة • ويعرض ريتشارد • ف • هاملتون
صورة مختلفة من نوعيات الاشخاص الذين انضموا للحزب ، وساعدوا على
نجاحه ، بدءا من استغلال تصوره من بعض الدراسات الحديثة الظهور
والتي تسمى اثيمبايو جرافيا • وتبدل الصورة التي استعملتها المؤلف وجاء
حزبوا في الحرب العالمية الأولى ، ثم انتقلوا الى كتائب المتطوعين(*) ، وانتهى
الامر بسد تسريع كتائب المتطوعين بالزج بهم في الحزب الاشتراكي
الآنوي(**) • لقد كانوا اناسا ممن لاقوا صعوبات جمة للتوافق مع الحياة
الحديثة في جمهورية فيمار • وكثيرا ما تعرضوا لصعوبات عند بحثهم عن
عمل • وانقد أدت تجربتهم كمنتمين الى الجيش الألماني المهزوم وكشركاء
في الجماعات العسكرية غير النظامية التي اعتادت النظام في بواكير عهد
جمهورية فيمار الى استغلالهم في تسوية السلام بوجه خاص ، والاذلال
الذي ظنوا أن ألمانيا قد تعرضت له ، وتشابكت مشاعرهم
بالخزيق هي وما تصوروا أنه مظالم بلادهم •

وبعد منتصف العشرينات ، وبعد ذلك ، بدأت في الظهور الاستعدادات
الكلامية الكبرى بالاشتراكية الوطنية أو القومية • وكثيرا ما كان الطلبة
المشاركون ينتدبون الى الأندية الوطنية أو الشعبية(***) • وكثيرا ما شعر

نقلا عن كتاب Who Voted for Hitler ? تأليف Richard F. Hamilton (١٩٨٢) •

Freicorps. (★)

NSDAP. (★★)

Volkisch. (★★★)

هؤلاء الطلبة الذين كانوا أطفالا أثناء الحرب ، ومراهقين أثناء تشتت جمهورية فيمار باخفاق الجمهورية في ادراك المصير القومي لألمانيا . وكما هو الحال فيما يتعلق بالمحاربين القسساء المتعاضين ، انتهى الطلبة الى الاعتقاد بأن « النازي » قد جاء بقاعدة تنظيمية يمكن أن تنطلق منها أصوات السخط الشخصي والقومي .

وحرص الحزب الاشتراكي الوطني أيضا على التعرف على الحاجات الاقتصادية والسيكلوجية ، وجاء بإطار اجتماعي وبيع بعض الوظائف لأعضائه ممن لا يناسبون في الأغلب القوة العمالية المدنية . وبعد ١٩٢٥ ، عندما اتبع الحزب بناء على اصرار هتلر سياسة السعي المشروع عن السلطة ، أنشأ الحزب بعض المدارس التي تتحدث باسم الحزب ، وغير ذلك من الأنشطة الأخرى التي حقق الاشتغال بها عائلا ماليا متواضعا ، ربما اعتبر استكمالا لما كانوا يتقاضونه من أجور . وعلى نهاية العقد ، عندما أدت ضغوط الكساد الى زيادة تفكك المجتمع الألماني ، والاضطراب الوطني ، أنشأ الحزب تنظيما اجتماعيا يستطيع الأفراد الشعور تجاهه بالولاء ، والاهتمام عن طريقه الى الهدف .

كوادر الحزب الاشتراكي القومي

غنى عن البيان أن الحزب النازي كان يضم أعدادا كبيرة من المناضلين، والأهم من ذلك هو من ضمهم من أصحاب الاقتدار . وعلينا أن نبحث سر ذلك . وبعبارة أخرى ، علينا أن نتساءل كيف استطاعوا حشد هذا الجيش من المناضلين . ولما كان موضوع هذا الفصل معقدا فلعله من المفيد أن نلقى عليه نظرة مقتضبة في البداية .

ان كل شيء يبدأ بالحرب . فلقد انطلقت جميع خطى التقدم الفردية والتنظيمية على نحو أو آخر من تجربة (١٩١٤ - ١٩١٨) . والحرب في ذاتها قادرة على تهيئة الظروف الضرورية لما يحدث فيما بعد . فهناك بلدان أخرى كإنجلترا وفرنسا شاركت بالمثل بدور رئيسي في الحرب ، ولكنهما لم تتعرضا لتطورات مكافئة من حيث الكم للحركات الفاشية . ولكن ، وكما سنرى ، فقد كانت هناك بعض تطورات تنظيمية مميزة داخل النظام العسكري الألماني . ولقد نمت هذه العناصر وترعرعت ابان فترة الحرب ، وتفردت ألمانيا بين البلدان المتقاتلة باعتقادها السائد والحماسي بأن النتيجة النهائية للحرب لم تكن عادلة . ثم هناك أيضا تصور الألمان بأن الحرب لم تنته في نوفمبر ١٩١٨ . اذ ظن كثيرون أنها قد استمرت على حدود الراين شرقا وغربا وفي مدن الدولة . وكان أهم تنظيم في هذه

الأوضاع - بطبيعة الحال - هو « كتائب المتطوعين » . وتبعاً لذلك ، تزود أشد المقاتلين تحملاً بتجربة عسكرية متواصلة استمرت عند بعضهم حتى ١٩٢٣ .

وعند هذه النقطة ، وبعد انتهاء حالة التضخم واستلام القروض الأمريكية ، لم تعد الحكومة ولا أصحاب الأعمال تهتم بمساعدة هذه الجحافل المنطلقة على سجيبتها . وكان من الضروري للحصول على قروض التحلى على أقل تقدير بمظهر النظام والاستقرار . ولقد تم تسريع الكتائب الرسمية للمتطوعين ، وإن كان هذا التسريع لم يخل من بعض الصعوبات . وكبح جماح عمليات الكتائب غير الرسمية بعد الإضطرار لاجراء لاقصى الاجراءات . وقد تيسر هذا التحكم بعد أن تحقق قدر من الحكم المركزى خلال فترة التضخم ، وبعد أن توقفت المصادر الرسمية ، لم يبق الا كبار رجال الصناعة ، الذين كانوا فى حالة تسمح لهم بتقديم العون للجيش « تحت الحساب » على أن يتصرفوا كما يروق لهم . ولقد تعرض الأفراد الذين يصعب كبح شكيمتهم للضياغ ، بعد أن أصبح فى غير مقدورهم تلقى أى شىء من « صندوق الدعم » .

وظهرت بعض بوادر الاجهاد فى جميع الصفوف آنئذ . إذ كان المقاتلون الموالون يودون الاستمرار فى الكفاح المرير . غير أن التنظيمات المقاتلة الرئيسية الميسورة قد حدت من أنشطتهم . وكانت هذه الحقبة فترة استكشاف وتحركات انتقل خلالها المقاتلون القدامى من تنظيم شبه عسكرى لآخر . ولقد ذكر بعض الكتاب أن قواعد اليسار واليمين على السواء قد نضب معينها خلال هذه الفترة الوسيطة المزدهرة للجمهورية . غير أن هذا رأى مثار شك ، لأن عضوية «أرباب الخوذات» (*) التى تحولت الى فرق العاصفة فيما بعد قد تزايدت بأطراد وبلا انقطاع خلال هذه السنوات . وشعر بعض مقاتلى « كتائب المتطوعين » بازدياد - كمادة المحرفين - للاشتراكيين الوطنيين ، بعد أن رأوا انتفاضة ميونخ ، ووصفوها بأنها مجرد عرض رث لبعض الهواة . إذ بدا لأصحاب الخبرة الزحف خلال أزقة ضيقة بلا أسلحة أو سواتر ، والاتجاه قدماً صوب العدو عملاً دالاً على البلاء . غير أنه فى السنوات الطيبة لعهد فيمار ، أثبت الاشتراكيون الوطنيون غير المنقادين أنهم أشد الناس بأساً بين أبناء التنظيمات الميسورة ، وأنهم - تبعاً لذلك - قد نجحوا فى اجتذاب المقاتلين الى صفوفهم . ولعل اخفاقهم فى الحصول على عون صناعى رئيسى هو الذى منحهم حرية اتخاذ موقف التطرف . وكانت هذه الحرية هى الشرط الذى

Sturmabteilung فرق العاصفة

(*) أرباب الخوذات Stahlhelm

سمح لهم بكسب أنصار وموهوبين مما مكنهم من التحرك في بدايات الثلاثينات .

فالجانب الموجب من الحجة اذن هو تشكيل كوادر كتائب الحزب الاشتراكي الوطني من اناس قد تعلقوا بهذا العمل الغريب أثناء الحرب في البداية ، ثم في السنوات الخمس التي دار فيها قتال متقطع بعد الحرب ، والنحوا بعد ذلك بسنتين في التنظيمات العسكرية في الفترة الوسيطة ، ثم انضموا في نهاية المطاف في أعداد متزايدة الى الاشتراكيين الوطنيين (الحزب و فرق العاصفة) وتميزت هذه الكوادر التي وفدت من جميع ربوع ألمانيا بفائق سرعتها (بالمعنى الحربي للكلمة) ، وتميزوا أيضا بخشونتهم وبفتوتهم وسعة حيلتهم وبغيرتهم الواسعة ومهارتهم في استعمال تكتيكات قتال الوحدات الصغيرة . كما أنهم اتحنوا مظهر القدوة البطولية للأجيال التي ظهرت فيما بعد من الشبيبة الألمانية ، وبخاصة العناصر الشديدة التحمس للنزعة القومية من أبناء الطبقة المتوسطة . ونقلت هذه الكوادر رسالة الاشتراكية الوطنية : أولا - الى المدن الكبرى ، ثم وهذا هو الأهم الى الأقاليم ومراكزها وقراها . وهناك كانوا مسئولين عن انتصارات الحزب الحاسمة في الانتخابات . وثمة نتيجة أبعد تترتب ضمنا على هذه الحجة : هل كان في مقدور هذه الكوادر الاعتماد على هذه الظروف فحسب (من تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية) لتحقيق هذه الانتصارات . . .

كتائب المتطوعين

عادة لا تؤثر حالات السخط ، حتى اذا اتصفت بشيوعها وعمق اثرها على الأحداث . وفي الحالات التي يتجمع فيها أولئك المتضررون فقط ، عندما تتبلور أوجه ضررهم في شكل التنظيمات ، فان احتمال التصادم يصبح أمرا ممكنا . وعلى هذا يصح القول بأن التنظيم موضع البحث ، يعنى «كتائب المتطوعين» (*) كان من خلق الحكومة الثورية . وتلقى هذا التنظيم - ولو لحين - عونا وتأيدا ليس من الحكومة وحدها ، وانما أيضا من بعض المؤسسات الرئيسية ومن الأعيان الأرستقراط وعلية القوم ، ومن الصحافة الرسمية ، ومن الصحافة الحرة (**) الى أن حدثت الانقضاة، وبوجه خاص من بعض الصحف الرئيسية .

(*) S.P.D.

(**) مثل Berliner Tageblatt, Vossische Zeitung.

وتعد ثورة الألمان ١٩١٨ مثلاً مميّزاً لا بعد حد لمفهوم الثورة • فكما أشار عدة كتاب فإنها لم تتضمن قلباً لنظام الحكم • وإذا توخينا الدقة قلنا إنها كانت بمثابة انسحاب لحكومة قائمة • فلقد عمد الأمير ماكس (بادن) آخر مستشارى النظام القديم بنقل سلطات الحكومة الى زعيم أغلبية الديمقراطيين الاشتراكيين وقال : « يا هر ايبرت ! اننى أعهد بالامبراطورية الألمانية لرعايتك » ، وطلب ايبرت زعيم الحكومة الثورية ، وكان عزوفا نوعاً عن قبول هذا العرض من سلفه الاستمرار والاضطلاع بالأعباء الادارية ، ولكن الأمير رفض •

وألفت الحكومة الجديدة نفسها فى موقف لا تحسد عليه • اذ لم تكن قوات شرطة البلدية تتمتع بقدر كاف من القوة يساعدها على التعامل والقوات الثورية المحتشدة فى شوارع ألمانيا • وكانت وحدات عديدة من الجيش قد سرحت بمجرد وصولها الى مقر دارها • وكان الاعتماد على القوات الباقية مثير شك • وباختصار ، كان هناك قلائل من القوات الموالية الميسورة لمساندة الحكومة الجديدة • وكان فى مقدور أية مجموعة صغيرة من العريدين فرض ارادتهم على الحكومة • وظهر أحد الأمثلة الدالة على ذلك قبل عيد الميلاد ، عندما تظاهرت كتيبة من البحارة الثوار فى برلين بأنها تعمل على حماية الحكومة ، ولكنها بدلا من ذلك لجأت فى احدى النقاط الى أسر الحكومة حتى تساند مطالبها الخاصة بالأجور • ولما واجهت الحكومة مثل هذه المشكلات شعرت بضرورة الاعتماد على قوات عسكرية أقدر على حمايتها حماية حقيقية ...

ولابد أن نتحرى ما كان يجرى عند تجنيد « كتائب المتطوعين » • وسيعتمد بحثنا على كتاب هام ألفه روبرت ويت (*) • وكان شاغلو الوظائف الرئيسية فى الكتائب من صغار الضباط ، وأغلبهم من رتبة الملازم أو النقيب • وفى البداية ، اتجه منظم احدى هذه المجموعات الباكورة الى الاستعانة بالضباط الأقدم متبعاً مبادئ الجيش الامبريالى ، ولكنه ما لبث أن عدل عن هذه الفكرة وقال : « لقد تعلمت أن نظريتى الأولى كانت بعيدة تماماً عن الصواب • فلقد لاحظت كثيرين من صغار الضباط يتعرضون لمواقف صعبة ، وكانوا يتصرفون على نحو رائع • فالشباب يتصف بميزة عدم المبالاة وبروح المبادرة ، وأهم من ذلك اتصافه بالحمية الوطنية • وهى نضال يجب أن لا يستهان بها » •

واقترنت القوات على وحدات المتطوعين • وكانت تجرى عمليات انتقاء دقيقة بين من يتقدمون لعرض خدماتهم • وثمة أدلة شحيحة ميسورة

عن تفاصيل هذه العمليات . ولكن لا يخفى ضعف اقبال العمال اليدويين بالمدن على التطوع ، وأيضا استجابة الكثيرين من الضباط السابقين ممن كانوا ينحدرون في الأصل من أصول غير عمالية . وهناك بعض دلائل تبين تعرض العمال - خصوصا من يجنحون تجاه اليسار - الى تثبيط الهمة حتى لا ينضمون الى هذه الكتائب . والظاهر أن الاختيار كان مرتبطا بالاحتكاكات الشخصية . ومن ثم لوحظ ايثار قادة الوحدات الجديدة لاختيار أفراد من المنتمين الى وحداتهم القديمة ممن أثبتوا جدارتهم كمحاربين . وفي الحالات التي ضمت فيها حشود المجندين اتجاهات شتى تتراوح بين المتحمسين للحرب والكارهين لها ساعدت النسبة المرتفعة لأعداد المتطوعين وعمليات الانتقاء على تشكيل كتائب يكاد يقتصر المنتمون اليها على المتحمسين للخدمة العسكرية ، بل والمقرمين بالحرب بمعنى أصح .

ويلاحظ ويت المزايا المادية الضخمة التي كانت تتحقق من وراء الانخراط في سلك المتطوعين . إذ كان الأجر الأصلي للمتطوع يتراوح ما بين ثلاثين ماركا وخمسين ماركا يوميا (١٩١٩) . وكان الجنود يحصلون على الغذاء وبدل السكن والمخصصات العائلية ومكافأة انتهاء الخدمة ، وتصرف لهم ملابسهم العسكرية . وشاع الاعتقاد أثناء معركة « الباتليق » بأن في النية منحهم قطعة من الأرض اذا نجحوا في احراز النصر في المعركة . وإلى جانب المميزات المادية ، كانت هناك مزايا معنوية أيضا . إذ كان بمقدور الجنود غير اللائقين لشغل الوظائف المدنية في المجتمع البورجوازي أو المدني (*) ، مواصلة العمل في الوحدات التي سبق لهم العمل بها في السنوات الأربع الماضية . وفيما يتعلق بنظرة هؤلاء الجنود فقد عبر عنها قائد قوات العاصفة بقوله : « لقد قيل لنا ان الحرب انتهت ، وضحكنا من هذا القول . فالحرب وأنفسنا شيء واحد ، لأن لهيبها يشتعل اشتعالا قويا في كوامن نفوسنا . فالحرب متغلغلة في كيائنا كله . ونحن ننبهر بها وباغرائها لنا بالحاق الدمار . . . ولقد استجبنا لندائها . . . وسرنا الى ميدان المعركة في عالم ما بعد الحرب مثلما فعلنا قبل ذلك عندما اشتركنا في معارك الجبهة الغربية ، فكنا نترنم بالأناشيد بجسارة وقلوبنا مفعمة بنشوة المغامرة أثناء اتجاهنا للمقتال . ولزمنا الصمت الرهيب ، عندما واجهنا المعركة وشراستها » .

وزعم رئيس سكسونيا - وكان من المنتمين الى الاشتراكية الوطنية - ان قطاع الطرق (**) (وهو تعبير مستحب عند أعضاء كتائب المتطوعين)

(*) buergerliche.

(**) Landsknechte.

لا يبالون كثيرا بالتساؤل عن السبب الذي يحاربون من أجله ، أو من أجل من يحاربون ؟ فالأهم في نظرهم هو أن يحاربوا . . (والسلام !) . .
لقد غدت الحرب مهنتهم وليست لديهم الرغبة في البحث عن مهنة أخرى غيرها . . . ان الحرب قد أسعدتهم . . وهل هناك شيء ما يتمنونه أكثر من ذلك . .

ولقد قدرت أعداد أتباع كتائب المتطوعين تقديرات مختلفة ، فقدرها ارنست فون سالومون المؤرخ الاخباري لانشطة كتائب المتطوعين بعدد يتراوح بين خمسين ألفا ومائة وخمسين ألفا . وقدرها وزير الحربية جوستاف بوسكه بربعمئة ألف . أما الاشتراكي المستقل هوجو هاسه فقد اعتقد أن عدد أتباعها يتوف عن المليون . ويرجع جانب من صعوبة تقدير العدد الصحيح الى أن الكتائب كانت وحدات غير نظامية ، ومن ثم كانت أعدادها تتفاوت بين الصعود والهبوط . . وهناك مشكلة أخرى ترجع الى تنوع الوحدات التي تصنف تحت اسم كتائب المتطوعين . فإذا غطينا النظر عن الوحدات الأساسية ، سنرى هناك أيضا وحدات تندرج تحت اسم كتائب المتطوعين ، مثل المتطوعين للطوارئ (*) والحرس الوطني وشرطة الأمن (**) ، وتشكيلات الطلبة المسلحة (***) . وكانت وحدات كتائب المتطوعين « الحقبة » هي الوحدات الأكثر اتصافا بخفة الحركة والقوات المقاتلة التي تتمتع بالكفاية الذاتية . أما الوحدات الأخرى فتعمل في مهام أكثر تخصصا . فكانت قوات الحرس الوطني تكلف بواجبات الحراسة وحفظ النظام في المجتمع بعد تحرره بفضل كتائب المتطوعين . ويقدر « ويت » عدد الرجال الذين التحقوا بصفة مباشرة بوحدات كتائب المتطوعين الحقبة « بعدد يتراوح بين مائتي ألف وربعمئة ألف » .

وكان المصدر الرئيسي للمجندين - كما ذكرنا آنفا - هو الضباط الأصغر . ويزودنا ويت أيضا بتفاصيل هامة . فلقد خلقت الحرب ما لا حصر له من « فرص » اصلاح الأوضاع الاجتماعية . اذ قتل في بداية الحرب ما يقرب من نصف الضباط العاملين بالجيش ، ولم يبق سوى ، ٢٢١١٢ ظلوا يعملون حتى نهاية الحرب . ونقل معظم الأحياء منهم الى الخطوط الخلفية حتى يستطيع الاحتفاظ بهم للاضطلاع بواجبات اضافية أخرى . وكانت الخسائر في الحرب بين الضباط الاحتياط (وعددهم ١٩٢٣٢ ، عالية بدرجة فائقة . فلما كانت هذه الحرب حربا شاملة ،

(*) Zeitfreiwilligen

(**) Sicherheitspolizei

(***) في مدينة Muenster كانت هناك وحدة تسمى Akademische Wehr

لذا اتسعت جبهة العمليات العسكرية . ومن ثم فلا عجب اذا ضم الجيش عند نهاية الحرب ٢٧٠٠٠ ضابطا . وكان من المتوقع أن يشغل العدد الهائل من الضباط المرقين حديثا بعض المناصب القيادية وأن يكلفوا بمسئوليات جسيمة لأول مرة في حياتهم . ولعل كثيرين منهم قد أدركوا عدم احتمال حصولهم على مراكز مكافئة مناسبة لهم في الحياة المدنية . ونظرا لأن معاهدة فرساي قد اشترطت أن لا يتجاوز عدد الضباط الأربعة آلاف في الجيش المؤلف من مائة ألف جندي ، ونظرا لأن هذا العدد كان سيختار من بين الضباط الأحياء من وحدات القوات العاملة ، فقد ترتب على ذلك اضطرار أكثر من ربع مليون من الضباط الأصغر المدربين على خوض المعارك الى البحث عن وظائف مدنية . ولم ترق هذه الفكرة الكثيرين منهم - خصوصا مهاوئس الحرب . وعلى حد قولهم : « بمجرد حلول السلام » فإنهم سيفاجئون مفاجأة غير سارة ، يعنى سيواجهون الحياة « التي تزهق الروح » ، التي يحييها المدنيون ، ومن ثم فلم يتحمس أحد لشغل بعض الأعمال مثل الباعة في المحلات أو ممثلي شركات التأمين ، أو يهتم حتى باحتمال تعيينه في وظيفة مدير في إحدى الإدارات ، لو كان الحظ موافقا .

وبلست لهم « كتائب المتطوعين » كمتنافس لاهتماماتهم ومواهبهم ، ولعلها أقرب الى فرصة ثانية أتاحت لهم . ويبين من دراسة لضباط بافاريا ، وهي من الدراسات القليلة للوظائف التي كانت ميسورة في هذه الحقبة ومنها يتضح أن ٢٢٪ من الملازمين الثوان و ٢٦٪ من الملازمين الأوائل قد واصلوا عملهم الحربي في كتائب المتطوعين . ويلاحظ ويت أن النسبة بين ضباط الرتب الأعلى كانت أقل بدرجة ملحوظة . ويقول فون سالومون (وقد استشهد به ويت) « ان الضباط العظام قد كشفوا عن حماسة فائقة للالتحاق بخدمة كتائب المتطوعين . وهذا أمر يدعو الى الدهشة . وقد قوبل هؤلاء الضباط من قبل القوات ذاتها بشيء من عدم الرضا .. » .

ويذكر لنا ويت أن الفئة التالية لفئة المحاربين القدماء كانت فئة الطلبة ، الذين يمثلون أكبر مجموعة التحقت بكتائب المتطوعين ، ووصفهم بأنهم مثاليون صغار ، شبوا على الايمان : « بالعدالة المعنوية للقضية الألمانية » . وفي ذات الوقت ، فقد كانوا من الأشخاص الذين صعقوا من هول الانهيار ومباغتته ويقول : « لقد شعر كثيرون منهم بالتعرض للتضليل لما أصاب حقهم في القتال في سبيل وطنهم من انتهاك بعد توقف القتال وعلان الهدنة ، مما دفعهم الى توقع فرصة أخرى اذا انضموا لكتائب المتطوعين » .

وكانت هناك حركة أخذ ورد بين الأوضاع العسكرية والأوضاع الأكاديمية . فلقد التحق الجنود المسرحون بالجامعات ، وترك بعضهم الدراسة فيما بعد للانضمام الى كتائب المتطوعين . وكان يوسع بعض أبناء الوحدات الأقل انتماء الى القوات النظامية أن يتسللوا من حين لآخر الى جامعاتهم في الفترات التي تتخلل المعارك . وهكذا نشأت بعض النزعات التي خلقتها الحرب داخل الجامعات . ومثل هؤلاء المقاتلون دور القدوة لكثيرين من شباب الطلبة ، خصوصا أصحاب المعتقدات القومية . وهنا أيضا استمر الاختيار بين التطوع والتجنيد ، مما أدى الى ارتقاء البعض ، وتدنى مراتب البعض الآخر . وساعدت هذه الارتباطات على تحقيق الاتصال بين الأجيال ، مما أدى الى ظهور كتائب لا تضم غير الأصغر سنا . وهذه ناحية سنعود اليها فيما بعد .

فما الذي حققته كتائب المتطوعين ؟ لقد أجبت عن هذا السؤال عند تعرضي لبعض النقاط المختلفة في هذا الكتاب ، ومن ثم فيكفي هنا القاء نظرة سريعة ومقتضبة . فباعتبار كتائب المتطوعين وحدات خاضعة للإشراف الرسمي للحكومة ، فانها ظهرت لأول مرة في برلين عند نهاية الأسبوع الطويل للانتفاضة التي اندلعت في يناير ١٩١٩ . وكان لها دور حاسم في هزيمة مسيرة ١٩١٩ (*) ، وأثبتت قدرتها الفتاكة للمرة الأولى . فبالإضافة الى دورها في تطهير المدن الصغيرة كبرمن ولايبزج وجوتا وبرونزفيك ، وغير ذلك من المدن ، كان أهم ما أنجزته في هذا الوقت المبكر هو تحرير ميونخ في الأيام الأولى من مايو .

ثم شغلوا ببعض صراعات حدودية معقدة ، أهمها مغامرة البلطيق ١٩١٩ . وأجرت هذه الوحدات الألمانية عمليات في البلطيق - بموافقة البريطانيين - بدأت بصد غزو الجيش الأحمر (الروسي) . ومن الناحية الاسمية ، استطاعوا التحرر من الارتباط بالانجليز الذي فرض عليهم ، مما أخرج انجلترا ، واتجهوا للعمل في خدمة السلطات الحكومية الوطنية الحديثة الانشاء . فلقد كان معظم هؤلاء المقاتلين يرغبون اشباع شهوتهم للحرب عن طريق خلق دولة يحركونها وفقا لمشيئتهم ، تحت زعامة البارونات المتجنسين بالجنسية الألمانية ممن استوطنت عائلاتهم منطقة البلطيق في القرن الثالث . وبعد أن وعدوا بالحصول على أرض يستقرون فيها (وهو وعد نصادف عدم وجود مبرر له) اكتشفوا أنهم ينهضون بدور طليعة مستعمرة جديدة شرق ألمانيا . غير أن انتصارهم في تحقيق هذا الهدف ، والانقلاب الذي تبع ذلك ، قد ألحق بهم الضرر . وكما قال أحدهم في

أسلوب أدبي لاذع : « لقد قتلنا أنفسنا بانتصارنا » (*) . فلقد أمرتهم الحكومة الألمانية بالعودة من حيث أتوا . . وبعد عمليات رفض وعصيان وأفعال تمردية شتى عادوا في النهاية إلى ألمانيا . .

والحادثة التالية الرئيسية في تاريخ كتائب المتطوعين هي محاولة قلب حكومة فيمار . فلقد زحفت جملة وحدات مختلفة - أبرزها لواء إيرهارت - إلى برلين ، وأرغمت الحكومة على الهروب . وكانت هذه هي فاتحة انتفاضة كاب (**). في مارس ١٩٢٠ . ولقد سبق أن تحدثنا عن كيف تداعت حكومة الأيام الخمسة . . ولعلنا نذكر أن السلاح الرئيسي للحكومة قد اعتمد على الاضراب العام . وفي النقاش الذي دار بعد التداعي ، أنحى مقاتلو كتائب المتطوعين باللائمة - صراحة - على الجنرالات والساسة . ولا يخفى أن «كاب» كان عديم الاقتدار من الناحية السياسية، كما أثبت القائد فالتر فون لوتفتمس (***) عدم كفايته في تدبير الانتفاضة . وفضلا عن ذلك ، فإنه في مواجهة الاضراب ، قد قام برد فعل وصفه حتى المقاتلون متوسطو الكفاية بأنه كان منهكا للقوى وغير مفهوم . وقال أحدهم : « إن كل شيء كان سيمود بالخير لو أننا قتلنا عددا أكبر من الأشخاص » . وأقر آخر هذا الرأي ، وعلق عليه بقوله : « الدم هو أسمنت الثورة » .

وبالإضافة إلى ما ظهر من مساوئ عند الساسة والضباط العظام ، فقد عني هذا الاخفاق ، كما عبر عنه فون سالومون : « لأول مرة ، أصبح الطريق مفتوحا الآن أمام التفكير السياسي للشباب » . وقال إن إعلان هتلر الالتجاء إلى القوة في نوفمبر ١٩٢٣ ما كان بالاستطاعة تصوره بغير ما حدث من تحول في التفكير السياسي . « إذ بدت حركة هتلر في نظرهم ذات ميزة بالغة الأثر ، لأنها حركة » من صنع جنود المواجهة من المقاتلين ، وليست حركة ضباط كبار ارتقوا بحكم الأقدمية » .

وآخر عمل أقدمت عليه كتائب المتطوعين قبل حلها رسميا هو ما قامت به ضد الشيوعيين في حوض نهر الروهر ، الذين استولوا على مدن مثل دوسلدورف ودورتموند باعتباره اسهاما من عندياتهم في محاولة للاضراب العام . وأمرت وحدات كتائب المتطوعين - بما في ذلك زعيم الانتفاضة هرمان إيرهارت - بالاشتراك في آخر عملية مؤيدة من الحكومة في حوض الروهر .

(*) Wir haben uns gesiegt

(**) Kapp Putsch.

(***) Walther von Lüttwitz.

وبعد أن بلغ الموقف هذا الحد ، اضطرت الحكومة خضوعا للضغط المتزايد من الحلفاء الى حل هذا التنظيم (كتائب المتطوعين) بعد أن ساعدت على خلقه . ومن المعروف أن أعضاء هذا التنظيم كانوا شديدي الاعتراض على هذا الاجراء . وجرى البحث على عجل عن قناع أو واجهة تتخفى وراءها التشكيلات ، التي استقر بعضها في بقاع من شيليزيا ، أو أماكن أخرى من شرق ألمانيا ، حيث واصلوا أنشطتهم تحت ستار « أعمال الفلاحة » ، وعادت بعض الجماعات الظهور كتنظيمات وطنية للمحاربين القدماء . وأسمى زعيم شهير لكتائب المتطوعين يدعى جيرهارت روسباخ بعض قواته باسم مكتب المباحث ، وأسمى جانباً آخر منها باسم « جماعة انقاذ المجتمع » ، التي حكم وزير داخلية بروسيا بعدم شرعيتها . وغير روسباخ اسمها وجعله « اتحاد التعليم الزراعي » ، وصرح بأن بمقدوره « استحداث تنظيمات أخرى اذا اقتضى الأمر وبسرعة تفوق سرعة حل المسئولين لها » . وانضم البعض الى تنظيمات المحاربين القدماء ، التي كانت موجودة بالفعل ، وانضم آخرون الى جماعة تدعى « أصحاب الخوذات النحاسية » (*) ، ولكن معظم المحاربين القدماء وصموا هذه الجماعة بالجمود والتزمت . ويذكر ويت أن الجمعيات المناهضة للسامية كانت أحب الجمعيات الى قلوب المقاتلين السابقين في كتائب المتطوعين ، بفضل شهرتها بالشراسة والقسوة . واضطر أغلب من انضموا الى هذه الجماعات الى البحث عن نوع ما من الوظائف المدنية ، باعتبار تنظيمات المحاربين القدماء من الجهات التي يشغل نشاطها الاوقات الخارجة عن مواعيد العمل الرسمية .

وتم تنسيق مختلف الوحدات المحلية للمقاومة الشعبية (**) ، وادراجها تحت زعامة منظمة واحدة (***) ، قبل تحولها للعمل في المقاومة السرية . ورفضت حكومة بافاريا حل هذه الوحدات ، وبذلك أتاحت الفرصة لاختبار القوة الذي جرى ١٩٢٣ ضد حكومة برلين ، وانضم الى هذه التنظيمات بعض فلول كتائب المتطوعين المنحلة .

ومن بين التنظيمات السرية ذات الأهمية الفائقة منظمة كونسول(****) . وتركزت مهمتها في السهر على تحقيق العدالة والانصاف باغتيال موظفي حكومة الجمهورية ! ، وعلى الأخص من ارتبطت أسماؤهم بانهياء ١٩١٨ ،

(*) Stahlhelm.

(**) Einwohnerwehr.

(***) Escherich. (وتختصر الى Orgesch)

(****) وتختصر في حرفين O.C.

وتنفيذ قرارات معاهدة فرساي ، أو من كشفوا أسرار العمليات الحربية السرية ، أو عملوا في خدمة أعداء الأمة ، كما فعل على سبيل المثال الانفصاليون في « بلاطينة » . وذكر أحد زعماء هذا التنظيم فيما بعد أثناء شهادته في المحكمة أنه قتل ما يقرب من ألفي شخص في شيليزيا وحدها ، وكان من بين ضحايا هذه المنظمة ماتيئاس ارتسبرجر (*) الذي ارتكب على حد قولهم جريمة جرائم على رأسها توقيع اتفاقية الهدنة (وبذلك أنقذ هندنبرج من الاشتباه في تورطه في هذه الفعلة) . وأيضا كان هناك فالتر راتيناو وزير خارجية البلاد ومهندس سياسة الانجاز .

وكانت هناك مناسبة أخرى شاركت فيها وحدات كتائب المتطوعين في المعارك . فمن المعروف أن النزاع لم يتوقف على الحدود البولندية . ففي ربيع ١٩٢١ عبرت جماعة من الجنود غير النظاميين البولنديين الحدود لانتزاع أرض شيليزيا العليا ، وضمها لبولندا فترك الأعضاء السابقون في كتائب المتطوعين أعمالهم ، وركبوا القطارات عبر ألمانيا ، وأعادوا تنظيم صفوفهم ، وكسبوا معركة حاسمة . وبعد هذه الواقعة بيومين ، وبعد الهجوم عذوة على مدينة آنابرج (**) ، صدر أمر حكومي بحل وحدات كتائب المتطوعين حلا نهائيا . واكتشف المقاتلون القدامى مرة أخرى أنهم قد طعنوا في ظهورهم . ففي الوقت الذي كانوا يفتدون فيه ألمانيا بأرواحهم ، نفذ مجرمو نوفمبر (وهو الاسم الذي أطلقوه على زعماء الجمهورية) هذه الفعلة الخسيسة

النقلة الى « الحزب الاشتراكي الوطني »

هؤلاء هم المقاتلون المحنكون الذين استطاعوا بعد حل وحداتهم شق طريق الى الحزب الاشتراكي الوطني وقوته الضاربة (***) . وأتم بعضهم هذه النقلة في وقت مبكر ، وتحققت هذه النقلة عند بعض آخر بعد أن تنقلوا بين أكثر من منظمة من منظمات اليمين . وفي ١٩٣٢ ، لم يكن في وسع من سبق انتمائهم الى كتائب المتطوعين تمثيل أكثر من جزء صغير من جملة الأعضاء ، بعد أن تزايد انضمام أشخاص أصغر سنا . ولا يقصد بذلك أنهم كانوا في جميع الأوقات يمثلون الأكثرية العددية في الحزب ، ولكن المقصود هو القول بأن جهودهم وقدراتهم كان لها دور حاسم في التشكيل الأولى للحزب ، مما ساعد على تحديد اتجاههم قبل التطورات التي تعرض

(*) Matthias Erzberger.

(**) Annaberg.

(***) Sturmabteilung.

لها الحزب بعد ذلك • ولولا هذه النواة من كتائب المتطوعين ما كان الحزب لينمو مثلما نما • فلقد زودته بالمواهب التنظيمية المحلية وبأعلى مستوى من القدرات التكتيكية ، وزودته أيضا بالشراسة التي مكنته من قهر خصومه • وفضلا عن ذلك فقد اضطلعت هذه النواة بدور هام في تدريب الأجيال الأحدث ممن انضموا الى صفوفه •

ولا تسمح البيانات المتوافرة حتى بالاقتراب من أية احصاءات دقيقة تؤيد هذه الادعاءات • بيد أنه بالاستطاعة الحصول على بعض الاحساس بما حدث من اقبال على الانضمام الى الحزب من مذكرات أعضاء الحزب الاشتراكي الوطني ، ومن السير الذاتية التي ألفها تيودور آبل ، وحللها فيما بعد بيتر ميراكل وروبرت ويت في بحثيهما •

ومن بين الذكريات البطولية التي تميزت بها كتب كثيرة من المؤلفات التي صدرت عن دار النشر المركزية للحزب الاشتراكي الوطني في ميونخ إبان الثلاثينات ما ذكر عن أن استهلال الحركة قد بدأ باجتماع ثلاثة رجال في فبراير ١٩٢٥ ، كانوا يخططون لإعادة تشكيل هيئة الحزب الوطني الاشتراكي في شتارنبرج ، وهي منتجع بديع يقع جنوب غرب ميونخ • وتحدث المؤلف عن الرواد الثلاثة فقال أن أحدهم كان موظفا صغيرا بالحكومة ، وكان الثاني « ماكس » لاصقا لورق الجدران • والثالث هو جوشتل (البناء) • وتستطرد المقدمة فتذكر عرضا مقتضيا لتاريخهم العسكري التنظيمي : « كانوا جنودا بالجبهة ، ومن المقاتلين في كتائب المتطوعين » • « ولم يتجاوز سن أكبرهم السابعة والعشرين ، وكان الثلاثة أعضاء في قوات العاصفة ، واشترك الثلاثة في مسيرة نوفمبر ١٩٢٣ » •

ويرى الكاتب أن هؤلاء الثلاثة قد خططوا تنظيما محليا اتخذ هذه الصورة لأغراض عملية • وانضم اليهم - بطبيعة الحال - آخرون ، وبذلوا جهدا كبيرا ، ولكن كان هؤلاء الثلاثة هم الذين قاموا بدور همزة الوصل بين الحزب القديم (الذي كان موجودا قبل ١٩٢٣) والحزب الجديد ، أو المحاولة الثانية • وهناك فكرة تكررت مرارا وراء هذه المحاولات التجنيدية أفاض المؤلف الكلام عنها : « فداء النصر المستجد طريق عتيق منحدر ، وأمامه جنود الجبهة وكتائب المتطوعين وهتلر » • وفي حالة أخرى ، يتركز الكلام على مقاتل قديم آخر ، ويتكرر الالاحاح على نفس المعنى ، فتجمل مميزات الشخص في الكلمات الآتية : لقد كان من جنود الجبهة ومن رجال كتائب المتطوعين ، ومن أبناء قوات العاصفة • ويردف المؤلف قائلا : « لقد جرت في عروقه أنقى دماء الجنود ، وكان يبغض بغضه للطاعون إيثار المواقف المعتدلة والضعف والرونة » •

وبعد أن تعرفنا على شخصية النموذج الذي رسمه آبل لأعضاء الحزب قبل ١٩٣٣ ، فإننا لن نستطيع بطبيعة الحال الاطمئنان الى ما ذكر عن مثليه . ومن المحتمل أن يكون النموذج الذي قنعه أو العينة ، الأفضل تعلمًا ، وأن تكون لديه خلفية طبقية أفضل من أعضاء الحزب بوجه عام . ومع هذا ومادام هذا النموذج واحداً من النماذج القليلة من أى نوع المتصلة بالموضوع ، فإنه يستأهل فحصاً أدق .

وكان ١٨٪ ممن استجابوا لآبل ممن شاركوا في بعض أشكال الأنشطة الحزبية فيما بعد الحرب مثل القتال ضد فريق الاسبرطيين (*) وانتفاضة « كاب » وحرب العصابات في أعالي شيليزيا ، أو المناوشات التي وقعت أثناء احتلال الفرنسيين لحوض الروهر ١٩٢٣ . وكان ثلاثة من بين كل خمسة من الذين اشتركوا في المنازعات التي وقعت بعد الحرب من صغار الشباب (أى كانت أعمارهم تقع بين ١٧ سنة و ٣٠ سنة) سنة ١٩١٤ . وفي ١٩٣٠ كان سن هؤلاء الأشخاص ما بين الثلاثينات وبداية الأربعينات . وإذا قارنا مجموعة النواة بالعينة برمتها للأعضاء (كما كان الحال ١٩٣٤) سنرى شذرة صغيرة كانت أكبر سناً من مجموعة النواة ، وشذرة أكبر حجماً من الأصغر سناً تمثل قرابة نصف الأعضاء . وهكذا كان الحزب خليطاً يضم بعض أعضاء من « العواجيز » ، ويضم غالباً أشخاصاً لديهم بعض اتصالات عسكرية تقليدية ، ولهم نظرات تنزع نحو الاتجاه القومى وتمثل المدرسة القديمة ، ونواة من المقاتلين القدماء ، وأخيراً الأكثرية من صغار السن الذين اجتذبوا للحزب في السنوات الأخيرة للجمهورية . وبوسعنا أن نعزو النجاح التنظيمى الذى حققه الحزب الاشتراكى الوطنى فيما بعد الى قدرة مجموعة النواة على اجتذاب هؤلاء المجندين الصغار وتعبئتهم .

ويحلل ميركل نوعيات أعضاء الحزب التى ذكرها آبل على نحو مختلف نوعاً ، فيوجه انتباهها أكبر الى هذه الأجيال المختلفة ، وإلى أنماط سيول المنضمين والمجندين ، وإلى دوافع كل فريق من أنصار الحزب . فبينما بين آبل أن أقل من خمس من استجابوا قد اشتركوا في مناوشات ما بعد الحرب ، بين ميركل أن الحرب وما حدث فى أعقابها قد كان لها بالغ الأثر ، فقد هزت كيان السواد الأعظم من هؤلاء الأشخاص . ويقول ان الجانب الحيوى من الفريق الذى تحدث عنه آبل كان يمثل الحرب والهزيمة أو ثورة ١٩١٨ ، باعتبارها المؤثرات التى أثرت فى حياة كثيرين ممن استجابوا لها ، وإذا نحن تأملنا التجربة المحورية أو المؤثرات الكبرى

التي ورد ذكرها في السير الذاتية سنرى ان هناك ما يقرب من النصف قد تأثروا بما حدث في الحرب والثورة والاحتلال الأجنبي .

ويذكر ميركل أيضا أن المتجاوبين ممن تأثروا بالحرب أشاروا الى ما أثارته جبهة القتال(*) من حماسة، والى التشبث الذي نجم عن الانهيار ، وردود الفعل المعادية عند الجماعات التي انصب عليها اللوم بسبب الهزيمة . واكتشف أن هذه المشاعر كانت أوضح بين المتطوعين (بالمقارنة بمشاعر الجنود المحترفين والاحتياط) . واكتشف أيضا وجود تناسب عكسي بين شدة الحماسة للحرب والأداء القتالي وطول الخدمة . وتحدث أيضا عن الحشود التي تدفقت من صفوف العسكريين الى كتائب المتطوعين (أو التنظيمات شبه العسكرية المتصلة بها) . وساعد تقدم الاشتراكيين الوطنيين في السن بما فيه الكفاية عند اشتراكهم في تنظيمات ما بعد الحرب الباكرة على انقسام اختياراتهم . فالتحق المحاربون القدماء - خصوصا المتطوعين - في التنظيمات شبه العسكرية . وجنح من يفتقرون الى الخبرة العسكرية - بدلا من ذلك - الى الانضمام الى التنظيمات اليمينية غير المحاربة ، يعنى الى الجماعات المحافظة أو المعارضة (**) ، وظلوا مع هذا يعبرون عن التعاطف القوي مع كتائب المتطوعين ، والكراهية الشديدة نحو المتمردين في الداخل .

بطبيعة الحال ، كانت هناك مرحلتان متميزتان في تاريخ الحزب قبل ١٩٣٣ . وفي المرحلة الاولى - التي انتهت بحركة الانتفاضة ١٩٢٣ ، كان المنتمون للحزب ينحدرون من أجيال ما قبل الحرب أو فترة الحرب ، ويتألف أعضاء هذه المرحلة من الجموع التي تأثرت بالحرب ، ومن الناقمين على نتائجها ، ومن الراغبين في مواصلة الكفاح بعد ١٩١٨ . وظل هذا الفريق يعمل في الحزب في المرحلة الثانية ابتداء من إعادة انشائه ١٩٢٥ ، وتزايد عدد أفرادهم بعد الانتفاضة الأخيرة وانضمام مجندين من الشباب . ويقول ميركل « أن شذرة الحزب التي لم تتأثر تأثرا مباشرا بالحرب قد تأثرت مشاعرها بذكرىات الزمالة في فترة الشباب والدراسة وبحالة البطالة » .

وفي غضون هذا التحول ، يبدو أنه قد حدث تحول في الأساس الطبقي للعضوية . وكان آبل قد لاحظ أن ثلثي المشتركين في المناوشات المباشرة بعد الحرب كانوا من أبناء الطبقة المتوسطة . ويلاحظ ميركل « ان من ينضمون بالأمان الاقتصادي والقدرة على الانطلاق كانوا بين أوائل من

(*) Fronterlebnis.

(**) Voelbische.

انضموا الى الحزب فى بداية أيامه ، وأنه حتى خلال أزمة ١٩٢٣ ، وفى السنوات الأهدأ التالية ، استمر (الفوات) ممثلين على نحو أكبر فى حركة القمصان البنية . وفى ١٩٣٠ فحسب لحق بهم أفراد من أبناء الطبقة الدنيا .

وتأكد وجود استمرارية بين كتائب المتطوعين والحزب الاشتراكي الوطنى فى السير الذاتية المقتضبة التى وردت فى ملحق كتاب ويت . فنقد بدأ فردريش البرس (*) - وكان عضوا فى كتائب المتطوعين فى موركير كقائد لحدى قوات العاصفة ١٩٣٠ ، كما عمل فيللى أندريسون - وهو من المحاربين القدامى فى معركة البلطيق ومن المشاركين فى انتفاضة « كاب » فيما بعد فى احدى اللجان المحلية للحزب الاشتراكي الوطنى . وانضم بعضهم فى وقت أبكر مثل كارل بوش الذى ساهم بدور فعال فى كتائب المتطوعين فى برلين والبلطيق وأعلى شيليزيا وبروسيا الشرقية . وانضم الى الحزب ١٩٢٣ . وكان قائد(**) كتائب المتطوعين فى بروسيا الذى استعمل بعد ذلك قائدا لجمعية التربية البدنية ، من بين من انضموا للحزب الوطنى الاشتراكي ١٩٢٢ ، وشكل بعد ذلك قوات العاصفة فى برلين وأشرف على تنظيمها . ومن بين من ورد ذكرهم فى عرض ويت : مارتين بورمان ، الذى تولى قيادة أحد الأقسام فى كتائب المتطوعين فى روسباخ ، وعمل بعد ذلك فى مجلس التنظيم . ونصادف أيضا بعض قادة الحزب الوطنى الاشتراكي مثل هانس فرانك ورودلف هس وراينهارد هايدريك واريش كوخ وأرنست روهم . وهناك أيضا اشتراكي آخر سلك هذا الطريق المميز : رودلف هرس (***) الذى تولى القيادة فيما بعد فى أوسشفيتس . وهكذا يكون الطريق المؤدى الى الاشتراكية الوطنية قد مر بسلسلة معقدة من الخطوات . فمن الحرب الى وحدات كتائب المتطوعين ثم الى الحياة المدنية بمختلف تنظيمااتها الوطنية والشبيهة بالعسكرية الى أن ظهر الحزب الاشتراكي الوطنى فى نهاية المطاف .

تجنيد صغار المجندين

واشتمل ثانى جوانب تضخم الحزب تجنيد مواطنين أصغر سنا استوعبهم الحزب فى صفوفه . ويبدو أن الجهود الشخصية للحركيين

(*) Friedrich Alpers.

(**) Kurt Daluge.

(***) Rudolf Hoess.

الأوائل كانت وراء هذا التوسع ، أو إذا شئنا القول فإن هذا التوسع قد تحقق بفضل الأنشطة الدينامية للجماعات الصغرى • ولكي ندرك كيف تمت هذه العملية علينا الرجوع مرة أخرى إلى ما رواه نويس الذي يعد من الثقات في هذه الناحية بفضل ما احتواه كتابه من تفاصيل تاريخ التنظيمات • وقد أشار بحثه أيضا إلى مصدر من مصادر الكفاح للتغلب على الصعوبات التي واجهها الحزب حتى ١٩٣٣ •

فلقد تشكلت الوحدة الأولى من الحزب الاشتراكي الوطني في صعيد سكسونيا في مدينة هانوفر في صيف ١٩٢١ • وكانت البداية متهلة ومضطربة ، ولكن من أسسوا هذه الوحدة قد كشفوا عن قوة عزيمتهم عندما ساروا قدما دون التفتات حتى لتحذير هتلر • وامتدت أنشطتهم حتى شملت الأقاليم المحيطة بهانوفر • وساعد ظهور متحدثين من الخارج - كان بينهم هرمان اسر من رئاسة الحزب بميونخ - على اجتذاب أعداد أكبر من الحاضرين وعلى تمويل الحزب ، وزيادة عدد أعضائه •

على أنه سرعان ما تعرضت هذه الجهود للاحتجاب • فبالرغم من اتخاذها عاصمة الاقليم وأكبر مدنه قاعدة لها ، إلا أن الحزب قد اكتسب أن هذا المركز لا يتوافق له أفراد مميزون • فبعد أن أفلتت المدينة من الكارثتين التوأميتين : تمرد اليساريين ، وصد كتائب المتطوعين لهذا التمرد فإنها لم تتعرض لنفس مخلفات الخوف والكراهية والالتزام الأيديولوجي الذي كان بمثابة القوة الدافعة في مواضع أخرى • وبعد ١٩٢٠ ، خضعت صروف المدينة والأقاليم لشخصية جوستاف نوسكه (*) الذي وصفه نواك « بأنه كان قادرا على قمع التطرف أيا كان موضعه » • فضلا عن ذلك فقد أدت أوجه النقص داخل زعامة الحزب الاشتراكي الوطني والصراعات المريرة الأشبه بالحرب الأهلية إلى تشتت جهود الحزب لعدة سنوات •

وفي نهاية المطاف ، ظهرت أبعد الجماعات أثرا في صعيد سكسونيا ، يعنى في المدينة الجامعية العريقة جوتنجن • وتولى المبادرة هناك طالب طب يدعى لودولف هاسه • وكان قد نشط قبل الحرب في حركة مؤيرة للاضطراب ضد السامية • وواصل هذا النشاط بعد الحرب قبل أن ينضم إلى إحدى كتائب المتطوعين ، ثم وفد فيما بعد إلى جوتنجن لبدء دراساته الطبية ، وهناك انضم إلى تنظيم شعبي ، ونجح في قلب زعامته بمساعدة طالبين آخرين ، وانتخب بعد ذلك رئيسا • ثم انتقل إلى جماعة أخرى قومية المنزع ومعادية للسامية ، بعد أن شعر بعدم الرضا عن عدم فاعلية

(*) Oberpraesident Gustav Noske.

عضويته لكتيبة المتطوعين . وصافر بعد ذلك الى ميونخ ، وكان ما زال يبحث عن وسيلة فعالة ، لكي يتعرف « الى نوع جديد تماما من التنظيم » ، سمح به ، يعنى « تنظيما يتميز بعنوايته الحقة » . ولما عثر على مبتغاه ، انضم الى الحزب الاشتراكي الوطني في فبراير ١٩٢٢ ، وأنشأ فرع جوتنجن للحزب ، وكان يضم ١٢ عضوا ، وانتخب أحد الحراس رئيسا لادراكه مدى كراهية العمال للطلبة . وفي ذات الوقت كان هاسه يقود الفرع من وراء الستار . وفضلا عن ذلك ، فلقد منع المفكرون مؤقتا من العضوية ، ومن ثم اقتصرت عضوية الجماعة على اناس من ممثلى أدنى فئات الطبقة المتوسطة بفض النظر عن طالب الطب واحدى المثالات .

وما لبثت جهود فرع جوتنجن أن امتدت الى الأقاليم المحيطة بها . وكان من بين الوحدات التى أنشأتها ، وأنجحها ، الفرع الذى أنشئ في نورتهام البلدة المجاورة ، والمعروفة لنا أكثر من ذلك من كتاب الفه وليم تالبرج باسم « تالبورج » . واشترك في انشاء فرع الحزب الاشتراكي الوطني في نورتهام اثنان من الابناء البارزين للطبقة الوسطى الدنيا من تنظيم شبه عسكري (*) ، وقد التقطهما أحد المحنكين بالحزب الاشتراكي الوطني ، وشجعهما على الاشتراك في مظاهرة خطب فيها هاسه . ولما كانا لم يرضيا عما ساد « حزب ألمانيا الفتاة » من غموض ، وبعد أن تأثرا بخطاب هاسه ، قررا الالتحاق فورا بالحزب الوطني الاشتراكي ، بعد أن تأثرا بما جاء في كلامه عن المطالبة برفاق دائمين للكفاح (**) ، وليس مجرد رفاق عابرين (***) .

وتكشفت سعة حيلة هاسه في نوفمبر ١٩٢٢ ، عندما صدر قرار عدم شرعية الحزب الاشتراكي الوطني . وبعد أن أعدت العدة لعقد اجتماع حاشد للوحدة في ١٨ نوفمبر ، أصدرت الشرطة المحلية حظرا لهذا الاجتماع ، الا أن هاسه لم يرهب هذا الحظر ، وطالب العون من التنظيمات شبه العسكرية المحلية ، واشترك عدد كبير من اتحادات الطلبة في المسيرات التى طافت شوارع جوتنجن في مظاهرة احتجاج دامت زهاء عدة ساعات . وتضاعف عدد أعضاء الوحدة من جراء ذلك ، وارتفع عددهم من ٢٥ الى ٥٠ عضوا ، بل وانضم اليهم في هذه العملية أحد أساتذة الكيمياء . وشرع أستاذ الكيمياء في تحريض زملائه بالكلية على الانضمام . ولاقى بعض النجاح ، وشكلوا أيضا وحدة من وحدات العاصفة مؤلفة من ٤٥ فردا ، أكثرها من الجنود السابقين ، ومن المنتمين لكتائب المتطوعين .

(*) Jungdeutscher Orden. (حزب ألمانيا الفتاة)

(**) Mo'kaempfer.

(***) Mitlaeuffer.

وفي الشهر التالي ، نظم هاسه تنظيما جبهويا يحل محل الحزب المحظور . وفي الاجتماع الأول ، انضم اليه سبعون من الأعضاء الجدد وأغلبهم من الطلبة ، وساعدت الشرطة في انجاح هذه المحاولة السافرة . اذ كان كثيرون منهم يديرون رؤوسهم في الناحية الأخرى ، عندما يشرع أحد الأعضاء في الدعاية علنا وعلى رؤوس الأشهاد . وتلقت الوحدة العون أيضا من الصحيفة البورجوازية الرائدة في المدينة(*)، وطبع صاحبها « وهو من العنصريين منذ أيام الحرب » بعض المطبوعات للفرع بدون مقابل .

وقدم نواك بعض ملاحظات هامة عن الصفات المميزة للأعضاء في هذا الفرع المحوري ، وذكر لنا شيئا ما عن مظاهر جاذبية الحزب الاشتراكي الوطني ، وقيل لنا أن « حفنة من الطلبة الحركيين كانت تسيطر على فرع جوتنجن الذي كان هاسه يتزعمه ، وارتقى بعضهم الى مراكز هامة داخل الحزب الوطني الاشتراكي ، بل وعلى مستوى الرايخ » . اذ كانت فئة الطلبة ، كما يجب أن يلاحظ ، وبخاصة حين ذاك ، تعني شيئا آخر أدنى من مرتبة الطبقة الوسطى .

ولقد فضل هؤلاء الأعضاء من الطلبة ، وكان أكثرهم كما يلاحظ من الشباب الأصغر سنا ، الحزب الاشتراكي الوطني على غيره من التنظيمات الشعبية بالنظر الى اتجاهه الراديكالي ، وأيضا لما « لشكله التنظيمي » من جاذبية كبرى . فلقد انفرد الحزب الاشتراكي الوطني بوجه خاص « بجاذبية شخصية الزعيم » (**) وبقوات العاصفة . وهما ميزتان لم تتوافرا للأحزاب السياسية الأخرى ، مما أكسبه علامع مماثلة للتنظيمات التي خبروها . والتي شكلت شخصياتهم ، يعني الجيش وكتائب المتطوعين .

وفي السنوات التي تلت محاولة انتفاضة هتلر واعادة انشاء الحزب ، شبت مشكلة ساعدت على ظهور اختلافات داخل الحزب ، وتركزت هذه المشكلة حول مسألة النشاط الانتخابي . وبعد التسليم بالقيود التي فرضت على أنشطة الحزب ، والتسليم بإمكان صدور أمر حظر كامل للحزب ، أعلن هتلر وجوب الالتزام بالشرعية ، ورفض كثيرون من مقاتلي الحزب هذا النهج الفاتر . وكان لودولف هاسه من بين الرافضين لدعوة هتلر ، ورفضت زعامة هانوفر وزعامة جوتنجن الاشتراك في الانتخابات المحلية في نوفمبر ١٩٢٥ . وفي ١٩٢٦ ، صممت هانوفر على المضي قدما ، وقبلت المبررات التي عرضها هتلر في الاجتماع الوطني في فيمار في هذه

(*) Tageblatt.

(**) Fuehrerprinzip.

السنة . ولكن جوتنجن واصلت الرفض التام لأي اشتراك في الانتخابات . وفي بدايات ١٩٢٧ ، أرسلت المدينة المجاورة برونزنيك شكاية الى هتلر تبلغه احجام اقليم جوتنجن عن اتباع اتجاه الحزب ، والصعوبات التي تنجم عن ذلك في الانتخابات القادمة . وتصور هذه الحادثة أسلوب هتلر في الزعامة . فبدلاً من أن يتدخل على الفور ويبادر بإعطاء أوامر مباشرة ، فإنه استمر يسائر الاتجاهات المتطرفة المعادية للبرلمان التي يتبعها زعماء جوتنجن ، واستمر على هذا الحال سنة أخرى .

ولا يتضح من الرواية التي ذكرها نواك ما الذي حصل في نهاية الأمر . فلقد أدى انحلال نشاط الاقليم ١٩٢٦ الى حدوث بعض الاهتمام في الدوائر العليا للحزب . ويعتقد نواك أن هاسه ربما عاد مرة أخرى للتفرغ لدراساته . وعلى نهاية ١٩٢٦ ، انتقلت الزعامة الفعلية للاقليم (جنوب هانوفر) الى طالب زراعي سابق ، واختفى هاسه من الصفحات الأخيرة لكتاب نواك . ولم يعد التنظيم بعد بلوغ الأحداث هذا الحد يعتمد على قدرات شخص واحد ، وعندما اشترك في الانتخابات في نهاية المطاف ١٩٢٩ في الفترة التي ظهرت فيها ملامح الأزمة الاقتصادية واضحة ، نجح الحزب الاشتراكي الوطني في جوتنجن في كسب أكبر عدد من المقاعد في أي مجلس نيابي في ألمانيا باستثناء كوبورج ، وهي من المراكز الثقافية ومن منتجات المياه المعدنية ، ولها شهرة واسعة كملاذ يهجع اليه الضباط السابقون ، ولعل تركيز الحزب الاشتراكي الوطني عليها وعلى جوتنجن المدينة الجامعية قد أخرج السنة من أيدي الافتراض الذي لا أساس له عن اعتماد الحزب على عناصر من قاع الطبقة المتوسطة . وعلى أي حال فإن هذه المسألة تساعدنا على الاعتراف بما في هذا التحول الجديد من تعقيدات .

ويلخص نواك العلاقة بين الاشتراكيين الوطنيين وطلبة الجامعة ببساطة شديدة فيقول : ان الطلبة قد أثبتوا شدة استهواء النازية لهم . وقد أيد هذا الحكم نتائج انتخابات المجلس حيث كشفت قوائم الطلبة الألمان التابعين للحزب الاشتراكي الوطني عن نجاح منقطع النظير في سائر أنحاء البلاد . ومن الملامح الملحوظة لهذا التطور أن يسبق تغفل الحزب في ألمانيا كلها ، انتشار الإيمان به بين صفوف الطلبة . وظهر من نتائج الانتخابات في اتحادات الطلبة أن ١٨٪ أو يزيد من عشرات معاهد التعليم العالي في السنة الأكاديمية ١٩٢٩ - ١٩٣٠ قد صوتوا في سبتمبر ١٩٣٠ لصالح الحزب الاشتراكي الوطني ، أي قبل أن يحصل الحزب على نسبة ١٨٪ من أصوات الناخبين في الانتخابات العامة .

وأجرت إحدى الصحف الليبرالية (*) تحليلا لهذه الانتخابات في يوليو ١٩٣٣ ، وبعد أن أعادت ترديد بعض الآراء المتواترة كفكرة مجتمع الكتل البشرية ، وفكرة الطبقة المتوسطة المهددة ، استخلصت القول بأن الطلبة الأحرار (يعنى أولئك الذين لا يشتركون في أية جماعات اخوانية) (**) كانوا الأكثر عرضة لتأثير الحزب الاشتراكي الوطني . غير أن فواك بين أن ما حدث في جوتنجن لم يترتب عليه سوى تبدل بسيط . إذ فقد الإخوان أربعة مقاعد في انتخابات ١٩٢٩ - ١٩٣٠ ، وكسب الاشتراكيون الوطنيون أربعة مقاعد واحتفظ الطلبة الأحرار بمقاعدهم الوحيدة .

ومن ناحية الايديولوجيا والمعتقدات ، فقد كان الارتباط وثيقا للغاية بين تنظيمات الطلبة والاشتراكية الوطنية ، إذ مثلت هذه التنظيمات الطلابية ما يخطر على بال أن يكون ريادة الحركة المناهضة للسامية في البلاد كلها ، وكان التأثير الجماعي قويا للغاية . ففي اجتماع وطني لممثل الطلبة في ايزنباخ ١٩٢٠ ، اتخذ قرار بحظر التعامل مع اليهود . وشجعت الوحدات الفردية على غرس الاعتقاد : « بوجود الاستبعاد المطلق لفكرة اقدام المواطنين على الزواج بامرأة يهودية أو ملونة » . ونظمت مظاهرات ضد الأساتذة المشتبه في انتمائهم الى اليهود ، اشتركت فيها هذه التنظيمات في عشرينيات هذا القرن ، وأقدم مئتان من طلبة جامعة التكنولوجيا في هانوفر على مقاطعة إحدى المحاضرات ١٩٢٥ ، وأمرت الجامعة بإحالة ١١ من الطلبة الى مجالس التأديب بينما نقل ١٢٠ من أبناء الجامعة (عددهم ١٥٠) الى جامعة تكنولوجيا أخرى بالقرب من برونزفيك .

وفضلا عن ذلك ، فلم يكن شعور الطلبة بالاستهواء نحو هتلر من الأمور التي بدأت في أواخر العشرينيات فحسب ، فلقد عقد اجتماع في جامعة ميونخ في ١٢ نوفمبر ١٩٢٣ بعد محاولة الانتفاضة بثلاثة أيام ، وحضره اثنان من العلماء وبعض الأساتذة المرموقين . ولقد هدف الاجتماع ظاهريا الى المصالحة ، وجاء في تقرير الشرطة أن الكلية حاولت تهدئة الروح المتطرفة ، بينما عمدت في ذات الوقت « الى الاعتراف بالأهداف الوطنية الصحيحة لهتلر ورفاقه ، وأدانت - من ناحية أخرى - الحكومة أيضا ، بيد أنهم رغم كل هذا عجزوا عن منع المظاهرة العاصفة المؤيدة لهتلر » .

Vossische Zeitung. (*)

fraternities. (**)

ويعرض هارولد جوردون بعض معلومات عن وظائف أعضاء الحزب في بافاريا قبيل الانتفاضة . فمن بين ١١٢٦ من الأشخاص الذين توافرت البيانات عنهم كان هناك عشرون ممن تدربوا على مهنة التدريس في الجامعة (الجامعة التكنولوجية وجامعة اعداد معلمى المدارس الثانوية) . أما الأغلبية فكانوا من مدرسى المدارس الثانوية (الجيمينازيوم) . وكان هناك ١٤٠ من الطلبة الجامعيين ، وأعداد متفرقة من باقى الطلبة ، و ٢٧ من مدرسى مدارس الأجرومية . ولست بحاجة الى أرقام احصائية مقارنة للتعرف على مدى تمثيلهم العام للبلاد بأسرها . ويذكر جوردون أن طلبة ميونخ كانوا يجندون من أجل الحزب في مواطن اقامتهم ، يعنى في أقاليم بافاريا . ولقد تأثر توقيت انتفاضة هتلر - الى حد ما على أقل تقدير - باشتراك الطلبة . اذ مساعد رجوع الطلبة للجامعة للالتحاق بالفترة الدراسية التى تعقد فى الشتاء ، على تضخيم أعداد قوات العاصفة بدرجة ملحوظة ، ، ويقول جوردون أن هؤلاء الشباب كانوا يفيضون حماسة للقضية ، وشديدي التلهف لاداء دور ما . ولم يقتصر الأمر على شعورهم بالفضب لتأخر الاستعانة بهم ، فلقد خشوا أيضا أن يؤدى انهماك الطلبة فى الدراسة الى فتور النشاط السياسى عند أكثرهم . وقدم الطلبة مساعدات فى مواضع أخرى . ففي مانهايم ، نظمت إحدى الجماعات (*) مسيرة انضمت كوحدة متكاملة الى الانتفاضة .

ويمثل هذا الفريق من الطلبة طليعة المشتركين فى مرحلة فيمار . انهم الطلبة الذين اشتركوا فى الحرب ، أو تأثروا بها على نحو ما . وكانت دوافع المجندين من الطلبة الذين ظهروا بعد ذلك مختلفة نوعا . ويذكر نواك ان الجماعة الاخوانية ظلت بمعزل عن الاشتراكية الوطنية بفضل نظرتها التقليدية الممثلة للطبقة المتوسطة العليا ، والتى تعزف عن الاشتراك فى السياسة ، اذ كانت الحركة القومية هى شاغلهم الشاغل ، فكانوا يحتفلون بالمعطيات التقليدية ، ويضعون شعارات ملونة ، ويفرطون فى الشراب ، ويترنمون بالاناشيد الوطنية ، ولكنهم - كما قال - بعيدون تماما عن الاشتراك فى مسيرات الشوارع ، ومشاجرات قاعات « البيرة » ، التى اشتهر بها الاشتراكيون الوطنيون . بيد أنه فى نهاية المطاف ، وبخاصة بعد أن بدأ الكساد ، تأثر المنتسبون لهذه الجماعة الاخوانية ببعض الأفكار ، التى استتارت كثيرين من هؤلاء المثالبين الذى ظلوا حتى ذلك الحين عزوفين عن الاهتمام بالسياسة ، فآثروا الحركة التى تنصدر فيها الناحية العملية على النواحي النظرية ، الحركة التى استغلت اتهام شباب الطبقة المتوسطة العليا بالشعور بالذنب لعزلتهم الاجتماعية ، والتى

استطاعت أن تضرب على الوتر الحساس لمثالياتهم عندما زعمت اتباعها لسياسة اشتراكية وثيقة الصلة بالعمال ، على عكس ما تزايد اعتباره اتجاه التنظيمات المعادية الى الانطوائية وعدم الاشتراك فى الأنشطة الاجتماعية . وأتاح النازيون لطلبة الطبقة المتوسطة فرصة اشباع اهتماماتهم الاجتماعية ، بينما ظل مخلصا لقيمهم القومية النابعة من صميم الشعب ، وأتى رفضها المثالية البديلة لليساى .

وبالاستطاعة عزو ما اتسم به الحزب الاشتراكي الوطنى من اجتهاد وكفاية وحرص على اتقان منجزاته الى هذه العملية الانتقائية الفريدة ، التى كانت تحسن اختيار من ينضمون الى صفوفها ، من أهل الاقتدار ، ومن بين من يشعرون بدوافع معادية لجمهورية فيمار ومثليها ، وبالإضافة الى ذلك ، فلقد كان الحزب قادرا على ملء صفوفه وزيادة أعدادها بالاستعانة بالطلبة القوميين ، واختيار مرشحين جدد من أبناء جيل الشباب .

تدريب أعضاء الحزب

زودت عمليات الانتقاء الحزب بكوادره ومناضليه ، وأمدته بمواهب متفردة تتصف بقدر غير مألوف من الالتزام . وكانت هذه المواهب تتلقى فيما بعد صفلا وتهذيبا ، يجرى عن طريق طائفة من البرامج التدريبية الخاصة . وقد عادت هذه النواحي على كفاية الحزب وقدرته على الأداء بأفضل الأثر . وكان المجندون ، وبوجه خاص المختارون من كتائب المتطوعين والوحدات القريبة الشبه بها من المتخصصين فى تنظيمات القتال على نطاق واسع ، وتسييره . غير أن تعليمات هتلر الخاصة بإعادة انشاء الحزب نصت على الالتزام بالشرعية ، ومن ثم توجب على الحركيين الاشتراك فى الأنشطة الانتخابية الروتينية التى تجرى من حين لآخر . وتعارض هذا المطلب هو والمبادئ الأولية للعديد من قدامى المقاتلين ، وتسبب ذلك - كما رأينا - فى وقوع خلافات داخلية كبيرة ، وإن كان بعض هؤلاء المقاتلين قد تأقلموا بغير عناء ، وسرعان ما شعروا بالاعتباط لقدرتهم على سحق العدو باستعمال نفس أسلحته . غير أن بعضا منهم رأى لأسباب فنية عدم سهولة هذا التأقلم والتحول ، لأنهم كانوا قادرين على الاسراع بإصدار الأوامر المناسبة فى حالات الاشتباكات المباشرة . أما أعداد الخطب الانتخابية فبدأ لهم أمرا مختلفا عن مضمار تفوقهم .

على أن براعة الحزب تجلت مرة أخرى فى طريقة حل هذه المشكلة ، فلقد أنشأ مدارس لأعداد التدريبات الضرورية . وبالنظر الى أن الخطب العامة من المسائل الجوهرية لكل أنشطة الحزب لنا رأى دراسة هذه

الناحية دراسة فاحصة للتعرف على كل دقائقها ، ومرة أخرى بوسعنا أن ندرك مدى التعارض بين محاولات الحزب في هذا الشأن ومحاولات خصومه .

واستقر الرأي على انشاء « مدرسة للمتكلمين » ، تكون بالضرورة مدرسة تعليم بالمراسلة . وبدأت على المستوى المحلى فى اقليم بافاريا العليا . وسرعان ما اعترف بقيمتها ، واتخذت شكل مدرسة الناطقين الرسميين باسم الحزب الاشتراكى الوطنى فى يونيو ١٩٢٩ . وتمشيا مع ما جاء فى مذكرات هملر أصبح هدفها : « تزويد المتحدث بمادة لا خلاف عليها تصلح لمختلف المناسبات حتى يتسنى له اعتمادا على معرفته الوثيقة أن لا يتعرض من البداية لهزة شبيهة بما يسمى « رهبة المسرح » اذا ادرك من البداية « عدم قابلية مادته للنقض حتى من قبل الد خصومه » . ومن ناحية أساسية ، كان ما فعلته « مدرسة المتكلمين » هو تجميع أصحاب المواهب الطبيعية غير المدربة ، وتدريبهم باتباع تعاليم روتينية أساسية تساعد على غرس الثقة عندهم ، وتأهيلهم لعدم تهيب محاولات التكلم فى المناسبات العامة . وفى ذات الوقت اظهارهم أمام من يستمعون اليهم بمظهر من يملكون ناصية الكلام . وكان الاسلوب المتبع يمر بالخطوات الآتية :

« بعد تزويد الطالب ببعض التعاليم النظرية ، يطلب منه حفظ أحد الأحاديث البسيطة ، والتدريب على القائها أمام المرآة . وفى الوقت نفسه يكتب الطالب حديثا من عندياته يرسله الى المسئولين عن المدرسة لتصحيحه ، ويعاد الحديث مصححا ، وترفق به أسئلة تعرف الطالب موضوع الشهر التالى ، فمثلا : « اذا تلقيت رسالة من عامل مصنع يشكو من انخفاض أجره ، فماذا تجيب عليه ؟ » وهكذا كان لمعهد التدريب غايات محددة للغاية ، فليس من اختصاصاته تقديم أية تعاليم سياسية على نطاق واسع ، ولكنه يزود أكبر عدد من « المتكلمين » ببعض معلومات عن أوليات أو أصول تقنيات الأحاديث العامة ، ويقدر كبير من الأحاديث الجاهزة وبعض الاجابات التى تحفظ عن ظهر قلب للاستعانة بها فى اجابة الأسئلة النمطية المقدمة من المستمعين » .

وبعد أربعة شهور من مثل هذا التدريب ، يقدم المرشح حديثه الأول فى حضرة زعيم فرع الحزب بالاقليم ، الذى يرسل تقريرا بذلك الى المدرسة . « واذا رتب أن الأداء كان مناسبا ، تخصص الشهور الثمانية الباقية من التدريب للممارسة الفعلية ، فيقدم الطالب بعض الأحاديث التى لا يقل عددها عن ثلاثين حديثا عاما قبل اعلان صلاحيته كناطق رسمى باسم

الحزب ، ، ويصف « أورلو » هذا المنهج « بأنه بدائي ، ويمثل نظرة محدودة الأفق ، وإن كانت عظيمة الفاعلية » .

وكان المتوقع أن يعلن زعماء الأقاليم أسماء المرشحين في أقاليمهم (بواقع اثنين عن كل اقليم) . وأرغم الطلبة على دفع مصاريف الدراسة (ماركان شهريا) ، وبذلك أثبت المختصون مرة أخرى وجوب عدم تكبد الحزب أية تكاليف اضافية زيادة على ما يمكن تحصيله من الدراسين ، كلما سمحت الظروف بذلك . وإذا انتقلنا الى ما حدث في مايو ١٩٣٠ ، سنرى أن ألفين وثلثمائة من أعضاء الحزب « قد شاركوا في المسيرة » : ويقال ان المدرسة أو المعهد قد دربت ستة آلاف من الناطقين باسم الحزب في يناير ١٩٣٣ .

ووزع الحزب قوائم بالمتحدثين باسمه ، لمعاونة التنظيمات المحلية في تخطيط برامجها . ومن البديهي أن يتفاوت مستوى الناطقين باسم الحزب تبعاً لقدراتهم ، وأستعين ببعضهم في تجمعات المدن الكبرى ، ووجه الآخرون لمخاطبة تجمعات الريف الأصغر (حيث لا يحتاج الحديث المعد الى تفريعات كثيرة) . ولما كان الحزب قد سلم بقصور كثير من هؤلاء الناطقين باسمه ، لذا فانه لم يأمل في نجاحهم في اقناع أية أعداد كبيرة من الألمان غير المنتمين للحزب بالادلاء بأصواتهم في الانتخابات أو الانضمام للحزب الاشتراكي الوطني ، ولكنه كان يتطلع الى قيامهم بعرض أهداف الحزب ، على أهل القرى ، والتأثير في عدد ولو قليل من المستمعين ، واستحثائهم على التوجه الى أقرب مدينة للاستماع الى ما يقول المتحدث باسم الاقليم ، الأفصح بيانا والأعظم تأثيرا ، وعمل « الناطقون » على تقسيم أنفسهم الى تخصصات تبعاً لموضوع الكلام . فمثلا لم يقتصر الناطق باسم اقليم بافاريا العليا على تعيين ناطقين باسمه يتحدثون في موضوعات مقننة بمعرفة الحزب الاشتراكي الوطني كاليهودية والماركسية والجنس والريف والتاريخ ، ولكنه خصص ناطقين لمهاجمة « حزب الشعب » البافاري .

لقد تحدثت الفقرات السابقة الذكر عن ما قدمه الحزب لوحداته المحلية . وبلاستطاعة تصور ما هدفت اليه العمليات بالرجوع الى الوحدات ذاتها ، والى نظرات الأشخاص الذين عملوا ناطقين بلسان الحزب ، والتي يمكن استخلاصها مما ذكره نواك . فمثلا ما الذي يدفع شخص ما للنهوض بهذه المهمة ؟ ولماذا يمضي أعضاء الحزب فترة من الزمن قد تستمر لمدة سنة كاملة في إحدى الفرق التعليمية ، يتكبدون فيها المصروفات المطلوبة ، بالاضافة الى عملهم الأساسي كأعضاء منتظمين مضطرين الى حضور العديد من الاجتماعات ؟ ويرد نواك على ذلك بأن دافع كثيرين كان الحاجة للمال ،

اذ كانوا يدفعون « للناطق » سبعة ماركات عن الحديث الواحد ، ويسمح له بالمبيت مجانا عندما يعتمد عن داره « ويبدل سفر » . ولكن عندما ساءت أحوال العمل « تزايدت أهمية الاشتغال بهذا العمل ، بعد أن أصبح ايراد أعضاء كثيرين يعتمد على عملهم كناطقين رسميين ، وأصبح هذا العمل موردهم الوحيد » .

وتفسر هذه الحقيقة ديناميات الحزب الى حد ما . اذ كانت لديه حوافز قوية لمواصلة النشاط السياسى بعد انتهاء الحملة الانتخابية . ففي مايو ١٩٣٢ مثلا ، وبعد جولتين من انتخابات الرئاسة والانتخابات البروسية ، برز الحزب محاولاته المستمرة بحاجته « الى الاستعانة بالمتحدثين عن الاقليم الذين فقدوا وظائفهم الأصلية فى سبيل عملهم من أجل الحزب ، فعلى ان نساعدهم على مواصلة عملهم حتى يصبحوا مستعدين لخوض الانتخابات القادمة » . وفى هذه الدائرة وفى دائرة جنوب برونزفيك واقليم هانوفر ، كان هناك ٣٢ من أمثال هؤلاء الناطقين . على أن هذا الاجراء لم يقصد به صالح « الناطق » فحسب : « اذ كان فرض رسم دخول لحضور الاجتماعات حافزا ايضا لقادة الفروع للاطئنان الى اكمال تنظيم الاجتماعات وتحضيراتها من الناحية الاعلامية » .

وهكذا ساعدت هذه الوسيلة التافهة ، أى فرض رسم دخول على اجتماعات الحزب الاشتراكى الوطنى على تحويل هذه الاجتماعات الى مبادرة مربحة ، اذ أصبح بالاستطاعة دفع مكافأة الماركات السبعة للناطق باسم الاقليم من حصيلة رسوم احدى الأمسيات ، وبالمقدور أيضا اطعامه فى دار أحد الأعضاء ، واذا لزم الأمر فلا بأس أيضا من استضافته طرف أحدهم . وحتى اذا اضطر « الناطق » الى تناول طعامه فى الطريق العام ، وتمضية الليلة فى دار الضيافة ، فان التكاليف لن تكون فاحشة . وبذلك يتسنى انفاق ما تبقى من مال للأغراض التنظيمية والدعائية التى يحتاج اليها لتمويل الأحداث التالية ، ولربما تكلف المتحدث الذى يحظى بشهرة قومية أو عضو البرلمان ما هو أكثر . ولما كان أمثال هؤلاء الأشخاص يكبدون مصاريف ومطالب أكثر ، لذا لم يكن من اليسير تكليفهم بهذه المهام ، وان كان النفوذ الأكبر الذى يتمتع به هؤلاء الأشخاص قد يفرى منظمى الاجتماعات لدعوتهم توقعوا لحضور جمهور أكبر يدر تبعا لذلك ايرادا أكبر .

وكان موقف المتنافسين فى الحزب الاشتراكى الوطنى فى هذه المسألة ، وبخاصة داخل الأحزاب البورجوازية مهلكا . اذ كانوا لا يتقاضون أى رسوم دخول ، فكانت اجتماعاتهم تتكبد نفقات طائلة ، لا يحصلون فى مقابلها على أى عائد ، ولم تتوافر لهم أية كوادر كبرى

للتخطيط المسبق وتنظيم الاجتماعات ، وكانوا يفتقرون إلى نواة مادية من المتحدثين المتخصصين . وفضلا عن ذلك ، فقد كان معظم متحدثيهم يشتغلون في مهام تشغل كل وقتهم . ومن ثم لم يتسن لهم توفير وقت مكافئ لهذا الجهد ، كما هو الحال فيما يتعلق بالناطقين بلسان الحزب الاشتراكي الوطني ، وتسبب الكساد في الحاق خسائر فادحة بموقفهم . فتضاءل عدد الأعضاء ، وترتب على ذلك تخفيض المكافآت المستحقة لهم والاسهامات الطوعية وبذلك وهنت قدرتهم على عقد اجتماعات (أو للدعاية بالصحف) بدرجة حادة ، في الوقت الذي انطلق فيه الحزب الاشتراكي الوطني على نحو لم يسبق له مثيل .

ولا يستبعد أن تكون هذه التجارب المتباينة قد أثرت على الروح المعنوية للحزب تأثيرات متعارضة ، ففعل المحليين في فسروع الحزب الاشتراكي الوطني قد أدركوا احتمال نجاح محاولتهم ، وأن المعرفة قد تساعدهم على مواصلة السير والاعداد للجولة القادمة ، على أن الأثر المقابل لذلك قد حدث في إحدى قرى برونزفيك (*) في أبريل ١٩٢٨ . فعلى الرغم من توزيع مائتي تذكرة دعوة ، لم يحضر أكثر من اثني عشر شخصا ، وكانوا جميعا من أعضاء الحزب الاشتراكي القومي ، وأدرك « المتحدث » أن هذا الاجتماع لن يحقق أي نفع من الناحية التثقيفية ، وأنه أسوأ ما حضر من اجتماعات ، « ففي كل مرة أبدا فيها الكلام ، يقاطعني شخص ما ، ولم يكن بين الحاضرين أي شخص من نوعيتنا . اذ كانوا يهابون وسائل الحزب الاشتراكي الوطني » .

وقاز في أول انتخابات رئيسية يشترك فيها الحزب الاشتراكي الوطني في سبتمبر ١٩٣٠ عدد ١٠٧ . غير أن تصورهم لما يمكن أن يحققه البرلمان قد ضل سواء السبيل ، اذ اتجهت أنشطتهم اتجاهها مختلفا . وقد عبر هتلر عن هذا المعنى قبل ذلك ، أي ١٩٢٦ عندما أعلن : « إن أهم ما سنعنى به هو تدبير تذكرة السفر للمبعوث ، لأن هذه الوسيلة ستيسر لنا إيقاد متخصصين في إثارة المشاعر ، وبذلك تخدم مصلحة الحزب ، إن الرجال الذين يمثلوننا في البرلمانات لا يسافرون إلى برلين للادلأ بأصواتهم ، ولكنهم يدورون في كل مكان دون أن يعترضهم أحد بفضل التذاكر التي يحملونها ، والتي تعود بالنفع على الحزب » . ولقد تمكنا باتباع هذه الوسيلة إلى حد كبير من عقد ٢٣٧٠ اجتماعا للجماهير في السنة الماضية . وأشار جوبلز إلى نفس النقطة بعد انتخابه للرئيس في ١٢٩٨ : « لست عضوا في البرلمان فانا أستاذ في المناعة وأستاذ في

تصاريح السفر بالقطارات . وباختصار لقد ساعدت تصاريح السفر بالقطارات الحزب بأن يسرت له إيقاد ناطقين باسمه بمقدورهم الظهور في الأوساط المحلية بتكاليف زهيدة نوعا . ولم يكن أعضاء البرلمان يشاركون عادة في الأعمال البرلمانية ، فعلينا أن لا ننسى أن الحزب قد نظم تظاهرا تمثيليا عند خروجه من البرلمان في فبراير ١٩٣١ ، ومن ثم فانه اهتم بتفريغ مبعوثيه للمشاركة في هذه العملية الدعائية التي يمتد أثرها الى نطاق أوسع .

ولقد تقدمت تقنيات السياسة أيضا كنتيجة ثانوية للاجتماعات السنوية التي تحضرها الجماهير ، ولقد تركزت معظم اهتمامات المؤرخين على تشكيل جموع نورمبرج والاجتماعات التي يلقي فيها هتلر خطبه ، وعلى ما في هذه الاحتفالات من مظاهر تتنافى والعقل . الا أن الصورة بعد معرفة جذور هذه الفكرة ستبدو مختلفة نوعا . اذ كان الأعضاء يؤلفون جماعات تبنت في الخيام ، أثناء فترة اقامتهم ، ويتوافر لهم الوقت لتوثيق علاقاتهم الاجتماعية بطريقة بعيدة عن الرسمية ، اما قبل الأحداث الجسام ، أو في المساء المتأخر بعد وقوع هذه الأحداث . وكانت المناسبة تسمح أيضا باستيعاب التجربة أو الاستفادة منها . وكتب أحد أعضاء الحزب الوطني الاشتراكي في مذكراته بأن الاجتماع كان يشعره بحجم الحركة ، وبأنه جزء من حركة كبرى متباينة الغايات ، وتركزت ملاحظة أخرى من ملاحظاته على تنوع أساليب الكفاح . وكما قال : « يختلف الكفاح باختلاف المكان . فهنا يتشاجرون ويتخاصمون مع أوغاد ومنحرفين . وهناك ينشب نزاع مع بعض القرويين السمان العقل (المحدودي الذكاء) . ويدافع أبناء جنوب ألمانيا عن أنفسهم ضد الكاثوليك الذين يسعون للخلط بين الكنيسة والسياسة . ويتلهف المنتمون لشرق بروسيا لمعارضة أي رد فعل . وفي المدن الكبيرة ، كانت « الكوميونات » تعارض وتناور . أما شرق هانوفر فكانت تكافح ضد « الجويلف » (أي أدعياء الانتماء الى الحكام الدوقات القدامى) . نعم هناك اختلاف بين كل بقعة والبقعة الأخرى ، ولكنه لم يحل دون اشتراك الجميع في الكفاح ، لانهم يعترفون بالحاجة الى أنواع مختلفة من الحلول والتكتيكات . وهذا اعتراف يغيب في الأغلب عن الكتب الجماهيرية والعلمية على السواء التي كتبت في هذا الموضوع .

المراجع

- T. Abel, *The Nazi Movement : Why Hitler came to Power ?* 1938.
- W. S. Allen, *The Nazi Seizure of Power : The Experience of a Single German Town 1930-1935* (1965).
- R. Bessel, *Political Violence and the Rise of Nazism : The Storm Troopers in Eastern Germany 1925-1934* (1984). —
- A. Bullock *Hitler : A Study of Tyranny* rev. ed (1964).
- T. Childers, *The Nazi Voter : The Social Foundations of Fascism in German 1919-1933* (1983).
- H. J. Gordon Jr, *Hitler and Beer Hall Putsch* 1970.
- E. C. Helmreich, *The German Churches under Hitler : Background, Struggle and Epilogue* 1979.
- M. H. Kater, *The Nazi Party : A Social Profile of Members and Leaders 1919-1945* (1983).
- P. H. Merkle, *Political Violence under the Swastika* 1975.
- J. Noakes, *The Nazi Party in Lower Saxony 1921-1933* (1971).
- D. Orlow, *The History of the Nazi Party 1919-1933* (1969).
- D. Schenbaum, *Hitler's Social Revolution : Class and Status in Nazi Germany* (1966).
- M. Steinberg, *Sabers and Brownshirts : The German Student's Path to National Socialism 1918-1935* (1971).
- J. Stephenson, *The Nazi Organization of Women* (1981).
- R. G. L. Waite, *Vanguard of Nazism : The Corps Movement in Postwar Germany 1918-1923* (1962).

كيف ظهر تاليه شخصية ستالين

روبرت . س . تاكر

حملت جميع الأنظمة الديكتاتورية التي ظهرت بين الحربين العالميتين في ثنائياها مبدأ تاليه شخصية الزعيم ، وبعبارة أخرى ، فإن الشخص الذي يعترف به كزعيم ، لا يقتصر الأمر على تركيز الانتباه العام عليه ، وتوجيه قدر عظيم من الاحترام لشخصه ، ولكن أصبح ينظر اليه كمؤثر مباشر فذ على كل من السياسة والايدولوجيا في الحزب والدولة معا . ونسبت قوى خارقة للعادة الى جانب القدرة السياسية والاقتصادية والبصيرة للزعيم الذي اضحى في جميع الجوانب على وجه التقريب اعظم من الحياة ذاتها ، وكان هذا ما حدث في حالة موسوليني وهتلر على سبيل المثال ، غير انه مما لاشك فيه ان اعظم حالات تاليه الأشخاص اثرا واطولها بقاء كانت مظاهر القداسة التي احاطت بشخص ستالين في الاتحاد السوفيتي . ولا يرجع توطئها الى كونها نتيجة لا مناص منها للايدولوجيا الشيوعية ، او لأنها من موروثات الثورة البلشفية فحسب . فالحق انها سارت في اتجاه معاكس للظاهرتين ، والأرجح هو ان تاليه شخصية ستالين كان الى حد بعيد من صنع ستالين نفسه .

وبدا تاليه شخصية ستالين يبرز كظاهرة ١٩٣٠ على وجه التقريب . ففي هذه السنة ، كان قد وُطد هيمنته على الحزب الشيوعي السوفيتي ، وان لم يكن ذلك بصفة مطلقة . وبوجه خاص ، ولهم جلالت الموقف ، فلقد ألقى ستالين تروتسكي من الحزب ، واعتبر معتقداته اخطر انحراف عن الفهم الصحيح (يعني الستاليني) للايدولوجيا الشيوعية . وفي ذات الوقت ، قدم ستالين نفسه كخليفة لينين الطبيعي والدائم الاخلاص والوفاء لآمد طويل . فلا عجب اذا اتهم احيانا خصوم ستالين

مقلا عن The Rise of Stalin's Personality Cult
تأليف
Robert C. Tucker
American Historical Review
ضمن مجلة
الجزء ٨٤ (١٩٧٩) ص ٣٢٧ - ٣٦٦

– الذين لا يصح اتهامهم بالتعاطف على تروتسكى – بالمشفية او بالايمان
بنظرة الاشتراكيين الروس الذين وقفوا من بلشفية لينين مؤلف العناء .
وعهد ستالين الى تغيير معانى جميع هذه المصطلحات والايديولوجيات ،
واعاد تعريفها بما يناسب المقام .

وابان ١٩٢٩ و ١٩٣٠ خطا ستالين خطوتين حاسمتين لتسليم الهالة
المقدسة التى احاطها بنفسه ، واعتبر شخصه المصدر الموثوق فيه والرائد
فى تفسير نظريات الماركسية ، واضيف اسمه الى اسماء ماركس وانجلز
ولينين ، ثانيا – وضع صيغة لتصوره لتاريخ الحزب البلشفى ، تزعم انه
ادى دورا اهم من الدور الذى نهض به بالفعل فى بواكير حياته ، واحتاجت
ادعاءاته المزعومة كصاحب نظريات ومؤرخ اعادة كتابة الماضى ، وتزييفه
على نطاق واسع جدا . بيد انه بحكم السلطات الرهيبة التى كانت تحت
امره ، لم يصادف اية مشقة فى العثور على اصحاب القلم القادرين على
الاضطلاع بهذه المهام . ومنذ ذلك الحين اصبح تاليه الثنائى لينين المائت
وستالين الحى ، جزءا لا يتجزأ من الحياة السوفيتية الى ان قام خروشوف
بشبه ستالين سرا فى مؤتمر الحزب سنة ١٩٥٦ .

ان تاليه لينين ، الذى عارضه هو بالذات وحاول ايقافه عند حده ،
الى ان اصيب بالاعياء فتقاعد اثر نوبة قلبية أصابته فى مارس ١٩٢٣ ،
قد أصبح فيما بعد طابعا مسزا متغلغلا فى الحياة العامة السوفيتية .
ولا وجود لسبب أوحد يفسر كيفية تفشى هذه الظاهرة ، وليس من شك
ان البلاشفة كانوا يعظمون باخلاص الزعيم باعتباره الزعامة الشخصية كانت
ذات أهمية حيوية للحركة منذ بدايتها الى ان استولت على السلطة ،
وايضا لما حققته عندما وضعت أسس النظام السوفيتى ووطدت أقدامه
فى السنوات اللاحقة . غير أنه من الحقيقى أيضا أنه بعد موت لينين ،
احتاج النظام – براجماتيا – الى رمز يعبر عن سلطانه ، ويعد بالمثل
تاليه لينين الذى بدت أصداؤه النخمية المتصاعدة متنافرة مع المذهب العلمانى
الذى يزعم الحزب الشيوعى اتباعه ، مثالا لكيفية احتواء الثقافة السوفيتية
على عناصر متوارثة من الماضى الروسى ، كانت فى هذه الحالة هى تاليه
الحاكم ، اذ ظل الشعب الروسى قرونا طويلة مؤلفا من أعداد كاسحة من
القرويين ومتعلقا بالنظام الموناركي . وفتحت الثورة الباب أمام العديد
من أبناء الفلاحين لشغل مراكز مرموقة فى المجتمع الجديد ، وأدى الاتجاه
نحو التصنيع ، وطبع الحياة بالطابع الجماعى الى تجنيد ملايين من
الأشخاص الذين ينحدرون من صلب المزارعين للعمل فى ميدان الصناعة ،

وصحبوا معهم بالاضافة الى تجربتهم السوفيتية ، وتعلمهم على طريقة السوفيت رواسب من العقلية القروية التقليدية ، التي ضمت احترام السلطة الشخصية سواء صدرت عن الرئيس المباشر ، أو من رأس الحزب والدولة . وهكذا كانت الأوضاع الاجتماعية في روسيا عند حدوث التحول الكبير (١٩٢٩ - ١٩٣٣) مهياة لتقبل مبدأ تأليه الزعيم حيا أو ميتا . . .

وقبل لينين التدليل العام على مفضى في عيد ميلاده الخمسين (١٩٢٠) . وحتى آنشد فانه نفر - بجفاف - من المديح الذي غمره به رفاقه . وهكذا يكون تأليه ستالين قد انحرف عن التقليد البلشفي المأثور ، باعتباره مثل استملاقا عاما للزعيم حي ، فكيف اذن بزغ تأليه ستالين ومتى؟

● السياسة الواقعية بعد اختلاطها بالاحتياجات السيكلوجية ●
كان تأليه ستالين ، الى جانب تأليه لينين - بعد أحداث تكامل بينهما - يرمى الى زيادة انصباب مكانة ستالين على نحو يفوق ما كان عليه الحال في بداية الثلاثينيات ، فعلى الرغم من أنه حظى بعون لا بأس به ، وربما بالشعبية داخل دوائر الحزب أثناء السنوات الأولى التي أعقبت موت لينين ، الا أن ستالين لم يتمتع البتة بأية حظوة يمكن أن تقارن ولو من بعيد بالحظوة التي نالها لينين ، وفضلا عن ذلك ، فان شعبيته قد تعرضت للتعويق في بواكير الثلاثينيات من تأثير النزوع بالاكراه الى الجماعية ، وما صاحب ذلك من مجاعة (١٩٣٢ و ١٩٣٣) . ولا وجود لآى دليل يوحى بأنه كان معرضا آنشد لقلبه . ومع هذا فلم يكن ستالين قد اكتسب حتى ذلك العهد السلطة المطلقة . اذ ظلت التقاليد الجدلية الانتقادية باقية (على أقل تقدير في الدوائر العليا للحزب) . ولم يتوافر له أى ضمان ضد ظهور معارضة جديدة ردا على ما وقع حديثا من بلايا ، ومن ثم فقد اهتم ستالين - بلا ريب - بصدد المتاعب التي قد تطرأ مستقبلا بجعل سيادته السياسية محصنة ضد أى اعتداء عليها ، وتمتع بقدر كاف من حدة البصيرة جعله يدرك أن ارتقاءه الى مركز مرموق مشابه لمركز لينين في اعلام النظام السوفيتي قد يكون ذا فائدة لتحقيق هذا الغرض . ورغم أهمية هذا التفسير ، الا أن الدافع السياسى وحده لا يمكن أن يفي لايضاح ما فعله ، فلم يقتصر الأمر على استمرار التأليه في التفاقم ، بعد أن تزايدت ساطته اتصافا بالطابع المطلق فيما بعد في الثلاثينيات ، الا أن هناك دلائل مباشرة وغير مباشرة تبين أن هذا الادعاء كان سندا لنفسيته ولسلطته أيضا ، قلما كان ستالين طموحا بلا حدود ، ولكنه لا يشعر بالأمان بينه وبين نفسه ، فانه أحس بحاجة تلغعه الى السعى نحو تأليهه تأليها بطوليا ، وهو اتجاه نفر منه لينين .

والظن بأن اسم « ستالين » قد رمز الى شخص ما بعد تصويره في صورة مثالية أضفت على صاحبها المثل لصفات أهل الأرض مثل هذه الصورة أمر لم يكن معروفا على نطاق واسع في روسيا . وتعكس هذه الحالة - من ناحية - محاولة ستالين المدروسة لتقليد المثل الذي ضربه لينين - في العلق - للتخلق في صورة بعيدة عن التكلف للتواضع . وفضلا عن ذلك ، فقد كان ستالين بينه وبين نفسه يزدري تكرار التخلق والتزلف فرأيناه مثلا يختتم رسالة بعث بها الى أحد البلاشفة القدامى (شاتونفسكى) في أغسطس ١٩٣٠ بالقول : « انك تتحدث عن ولائك لي . ولعل هذه العبارة قد انزلت عفوا . فإذا كانت هذه العبارة مجرد قول عابر فانتى أنصحك بالابتعاد عن مبدأ الولاء للأشخاص ، فهذه ليست من شيم البلاشفة . عليك أن تكرس ولائك الأول للطبقة العاملة ، وحزبها ودولتها . فهذا هو المطلوب . وهو أمر حسن . وإياك أن تخلط بين هذا النوع من الولاء والولاء للأشخاص الذي يعد ولاء أجوف ، ولا حاجة له ، لأنه من الأعيب أهل الفكر » .

غير أن الرجل رغم القناع الذي يرتديه من التواضع كان متعطشا للولاء الذي زعم ازدرائه ، وكشف عن ذلك بأفعاله ، وأفعال عملائه المثلين له ، وبقبوله التزلف الرسمي الذي ظهر في صورة مكثفة خلال الثلاثينيات . والحق أن ستالين في الشهر نفسه الذي بعث فيه بهذه الرسالة الى شاتونفسكى كذب في تصرفاته الخاصة هذه النصيحة بالذات . ففي يونيو ويوليو ١٩٣٠ ، شهد مؤتمر الحزب السادس عشر أتاوة المدائح العامة التي تهاملت عليه ، وقد ختم لويس فيشر الذي غطى ذلك الحدث (*) رسالته التي كتبها بعد انتهاء المؤتمر بالقول :

قد ينصح أي صديق طيب أيضا ستالين بإيقاف عربة تمجيد ستالين التي سمح باكتساحها للبلاد ، فيوميا تتدفق عليه مئات البرقيات التي تطفح بالمجاملات - على الطريقة الشرقية - المغالى فيها : انت أعظم زعيم ! وأعظم من لينين وما أشبه . وأطلق اسمه على ثلاث مدن ، وما لا يعد ولا يحصى من القرى والمدارس الجماعية والمصانع والمعاهد . وبدا أحدهم الآن حركة تدعو الى تغيير اسم سكة حديد تركيا سيبريا (**) لكي تصبح « خط ستالين الحديدي » ، ولقد تصفحت الجرائد التي صدرت في الفترة ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٢ ، ورأيت أن لينين لم يسمح قط بمثل هذه الأساليب المجوجة ، وتمتع بشعبية تفوق الشعبية التي

The Nation.

Svoloch7

(*) في مجلة

(**) (★★)

يتمتع بها ستالين ، والتي نأمل أن يبلغها . ان هذه المظاهر تكشف عن نقاط ضعف في خلق ستالين ، ومن المؤكد أن أعداءه - وهم كثر - سيستغلونها ، لأنها تتعارض وروح البلشفية ، كما أنها بعيدة عن الحكمة . ولو صح القول ان ستالين غير مسئول عنها ، الا أنه لا يضيف بها على أية حال ! . وبوسعنا أن يوقف كل هذا بضغط واحدة على أحد الأزرار .

وفيما بعد أسر أحد العاملين بالمكتب الصحفي في القوسيرية الخارجية - وكان من بين واجباته اخطار ستالين بما تقوله الصحف الأجنبية عن الشتون السوفيتية - أسر الى فيشر بأنه عندما ترجم الفقرة التي سبق الاستشهاد بها ، عقب ستالين عليها بقوله : « ابن الكلب ! » (*) . ولا يخفى أنه شعر بوخزة صدق الملحوظة التي بدت من فيشر ، وأحس بمسئوليته عن ظهور نزعة تأليه ستالين .

ولا يعرف على وجه الدقة متى شاعت عبارة التأليه هذه ودوافعها ، ولن يسهل تحديد ذلك . واذا اتخذنا الاحتفال الرسمي بميلاد ستالين الخمسيني (١٩٢٩) كبداية لهذه الظاهرة ، فاننا لن نصادف حادثة أخرى يمكن الارتكان اليها في تحديد هذه البداية ، أو أية سابقة أخرى في تاريخ الثورة البلشفية تدل على سبق ترحيب الآخرين بها . فلقد نظر الى بلوغ لينين سن الخمسين على أنها مناسبة لن تتكرر ثانية . ولعل كثيرين من شاغلي المناصب العليا قد رأوا أنه من المناسب بالمثل الاحتفاء ببلوغ ستالين سن الخمسين . وبعد ذلك بستة شهور جاء التهليل لهذه الفكرة في المؤتمر السادس عشر ، غير أن موجة الحماسة هددت مرة أخرى . وعلى الرغم من أن اسمه كثيرا ما ظهر في الصحافة السوفيتية ، فان الدعوة المستمرة لتأليه ستالين في وسائل النشر السوفيتية لم تظهر ١٩٣٠ ومعظم ١٩٣١ . بيد أنه بعد ذلك بفترة وجيزة بدأ استفحال الدعوة لتأليه ستالين ، الذي خطا بنفسه بعض خطوات للمساعدة على تحقيق ذلك .

وجاءت إحدى هذه الخطوات في الفلسفة ، وهي ميدان من الميادين العديدة التي تسابقت فيها مختلف مذاهب الفكر لاحتلال الصدارة في جو تعددي نسبي في حقبة السياسة الاقتصادية الجديدة (**) . وفي منتصف العشرينيات ، فقد أُنْصِرَ ما يدعى بالنزعة المادية مكانتهم المؤثرة السابقة ، واحتلت الصدارة مدرسة من الموالين للمجلد الهيجلي

بزعامة دبورين وجاء موقفهم ردا على دعوة لينين للفلاسفة الروس ١٩٢٢
لتكوين جمعية « الأنصار الماديون للجدل الهيجلي » .

وعلى الرغم من وجود بعض كتابات فلسفية لصالح لينين ، إلا أنه
لم يكن مستغربا أن يوضع اسمه بعد اسم جيورجي بليخانوف كفيلسوف
ماركسي ، فضلا عن ذلك ، فقد جنح أنصار دبورين للنظر إليه على أنه
انجلز عصره في ميدان الفلسفة (١) . أما ستالين فقد نظر إليه على عكس
ذلك في دوائر الحزب الشيوعي أي على أنه من العمليين (*) باستثناء
ما كتبه نظريا عن مشكلة القوميات ، وتقنيته للمذهب اللينيني في كتاب
« أسس اللينينية » ، وهكذا كان دوره في الفلسفة الماركسية صفرا .
وتوجد أدلة مثيرة للاهتمام لتأييد هذا الرأي في شكل قائمة نشرت ١٩٢٩
للكتابات التي يفترض المام بالمتحقيق للعمل بالمعهد الفلسفي للأكاديمية
الشيوعية بها مسبقا . ولقد أدرج ٣٣ عملا تحت بند المادية التاريخية
والجدلية ، يعنى الفلسفة . واستهلت القائمة بستة مؤلفات لماركس
وانجلز ، متبوعة بستة أعمال أخرى للينين ، ثم أربعة لبليخانوف ، ثم
سبعة لدبورين . ويحىء بعد ذلك تحت الرقم ٢٣ كتاب ستالين « مشكلات
اللينينية » ، ورغم مثل هذا الترتيب المتدني ، إلا أنه لا يستبعد أن يكون
اسم الكتاب قد أدرج من باب اللياقة فحسب . واختتمت القائمة بديكارت
وهوبز وهيوم وبركلي ، ولعل الفلاسفة الغربيين سيدهشون لذلك .

ولم يكن بقدر ستالين أن يقنع بذلك لأسباب سياسية وشخصية
معا . وبوصفه زعيم الحزب (*) ، وخليفة لينين ، رأى أن واجبه يفرض
عليه تبعا للتقاليد البلشفية أن يكون صاحب عقلية نظرية ماركسية خلاقة
من الدرجة الأولى ، بالمعنى السياسي ، ان لم يكن أيضا بالمعنى الفلسفي
التقني ، بيد أنه لم يتوقف عند هذه التطلعات السياسية التي يفرضها
دوره كزعيم . إذ كان يتطلع تطلعا شخوصيا للشهرة كأحد المنظرين
الماركسيين . وأدرك نيقولاى بوفارين - وكان يعرفه معرفة جيدة - وأكد
ذلك في حديثه السرى مع ليف كانيف ١٩٢٨ . واستمر ستالين لسنوات
يردد زعمه معرفة الفلسفة الماركسية ، وطرح ما تخيل أنه أصول المادية
الجدلية في مبحثه (١٩٠٦ - ١٩٠٧) : [القوضى أم الشيوعية] ، وفي
رسائله (١٩٠٨) التي ضايقت لينين ، وصف ستالين المجادلات الفلسفية

(١) Soviet Marxism and Natural Science-David Joravsky.

١٩١٧ - ١٩٢٢ - ص ٧٠ .

Praktik.

(*)

للينين مع جماعة بوجدانوف حول منهج الماخية (*) بأنها « زوبعة في قنجان » ، وامتدح بوجدانوف لاشارته « الى بعض أخطاء فردية عند اليتش (لينين) » .

وواصل ستالين في خضم أنشطته السياسية في السنوات الأخيرة محاولة تعظيم إحاطته بالماركسية كفلسفة . واستدعى جان ستين - وكان من رواد الفلسفة في منهج دبورين لارشاده عند دراسته للجدل الهيجلي . وتضمن المنهج التعليمي لستين - والذي استعين به فيما بعد في معهد الأساتذة الحمر - دراسة متوازية لكتاب رأس المال لماركس وفنومولوجية الروح لهيجل . وواظب ستالين على الالتقاء بستين مرتين اسبوعيا (من ١٩٢٥ الى وقت ما ١٩٢٨) ، ثم طالب ستالين بعد ذلك بإجراء وقفة ، وشعر ستين بالاحباط من جراء الصعوبات التي واجهها ستالين عندما أراد الامام بجدل هيجل (٢) .

وعبر ستالين عن الاتجاه المميز لمذهبه مستقبلا عندما أخبر مؤتمر الزراعيين الماركسيين في ٢٧ ديسمبر ١٩٢٩ بحاجة النظرية الماركسية الى مساندة الممارسة الجارية خطوة بخطوة . ولم يمض وقت طويل - كما رأينا - حتى رأينا اثنين من شباب البلاشفة من أهل الفطنة والميول الانتهازية في معهد الأساتذة الحمر : مافيل . ف ايودين ومارك . ب . مائين يؤيدان نفس الفكرة . واشتركا هما وأستاذ ثالث (ف . رالفتش في نشر مقال طويل في جريدة البرافدا ٧ يونيو ١٩٣٠) لمناصرة فكرة اتباع الفلسفة طريقا آخر في تصور المشكلات النظرية عند بناء الاشتراكية ، وممارستها . وأطروا على ستالين لأنه ضرب المثل في تعميق مفهوم الجدل الماركسي اللينيني ، فصاغ نظرية الكفاح في جبهتين : يعنى ضده انحراف اليسار واليمين معا ، ومطالبته بفلسفة مناظرة تدعو الى الكفاح في جبهتين ، وعلى الرغم من عدم مهاجمة كتابي دبورين صراحة الا أن المقال الملح الى تمثيل مذهبه للعدو في الجبهة الفلسفية الثانية . والواقع أن المؤلفين الثلاثة قد اضطلعوا بدور الريادة كنواة لمنهج ستاليني جديد في الفلسفة السوفيتية . وانعكس رضاء ستالين - ان لم نقل والهاماته أيضا - في الملاحظة الغذة التي نشرت مرفقة بالمقال ، والتي زعمت « ان المحررين قد ربطوا أنفسهم بالقضية الأساسية للمقال الحالي » .

(*) نسبة الى الفيلسوف النموي ارلست ماخ (١٨٢٨ - ١٩١٦) ولعله نقض مذهبه المادى الحسى الذى يرى قصر الفكر على ما يستطاع تجربته .

ولعله نقض مذهبه المادى الحسى الذى يرى قصر الفكر على ما يستطاع تجربته .

(٢) Roy A Medvedev : دعوا التاريخ يحكم : اصل الستالينية وعواقبها .

تعرف روى ميديف على ما دار من حوار بين ستالين وستين ، من حديق ستين : E. P. Frolov.

وما لبث ستالين أن تدخل بشخصه في الجبهة الفلسفية ، ففي ٩ ديسمبر ١٩٣٠ ، تحدث عن النواحي الفلسفية أثناء مقابلة جرت بينه وبين جماعة من الفلاسفة من معهد الأساتذة الحمر . واستشهد لينين فيما بعد بما قاله عن وجوب « التجويف والحفر في الأرض المعدة للفلاحة ، بعد أن تراكمت فيها مسائل الفلسفة والعلم الطبيعي » ولابد بوجه خاص : « من تجويف كل ما كتبه جماعة دبورين ، وكل ما اشتمل على أغلاط في مجال الفلسفة » : وكانت مدرسة دبورين صورة فلسفية لمذهب التصحيح الذي انضوى تحت جناحه أصحاب المواهب المتميزة في صوغ النيولجيزمات (أى المصطلحات العشوائية) الحريفة ! ولا بأس من تسمية هذا المذهب « بالمذهب المثالي المنشقي المنزع » - طبقا لما رآه ستالين . وأردف قائلا : « من الضروري الكشف عن عدد من المواقف الخاطئة التي اتبعها بليخانوف ، والذي كان دائم الازدراء للينين . واستمر ستالين يؤكد في المقابلة دور لينين في التحليق بنظرية المادية الجدلية في آفاق جديدة ، وذكر أن « المذهب المادي قبل لينين كان يعالج المسائل بعد تفقيتها إلى فئات ، واتبع لينين الخطوات النقدية العلمية الحديثة فاهتدى إلى تحليل ماركسي للنظرية الإلكترونية للمادة ، ولكن ورغم ما ابتكره لينين من مستحدثات وفيرة في جميع فروع الماركسية ، إلا أنه كان شديد التواضع عزوفاً عن التحدث عن إسهاماته ، وبات لزاما على أتباعه توضيح المظاهر التي استحدثتها » .

ومثل ستالين دور الفيلسوف الأول للماركسية الذي ما زال ينعم بالحياة ، وعلى الرغم مما بدا في كلامه من فظاظة ، فإنه كان يتحدث وكأنه الفيلسوف الأوحد والمصدر الموثوق الأوحد ، الذي يجب أن يرجع إليه باقى الفلاسفة ، وسعيا وراء افساح الطريق لأنصاره - كي ترتفع قامته وترسخ مكانته - شجع من توسم فيهم القدرة على الهدم من أبناء مذهب الفلسفي على التهجم على دبورين وبليخانوف اللذين كانا يحتلان مكانة مرموقة في عقول فلاسفة السوفيت الماركسيين ، حتى يخلو له عرش الفلسفة . وأصبحت كلمات وعبارات مثل « الديرونية » ، « والمثالية ذات المنزع المنشقي » كلمات تلوكتها الألسنة كناية عن الضلال الفلسفي في المجلات الفلسفية كمجلة « تحت راية الماركسية » مثلا وغيرها من المنشورات ، ولم تعد القوائم التي ظهرت بعد ذلك متضمنة أسماء الكتب المقترحة للاستزادة لطلبة الفلسفة تضع اسم ستالين في المرتبة الثالثة والعشرين ، واخفت من القوائم أبحاث دبورين العلمية تماما .

ولم يشر ستالين في المقابلة أية إشارة مباشرة لمؤهلاته الفلسفية ، وإن كان قد ذكرها ضمنا في تصريحاته ، غير أنه اتبع استراتيجية غير

مباشرة في توطيد تأليه شخصيته ، تمثلت في الأسلوب الذي تحدث به عن لينين . ولما كان لا يشعر بالكثير من الاعجاب والحماسة لمزايا لينين الفلسفية ، فلماذا اذن أثنى - متفيقا - على لينين الفيلسوف ، وحذر المستمعين من الشعور بالاحباط من جراء تواضع لينين ، واحجابه عن التحدث عن اسهاماته في هذا الميدان ؟ فأولا - كانت هناك الرسالة الأريية - التي تذكرنا بايزوب - والتي لا أظنها فانت على فطنة بعض المتبصرين (*) - ، بأن المقصود هو أن عليهم أن لا يشعروا بخيبة الأمل اذا اكتشفوا تواضع ستالين ، الذي يرجع لنفس السبب ، ولكن الأهم هو أن ستالين كان ينفخ في صورة لينين ومكانته الفلسفية كوسيلة لدعم زعمه بأنه يحتل الأولوية في هذا المجال ، وصور لينين الذي شغل رئاسة الحزب يوما ما في ناحيتي السياسة والايدولوجيا على أنه الفيلسوف الأول للحزب أيضا ، وبذلك احتل مكانه بليخانوف الذي كان ينظر اليه كرائد الماركسية الروسية قبل تحوله الى أحد المنشقيين . وبذلك يكون ستالين عندما نسب الى لينين دور الزعيم والمرجع الأول للفلسفة الماركسية ، قد ساعد الفلاسفة على ادراك صلاحية هذا المعنى الرحيب للتطبيق على خليفة لينين .

وسرعان ما فعلوا ذلك ! ، ففي ١٩٣١ انتقد الناطق باسم اللجنة المركزية للحزب البلشفي نقدا مريرا « المثالية المنشقية المنزع » ، كما وردت في الموسوعة السوفيتية الكبرى . وكان أول ما تعرض للهجوم النبذة التي كتبها دبورين في الموسوعة عن هيجل . فبعد أن فند الكاتب البلشفي آراء دبورين وآخرين من نفس مذهبه باعتبارهم أنصارا للمثالية المنشقية النزعة قال : « نعم لابد أن تشرح الجدلية المادية ، ولكن هذا الشرح يجب أن يستند الى أعمال ماركس وانجلز ولينين وستالين ... » . هنا ظهر الرباعي المقدس (ماركس وانجلز ولينين وستالين) الذين يرمزون مجتمعين الى الفكر الستاليني والثقافة الستالينية التي تزايد انتفاخها بعد تعليق الصور الأربع الضخمة بالحجم الطبيعي على واجهة مسرح بولشوى بموسكو عند الاحتفال بيوم مايو في ١٧ نوفمبر وفي مناسبات أخرى .

وهكذا نشأ مبدأ تأليه ستالين كأول فيلسوف شيوعي يجرى في أعقاب ماركس وانجلز ولينين ، غير أن هذا الاجراء لم يبد كافيا ، فلقد تضمن هذا التطور غرس بذرة التصلب والتعجر التي غدت الطابع المميز للثقافة الفكرية الستالينية في جميع المجالات ، والتي تميزت به عن البلشفية السابقة لستالين ، فلم يكن تناول كتابات لينين الفلسفية - وأقل من ذلك كتابات ستالين - كأنها عقائد مقدسة من النواحي التي

يكلف أشخاص بمتابعتها على الإطلاق ، ولم يعد ستالين مجرد الفيلسوف الأول ، ولكنه أصبح أيضا بمثابة الحجة الموثوقة في بعض مجالات أخرى ، ويكلف بدلاء له - من أمثال أندريا فيشنسكي في المسائل التشريعية - لاعتلاء عرش الحجة الموثوق بها . وكان من بين الأدوار التي ينهض بها أمثال هؤلاء النواب أو البدلاء لستالين تمجيد دوره في معرض هداية الضالين ، أو تأكيد صدق ما قاله ستالين . وتبعاً لذلك كان بدلاء ستالين يختارون من بين العلماء الذين يجمعون بين الفراهة الفكرية - في معظم الأحوال - والعبودية المطلقة ، التي يستطيع الوثوق فيها ، أما الشخص الذي يتمتع بأي قدر من الاستقلال الفكري - وبفض النظر عن مدى تخصصه لخدمة الشيوعية - فمرفوض وفضا باتا .

وإذا كانت الماركسية الفلسفية هي أول ميدان اختاره ستالين لإنشاء صرح تأليهه ، فإن تاريخ الحزب يعد الساحة التالية . وهنا كان يتحرك في ساحة تتسم بشدة الحساسية السياسية . إذ كانت حوليات الماضي البلشفي من المقدسات الدفينة للحركة . غير أن ستالين أقحم اهتماماته الشخصية في هذا المجال أيضا ، يعني سيرته الثورية الخاصة ، ولم يكن هناك ما هو أهم من هذه الناحية في نظر شخص انساق وراء الشعور بأنه لينين الثاني في الحركة البلشفية في الماضي وأيضاً في الحاضر . واتبعت خطواته الطريقة المعهودة التي اتبعها كثيرون في سعيهم لتغيير سجل الأحداث ، فكتب رسالة إلى رؤساء التحرير .

وفي بداية الثلاثينيات ، كانت أبحاث تاريخ الحركة الماركسية ما زالت تجري بحرية أكيدة ، وتناقش القضايا التي تحتل الخلاف بجدية ، واستمرت المؤلفات الدالة على البحث المخلص الجاد تصدر في روسيا السوفيتية ، ونظر إلى مجموعة من المسائل كتلك المتعلقة بالحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني والدولية الثانية قبل ١٩١٤ بقدر كاف من الاهتمام إلى حد قيام أكاديمية التاريخ الشيوعي بتكليف مجموعة خاصة بدراستها . وكان سكرتير المجموعة الأكاديمية هو سلوتسكي . ونشرت مقالات مختلفة كتبها أعضاء الجماعة ، وظهرت واحدة منها في جريدة الثورة البروليتارية ١٩٣٠ . وتركز الموضوع الأساسي لسلوتسكي على موقف لينين من الانقسامات الداخلية داخل الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني قبل ١٩١٤ . وكان إدوارد برنشتين يتزعم جناح التصحيح في هذا الحزب ، ويعارضه جناح الوسط الذي كان كارل كاوتسكي وأوجست بيبل يتزعمانه ، ورأي كثيرون - ومن بينهم لينين - أن منظورهما يمثل الماركسية الثورية أصدق تمثيل . ويمثل أقصى اليسار جناح من المتطرفين بزعامة روزا لوكسمبرج . وزعم سلوتسكي أنها منذ وقت باكر ، يرجع

الى ١٩١١ قد أدركت وأعلنت صراحة الطابع الانتهازي الاساسى لجناح الوسط الخاضع لكاوتسكى . أما لينين فبرغم التزامه الحذر من زعامة كاوتسكى - بيبل وانتقاده حتى منذ ١٩٠٧ ، الا أنه استمر يعلق آماله عليهما ، واعترف لينين نفسه فى رسالة ترجع الى أكتوبر ١٩١٤ : « بصواب موقف روزا لوكسمبرج » ، ولم يكتشف زيف الطابع الثورى لكاوتسكى فى وقت مبكر مثلما فعل اليساريون المتطرفون الألمان ، واستخلص سلوتسكى من ذلك ان لينين « قد كشف عن جانب من اساءة التقدير لخط الوسط فى الحزب الألماني قبل الحرب » .

ويثبت نشر هذا المقال أنه بالرغم من وجود تاليه للينين فى بواكير ١٩٢٠ ، الا أنه كان ما زال من اليسور نشر مقال لا يعامل لينين كأنه ايقونة مقدسة ، او على أنه اله معصوم من الخطأ ، ويتمتع برؤى خارقة تتجاوز حدود البشر ، نعم لقد أحس - كما يبدو - محررو مجلة « الثورة البروليتارية » من البلاشفة (*) بالخطر المحتمل ، لأنهم أضافوا الى متن كتابتهم هامشاً ينفون فيه اتفاقهم مع تفسير سلوتسكى لما قاله لينين وأنهم أجازوا طبع مقاله لغرض النقاش والبحث وحسب ، غير أنهم لم يكونوا على استعداد لمواجهة الصاعقة التى أثارها ظهور المقال عند أعلى مقام . فلقد أثارت سخط ستالين ، وكتب رسالة بطول المقال عنوانها : « فيما يتعلق ببعض مسائل فى تاريخ البلشفية » فى نهاية أكتوبر ١٩٣١ .

وعند ستالين أولاً الى سحق موقف سلوتسكى الى حد تجاوز كل عقل ، وذكر أن اتهام لينين بالاستهانة بخطر « الانتهازية المستترة » ، يعنى اتهامه بأنه لم يكن بلشفياً صليماً قبل ١٩١٤ ، « لأن البلشفى الحق لا يمكن أن يستهين بخطر الانتهازية المستترة » . فمن البديهيّات فحسب أن البلشفية ظهرت وترعرعت ونمت قوتها فى كفاحها الشرس ضد الوسط بجميع درجاته ، ومن ثم فما كان ينبغى على رؤساء التحرير قبول الهراء والهلديان والتوافه الملتوية ، حتى اذا ذكرت لمجرد النقاش . فمسألة صحة ايمان لينين بالبلشفية ليست من المسائل التى تنتظر النقاش . ثانياً - احتج ستالين على نظرة سلوتسكى المشيائية لروزا لوكسمبرج واليسار المتطرف والحزب الديموقراطى الاجتماعى الألماني قبل ١٩١٤ ، وشعر بشدة التقزز من مجرد تصور احتمال علم لينين أى شئ عن هؤلاء الأشخاص .

(*) هؤلاء المحررون هم : V.V. Adoratskii و M. Saveliev

و M. S. Ol'minskii و D. Baevskii و P. Gorin

وتكشف الطابع الروسي القومي المتشدد لبلشفية ستالين أيضا في رسالته . فلقد عرض نظرة تاريخية تمحورت حول دور روسيا في تاريخ الماركسية الأوربية : « البلاشفة الروس محقون اذا اعتبروا موقفهم محك اختبار لصحة الماركسية الثورية عند الاشتراكيين الديمقراطيين في الخارج . لقد تأكد تكهن لينين (الذي ورد في كتابه : ما الذي يجب أن يجرى ؟ - ١٩٠٢ -) باحتمال أن تغزو البروليتاريا الروسية طبيعة البروليتاريا الثورية الدولية في صورة متألفة بفضل الأحداث اللاحقة ... » ولكن ألا يتبع ذلك أن الثورة كانت (وما زالت) هي مفتاح الثورة العالمية ، وأن المسائل الأساسية في الثورة الروسية كانت في ذات الوقت (كما هي الآن) المسائل الأساسية في الثورة العالمية ؟ ألا يبدو واضحا أنه لن يستطاع تقدير مدى ثورية الديمقراطيين الاشتراكيين في الغرب الا اعتمادا على هذه الأسئلة فحسب ؟ . من هذا يتضح أنه لا يحق للماركسيين الغربيين ، لا قبل الحرب ولا بعدها ، اعطاء دروس لآخرانهم الروس . أما العكس فصحيح ! » .

أما أي قول خلاف ذلك - أو يجرى في صورة ضمنية أو مضمرة ، كما فعل سلوتسكى « فمن المحظورات التروتسكية » . وكى يعطى ستالين وزنا لهذا الاتهام القبيح ، أعلن أن ما ذكره سلوتسكى عن لينين قبل ١٩١٤ ، وبخسه لدور الوسط ، فلا يتجاوز كونه حيلة للادعاء « للقارب الساذج » بأن لينين لم يصيح ثوريا صميما الا بعد أن بدأت الحرب ، وبعد « أن أعاد تسليح نفسه بنظرية تروتسكى التى ورد فيها أن الثورات البورجوازية الديمقراطية قد نمت وتحولت الى ثورات اشتراكية (يعنى نظرية الثورة الدائمة) » . ويذكر ستالين أن لينين نفسه قد كتب ١٩٠٥ « أننا نناصر الثورة التى لا تتوقف ، وأننا لن نتوقف فى نصف الطريق » . ولكن « المحظورين » من أمثال سلوتسكى لم تهتم مثل هذه الحقائق ، والتى تثبتها كتابات لينين . ولاحظ ستالين فى موضع آخر من الرسالة أن سلوتسكى قد تحدث فى مقاله عن عدم جدوى بعض وثائق لينين المتعلقة بالفترة محل البحث : « ولكن من يتوقع امكان اعتماد البيروقراط الميئوس منهم على الوثائق الورقية وحدها ؟ وهل هناك أحد خلاف « جردان » الأرشييف يشك فى وجوب الحكم على الأحزاب والأفراد اعتمادا على أفعالهم أساسا ، وعدم الاكتفاء بتصريحاتهم ؟ » .

وعندما اقتربت الرسالة من نهايتها ، تحولت لهجة ستالين من الوقاحة الى الغدر . فعندما أعطى رؤساء التحرير منبرا لسلوتسكى يدافع فيه عن « المحظورين » ، قانهم أذنبوا وارتكبوا جريمة « الليبرالية العفنة ، فى نظراتهم الى الاتجاهات التروتسكية التى كانت شائعة من زمرة من

البلاشفة الذين فشلوا في ادراك أن التروتسكية لم تعد منذ أمد طويل تتبع الشيوعية ، ولكنها تحولت الى طليعة للبورجوازية المعادية للثورة ، والتي أعلنت الحرب على الشيوعية والنظام السوفيتي وبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي . ان هذا هو على سبيل المثال ما ترمى اليه المعتقدات التروتسكية عن استحالة اقامة الاشتراكية في روسيا « ولابدية » انهيار البلشفية .

هنا كرر ستالين علنا الحجة التي كان قد أوردتها في مذكرة كتبها ١٩٢٩ ، وقصد بها تحويل الميل الى التروتسكية أو التعاطف عليها من « فئة » الخطأ السياسي الى فئة الجريمة المقترفة ضد الدولة السوفيتية ، ومن ثم يتسنى له تبرير أعمال القمع التي أقدم عليها ضد المتهمين بالانتماء الى التروتسكية . والآن وبعد أن لفظ ستالين خلاصة حججه ، فإنه انتهى الى ما يأتي : « ان الليبرالية التي تجنب نحو التروتسكية ، بالرغم من هزيمتها واحتجابها ، الا أنها تعد شكلا من أشكال التفريط التي تقترب من حافة الجريمة وخيانة الطبقة العاملة » . ويردف ستالين قائلا : « ومن هنا تكون مهمة رؤساء التحرير (وهنا حدث خلط في لغته المجازية) » وضع دراسة تاريخ الحزب في اطار الدراسة العلمية البلشفية ، وحذر من أنصار تروتسكي وجميع المزيفين لتاريخ حزبنا الذين يكشفون حقيقتهم بانتظام . وازدادت ضرورة هذه المهمة بعد أن وقع مؤرخو الحزب من البلاشفة الذين عرفوا بصدقهم الأكيد في أخطاء أيديت الهراء الذي تنتجه سخائم نفس سلوتسكي وينهى ستالين : « لسوء الحظ ان هذا الشخص كان الرفيق اميليان اياروسلافسكي (عميد مؤرخي حزب البلاشفة ، وأيضا سكرتير البعثة المراقبة المركزية للحزب) الذي احتوت كتاباته عن تاريخ الحزب ، رغم مميزاتها ، على عدد من الأخطاء الأساسية ، وعلى عدم ادراك لروح التاريخ » .

واذا تمعنا ما قاله ستالين قبل ذلك عن « جناح الوسط » فسيسهل علينا ادراك لماذا أغضبته حجة سلوتسكي التي انتقصت من لينين ، عندما ذكرت أنه استهان بجناح الوسط وخطورته في حزب ألمانيا الديمقراطي الاجتماعي . فلقد رأى ستالين ١٩٢٨ أن القتال ضد خطر انحرافات اليسار واليمين ، لا يجعل من الشخص واحدا من الوسط ، مثلما لا تدل محاربة لينين للمنشفية في جناح اليمين وللمنشفيين (*) في جناح اليسار من الشيوعية على أن لينين كان من جناح الوسط . « فالوسطية » تعني المسايرة والماشاة ، وطبقا لهذا المعنى ، « فإنها تكون بعيدة عن اللينينية

وتتنافر معها ، فكيف اذن ، وبغض النظر عن الوثائق والمستندات التي قد تقع في يد فئران الأرشييف يستطيع أى ثورى حق (يعنى بلشفي) الاستهانة ولو لفترة قصيرة بخطورة جناح الوسط ؟ . وفيما يتعلق بالعقليات التي تفكر على هذا النحو ، يتعين معاملة أمثال سلوتسكى معاملة قاسية ، بل وينبغى عدم اعفائهم من العقوبة الصارمة . وقبض على سلوتسكى في الحركة الارهابية التي شنها ستالين ، وأمضى بضع سنوات في معسكر للاعتقال (٣) .

يبد أن رسالة ستالين بالاضافة الى تعبيرها عن غضبه ، فانها اتبعت هدفا ثلاثيا في تعزيز مبدأ تأليه شخصيته ، فعلى الرغم من أن اسمه لم يرد في سياق الرسالة (وهل كان يوسعها أن تفعل ذلك ؟) فانها اكدت مبدأ تأليه ستالين في تاريخ الحزب ، بحكم كتابته لهذه الرسالة ، وبحكم لهجتها ومضمونها ، فأولا - فانه عندما كتبها - أو تصور أنها كتبت (وفقا للمعاني التي حملها وصدرت باسمه) فانه نسب لنفسه مكانة المؤرخ الأول للحزب ، والفيصل في المشكلات التي تنجم عن الخصومة في هذا المجال الحساس ، لذا لم يكن هناك ما يدعو لذكر اسم ستالين ، واكتفى بجعلها وثيقة تحمل الطابع الدوجماطيقي ، من كل ناحية ، بحيث لا يخطئ أحد في استنتاج نسبتها اليه ، اذ كان مجرد نشر الرسالة يعنى تأكيد تصور ستالين لنفسه كاسمى مصدر موثوق في الموضوع ذاته الذي يمثل مبدأ تأليه الشخصية ، مثلما نما على طريقة الفطر في الثلاثينيات ، من خلال ماضى البلشفية ودوره ودور الآخرين فيها .

ثانيا - اتبع ستالين في الرسالة مثلما حدث أثناء لقائه بفريق الفلاسفة استراتيجية غرس مبدأ التأليه عن طريق ادعاء معصومية لينين ، فعندما أضفى ستالين على الزعيم السابق القداسة التي تتجاوز كل حد ، وتعلو على أى نقد فكأنه بذلك لمح في رسالته - بطريقة ضمنية مضمرة - الى وجوب معاملة خليفته (خليفة لينين) معاملة مماثلة ، ولما كان ستالين هو بالذات الشخص الذي حياه الحزب ١٩٢٩ باعتباره رئيسه المعترف به وخليفة لينين ، فان ما عناء ذلك هو الزام مؤرخى الحزب بمراعاة الحرص والكف عن البحث عن هنات أو مواضع ذلل في ماضيه السياسى ، أى معاملة ماضيه نفس معاملة ماضى لينين . فلقد كان المتخصصون في فك طلاسم الشعارات الدلفيه مثل مفكرى الحزب الشيوعى هلزمين باستخلاص مثل هذا الاستدلال في خواطرهم أو في الأحاديث التي تدور

(٣) لابد ان اشيد بفضل Stephen F. Cohen, Roy A. Medve للبيانات التي نقلتها عما حدث بعد ذلك من القاء القبض على سلوتسكى وسجنه .

بينهم ، بل لقد لمح ستالين الى هذا المعنى تلميحا صهييا عندما أشار في عبارة ردها أكثر من مرة في رسالته : « كان يقول لينين عندما يقصد بذلك البلاشفة » . و « لينين » بأمر ستالين ، تدل على الثوريين البلاشفة الصميمين باعتبارهم متميزين عن أى طائفة أخرى ، أو عن جميع الطوائف الأخرى من يمينية أو يسارية أو وسطية ، والكلمات التى وضعها ستالين بين قوسين قد عدت صفاته الثورية ، دون ذكر أسماء ، غير أن أى شخص على قدر لا بأس به من الذكاء يؤهله للعمل مؤرخا للحزب ، كان بمقدوره أن يخمن أى الأسماء يتوجب أن يأتى ذكر اسمها فى قائمة البلاشفة ، بنفس المعنى للفظه الذى مر بخاطر ستالين .

ثالثا - طالبت الرسالة صراحة تقييم ماضى الثوريين فى الحزب على أساس أفعالهم وليس بالاعتماد على الوثائق التى باستطاعة فئران الأرشفة الحصول عليها أو الاختفاء فى الكشف عن سرها ، وبالطبع لا بد من توثيق مثل هذه الأفعال بأسرع ما استطاع ، حتى يصبح ستالين أعظم فأر فى الاتحاد السوفيتى ، أو اذا توخينا الدقة أن يكون زعيما لزمرة كاملة من هذه الفئران ، بالرغم من أنه كثيرا ما كان يتعطش لاتلاف الوثائق ، أو اخفائها حتى لا ينكشف أمرها ، أو تنشر ، ولمن استطاعوا ادراك ما جاء ضمنا فى الرسالة ، اظنهم قد فهموا منها أن مؤرخ الحزب يجب أن لا يسترشد بما يستطيع الحصول عليه من وثائق (كما فعل سلوتسكى) ، وانما بما يعرف مسبقا وجوب اتصافه بالصحة ، يعنى فى حالة لينين أنه بوصفه « بلشفيا صميما » فإنه لم يكن بمقدوره الاستهانة بالوسطية ، وفى حالة ستالين ، فبوصفه أيضا بلشفيا ، فإنه ما كان بوسعه أن يتخذ موقفا غير بلشفى فى أى موقف . أما دور المادة الوثائقية ، أو اخفائها فهو المساعدة فى توطيد مثل هذه الحقائق العليا . واذا استعملت على نحو آخر كان الغرض من ذلك هو التشهير أو تزييف الحقائق ، بناء عليه ، تكون رسالة ستالين الهجائية ضد المزييفين هى دعوته الباحثين للتأهب للتزييف (بالمعنى المألوف للكلمة) كلما سمحت احدى حقائق التاريخ المسبقة - كما كشفت عنها كلمات ستالين أو أحد الناطقين باسمه - وبما يتعين أن تمليه .

وبالاستطاعة بيان عدلول ستالين فيما يتعلق بمبدأ تأليه الشخصية بالرجوع الى انتقاده لأحد المؤلفات يعنى كتاب اياروسلافسكى ، ولم يحدد ستالين صراحة طبيعة الأخطاء التى يشير اليها ، ولعل اياروسلافسكى نفسه قد شعر بالحيرة نوعا . فلقد كتب الى ستالين جملة رسائل طالبا الايضاح . ولكنه لم يتلق أى رد . وفى عدة مناقشات دارت داخل الحزب قبل ظهور رسالة ستالين ، دافع اياروسلافسكى عن جميع حقوق اللينينيين

فى الافصاح عن نظرة لينين « فى أية مسألة خلافية » دون خشية أى اعتراض. ووصم ستالين هذا النفر بأنهم من أنصار جبهة التصحيح (٤) .

« ويعد هذا الموقف - يقينا - نزعة ليبرالية عفنة » . وأما فيما يتعلق بالأخطاء التاريخية ، فإن أية نظرة سريعة الى الجزء الرابع من تاريخ الحزب ، الذى يتناول الحقبة بين ١٩١٧ و ١٩٢١ ، ونشر تحت اشراف اياروسلافسكى ، فانها قد بينت له (لاياروسلافسكى) جانبا واحدا على الأقل من الصعوبات ، فبينما اتصف هذا التاريخ بعدائه المسموم لتروتسكى ، كما يبين مثلا من كلامه عن موقف تروتسكى فى الخلاف حول اتحاد العمال السوفيت ١٩٢٠ ، الا أن الكتاب تناول التروتسكية باعتبارها ممثلة للشق العنيد الأحق من الشيوعية ، التى وصفها ستالين بأنها قد توقفت عن الوجود « منذ أمد بعيد » ، ولم يحرص الكتاب على بيان كيف كانت التروتسكية - حتى فى البداية - الطليعة الرائدة للنزعة البورجوازية المنشقة التى قال ستالين انها قد أصبحت تنسب اليه .

وحتى الصور الفوتوغرافية المطبوعة ، فالظاهر أنها قد أسىء اختيارها فى بعض حالات ، ففي احدها مثلا ، يظهر المجلس الاصلى للينين المؤلف من ١٥ عضوا من قوميساريات الشعب ، ويظهر تروتسكى يسار لينين والكسى ريكوف فى الجانب الأيمن من لينين ، بينما يرى ستالين فى الصف السفلى ، ووراء جدار الكرملين . وفى صورة أخرى قديمة للمبعوثين السوفيت الى محادثات برست ، وكان تروتسكى يرأسهم ، نراه فى الصف العلوى ، ويبدو وسيما فى مظهره وله شخصية خلافة ، أما ما فات اياروسلافسكى ولم يذكره ، أو لعله أدركه بعد لآى ، فهو احتياج توكيد شخصية ستالين الى إعادة النظر فى الصورة وانكار وجود كثيرين ممن أدوا دورا أبرز فى الثورة من الدور الذى أداه ستالين .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذا المجلد عن تاريخ الحزب قد أشار باقتضاب الى جريدة « الثورة البروليتارية » .

وبمجرد وصول رسالة ستالين فتحت بوابات جهنم على مصراعها أمام تاريخ الحزب « والجبهات النظرية » ، وأسرعت أكاديمية الشيوعية بالمبادرة للدعوة للاجتماع لمناقشة ما تضمنته الرسالة أو الوثيقة بالنسبة لعملهم . ورفض كثير من المحررين والباحثين من وظائفهم ، وأبعدوا من الحزب . وبعد أن طرحت صحيفة الثورة البروليتارية المشككة التى احتوتها الرسالة ، توقفت عن الصدور ١٩٣٢ . وعندما عاودت الظهور فى

(٤) M. N. Pokrovskii and the Impact of the First : Paul H. Aron

Five Year Plan. ضمن كتاب Essays in Russian and Soviet History in

Honour of Geroid Tanquary Robinson (١٩٦٢ - ص ٢٠١)

بواكير ١٩٣٣ م أشرفت على تحريرها ادارة جديدة كان من بين اعضائها
ايفان توفستوخا ، الذى سبق له شغل منصب السكرتير الشخصى لستالين .
لبعض الوقت .

ويبين من مصادر الارشيف السوفيتى أن جميع المجلات التاريخية
السوفيتية قد تلقت تعليمات بطبع النص الكامل لرسالة ستالين ، ونشر
المقالات المناسبة لتفسيرها من مختلف نظرات تخصصاتهم . وفى رسالة
سرية (فى ٢٦ نوفمبر ١٩٣١) الى رئاسة تحرير احدى المجلات (الكفاح
الطبقي) قال مخلص- (*) - وكان يشغل فى سائف العصر والأوان وظيفة
مستشار شخصى لستالين ، وشغل بعد ذلك منصب سكرتير تحرير
البرافدا : ان المادة المعدة للنشر يجب أن تكتب وفقا لمنظور توجيهات
ستالين ، واجتمعت رئاسة الاكاديمية الشيوعية فى ٣٠ نوفمبر لاستعراض
كيفية الاستجابة لرسالة ستالين ، وتأيدها . وذكر ك . ج . لور
السكرتير الاكاديمى لجمعية المؤرخين الماركسيين أنه قد صدرت التعليمات
لجميع أعضاء الجمعية باستعراض كل ما كتب عن تاريخ الحزب ، بطريقة
نقدية ، على ضوء « مقال » ستالين . وتمثل الحظر المفروض على
التروتسكية فى جملة أعمالهم . فمثلا لقد أخفق كثيرون فى ايضاح الدور
الرائد الأبرك للبلاشفة الروس فى حلبة الماركسية الدولية . وجمع لور
ونقد ثلاثة من الشخصيات المعروفة فى الحزب (اياروسلافسكى وكارل
راديك ومينتس) (**) .

ويتضح من النشرات والتقارير الواردة من جماعات أكاديمية أخرى
أن المؤرخين لم يقتصروا فى مؤلفاتهم التاريخية على تفسير رسالة ستالين
تفسيرا معتمدا من الناحية الرسمية . فقد اشترك فى هذه الناحية جميع
أعضاء جبهة المسئولين عن النواحي النظرية وقطاعاتها ، وشجب أحد ممثل
النقد الأدبى النظرية المنشفية التروتسكية لكتابات مكسيم جوركى دون
أن يبين ماهية هذه النظرات (موضح الشجب) وقال ان رسالة ستالين
قد استوجبت نقد السياسة الأدبية - التى لم تتحدد أيضا - للدولة
الثانية ، وأعلن كاتب يدعى بوتاييف أن معهد الاقتصاد قد عين فريقا
خاصا لاعادة النظر فى النظرية الاقتصادية على ضوء رسالة ستالين .
« والقاء الضوء على حظر ذكر اسم تروتسكى فى المؤلفات الاقتصادية » .
ومن أمثلة هذه المحظورات ، النظرات الممثلة « للبورجوازية الصغيرة » ،
والتي كانت مازالت سائدة والمعتقدات التروتسكية التى عرفت الاشتراكية

Mekhlis.

(*)

I. I. Mints.

(**)

بالمذهب الذي يدعو الى المساواة في الثواب والعقاب ، والنظرة التي ترددت في الكتاب الذي صدر ١٩٣١ وذكر فيه ان مصانع فورد (الأمريكية) وخطوط التجميع من النماذج التي يتوجب الاقتداء بها في عملية الترشيد السوفيتي عند جدولة برامج العمل . وعندما تحدث باشو كانيس عالم نظريات التشريع أمام معهد الانتعاش والقانون السوفيتي ، انتقد كتابا ألفه اثنان من المفكرين (أحدهما بوتاييف) لأنه لم يحتو على أية إشارة الى ما قاله سستالين ١٩٢٧ عن الدولة البروليتارية ، واعترض أوستروفيتيانوف - من رجال الاقتصاد - على الفكرة التي كانت مقبولة حينذاك ، عن انتهاء كتابات لينين وستالين الى السياسة باعتبارها تمثل موضوعا آخر غير الاقتصاد . بينما في الحق فان هذه الكتابات تمثل القوانين الأساسية لبناء الاشتراكية ، والحياة الاقتصادية السوفيتية . فلا غرو اذا اضطلع أوستروفيتيانوف في السنوات التالية بدور لسان حال ستالين في المسائل الاقتصادية .

وهاجم متحدث باسم معهد التكنولوجيا « النزعة التقنية المحصورة الأفق » ، التي وصفها بأنها من سمات التروتسكية ، وأدان السياسة التكنولوجية « للفاشية الاشتراكية » ، كما أشار الى الحاجة الى مؤلفات في مختلف فروع التكنولوجيا . ولاحظ ممثل لمعهد الفلسفة بالاضافة الى حديثه عن مهامه الجديدة ، وجوب اصدار كتاب يعرض في اقرب فرصة بطريقة نسقية الأفكار الأساسية لماركس وانجلز ولينين وستالين عن التكنولوجيا ، وتعجب ممثل رابطة العلوم الطبيعية من أسباب عدم الأخذ بالمسلمات المنهجية الأساسية للفيزياء التي طرحها لينين في كتابه : « المادية والنقد التجريبي » ، والاسترشاد به في محاولة لخلق تصور للفيزياء يساعد على استحداث تصوراتنا الماركسي اللينيني لتكوين المادة » . وتذكر ناديجدا ماندلستام - وكانت تعمل آنئذ في مكتب تحرير مجلة التربية الشيوعية - « كيف كانت جميع المخطوطات يعاد فحصها ، بعد شعور بالذعر ، وكيف قمنا بحذف الكثير منها بلا شفقة ولا رحمة ، وسمى هذا الاجراء : « اعادة التنظيم على ضوء ملاحظات الرفيق ستالين » (٥) .

ان هذا الاندفاع الشاذ منفر للتنقيب عن المخطوطات التروتسكية «والليبرالية العفنة» ، قد بدا بلا شك أمرا مجهدا للغاية لكثيرين من شاغلي الوظائف المستولة ، بتأثير ما تعرضوا له من ضغوط وبلبلة في

(٥) ناديجدا ماندلستام : الامل ضد الامل (ذكريات) (١٩٧٠) ص ٢٥٩ . وعلى الرغم من وصفها هذا المقال بأنه رسالة (في مجلة البلشفي) ، الا انه لا يخفى من السياق ان ناديجدا كانت تشير الى الرسالة التي كتبها ستالين ١٩٢١ الى مجلة الثورة البروليتارية ، والتي نشرت ايضا في مجلة « البلشفي » .

بعض الحالات ، بالرغم من أن ستالين لم يكن قد تحول بعد الى ديكتاتور مطلق . وأخفق بعض من يشغلون المناصب في ادراك هذه الحالة ، وفي فهم بواعثها . وسعى عدة بلاشفة من القدامى المرموقين (*) لكبح جماح هؤلاء المجددين (كما سماهم اياروسلافسكى في ملحوظة كتبها بخط يده عثر عليها فيما بعد في أرشيف الحزب) ممن تصوروا رسالة ستالين كأنها التنزيل الجديد ، ويشير كنورين الى اجتماع عقدته هيئة الحزب في جمعية المؤرخين الماركسيين في ١١ نوفمبر ١٩٣١ ، وقررت الاكتفاء بالنظر الى الرسالة على أنها أعادت طرح بعض الاتجاهات اللينينية الأساسية ، ومن ناحية أخرى ، ذكر « لور » أن تاريخ الحزب قد افتقر الى طابع منهجي قبل ظهور رسالة ستالين ، وأن المؤرخين لم يدركوا الصلة بين النظرية والممارسة العملية . وكتب مينتس - وكان بين الحضور - رسالة الى اياروسلافسكى الذي كان خارج المدينة قال فيها ان « لور » في حديثه الحقيير والخبيث قد عرض المسائل بطريقة خالية من الود . « فقبل رسالة ستالين ، لم يوجد أى شيء ، ولم تدرك الصلة بين الناحية النظرية والناحية العملية الا الآن » . غير أنه بعد أسابيع ثلاثة ، أبلغ « لور » رئاسة الاكاديمية الشيوعية عن الموقف في جمعية المؤرخين الماركسيين . وفي ذات الوقت تقريبا ، حذر اياروسلافسكى « من بعض الأشخاص المعوجين الذين يبغون التربع من وراء هذه المسألة » ، التي وردت في رسالة ستالين . غير أن هذا البيان بالاضافة الى ملحوظته المكتوبة بخط يده ، والتي تذكر كيف « استطاع المجددون ابعادى ١٩٣١ » ، لم يقدر لها النشر الا ١٩٦٦ .

وبعد مرور شهر من نشر رسالة ستالين ، عكف مركز قيادته على اتخاذ الاجراءات ضد من طالبوا بوضع القيود . . . وألقى لازار كاجانوفتش خطابا طويلا في معهد الأساتذة الحمر في ديسمبر ١٩٣١ بمناسبة مرور عشر سنوات على انشاء المعهد . وعندما ظهر الحديث في جريدة البرافدا ، بعد ذلك ببعضة أيام ، اتضح أن الخطاب كان موجها لجميع المثقفين السوفيت ، غير أن كلمة « خطاب » لم تكن الكلمة الصحيحة . وأفضل وصف له هو أنه مجموعة من الكلمات التي يزيد عددها عن بضعة آلاف والأوامر القاطعة ، أصدرها الشاويش « التعليمجى » كاجانوفتش لجيش المثقفين يطلب منهم فيها الايضاح والاذعان والانحناء . . . لما جاء في رسالة « الجنرال » ستالين .

(*) من امثال Ol'min kii و Iaroslavskii و V. Knorin و N. Lukin.

ومهد كاجانوفتش لحديثه عن الرسالة بتوكيد الأهمية البالغة لتلقيين
 التعاليم الماركسية اللينينية في وقت لم يزد فيه من انخرطوا في سلك
 الحزب إبان ثلاث أو خمس سنوات عن عدد يتراوح بين نصف المليون
 والمليونين مما مجموعه مليونان ونصف المليون من أعضاء الحزب بينما
 كان الكومزومول يضم خمسة ملايين ونصف من شباب الشيوعيين ، ولم
 يكن هناك بين أعضاء الحزب من ينازع في صحة هذه الأرقام ، ودلائلها
 العامة . غير أن كاجانوفتش سرعان ما أوضح أن المسألة موضع الخلاف
 هي مضمون المادة الملقنة للحزب . فيجب أن يعرف ملايين الأعضاء الحد
 أنه إذا صح أن البلد الذي وصف يوما ما بأنه أكثر البلاد تخلفا في
 العالم قد أصبح الآن بلدا اشتراكيا ، فالتنا ندين بالفضل بذلك للكفاح
 الغير الذي شنه أفضل الناس ، وعلى رأسهم لينين ضد من يدعون أنهم
 الماركسيون الشرعيون والمنشفيين والتروتسكيين اليمينيين ، ثم تحدث
 كاجانوفتش عقب ذلك عن تجريم من جنحوا الى التزييف والتشهير أمثال
 المؤرخ سلوتسكى ، وأردف كاجانوفتش قائلا : « لقد اعترف رادك بأخطائه
 لبعض أعضاء الحزب في جمعية المؤرخين الماركسيين . واعترف فوق ذلك
 بأن روزا لوكسمبرج لم تتبع دوما الموقف الفلسفي الصحيح ، ولكن
 « روزا » كانت مجرد قنطرة لادعاء الانتماء للبلاشفة عبر فوقها أفضل
 العمال الاشتراكيين الديموقراطيين . والواقع أن رادك نفسه كان قنطرة
 أو همزة وصل بين روزا لوكسمبرج وتروتسكى ، كما جاء في اتهام
 كاجانوفتش ، الذي أرجع أهمية رسالة ستالين الى مهاجمتها لسلوتسكى
 (المنشفي السابق) والثافه ، الذي سحقه ستالين « على الماشى » . والى
 أنها كشفت النقاب عن « الليبرالية العفنة » التي كشف عنها محروو
 صحيفة الثورة البروليتارية عندما تحدثوا عن انحرافات البلاشفة ،
 وشوهوا تاريخ الحزب . ولم تكن هذه الصحيفة هي نقطة الضعف
 الوحيدة . فهناك ما هو أضعف من ذلك ، يعنى التاريخ الذى كتبه
 اياروسلافسكى ونشره في أربعة أجزاء ، واحتوى على نقد للأخطاء « التى
 لا يستبعد أن تتزايد الى ما هو أكثر ، ونوه كاجانوفتش الى أن من بين
 الأخطاء التاريخية الفاحشة التى وقع فيها ، تقديراته الخاطئة والضارة
 لدور البلاشفة فى الحقبة الأولى التى بدأت ١٩١٧ ، وتشهده المقذع
 بالبلاشفة » ، ووجه كاجانوفتش هذا اللوم المستتر الى اياروسلافسكى
 لأنه أشار الى موقف ستالين الخاطيء فى مارس ١٩١٧ ، ثم جاءت بعد ذلك
 إشارة تخص المنهج التاريخي فالعلامة المشرقة فى أى تاريخ شامل للحزب
 يجب أن تتركز على ما تحلت به تكتيكات لينين من مرونة ، وليس على
 الفقرات التى ردها لينين جملة مرات « كوصفه لكروتسكى بالوغد » .
 قصارى القول ، ان ما قاله أى بلشفي صميم أو فشل فى قوله فى وقت

بالذات ، أو وقت ما ، ليس هو محك الحقيقة التاريخية للحزب . فلا بد من تفسير الوثائق تبعاً لقاعدة مؤداها علم احتمال وقوع الثورى البلشفى الحق المنتمى الى الحزب فى أى خطأ .

واختتم كاجانوفتش كلامه بنداء مستتر يدعو الى تشديد حملة مطاردة المضللين . فهناك مصاعب جمة ، والقتال لم يتوقف والصراع الطبقي ما زال مستعراً : « والانتهازية تحاول الآن التغلغل فى صفوفنا والتستر فى مظهر جذاب ، والتسلل محاولة اختراق الشقوق . وتحاول - بوجه خاص - التسلل من خلال بوابات التاريخ الخاص بحزبنا » . وفى حديث قريب العهد ، أخطأ رانك فى تشبيه الكومنترن بقناة تتفرع منها روافد عديدة مختلفة ، وبجديولات تصب فى الحزب البلشفى . ولكن الحزب ليس ملتقى الروافد والجديولات ، ولكنه مجرى يتسم بالوحدة المتينة والقدرة على سحق جميع العراقيل التى تعترض طريقه . والمعنى واضح ، رغم ما فى اللغة المجازية من تشوش . فعبارة أخرى ، عليك أن لا تخرج عن الصف ، حتى لا تصبح التهلكة من نصيبك !

ويادر المطالبون بفرض القيود وآخرون بالانضمام الى صفوف المتقدمين ، ففي غضون الأيام الاثنتى عشرة التى أعقبت حديث كاجانوفتش فى أول ديسمبر ، حملت جريدة البرافدا بعض رسائل الاستنكار من راديك وإياروسلافسكى ومؤرخ الحزب قسطنطين بوبوف ، واعترف راديك بالذنب عن جميع الاتهامات التى أوردتها كاجانوفتش ، وانضم الى حملة الهجوم على أنصار روزا لوكسمبرج ، واعترف إياروسلافسكى بمجموعة كبيرة من الأخطاء الجسيمة فى مؤلفه التاريخى المؤلف من أربعة أجزاء ، والذي اشتمل على نظرة موضوعية لموقف البلاشفة فى فترة فبراير ومارس من ثورة ١٩١٧ - وكانت هذه النظرة مناصرة لتروتسكى بالضرورة . (ويفترض أن التروتسكية قد جاء ذكرها ، لأن تروتسكى كان واحداً ممن لفتوا الانتباه الى الحقائق المعروفة تماماً عن موقف ستالين آنشد) . وتنصل إياروسلافسكى من النظرة التى عبر عنها منتس فى حديث قريب العهد قال فيه ان مؤلف كتاب التاريخ المكون من أربعة أجزاء قد أخطأ بنسبة الموضوعية الى كتابه ، وأن ما يطالب به الآن مؤرخو الحزب ليس الموضوعية بقدر سعيهم للنفع السياسى . كلا ! لقد كذب إياروسلافسكى . قام يطالب الحزب بتخلي المؤرخين عن الموضوعية ، وليس بمقدورهم أن يفعلوا ذلك . اذ كانت المشكلة هى اساءة مؤلف الأجزاء الأربعة الى الموضوعية ، واستسلم إياروسلافسكى للأمر الواقع واتجه لتأليف كتاب عن سيرة ستالين ، مجده فيها ، ونشرت ١٩٣٩ .

وبصراحة ، لقد رثي ان الاعتراف بالتضليل ليس كافيا ، فيجب أن يزج بالمضللين الى محاكم التفتيش ، لأنه من غير المتوقع أن تؤخذ عملية التراجع بمأخذ الجد ، الا اذا وضع المضللون في قفص الاتهام . اذ يعد نيل التروتسكية المحظورة من قبل الآخرين اثباتا بصحة انتماء الشخص الى البلشفية الحق ، يعنى الستالينية . وتحولت عملية الانكار المتبوعة بالنيل من طقوس التقاليد السوفيتية السياسية . ولا يزيد انكار اياروسلافسكى العلنى لصديقه منتس عن مثل من الأمثلة العديدة الدالة على ذلك .

ومع هذا فحتى الآن لم يكن ستالين قد مارس السلطة المطلقة . ولربما أشار بعض من كانوا يحتلون مكانة أعلى من مكانة اياروسلافسكى فى مراتب السلطة الى الحاجة لوضع كوابح ، وكان من بينهم « ك . ب . بوستيشوف » الذى كان يشغل آنئذ منصب عضو كامل فى اللجنة المركزية للحزب ، وعضوا فى الأورجبيرو (*) ، وأحد السكرتيرين الأربعة الذين يعلمون تحت امرة السكرتير العام ستالين ، وبوصفه سكرتيرا ، كان بوستيشوف مسئولاً عن قسم التنظيم فى اللجنة التنظيمية ، وعن لجنة توجيه الراى العام والدعاية . ومن بين اختصاصاتها الاشراف على الصحافة . وأكد فى أحد أحاديثه فى مؤتمر حزبي فى إحدى دوائر موسكو ، الأهمية العظمى لرسالته ثم وجه اللوم لبعض خلايا الحزب لاختفاها فى التفرقة بين الأخطاء الفردية الجزئية « والنظرات النسقية » فبطبيعة الحال هذا أنصار متخفون لتروتسكى بين صفوف الحزب يتعين كشف أمرهم وإبعادهم . ولكن هناك أيضا رفاقا ارتكبوا خطأ ما فحسب ، وبدلاً من نبذهم باعتبارهم منحرفين وطردهم من الحزب - مثلما فعل بعض من الغافلين النائمين على أرواحهم - فانهم طالبوا الآن باتاحة فرصة ثانية لهم للظهور ، ولا بأس بعد ذلك من عودتهم للنوم ثانية ، واعتقد أن الواجب يقتضى انتقاد الرفاق اللاهين بطريقة أخوية . وكان مصير بوستيشوف بعد محاولته كبح جماح تجاوزات المضللين من الدروس المستفادة ، فلقد قبض عليه ١٩٣٨ ، وأعدم ١٩٤٠ فى أحد معسكرات الاعتقال التى أنشأها ستالين .

وكان الجبهه الذى وضع فكرة تأليه ستالين هو الشخص موضع التأليه بلحمه ودمه . غير أن هناك كثيرين تقدموا بالمساعدة لتحقيق ذلك ابتداء من بعض أفراد حاشية ستالين أو بطانته من أمثال جانوفتش ومخليس الى بعض من يعملون من وراء الستار فى ميدان الأيديولوجيا

مثل « لور » ، وربما تساءلنا عن هوية المجددين ؟ ولا ريب أن بعضهم كانوا من الأشخاص المتعلقين بـ ستالين ، أو بالرجل الذين توهّموا اتصافه بالمثالية . وكان بعض آخر مجرد موظفين ممن افتقروا - في أغلب الظن - إلى ما يؤهلهم للاشتغال بالمسائل الفكرية ، ولكنهم اتصفوا بالفطنة أو « الفهولة » ، أو لعلهم وهبوا قدرا لا بأس به من السفالة يعينهم على انتهاز فرص التسلق الكامنة في النظام الستاليني القائم على التمجيد الشخصي ، ومن المتسلقين الذين شقوا طريقهم إلى القمة باتباع هذه الوسيلة من أمثال رئيس الشرطة السرية في جورجيا : لافرنتي بريا ، الذي ارتقى إلى وظيفة رئيس لجنة الحزب فيما وراء القوقاز ١٩٣٢ بمساندة ستالين . والصفة العامة الوحيدة التي لا غنى عنها التي يشترك فيها جميع المجددين لستالين هي القدرة على تحريف الحقيقة وتزييف الوقائع التاريخية . وكما عبر عن ذلك اياروسلافسكى ذاته : ينبغي أن يكون «المجددون» مجردين من المبادئ» ، ولديهم قدر كاف من الطواعية ينسيهم ضماثرهم بالقدر الذي تتطلبه عملية ترسيخ فكرة تآليه ستالين .

وكانت الرسالة التي أرسلها ستالين إلى صحيفة «الثورة البروليتارية» نقطة تحول في تطور فكرة التآليه ، فابتداء من وقت ظهورها ، أصبحت عملية تآليه ستالين من الحرف النامية في روسيا ، فلا وجود لميدان في الثقافة السوفيتية كان قادرا على الإفلات من البحث عن وسيلة مستلزمة من رسالة ستالين . وعلى سبيل المثال ، خصصت مجلة الموسيقي البروليتارية مقالها الافتتاحي في يناير ١٩٣٢ للتحديث عن الحقيقة المعروفة على خير وجه ، التي اعترف بها ستالين بالذات في حديث ١٩٢٤ ، بأنه في مارس ١٩١٧ وقبل عودة لينين لروسيا وتوكيد رسالته في إبريل ، كان ستالين يشترك هو وكانيف ومورانوف في خطأ تصور أحد المواقف السياسية للحكومة المؤقتة (فلقد دافعوا عن موقف الحزب ، وقالوا أنه ينارس الضغط على الحكومة حتى تنسحب من الحرب) . لقد كانت هذه الحقيقة التي تيسر توثيقها عن تاريخ الحزب - كما كتبت ١٩٢٩ - من بين أخطاء اياروسلافسكى التي أشارت إليها رسالة ستالين ، وتحولت إلى « لا واقعة » في تاريخ الحزب ، كما أعاد كتابته اياروسلافسكى وآخرون في الثلاثينيات . وامتدت عمليات التزييف إلى فرض رقابة استذكارية قام بها ستالين - أو أجريت إرضاء له - لكتابات الأبركر ، كما حدث مثلا عندما حذفت إشارات ستالين ١٩٢٤ للموقف الذي اتخذ في مارس ١٩١٧ من الطبقات المتأخرة من كتابه « مشكلات اللينينية » وزيف كتاب « السلطة » . (*) التاريخ الفعلي للحزب ، حتى يتوافق هو والصورة

المصطنعة بالصيغة المثالية « للبلشفي الصميم » الذي يعد انحرافه عن الطريق القويم للثورة مستحيلا . وهي صورة تمثل تصور ستالين لنفسه ، وقد طرح ستالين الأساس المنطقي لهذا المنهج التزييفي في رسالة « واجبنا في الجبهة الموسيقية » على ضوء الرسالة ، وحمل المقال الافتتاحي المناظر في فبراير ١٩٣٢ عنوان « التيقظ البلشفي » في نظرية مسك الدفاتر في الجبهة ، في عدد خاص عن « الحسابات الاشتراكية » . غير أن التاريخ الثوري ودور ستالين فيه ظلا موضوع الاهتمام الرئيسي . ومن الأمثلة البسيطة لذلك ، وإن كان يمثل أمثلة عديدة ، مقال نشر في جريدة الأبرافدا بعد ظهور رسالة ستالين بفترة وجيزة . وشجب هذا المقال كتابا عن تاريخ الكومنترون لعلم ورود اسم ستالين فيه أكثر من مرتين ، وقال : « ما لم يبرز دور الرفيق ستالين الرائد في تاريخ الكومنترون ، في أي تاريخ يكتب عن الكومنترون فإنه لن يصح الاعتراف بأي مرجع من هذا القبيل ضمن مراجع تاريخ الكومنترون » .

ويعد أن وصف نفسه بمؤرخ الحزب الأول ، ألقى ستالين محاضرة أخرى للرد على عضوين من أعضاء الحزب (*) ، كانا قد ألفا كتابين أجابا فيهما على رسالته . ونشر الرد عليهما في ١٥ يناير و ٢٥ يناير ١٩٣٢ في صحيفة البلشفي (ثم في صحف أخرى) في أغسطس التالي ، والظاهر أنه ليخترق قبح حاول أن يثبت أنه ستاليني أكثر من ستالين نفسه ، فأشار إلى أن « التروتسكية لم تكن يوما جزءا من الشيوعية » ولكنها كانت في جميع الأوقات جزءا من المنشقية ، بالرغم من أن الحزب الشيوعي قد اعتبر تروتسكي والتروتسكية في وقت ما - من باب الخطأ - من صميم البلشفية . وبعد أن وجه ستالين ضربة قاضية لهذا التلغيق ، كشف عن الانقسام الكامن في شخصيته ، فقال أنه لا ينكر أن التروتسكية كانت تنتمي في يوم من الأيام إلى الشيوعية ، ولكنها كانت تتذبذب من حين لآخر بين البلشفية والمنشقية ، وحتى عندما كان التروتسكيون ينتمون إلى الحزب البلشفي ، فإنهم لم يتصفوا بالبلشفية الحقة ، ومن ثم أصبح القول بأن التروتسكية كانت جزءا من المنشقية قبل أن ينضم التروتسكيون إلى حزبنا ، فانطوا مؤقتا تحت لواء الشيوعية ثم عادوا أدراجهم مرة أخرى إلى أحضان المنشقية ، بعد اقضاء التروتسكيين من حزبنا » وهكذا يكون الكلب قد عاد إلى قيئه .

وأكدت هذه التصريحات مرة أخرى لأهل حرفة الممثلين بأن واجبهم يدعوهم إلى النظر إلى كتابات ستالين نظرة تقديس ، وكأنها كتاب منزل ،

ولعل منشورات الحزب ١٩٣٢ قد سبعت للاستجابة لمطلبهم . فاعيد طبع الستالينيات الباكورة مثل رسالة ستالين غير المعروفة بالفعل (١٩١٠) الى لينين من معتقله (*) ، ورسائله الأقل شهرة « رسائل من القوقاز » التي كتبها في السنة نفسها ، وفي ذات الوقت ، شرع المجددون في اعادة كتابة التاريخ وفقا لقواعد ستالين وعلى نحو محسوب ، لايراز دوره وفضائله في الماضي الثوري للحزب ، مع الحرص على الانتقاص من تاريخ أعدائه وخصومه ، وبدأت في الظهور الرواية الستالينية المحرفة لسيرة البلشفية ، ولكن كانت هناك عمليات تزييف أدهى وأبشع في طريقها الى الظهور .

ولم يؤد ظهور فكرة تأليه ستالين الى حجب فكرة تأليه لينين . وكل ما هناك هو أنها أحدثت تعديلا فيها يرمى الى هدف أبعد . فبدلا من وجود تأليهين يتعاشان جنباً الى جنب بزغ بدلها تأليه واحد تقاسم فيه المعبودان لينين وستالين التأليه . وفي بعض جوانب ارتفعت قامة لينين مما جعله يبدو وكأنه البلشفي الصميم الحق ، الذي لا يمكن وقوعه في أي خطأ ، ولكن لما كان لينين ملتصقا بخليفته وتوأمه السياسي فقد نال هذا التوأم نصيبه من كل ثناء وتأييد ينسب للينين ، ولم يكن هناك مندوحة من حدوث ذلك ، فكل وقائع حياته وأعماله ، التي يستطاع ربطها بـ ستالين كان من الميسور أضفاء صفة المثالية كاملة عليها . أما الحالات التي يتعذر فيها الربط بين لينين وستالين ، فانها كانت تحتم استبقاء لينين في الخلفية ، والواقع أن بعض جوانب من حياة لينين كان لابد التخلي عن توكيدها ، ويعاد توضيب بعض الجوانب الأخرى أو تحريفها ، أو إضافة بعض لمسات عليها حتى يتسنى أضفاء المثالية على ستالين .

وهكذا صور ستالين الآن كمشارك في مآثر لينين ، وذكر أنه منذ عهد بعيد قام بدور الساعد الأيمن للرجل ، والذي كان يرجع اليه طالبا المشورة والعون في النقاط الرئيسية للاطمئنان على مسيرة الثورة ومستقبلها . ويوسعنا الاستشهاد بمثال يصور ذلك . انه اختار ٥ مايو ١٩٣٢ كالعيد العشريني لمولد جريدة البرافدا ، ففي البداية ، ذكر المحرر في مقاله لأحياء هذه الذكرى : « لقد كان لينين يكتب مقالا للصحيفة يوميا على وجه التقريب ، ويشترك معي في هذا الشأن الرقيق ستالين ، الذي كان يأتني برأيه ، وبخاصة عندما كان مختبئا أثناء انشغاله بالمقاومة السرية . وهكذا بزغت في هذا التأليه المزدوج الشخصية الأصغر (ستالين) كأنها « أنا » ليتينية بديلة ، وكان هذا الادعاء يتعرض للفضح بطبيعة الحال ، عندما يتتبع لينين ذاته عن المسرح المباشر للأحداث .

نظر الى التاريخ من منظور جديد

☆ معتقل Soltychegodsk

ومن الأحداث ذات الدلالة ، ارفاق صورة كبيرة لستالين بدلا من لينين
بالمقال الذى تضمن استشهادات مطولة من ذكريات ستالين عن ١٩٢٢
(فى بداية ظهور الصحيفة) .

غير أن هذه الأحداث لم تتمخض عن خروج اياروسلافسكى عن
الصف فحسب ، ولكنها أدت الى انضمامه الى طليعة المجددين . فعندما
طلب منه مقال لتخليد ذكرى العيد العشرينى لمؤتمر براج فى يناير
١٩١٢ ، استطاع اكتشاف وسيلة أريية لاجلاس ستالين فورا على العرش
المؤسس للحزب البلشفى . فكما شهد لينين ، لقد ظهرت البلشفية كتيار
سياسى ابتداء من ١٩٠٣ ، عندما حدث تصدع فى المؤتمر الثانى للحزب
الماركسى الروسى ، وانقسم الى طائفتين : البلشفية والمنشفية . غير أن
الوجود الشكلى للحزب البلشفى لم يبدأ تاريخيا الا بعد مؤتمر براج ١٩١٢
بجميع البلاشفة ، ففيه حول لينين ما كان مجرد طائفة الى حزب قائم بذاته ،
لم يعد مرتبطا تنظيميا بالمتشغين ، وبعد مؤتمر براج ، ارتقى ستالين
(عن طريق الاشتراك فى الاختيار وليس عن طريق الانتخاب) للمرة
الأولى الى عضوية اللجنة المركزية للحزب . وقام اياروسلافسكى بتقييم
الحقيقة المثيرة- للنبليلة أو المحيرة باختبار ستالين عن طريق التصويت
بالقول : فى المؤتمر انتخبت لجنة بلشفية مركزية ضمت بعض الأسماء (*)
(واختير بعض هؤلاء الأشخاص بالاتفاق) . ثم أكد اياروسلافسكى بشدة
● بأن مؤتمر براج كان بمثابة نقطة تحول فى تاريخ الحزب البلشفى ●
وبذلك تعمد تصوير ستالين بطريقة غير مباشرة على أنه كان حاضرا عملية
تأسيس الحزب .

ولعل أظن المنظرين من أعضاء الحزب كانوا فى بعض الحالات
أبطياء فى ادراك ما حدث من تحول فى تأليه الشخصية ، وتطبيق طقوسها
الخاصة . وكان س . ا . سيف (**) - وهو من المجددين الغيورين ،
وكان يعمل سكرتيرا اداريا لصحيفة « المؤرخ الماركسى » - من بين من
صوروا ما حدث من اضطراب فى هذه الأيام الباكورة . ووضع عنوانا
مرتجلا للمقال الافتتاحى الذى هدف الى تخليد الذكرى الخمسين لوفاة
ماركس (فى مارس ١٩٢٣) ، وصحح فى هذا المقال اغفال ذكر اسم
لينين قبل صدور العدد . وأخفق سيف فى ادراك عدم تسميان شخصية
لينين ، وأنه أصبح يذكر كشريك فى الزعامة لستالين ويحظى بنفس

Belostotskiĭ, Ordzhonikidze, Zinoviev, Stalin, Lenin,
La M. Sverdlov, Spandarian, Goloschekin, Shvartsman.

(★)

S. E. Sel. صفحات ١٤٠ - ١٤١ . (★★)

مراسم التآليه * ومع هذا ومع هذا التآليه المزدوج ، فقد طغت شخصية
إخلف ستالين على شخصية السلف (لينين) ، فمثلا قام أحد المراسلين
الأجانب بحصر عدد الأيقونات السياسية (من صور وتماثيل تصفية
للزعميين) المعروضة في الفترينات في بعض محلات بشارع مكسيم
جوركي بموسكو في ٧ نوفمبر ١٩٣٣ ، واتضح ان نسبة عدد ايقونات
ستالين الى عدد ايقونات لينين هي ١٠٣ : ٥٨ (٦) *

وأصبح اسم ستالين يتردد في شعر الأغاني ، وبخاصة عند الشعراء
الوافدين من الشرق العريق في المنظومات التي تحتوي ملقا للحكام * فلقد
نظم أ . أ . لاخوتي قصيدة طويلة يتغنى فيها بمآثر ستالين ، وسماها
« الزعيم » وهي مترجمة من الفارسية الى الروسية ، ومن بين أبياتها
الدالة على روح القصيدة :

يا معلم يا حكيم ، يا جنائني الماركسية :

انت حارس أعتاب الشيوعية

قانت تفلح أرضها لكي تنهض بها الى الكمال

وانت بعد لينين زعيم اللينينيين

وفي ذات الوقت ، انضم الباحثون في الدراسات الشرقية الى هذا
« الهلما » (كما يقال عندنا في مصر في الأوساط الشعبية هذه الأيام) *
واستشهدوا بما حققه ستالين وبلينين أيضا في حل مشكلات الثورة
القومية الاستعمارية في الشرق * وخرجت إحدى النشرات التي تحدثت
عن تاريخ الحزب الشيوعي في الخارج ، لأنها انخرقت في نظرتها الى
تاريخ الحقبة الواقعة بين ١٩١٧ و ١٩٢٧ (يعني نظرت اليها بروح
جورجانية متعصبة) بعكس اتجاه ستالين ، وكان من بين من وشى بهم
الداحية برياً ، الذي أدان النشرة العدوانية التي ظهرت في مدينة تفليس *
وبدأت بواكير مشاركة ستالين في الثورة في القوقاز تجتذب الانتباه
وتحظى بالتقدير ، فظهرت نشرة في جورجيا تصور ستالين الشاب كزعيم
بطولي يقود أنشطة المقاومة الثورية الشعبية في باطوم (١٩٠١ - ١٩٠٢) *

وظلت عملية التآليه تتصاعد في المنشورات الرسمية خلال ١٩٣٣
واحتفت صحيفة البرافدا بمرور خمسين سنة على موت ماركس في
١٤ مارس ، بامتداح المقالات التي نشرها ستالين عن نظرية الجدلية المادية ،
واختتمت كلامها بالقول « بأن اسم ستالين يتساوى في المكانة هو

(٦) Mosrow Carrousel (١٩٢٥) *

Eugen Lyons من ١٤٠ ومن ١٤١ *

والأسماء العظيمة لأصحاب النظريات وزعماء البروليتاريا في العالم
(ماركس وإنجلز ولينين) وأصبحت عبارة « الأعمال الكلاسيكية لماركس
وإنجلز ولينين » من العبارات الشائعة على كل لسان . وانتقدت دار نشر
الحزب نقدا مريرا ، لأنها لم تحرص على استبعاد الأخطاء المطبعية في آخر
كتاب كلاسيكي حقق أسرع المبيعات يعني كتاب : « مشكلات اللينينية »
لستالين ، وكان « هنات » الأخطاء المطبعية يمكن السماح بها في كتاب
من تأليف الرفيق ستالين ؟ هكذا قال الناقد متعجبا . وبينت الأرقام
الكلية لمبيعات الكلاسيكيات التي نشرت ١٩٣٢ - ١٩٣٣ أن ترتيب الاقبال
عليها كان على الوجه الآتي : ٧ ملايين نسخة لأعمال ماركس وإنجلز .
١٤ مليون نسخة لأعمال لينين ، ١٦ر٥ مليون نسخة لأعمال ستالين ، من
بينها مليونان من نسخ كتاب مشكلات اللينينية ، وهكذا اقتربت مجموعة
مقالات ستالين وأحاديثه على هذا العهد من أن تكون أفضل مبيعات الكتب
في الربع الثاني من القرن العشرين .
ومن الآن فصاعدا ، وحتى نهاية حياة ستالين ، استمرت بلا توقف
عملية تضخم تأليهِ شخصيته .

المراجع

- K. E. Bailes, *Technology and Society Under Lenin and Stalin : Origins of the Soviet Technical Intelligentsia 1917-1941*, (1978).
- J. Barbar, *Soviet Historians in Crisis 1928-1932* (1981).
- S. F. Copen, *Bukharin and the Bolshevik Revolution : A Political Biography 1888-1938*.
- R.V. Daniels ed. *The Stalin Revolution : Fulfillment or Betrayal of Communism* (1965).
- I. Deutscher, *The Prophet Armed* (1954).
- I. Deutscher, *The Prophet Unarmed* (1959).
- I. Deutscher, *The prophet Outcast* (1963).
- G. M. Enteen, *The Soviet Scholar-Bureaucrat : N.N. Pikrowskii and the Society of Marxist Historians* (1978).
- L. R. Graham, *The Soviet Academy of Sciences and the Communist Party 1927-1932* (1967).
- D. Joravsky, *Soviet Marxism and Natural Science (1917-1932)*, 1961.
- R. Medvedev, *Let History Judge : The Origins and Consequences of Stalinism* (1971).
- R. C. Tucker, *Stalin as Revolutionary 1879-1929 : A Study in History of Personality* (1973).
- R. C. Tucker, *Stalinism Essays in Historical Interpretation* 1977.
- N. Tumarkin, *Lenin Lives ! The Lenin Cult in Soviet Russia* (1983).
- S. B. Ulam, *The Bolsheviks : The Intellectual and Political History of the Triumph of Communism in Russia*, 1965.

ديناميات النازية – السياسية الخارجية الألمانية – سياسة التهدئة

رونالد • م • سملسر

متقل اتفاقية ميونخ ١٩٣٨ أكثر الاتفاقيات إثارة للجدل • ويرى كثيرون أنها أفصح الاتفاقيات التولية في التاريخ الأوروبي الحديث • وتبحث المختارات التالية ميثاق ميونخ من منظورين اعتيد بوجه عام تجاهلهما : منظور أحداث السياسة الألمانية ، ومنظور الموقف العسكري حينذاك •

واستندت سياسة التهدئة الانجليزية على الاعتقاد بأن تسوية باريس قد عادت بأوضاع مجحفة وغير مقبولة لألمانيا ، وأن هناك بعض تعديلات في حدود ما بعد الحرب بعت معقولة ، بل ومقبولة أخلاقيا ، وأنه إذا جرت مثل هذه التعديلات المحددة سيتسنى وقف الميول العدوانية لهتلر • وافترضت هذه التصورات أنه بالمقدور إقامة نظام دولي يعتمد على السلام ، إذا نوقشت المسائل التي أثارت الضيق لأحدى القوى الأوروبية بطريقة موضوعية ، وإذا اتضح أن أسباب الضيق كان لها ما يبررها •

والسؤال الذي ثار هو هل نظر الألمان النازيون المسؤولون عن السياسة الخارجية إلى هذه المسألة على نحو مماثل ؟ • ويبدو أنه كن هناك القليل من الخلاف حول الرد بالسلب على هذا السؤال ١٩٣٨ • إذ كان هناك تنافس واضطراب داخل النظام النازي حول وضع السياسة الخارجية • وفي أواخر الثلاثينات ، هيمن على فريق أعداد القرار أشخاص ذوو أهداف سياسية متطرفة ، لم تكن بين أهدافهم إعادة تعديل حدود ما بعد الحرب • والارجح هو أنهم كانوا من أصحاب الرؤى الذين يسمعون لاعادة تشكيل القوى العالمية ، ومن المؤيدين للتغلغل الألماني على نطاق واسع في أوروبا الشرقية • وكان من صاغوا هذه السياسة في الأغلب من أبناء الطبقة

نقلا عن Fascist Challenge and the Policy of Appeasement. تأليف
W. J. Mommsen and L. Kettenacher (eds). (١٩٨٢) •

المتوسطة ، أو ما دون المتوسطة من الألمان الذين عجزوا عن بلوغ المكانة الاجتماعية والرضا الذي كانوا يتطلعون اليه داخل المجتمع الألماني ، رغم نجاح الاشتراكية الوطنية داخل حدود ألمانيا • واعتقدوا أن إنشاء امبراطورية في شرق أوروبا سيمنحهم ساحة يحققون فيها أهدافهم القومية الامبريالية ، وطموحاتهم الاجتماعية الشخصية • نعم لقد حل أشخاص يمتنعون هذه النظرة المتسلطة في دوائر السياسة الخارجية في ذات الوقت الذي قرر فيه هتلر بالذات علم احتمال اتخاذ بريطانيا حليفة له ، وأنها ستكون في جميع الاحتمالات عدوة له •

وتبعاً لذلك، فعندما قررت بريطانيا سياسة التهدئة الفعالة، المستندة على اجراء بعض تعديلات مقبولة تساعد على القضاء على بواعث الضغط ، واجه الدبلوماسيون الانجليز نظراء من الألمان يسعون لخلق امبراطورية غير محدودة في أوروبا الشرقية ، ومن هنا تفاقمت الشكوك في احتمال تحقيق السلام مستقبلاً مع البريطانيين •

من بين الأسئلة الدقيقة عند تقييم سياسة التهدئة ابان لواخر الثلاثينات ، التساؤل حول هل حققت هذه السياسة أية فرصة للنجاح في ظل الأحوال السائدة ؟ • ويتطلب توجيه هذا السؤال أكبر قدر مستطاع من الفهم لطبيعة التهديد الذي تعرض له النظام الدولي حينذاك ، ويشتمل هذا الفهم بصفة أساسية على إدراك السياسة الخارجية الألمانية خلال هذه السنوات • فبالرغم من أن ألمانيا لم تكن المتحدى الوحيد للأوضاع الدولية الجارية ، إلا أنها كانت أخطر المتحدين •

هنا تظهر منذ البداية كوكبة كاملة من المشكلات ، ساعدت على تعقيد المشكلة : الى أي حد مثلت سياسة هتلر مظاهر التواصل ومظاهر دالة على عدم التواصل ؟ وما هي العلاقات - ان وجدت - بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية في ألمانيا النازية ؟ وكيف اتصف دور هتلر بآثره الحاسم عندما ربط مخططاته وعملية صياغة قراراته بعوامل أخرى عند مواجهته لبعض المواقف في السياسة الخارجية ؟ هذه الأسئلة ، وغيرها من الأسئلة ، يجب أن توجه • وما من شك أنها قد أثرت في عدد من الكتابات الحديثة العهد عن السياسة الخارجية الألمانية • غير أن ما جرى في هذا الشأن حتى الآن كان بالضرورة محاولات اجتهادية واستكشافية • فمازالت هناك أسئلة عديدة في انتظار الرد عليها • فهناك رتل من الأحداث تفسر اطارها • ويساعد النظر في مشكلة « التهدئة » على مواصلة توجيه السؤال المعقد حول ما خلفته ألمانيا النازية من تهديدات •

وفي هذا البحث سأؤكد وجود ارتباط وثيق بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . واعتقد أن النظام النازي ، الذي ظهر في مجتمع في حالة تفكك قد أحدث تمشيا مع طبيعته - بغض النظر عن وجود أية أهداف شخصية في عقل الديكتاتور - تهديدا ثوريا لاستقرار النظام الدولي ابان الثلاثينات . فضلا عن ذلك ، فلربما أشرت الى أن هذا التهديد لم يمثل تحديا لهتلر بوصفه المخطط الرئيسي للسياسة الخارجية ، ولكنه توأم موأمة وثيقة هو والأهداف السياسية البعيدة المدى لهتلر ، وأتاح باعثا لتطلعه تعديل وجه أوروبا تعديلا جذريا . وفي الحق فثاته قد خلق زخما على جميع الجبهات ، لم يتمكن أسلوبه القائم على حل كل مشكلة في حينها عن الوفاء بمتطلباته . وأخيرا أود أن أشير الى أن ما تصاعد آنشد الى حد التهديد المزدوج - يعنى تهديد هتلر نفسه ، وتهديدا قائما بذاته الى حد ما للنظام الذي يترأسه - قد ساد على نحو اقرب من تصويب فرصة انجاح سياسة التهدة ، وبخاصة ما يتعلق بثوقيتها وتنفيذها .

ولقد ثبت الآن ثبوتا قاطعا ، وأصبح مقبولا بوجه عام عند معظم الباحثين ما يقال عن أنه من الصعب وصف النظام النازي بالنظام المتناسك في كتلة واحدة . مما ساعد على كفاية الإنجاز ، كما يحاول الدعاة وصفه . والأصح هو تشبيهه بغاية ، تسودها البيروقراطية والتناحر ، وتتصف بالتشريعات المتشابهة المتضاربة ، وتركيز السلطة في الأشخاص وازدواج الأدوار والفوضى الادارية . واستندار هذا الوضع البيروقراطي الأشبه بالحالات الفطرية التي تلور فيها الحرب بين جميع الأطراف لصالح هتلر عندما ساعد على تضخيم قوته وسلطاته ، بأن وضعه في مكانة الفصيل الذي يصدر القرارات النهائية في جميع الأمور . ولعله لهذا السبب بالذات قد شجع المنافسات ، وأوغر الصدور ، بما أصدره من قرارات مضطربة ، أو لعجزه عن اصدار القرار الصحيح . غير أن دولة الفوهرر الفوضوية كانت شيئا أكبر بكثير من مجرد تجسيم لتقنيات الزعامة الشاردة لهتلر . انها بالأحرى انعكاس لما حدث للمجتمع الألماني في السنوات التي سبقت استيلاء النازي على السلطة (*) ورد على ذلك . ومثلت ظاهرة لم يقتصر أثرها على ما وقع من أحداث ثورية في المجتمع الألماني ، ولكنها جرت في ذيلها عواقب منذرة للوضع الدولي الراهن (**) ، لأنها أمدته بالدينامية التي دفعت الثورة النازية الى ما هو أبعد من حدود الرايخ الألماني .

ودينامية النظام الألماني المعروفة ، والتي كثيرا ما تسترعى الانتباه ، مستمدة بقدر كبير من التفكك العام للمجتمع الألماني الذي حدث خلال

Machtergreifung.

(*)

Status quo.

(**)

العشرينات والثلاثينات في أعقاب الهزيمة الوطنية والكارثة الاقتصادية .
وقد أدى هذا التفكك المجتمعي الى حدوث انقسام جندى بين المتغيرات
الطبقية والمراتب الاجتماعية ودرجات الثراء ، وقضى على أى اجماع وطنى
يحتمل حدوثه . وانعكس ذلك - سياسيا - فى الانهيار التام الذى حل
بجمهورية فيمار والنظام البرلماني لحكومتها .

وظهرت الاشتراكية الوطنية كرد مشخص على هذا الموقف القائم على
التشتت السياسى والتفكك الاجتماعى ، وحقت الكثير من نجاحها عندما
وعدت بأمرين : أولا استعادة لم شمل الأمة الألمانية . بعد أن أعادت
تعريف مفهوم الأمة ، ومن ينتمون اليها ، ومن لا ينتمون . ثانيا : بأن
خلقت عالما من الفرص المتساوية لجميع المشاركين فى عملية خلق المجتمع
اليوتوبى المتحرر من العشائري والصراع الطبقي . ومن المفارقات ، أن يكون
من بين الوسائل التى اعتمد عليها النازى فى محاولة تحقيق هذين الهدفين
السديمين نوعا ما ، زغم سمور وقمعها ، بمجرد استيلائه على السلطة ،
التجريد من الروح الاجتماعية (بالزعم بأن الصراع الطبقي قد انتهى) .
وفى الوقت نفسه ، « تسييس » المجتمع . واتسمت هذه الخطوة الثانية
- بوجه خاص - بأهميتها ، لأنها أسرت لزعماء النازى توجيه الألمان نحو
ما أصبح بالفعل اiban عهد فيمار ، الطريق الأكثر انفتاحا للصعود فى المرتبة
الاجتماعية - أى طريق السياسة بمعنى آخر .

والحق لقد لوحظ أنه لم يسبق أن حدث فى ألمانيا ما حدث بعد مجيء
النازى الذين استحدثوا احساسا بالجرأة والاندفاع الحيوى على مستوى
ممتد الجنود لشعب اعتاد تقليديا أن يكون « بعيدا عن السياسة » (*) .
وهكذا فاعتمادا على الآليات التى ساعدت على اشراك عامة الناس فى ساحة
سياسية فسيحة ، تولى الحزب أمرها ، استطاع النازى تعريفهم بمشكلاتهم
المزدوجة لاستعادة الاجماع القومى ، وإتاحة الفرصة للجميع . والتى لن
تحل الا بفرض الصلة الوثيقة بين مصير الأمة وتقسمهم فى أعمالهم فى
عقول الألمان . فاذا استطاع أحدهم المساعدة فى إقامة الروح الشعورية
الجماعية (**) واضطلع بانجاز دوره فى نفس الوقت كان هذا أفضل .
وفى هذا المقام ، كان من المرغوب فيه بطبيعة الحال زيادة توسيع رقعة
عالم السياسة بأكبر قدر مستطاع . ومن هنا ظهر ما سماه فرينكل
« الدولة المزدوجة » ، يعنى الدولة التى لا يعد فيها مجال السياسة مجالا
واحدا من الدولة ، منفصلا عن باقى المجالات بحكم القانون ، ولكنها مجال

Apolitical..

Volksmein chaft.

(*)

(**)

قادر على كل شيء ومستقل عن كل تنظيم قانوني . ان هذا الجمع بين جملة مؤثرات كالتأثير المشترك لفرص العمل ، والاحساس باعادة تعريف معنى « الأمة » وتوسيع مجال عالم السياسة هو الذى خلق الساحة السياسية الدينامية التى ميزت ألمانيا النازية من البداية . ان هذه الساحة تمثل عالما لم توضع فيه أية حدود تتجاوز المعايير - التى طرحت بطريقة غامضة فى أكثر الأحيان - التى عبرت عن ارادة الفوهرر . وفضلا عن ذلك لم توضع أية تحديدات لما يمكن أن يتمتع به الفرد من قوى ، فبدت أقرب الى كاريكاتور لليبرالية المفتوحة فى القرن التاسع عشر . ولم توضع أيضا أية تحديدات للتشريع ، لأن الفرد لم يقتصر دوره على شغل وظيفة ما أو منصب . ولكنه كان مطالبا بخلق مجتمع جديد كلية . ومن هنا جاءت تعددية المخططات فى عقول عتاوله النازيين الحكماء ، والتى نمت عن احساسهم بتصورهم أنهم قادرون على كل شيء ، كما يبين من عالم قوات العاصفة لروهم وعالم العمال للاى (*) وعالم أصحاب الخوذات النحاسية لهيرل (**) وعالم منظمات الشباب لشيراخ وأخيرا يجرىء عالم هملر الذى تمتع بأكبر قدر من النفوذ التشريعى .

وساعد العامل الاضافى « للفوضى » على ازدياد اشتعال التنافس فى عالم المبادرة السياسية الحرة . والشئ المذهل فيما يتعلق بالتكوين السياسى للنازى هو افتقاره الى القواعد . وبطبيعة الحال انعكس غياب « القيم » لصالح هتلر نفسه ، لأنه ساعده على أن يصبح الفيصل النهائى والأوحد ، ومن هنا رأيناه يرضى عن هذه الحالة ويشجع على استمرارها . غير أن الفوضى قد سادت لأسباب أخرى أيضا ، وعكست مرة أخرى تشتت المجتمع الألمانى . ويلاحظ فى جميع المجتمعات الحديثة وجود ميل للاستعاضة عن الروابط التقليدية العضوية (كالقراية والانتماء لقرية أو نقابة واحدة) بروابط وظيفية (كالارتباطات التجارية والصناعية والاتحادات وهلم جرا) . ولا شك أن هذا التطور من الظواهر المصاحبة للتحديث . وفى المجتمعات الليبرالية ، يحدث هذا الاجماع فى نطاق اطار سياسى ودستورى مقبول بصفة عامة ، يضع قواعد لا شخصية يستند اليها فى امكانية خلق هذه الارتباطات الوظيفية ، والربط بين بعضها البعض . على أنه فى حالة غياب اجماع من المجتمع على نطاق واسع ، فانه لن يوجد اطار معيارى ، مما يؤدي الى احتمال شيوع الفوضى . وهذا بالضبط ما حدث فى ألمانيا . فحتى قبل استيلاء النازى على السلطة ، كان المجتمع الألمانى يفتقر الى الاجماع الذى كان بمقتوره دعم التغير المنتظم من الروابط العضوية الى الروابط

الوظيفية . ويرجع ذلك الى أن المجتمع الألماني كان « لا ليبراليا » أساسا في تطوره ، ومازال في طريقه الى التحديث ، الذي لم يحدث الا جزئيا . وبعد أن انتقلت السلطة الى النازي ، ازدادت الحال سوءا . فلما كان النازيون قد درجوا على تليفق اجماع المجتمع ، لنا عملوا قاصدين الى تسريع عملية التحديث بدرجة كبيرة ، بأن قضوا على التنظيمات التقليدية الجامعة ، العضوية والمستقلة استقلالاً ذاتيا ، وأحلوا محلها أنظمتهم الوظيفية ذات الغائية السياسية في نطاق النظام النازي ، وبدا لهم هذا الاجراء كمهمة ضرورية ، ومن المقومات الأساسية للتكامل في سياسة تحقيق الجانوس (*) التي استعانوا بها لفرض سيطرتهم على الشعب الألماني . غير أن الافتقار ذاته للاجماع الذي يكمن وراء الكنوية الروح الشعبية الشعورية (**) الجماعية ، ونفس الافتقار للاجماع الذي كان طابع المجتمع الألماني قبل سياسة القوة والقبضة المديدية (***) ، قد استمر حائلا يحول دون صوغ أية مجموعة من القواعد التي تعتمد عليها الروابط الجديدة في أداء أدوارها ، أو في ربط كل جماعة بالجماعة الأخرى . وأدى ذلك الى ظهور روابط « وظيفية » مستحدثة ، يعنى امبراطوريات شخصية بيروقراطية لفحول النازي مثل لاي وجوبلز وهملر الذين يضطلعون بأدوارهم لا ضمن صرح خاضع للمعايير والقيم ، وإنما في غابة تسودها المنافسة .

فلا عجب إذن اذا عممت الكيانات النازية المتنافسة من البداية الى نصف الحدود الموضوعية بطريقة مألوفة ، والتي تساعد التكوينات الوظيفية على أداء عملها . وتربط كل منها بالآخر في المجتمع الحديث . ويصح هذا القول عن الوسائل التي استعانت بها في أداء وظائفها ، والتي أصبحت تشتمل على توجيه الاتهام بالخيانة والتآمر ، بل والقتل ، بحكم الامتداد الواسع لأنشطتها . والتي كشفت عن الميل لاصدار التشريعات وتكديسها دون مبالاة بتوافقها أو ترابطها ، مما جعل منها علما بيروقراطيا هلاميا . فمثلا هل هناك بلد ليبرالي يستطيع فيه أمثال هرمان جورنج شغل وظيفة قائد للطيران والمتحكم في الصناعة وكبير المشرفين على الغابات والوسيط في السياسة الخارجية ، وربما ما هو أكثر من ذلك ! . بيد أنه من المهم بالنسبة لبحثنا الحالي ، القول بأن الافتقار الى القواعد والولع « بالتكويش » قد يسر للتنظيمات الوظيفية النازية ازالة الحدود التي تفصل السياسات الداخلية عن السياسة الخارجية .

وتسببت هذه النزعة السائدة التي سمحت بالتحرك الدينامي من مساحة السياسة الداخلية الى مساحة السياسة الخارجية في ايفار الصدور

Gleichschaltung

Volsgemeinschaft.

Machtergreifung.

(*)

(**)

(***)

وإثارة العفائن ، وهي ظاهرة عرفت عن المجتمع الألماني حينذاك ، ومن رواسب الوجود المتواصلة للطبقات الحاكمة السابقة ، وضرورة الاهتداء الى وسيلة للتعايش معها . فمن المعروف تماما أن هتلر قد أحبط آمال وأمانى ملايين من أتباعه من أبناء الطبقة المتوسطة والطبقة دون المتوسطة ، ممن كانوا يتطلعون لخلق مجتمع جديد يتجاوب مع تصوراتهم ، عندما اضطر هتلر الى الالتجاء الى القوى التقليدية لتقوية ألمانيا ، ولتحقيق أحلامه في التوسع . وكانت هذه القوى هي قوى الجيش والموظفين المدنيين وكبار رجال الأعمال . فلما اضطر الحزب النازي الى المصالحة مع هذه الفئات ، فإنه سمى بوعى أو بغير وعى الى انتزاع زيانها ، بعد أن أخفقت في إعادة بناء البلاد على أكمل وجه ، عن طريق إعادة خلق المجتمع على غرار النموذج النازي الموازي له . وكانت مكونات هذا العالم النازي تستند الى الروابط الوأيفية ، والتي سبق أن أشرت اليها . والتي أتاحت فرص إمكانات صعود من ينتمون اليها بسرعة أكبر ، ووفرت فرصا أفضل لتحقيق الأحلام اليوتوبية لا يستطيع إتاحتها المجتمع الفعلي . فإن من الأيسر أن تصبح جنرالاً في جيش الدفاع (*) ، أكثر من احتمال وصولك الى مرتبة جنرال في الجيش التقليدي ، وأن ترتقى الى مدير لاحدى إدارات هذا التنظيم النازي ، أكثر من احتمال ارتقائك في السلك المدني ، بعد أن تلاشت من المجتمع الموازي المعوقات الموجودة في المجتمع القديم ، واستعاض عن معايير الأصل الطيب والثروة المملوكة ، والمرتبة الاجتماعية والانتماء لشلة من الصحبة الحميمة بمعايير أسهل في الاقتراب منها ، مثل معيار الولاء السياسى والنقاء العنصرى . وكانت المشكلة - كما يشهد بذلك استمرار بقاء بعض المنتمين الى الطبقة المحافظة من ذوى الألقاب الأثرياء (**) - أن المجتمعين (المجتمع الحق والمجتمع الموازي الذى صنعه النازي) قد استمرا في البقاء جنباً الى جنب مما فرض على أى نازى طموح معاشية المجتمعين ، ومن ثم فلقد عاش كل سياسى طموح فيما يشبه المجال المغناطيسى للتوتر لصعوبة تحويل عملة أحد المجتمعين وما يعود به من إثابة الى عملة المجتمع الآخر . والحق أنه رغم كراهية كثيرين من الصناعيين اجتماعياً (أو لعله يقصد المتسلقين) من النازي للمجتمع الطبقي الأقسام ، ومن يحتلون قمته ، إلا أنهم فى ذات الوقت كثيراً ما عجزوا عن التعلق برموزه وثوابه وعقوباته . ولعلهم قد اكتشفوا الطابع الوهمى لعالم النازي ، وحاولوا المستحيل (أى تحويل الدائرة الى مربع) للتوافق والتكيف اما بمحاولة الانتماء للعالم الآخر ، أو بترجمة نجاحات عالم النازي الى ما حققه من نتائج خيرة ، أو عندما لم تنجح هذه السبل ، فانهم لجأوا الى تجريح المجتمع القديم ، على

نحو أدى في نهاية المطاف الى القضاء عليه ، ولعلمهم قد شعروا بالندى
المنبئة بذلك . ولدينا الكثير من الأدلة عن هذا التوتر الملموس في كل
مستوى من مستويات النظام النازي . فمثلا في ظل « سياسة التهدئة » ،
من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن المحاولة الأولى لريينتروب لاقتحام عالم
السياسة الخارجية قد تمثلت في تقديمه بطلب للالتحاق بوظيفة سكرتير
للدولة (*) ١٩٣٣ . وبينما كان يجمع أعوانه ويوزع الأدوار في « عالم
الظل » فيما يدعى بمكتب ريينتروب ، إلا أنه لم يتوقف عن محاولة ترجمة
أعماله الى مصطلحات العالم التقليدي ، وتوسل مرتين أخريين بعد ذلك
لهتلر ١٩٣٥ لتعيينه سكرتيرا للدولة ، وانتهى الأمر كما هو معروف
باختياره وزيرا للخارجية وتخلي عن مكتبه وأعوانه في عالم الظل .

إن هذا التوتر بالذات ، والعجز عن التغلب عليه هو الذي سيساعد
على توليد دينامية الحزب النازي ، ولا يتعلق ذلك بنزوع التشكيلات النازية
الى تجاوز أو تخطي التشريعات التقليدية فحسب . ولكنه أيضا - وهذا هو
المهم - سيسر لهم في جملتهم تخطي حدود المجتمع الألماني نفسه ،
والتغلغل في مجتمعات شرق أوروبا « السداح مداح » . إذ كان ما يداعب
أحلام الحالمين النازيين والباحثين عن التسلط هو خلق عالم لا يتمتع فيه
بالقيمة أي شيء باستثناء رموزهم ومقدساتهم وتسلطاتهم ومكانتهم . وغنى
عن القول أنه قد ترتبت على ذلك جملة عواقب للسياسة الخارجية الألمانية
لأنه عني أن الآليات ذاتها التي كان المجتمع السياسي النازي يتبعها من
الناحية العملية قد دفعت هذا النظام الى النزوع الى تحدى النظم الاجتماعية
والسياسية الدولية ، بغض النظر عن أية خطط مدروسة قد يكون هتلر وضعها
وكما سنرى إن اساءة فهم هذه الحقيقة هي التي سمحت « للمهدئين »
بالذهاب بعيدا ، مثلما فعلوا عندما اتبعوا سياسة ، لعلها لم تكن غير
مجدية من البداية . وإذا راعينا طبيعة النظام النازي ، وطبيعة الديكتاتور
بالذات ، فإن هذا التفسير لدينامية المجتمع النازي ، ونزوع التنظيمات
التي يتألف منها النظام للاندفاع نحو سياسة خارجية قائمة على التوسع ،
يوحي بعلم وجود توتر حق بين هتلر والنظام النازي . والأصح والأقرب
الى الاحتمال هو حدوث توافق بين طرفين : الطرف الأول - هتلر والنظام
النازي الذي يعمل على فرض السيادة الألمانية على أوروبا ثم على العالم بعد
ذلك . والطرف الآخر يتمثل في جماعة المديرين السياسيين النازيين ،
التي عرفت بديناميتها رغم شعورها بالاحباط ، وكان هتلر على دراية
بالدينامية التي تسير نظامه . إذ كان منساقا وراء بعض الدوافع ذاتها
التي تميز بها أتباعه ، وتركز دوره على تحديد الهدف النهائي (**) بحرص

(*) Staatsekretär. في Auswaertiges Amt.

Endziele.

(**)

على أن يتناوب اتباع أحد اتجاهين بدليلين : أما أن يكبح جماح الدينامية ، إذا رأى نفعا ما يتحقق من ذلك ، أو يساعد على انطلاقها • وإزاء هذه الحقيقة ، بوسعنا أن ندرك اغفال النظرات الى السياسة الخارجية الألمانية التي ضخمت دور هتلر ، أحد المصادر الهامة للضغط الكامنة وراء سياسة توسع ألمانيا النازية •

ومن الضروري في هذه النقطة أن تبين أن الدولة المسيرة للطبيعة (التي حدثنا عنها الفيلسوف الانجليزى هوبز) والتي تميز بها النظام النازي في سياسته الداخلية ، قد اتبعت نفس المبدأ في مجال السياسة الخارجية ، وإن حدث ذلك في نطاق محدود • ولقد لاحظ المراقبون السياسيون بالتأكيد هذه الحقيقة • فقد شكك موسوليني بالفعل في يوليو ١٩٣٣ :

« الظاهر أن الحكومة الألمانية قد ضمت ستة أشخاص - أو لعلهم سبعة - كانوا يتناوبون العمل كوزير للخارجية • انهم هتلر ونويرات وجورنج وبابن وجوبلز وروزنبرج ، ولا داعي لذكر اسم بلومبرج ، الذي كان يزج به في كل مناقشة تدور حول الشئون الخارجية ، وأدى ذلك الى تصعيب التفاهم بيننا وبين الحكومة الألمانية » •

وبعد ذلك بأربع سنوات كان الايطاليون مازالوا يرددون نفس الشكاية • اذ قال الكونت تشيانو وزير خارجية ايطاليا (وزوج ابنة موسوليني) بمناسبة زيارة اللورد هاليفاكس لبرلين في نوفمبر ١٩٣٧ :

« هناك العديد من الديوك في سلطانية الحساء • ولا تقل السياسات الخارجية عن أربع بأى حال : سياسة هتلر وسياسة جورنج وسياسة نويرات وفون ريبنتروب • ولا داعي لذكر من هم أصغر من ذلك • ومن الصعب في مثل هذه الحالة عمل أى شئ يمنع مجرى الأحداث من التوقف » (*) •

ولا يقتصر الأمر على ملاحظة أصدقاء ألمانيا لهذا الوضع • اذ لاحظ ذلك أيضا أعداؤها المتوقعون ، فيما يتعلق بالسياسة الخارجية :

« ليس هناك وزير خارجية واحد • كما لا توجد وزارة خارجية واحدة • فثمة ست وزارات • فإذا تعلق الأمر بالنمسا يسمع صوت

(+) "Zuviet Haehne im Huehnerstall. Es gibt minrestens vier Aussenpolitiken : die von Hitler, die von Goering die von Neurath, die von Ribbentrop. Von den Kleineren ganz adgesehen. Es ist schwierig, Volkmnen auf dem Laufenden zu bleiben."

هابيخت(*) . وعندما تبحث وسائل رومانيا أو المجر قاننا نلمح استمرار تمتع روزنبرج ومكتبه ببعض النفوذ . وعندما تقتضى الضرورة بحث مشكلة السار أو الفاتيكان أو فرنسا ، قاننا نرى جورنج يقفز لركوب طائرة . وحتى تأثير الدكتور هانفشتينجل (**) الغريب الأطوار ، فانه لا يغيب عن ناظرنا عندما يتعلق الأمر بأمريكا .

وحتى الرجل الذى يظهر أنه كان المسئول عن تنفيذ السياسة الخارجية : نويرات ، فقد رأيناه يخبر أحد زواره فى صيف ١٩٣٧ : « لا تنظر الى ما يقوله جورنج بمنظار الجدل فالجميع فى ألمانيا مهتمون بالسياسة الخارجية . ولقد ثبت ما لاحظته المراقبون السياسيون الى حد كبير من الدراسات التى جرت فى العقد الماضى ، أو قبل ذلك . ولا أنوى فى هذا المقام بحث تفاصيل أعمال مختلف الجهات التى صاغت السياسة الخارجية الألمانية . ولكن سأكتفى بذكر جملة تعميمات حولها تناسب قضية سياسة التهدة .

أولا - لقد اقتحم النازيون المتنافسون ميدان السياسة الخارجية لأسباب شتى يرجع معظمها الى نفس الخليط من العوامل التى جمعت بين الرؤية اليوتوبية والانتهازية الوظيفية والاندفاع الغافل المترتب على دينامية النظام نفسها ، وكما ذكرنا ، كان أرنست بوله (***) مؤسس المنظمة الخارجية فى الحزب يحلم بتسخير الجنس الألماني فى سائر أنحاء العالم لحمة الاشتراكية الوطنية . اذ كان طموحه ينصب على رفع ألمانيا الى مركز الصدارة بين قوى العالم : « لقد انبهرت انبهارا مطلقا بفكرة الرايخ الألماني ، وهيمنت على خاطري هذه الفكرة . فعلى الرغم مما بين ألمانيا وانجلترا من اختلاف تام فى التكوين ، الا أنها تتمتع بالمساواة الكاملة هي وانجلترا فى ساحة القوى العالمية » . وكان هتلر يحلم بامبراطورية عنصرية كبرى فى الشرق حيث يتسنى له تحقيق احلامه فى إعادة الاستيطان . وتعلق روزنبرج برؤى حدوث تصدع فى الدولة البروسية ، وما يصحب ذلك من تجديد نوردى ألماني . ولم تنصف أية رؤية من هذه الرؤى ببساطتها . وعلى العكس فان رؤى جميع من ذكرنا ترجع الى ألف سنة تقريبا ، وتمكس فى أغلب الظن الجمع بين الاحباط والتطلع .

ومن حين لآخر ، ربما عزيت الشطحات فى السياسة الخارجية الى ما حدث من امتداد بسيط فى نشاط السلطة الداخلية ، مثلما حدث عندما

Habicht.

Dr Hanfstaengl.

Auslandsorganisation

Ernst Bohle. مؤسس

(★)

(★★)

(★★★)

حاول وزير الدعاية جوبلز السيطرة على الدعاية النازية في الخارج ، أو عندما امتدت أنشطة مخابرات جيش الدفاع الى خارج دولة ألمانيا بحثا عن الشتات في الخارج وأعداء الايديولوجيا . وأحيانا ربما رجع اقحام بعض الأشخاص أنفسهم في السياسة الخارجية الى معرفة المسائل على طريقة الهواة ، والافتتان بربوع جغرافية بالذات . ولعلنا نذكر انبهار جورنج بالعلاقات الايطالية أو البولندية ، واهتمامات روزنبرج بالمجر ورومانيا ، والعلاقة الزئبقية لرينتروب بالانجليز ، مع الاكتفاء بذكر أهم الامثلة . ولكن كان الأغلب من وجود هذا الانبهار أو عدم وجوده في أى مثل معروف هو اجتماع جملة بواعث . وأفضل مثل لذلك هو S. S. التي تدرجت في التدخل في السياسة . وتواعم هذا التدخل هو وأنشطة المخابرات والأحلام الايديولوجية والمصالح الراسخة والأعمال البوليسية ، وما صادفته من متاعب عند تحديد رسالة لها .

وفي جميع الحالات ، كانت النتيجة الوحيدة لهذه الأنشطة ترمى على نحو أو آخر لتغيير الأوضاع الراهنة في أوروبا والعالم . وما ساعد على ظهور هذه الأحلام والطموحات هو شدة التمزق في النظام الدولي الذي تمتد جذوره الى ألف سنة أو يزيد .

ثانيا - وظهرت في مجال السياسة الخارجية أيضا نفس التوترات والصراعات التي نجمت عن وجود مجتمعين متوازيين في الميدان الداخلي . والحق أن هذه الظاهرة كانت أوضح تحديدا ، لأن المعلقين المحافظين اللذين يقومان بدور حيوى في العلاقات الخارجية الألمانية - يعنى الجيش ووزارة الخارجية - قد اشتركوا في تعزيزه . وهنا كان على الحكام النازيين الاقدام على أبعد الخطوات تأثيرا فيما يتعلق بالأفراد . وهنا كان المحافظون يبدون وكأنهم محتفظون بقوتهم ، وبما يعود منها من كسب . فلا عجب اذن اذا أصبح ميدان السياسة الخارجية أحد الميادين الرئيسية للصراع بين النازيين المتطرفين وبين المحافظين التقليديين .

وقد أصبحنا نعرف الآن أن القوى المحافظة لم تكن على النحو الذى بدت فيه للكافة حينذاك . غير أننا اذا أمعنا النظر فسندرك أنها لابد أن تكون قد بدت كذلك . فيجب أن لا ننسى تكيف سياسات هتلر القصيرة الأجل على خير وجه هي والأهداف البعيدة للمحافظين ، حتى بدا كأن هناك توافقا في المصالح ، وان كان هذا التوافق لم يوجد بالفعل . وفضلا عن ذلك ، فلقد اكتشف هتلر أنه من الضروري بين القينة والأخرى أن يمسك الزمام ويصمم التطلعات الخارجية الشديدة الطموح ، مما جعله يبدو - في أغلب الظن - أكثر اعتدالا مما بدا لنا . وأخيرا وحتى فيما يتعلق بالأفراد فقد يغتفر للنازيين الطامحين اعتقادهم بأن المجتمع الألماني لم يتغير كثيرا

بعد قدوم النظام النازي ، كما كانوا يأملون . فحيثما نظروا كانوا يشاهدون - على ما يبدو - الأساطين القدامى مازالوا أحياء . اذ كان السلك الدبلوماسي يضم نسبة عالية من الارستقراط من حملة الألقاب أكثر مما كان الحال في عهد فيمار ، بل لقد كان هناك حتى في ال SS ذاته أعداد غير متناسبة من النبلاء يحتلون المناصب العليا . نعم لقد كانت جميع هذه الأسباب وراء اشتعال نيران الصراع حول التشريعات والذي اتصف بشدة شرسته .

ثالثا - لم يمثل هذا التنافس في حلبة السياسة الخارجية حالة مستقرة ، يعنى موقفا ساكنا ، يتمسك فيه كل شخص بموضعه . فالأرجح هو أنه كان صراعا حركيا (ديناميا) استطاع فيه المتطرفون شيئا فشيئا خلال الفترة الواقعة بين ١٩٣٣ و ١٩٣٧ احراز قصب السبق . فعلى الرغم من تمتع نويرات والعاملين بوزارة الخارجية - مبدئيا - بقوة أعظم ، ونفوذ أكبر مما كان يظن - كما توحى السيرة الجديدة التي كتبها هاينمان عن حياة نويرات - الا أنه من الحقيقى رغم ذلك أن المحافظين سنة ١٩٣٦ كانوا يستندون الى دعامة قوية في مواجهة عمليات السحق والتنافس الشرس من قبل مختلف النازيين . وتزايد اعتماد هتلر فى المسائل الخارجية على مبعوثين آخرين غير من يتبعون الجهاز التقليدى . وعلى نهاية ١٩٣٧ ، كانت المعركة قد كسبت ، وترتب عليها نتائج خطيرة بالنسبة لسياسة التهذئة .

رابعا - كانت نقلة ميدان التنافس فى الدولة النازية الى مساحة السياسة الخارجية لصالح هتلر - ربما بصفة تامة ، عندما شرع فى تحقيق رؤياه البعيدة المدى . وساعده ذلك على اكتشاف ابواب للاختيار بين السبل المتاحة ، وسبر غور نقاط الضعف دون تحمل أى تبعه أو وزر بوصفه رئيسا للدولة . وتكشفت هذه الحالة فى أجلى مظاهرها فى حالة النمسا فى يوليو ١٩٣٤ . فلقد زودته بأفكار وأدوات ساعدته على ترجيح كفته ، وعرضته عن الافتقار الى أية تجربة سابقة فى الشؤون الخارجية . فلقد خلقت مواقف بالمقدور استغلالها اذا اعتقد أن الموقف أصبح مواتما . ولقد حققت هذه الظاهرة ميزة حقيقية للدكتاتور الذى كان يزداد مقنا للحكم يوما بعد يوم ، ويفضل ترك المواقف تشطح الى أن تبلغ حالتها الحرجة . ولم يتمتع حكام آخرون بهذه الميزة . وأخيرا وبطبيعة الحال ، فقد تصاعد التنافس من دينامية كان هتلر يعرفها تمام المعرفة ، بغض النظر عن نوع الأحلام والتطلعات ، ورأى أنها قد تتطابق ورغبته فى إعادة بناء أوروبا فى صورة متطرفة . وبهذا المعنى ، كان بوسعه الاطمئنان الى أن التطور البعيد المدى للمجتمع النازى سيتطابق هو وأهدافه البعيدة المدى .

وبعد ما ذكرنا ، لا بد أن يلاحظ أنه رغم جسامه قوة الطرد المركزي التي ولدها النظام النازي الدينامي ، إلا أن سياسته الخارجية التي كانت تعد يوما بيوم قد التزمت حدودا معينة ، حتى بالرغم مما بدا في آماله البعيدة من توعد بأحداث هزة دولية ، ومن ثم رأينا يفرض من قبل الحرص على عدم أحداث اضطراب في النظام الدولي قبل أن يكتمل اعداد القوة الألمانية وتصبح مكافئة للمهمة التي ستضطلع بها ، رأينا يفرض قيودا على التنافس في التدخل في السياسة الخارجية أشد من القيود التي فرضها على السياسة الداخلية . هنا يلزم عند تقييم السياسة الخارجية الألمانية ، عقد موازنة صحيحة بين مبادرة هتلر وسيطرته والأنشطة التلقائية لاتباعه .

خامسا - وأخيرا ومن المهم للغاية فيما يخص غايتنا أن نلاحظ ما حدث من توافق شبه تام بين تصاعد الصراع حول السياسة الخارجية بين المتطرفين والتقليديين الذي انتهى بانتصار المتطرفين، وبين ازدياد قوة ألمانيا الاقتصادية والعسكرية إلى الحد الذي دفع هتلر إلى تصور أنه غدا قادرا على التقدم إلى ما هو أبعد من أهدافه القريبة المدى (والأهداف البعيدة المدى للمحافظين) إلى أهدافه البعيدة (التي توافقت هي وأهداف كثير من المتطرفين) ومن المأسى أن يتصادف توافق تلاحم هذين النوعين من التقدم بدوره مع تقدم آخر هو تحول السياسة البريطانية من سياسة التهدة السالبة إلى التهدة الموجبة أو الفعالة ، وعلينا أن ننقل الآن إلى الكلام عن هذه المشكلة وعلاقتها بتكوين السياسة الخارجية الألمانية ، وتشكيلها .

فمن بين أحداث التلاحمات الأكثر مأسوية آنشد أن تحدث النقلة من سياسة التهدة السالبة إلى سياسة التهدة الموجبة متأنية هي وتطورين آنذرا باخفاق نجاح هذه الاستراتيجية ، يعنى ادراك هتلر تدريجيا عدم احتمال تحول بريطانيا إلى حليفة لألمانيا ، وأن الأرجح هو أن تكون عدوة لها ، والتطور الثانى هو انتصار المتطرفين في ألمانيا على التقليديين .

وإذا استطعنا الربط بين استهلال التهدة الموجبة أو الفعالة وزيارة اللورد هاليفكس لبرلين في ١٨ نوفمبر ١٩٣٧ ، سيزداد وضوح سر هذا التلاحم . فلقد أثار هاليفكس في مباحثاته هو وهتلر وجورنج وغيرهما من زعماء ألمانيا مسألة التنازلات لألمانيا في وسط أوروبا ، وبعبارة أخرى وضع جدول أعمال تناقش بموجبه مشكلتي النمسا وتشيكوسلوفاكيا على مستوى دولي . وفي الظروف العادية التقليدية ، كان سينظر إلى هذه الخطوة على أنها خطوة معقولة تماما ، يعنى مناقشة المشكلات المتعلقة بالقوى حتى يتسنى حسمها سلميا قبل أن تتفاقم وتتأزم ، ويؤدي علم الحسم إلى تهديد السلام . غير أن هاليفكس وغيره من رجال الدولة البريطانيين كانوا

لا يعملون في ظروف تقليدية • ففي ألمانيا كانوا يتعاملون هم وزعيم له أهداف متطرفة تجاوزت بكثير الأهداف التي يمكن تحملها ضمن أي إطار باستطاعة الانجليز تخيله ، ويتعاملون أيضا مع نظام سياسي قد اتخذ شكل الديناميات التي تحمل تهديدا للوضع الراهن (*) • ويصور تعاقب الأحداث قبل زيارة هاليفكس مباشرة وبعدها ، تصويرا دراميا هذه النقطة • ففي ٥ نوفمبر ، أي قبل وصول هاليفكس بأسبوعين ، كان هتلر في حديثه السري ونويرات وقادة الجيش قد وضع النمسا وتشيكوسلوفاكيا في جدول الأعمال الخاصة بالغزو العسكري ، وليس ضمن الموضوعات محل البحث • وفضلا عن ذلك ، فلقد برز هذا المعنى أيضا في الحديث الذي حدث فيه توقع أن تصبح بريطانيا عدوا محتملا ، وأنها لم تعد ينظر إليها كحليف •

وحدث أيضا إبان هذه الشهور الأخيرة من ١٩٣٧ ، اقتراب نهاية الصراعات الداخلية العديدة داخل ألمانيا بين النازيين المتطرفين والنازيين المحافظين • وتمثل استقالة شاخ (الاقتصادي الكبير) في ٢٦ نوفمبر قبل زيارة هاليفكس لبرلين بأسبوع واحد حدثا يتجاوز مجرد تخلي أحد المحافظين البارزين عن منصبه ، لأنه يعكس ما حدث من تصدع للجهة السياسية المتحدة المؤيدة من كبار رجال الأعمال • وكما أشار أحد الباحثين فإنها تمثل مرحلة أبعد في التفكك العام للمجتمع الألماني • وأسفر ذلك عن تزود التشكيلات النازية المتنافسة بباعث أكبر وفرصة أوفر ومجال أوسع للمناورة (**) • وتمثل الفضاخ التالية التي أحاطت باسم وزير الحربية فون بلومبرج وقائد القوات المسلحة فون فريتش ، والتي تمخضت عن تولي هتلر قيادة الجيش بنفسه ، تمثل تداعي موقف المحافظين في جبهتين سبق تعرضهما للتهديد : الجيش والخارجية • وعاصرت هاتين النهايتين - دون أن يلحظ أحد حينذاك - وأن كان هذا الحادث الآخر لم يكن أقل تنبيها إلى ما سيجره من عواقب مشنومة - انتصارات جيش اللطاع في تعبئة الألمان العائشين في البلدان المجاورة ، بعد وقف هانس شتايناخر وإنشاء إدارة جديدة (***) تتولى الإشراف على شئون الجاليات الألمانية المقيمة بالخارج • ولعل استسلام كونراد هنلاوين زعيم الألمان في السودان لارادة هتلر في اليوم نفسه الذي وصل فيه هاليفكس كان إشارة تدل على أنه حتى بعد أن التمس البريطانيون عنرا شرعيا يبيع للدكتاتور إثارة مسألة مستقبل تشيكوسلوفاكيا على المنبر الدولي ، فإن الأقلية الألمانية في هذا البلد زودته بالوصيلة التي تساعد على التعامل في مسألة تشيكوسلوفاكيا

Status quo.

(★)

Spie!raum

(★★)

Volksdeutsche Mittelstelle.

(★★★) اسمها

على نحو لم يخطر ببال المستشارين البريطانيين . نعم لقد عرف
البريطانيون أكثر هذه التطورات - أو ما حدث من تبدل للأشخاص في
أقل تقدير - ولكنهم إما أساءوا تقدير آثارها ، أو أساءوا فهمها تماما .
وكتب هندرسون (السفير البريطاني في برلين) إلى الملك جورج الخامس
بأن هذه التفسيرات « قد جعلت الجيش الألماني الأمر الناهي في الشئون
الخارجية ، ودعمت حزب السلام في ألمانيا » .

وهكذا ابتداء تنفيذ سياسة التهدة الموجبة ، واتخاذ المبادرة في
إثارة القضايا المرتبطة بسلام أوروبا بدلا من الانتظار السلبي لتحركات
الديكتاتور . وهي سياسة كان بالاستطاعة أن تؤتي ثمارها ، لو أنها بدأت
في وقت أبكر من العام ، ولكنها بدأت في ظروف مشئومة قرابة نهاية
١٩٣٧ وبداية ١٩٣٨ ، يعنى في الوقت الذي تراءى لهتلر أن باستطاعته
تنفيذ ما يحلو له دون تعرض لأي خطر ، وكانت نظراته قد اتسعت إلى الحد
الذي جعله يتصور بريطانيا كعدوة له ، وعندما كانت ديناميات الثورة
النازية قد مهدت الطريق بعد أن قضت على كل منافس يقف في
طريقها .

وفيما وراء هذه التلاحمات المؤسفة للتطورات ، ظهر عامل آخر ألقى
بظلاله الكثيفة على الامكانيات التي ترتبت على « سياسة التهدة » بعد
ظهورها في أواخر ١٩٣٧ . ولو تأملنا الأهداف التي كانت الحكومة
البريطانية تسعى لتحقيقها ، وتأملنا اللغة التي صيغت بها هذه الأحداث ،
والإطار الذي نظرت من خلاله القيادة البريطانية للعلاقات الدولية ، سيتضح
لنا أن تشمبرلين ومعاونيه كانوا يعملون في مستوى مختلف عن مستوى
الزعامة النازية . ولربما بدت هذه الحقيقة واضحة جلية مما يجعلها لا تحتاج
إلى إفصاح ، غير أنني أشعر بأهمية الكشف عن أحد جوانبها في إيجاز ،
لكي نتبين النظرات الشديدة التباين للعالم التي فرقته بين الزعامة الألمانية
والزعامة البريطانية ، ودلت على ما حدث من تفكك في النظام الدولي
مما جعلها توحى عند تأملها فيما بعد بالنذر القائمة لسياسة التهدة .
إذ كان الموضوع الذي اختلف بشأنه الطرفان في أغلب الظن اختلافاً بينا
هو موضوع إنشاء امبراطورية ألمانية .

ويرتد في الأصل الاختلاف الجذري في الأهداف واللغة والروح
والنظرة ، الذي فرق بين الزعامة البريطانية والزعامة الألمانية فيما يتعلق
بالتوسع الامبريالي إلى : أولا إلى المراحل المختلفة ذاتها للتطور التي ألقى
الطرفان نفسيهما فيها . ففي الثلاثينات كانت بريطانيا العظمى قد بلغت
مرحلة تطور تمثلت في قوتها الامبريالية الناضجة المكتفية بذاتها ، وأدرك
زعمائها في الأغلب التطلعات التي عبرت عنها كل من الثورة الويلسونية

(أمريكا) والثورة اللينينية . وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تتحرك في حذر نحو هذه التحولات ، إلا أنها كانت قد تجاوزت في تقدمها القرن التاسع عشر وميوله الامبريالية وانشاء الامبراطورية . ان هذا لا يعنى انكار وجود عدد كبير من الانجليز استمرت تراودهم الأحلام الكبلنجية (نسبة الى الأديب الاستعماري رديارد كبلنج) عن الامبراطورية . غير أن النقطة التي تحتاج الى تأكيد هي كون الرأي العام ومعظم المسئولين البريطانيين قد تجاوزوا هذه المرحلة . ويصور هذه الحالة كتاب نشر ١٩٤٢ (*) . ويعد هذا الكتاب تبريرا عاطفيا لحق انجلترا في حكم الهند ، واتبع في حججه وتبريراته الأسلوب التقليدي ، ولكن على الرغم من أن الكاتب قد اعتقد ان المهراجا الهندي بإمكانه الاستمرار في السيطرة على الهند اعتمادا على المذابح اذا تطلبت ادارته ذلك ، إلا أنه أدرك أيضا واعترف بأن محاولة الاقدام على ذلك ضرب من الأوهام البوتوية ، لأن المشاعر العامة التي تأثرت بأنصار الجناح اليساري وبالانسانيين الذين يفضهم المؤلف لن تسمح بحدوث ذلك .

وعلى نقيض انجلترا ، الموقف في ألمانيا التي لم تفرغ من لم شملها في شكل أمة واحدة إلا في وقت متأخر . ومن ثم فإنها لم تبج ثمار الامبراطورية الاستعمارية إلا لفترة وجيزة ، ولم تتطور في نظرتها الى الاتجاهات الامبريالية الى القدر الذي بلغته انجلترا . فحتى زعماء ألمانيا المحترمون ، فانهم استمروا يتحدثون ابان العشرينات كثيرا عن استعادة المستعمرات المفقودة في الخارج ، وكان المشرفون على السياسة النازية هم الذين مثلوا نوعا من المفارقات في اتجاهاتهم الامبريالية . وثمة مبررات عديدة لذلك : أولا - لقد استعارت الأيديولوجيا النازية الكثير من المعتقدات العنصرية من مخلفات أواخر القرن التاسع عشر ، واتخذت الدعوة للعنصرية جوهر الامبراطورية التي تحلم بها . ثانيا - التوترات والالزامات المتعددة التي تكمن في صميم المذهب السياسي النازي القائم على التنافس ، والذي خلق تطلعات وأحلاما تذكرنا بأحلام الاستعماري الانجليزي جون سيسل رودس في روديسيا وبتطلعاته . وازداد هذا العامل - بدوره - تضخما من تأثير الخلفية الاجتماعية لكثيرين من الحالمين النازيين . اذ ينحدر عدد لا بأس به منهم من الطبقة المتوسطة ، وأدنى من ذلك . والآن وبعد أن أقدم النازي على اتاحة فرصة المساواة الثورية ، التي كانت هي ذاتها من نتاج هزة اجتماعية ، استطاع المجتمع الانجليزي تفاديها ، فقد أصبح بإمكان هؤلاء الطموحين التطلع الى الحصول على مناصب امبريالية كذلك

(*) كتاب The Lost Dominion تأليف B.C.H. Calcraft-Kennedy

(١٩٤٢) وكان من كبار المواطنين الذين عملوا بالادارة الهندية تحت رئاسة Al Corthill

التي كانت قبل جيل من الزمان أو اثنين وقفا على من هم أفضل منهم اجتماعيا . وهكذا يكونون قد مثلوا في عالم السياسة الخارجية « البورجوازية الصغيرة في عهد بسمارك » . غير أن تأخر اتاحة الفرصة لهم للاستمتاع بخيرات الامبراطورية لا يصح أن يحجب حقيقة أنهم قد مثلوا بمثل هذه التطلعات في العقد الرابع من القرن العشرين مفارقة تاريخية . وكما استطاع كارل بيترز القول في ثمانينات القرن التاسع عشر : « انه قد شعر بالضيق والقرف لاحتسابه من المنبوذين ، وأصبحت اتطلع للانتماء الى عنصر يتمتع بالسيادة » . وأن لا يجتنب الانتباه بلا مبرر لوجود عدد وفير من الفرنسيين والانجليز يشاركونه نفس النظرة العنصرية الى قيمة الامبراطورية . الا أن هذا النوع من الكلمات عندما شاع بعد نصف قرن تقريبا قد أخفق في ادراك جميع التحولات التي طرأت خلال هذه الفترة القصيرة . ومما يثير السخرية في هذا المقام أن نلاحظ احتمال فهم جوزيف تشمبرلين للنازي أفضل من فهم ابنه (نيفل) لهم . فلعل هذا الامبريالي المتحمس الطموح التافه والمقاتل وعديم الخبرة في المسائل الخارجية - وان كان يتطلع الى السلطة والهيمنة - والذي وصف على أنحاء شتى كتشبيهه بقاطع طرق من صقلية (المافيا) ، بل وقيل عنه انه كان يمثل في مجلس الوزراء « دور المصاب بلوثة الوطنية » لعله كان يتناغم على نحو أفضل من المنظور الفاروسى للاندفاع النازى وتصورهم لحام الامبراطورية . أما ما كان جوزيف تشامبرلين سيعجز عن فهمه - وهذا عامل ثان يبين ما بين زعماء الانجليز وزعماء الألمان في الثلاثينات من اختلاف في العقلية - فهو « القفزة » التي اعتمد عليها النازى في تحويل نظرتهم الامبريالية من الميدان المعترف به لممارسة الميول الامبريالية - من افريقيا وآسيا ، الى التخوم البعيدة لشرق أوروبا - اذ كانت روسيا - وليست تنجانيقا - هي التي ستزود هملا بأرض التجارب التي سينشئ فيها مشروعاته الاستيطانية ، وهي التي ستمثل أرض الحركة الارتدادية التي سيطبق فيها ألفرد روزنبرج نظريته العنصرية عن تفوق الجنس الآرى (*) للخلاص من اليهود (**). وهي التي سيضع جوبلز مخططا لها باعتبارها الركيزة الجغرافية لأحلام هتلر عن الدور القسام لألمانيا (عندما تصبح قوة عظمى) (***) .

وما من شك أن هذا التحول الذى أدى الى الاندفاع نحو الشرق لانشاء امبراطورية قد استند الى منطق مأسوى . فلقد تحققت القفزة التي أدت الى

Nordische Schicksal gemeinschaft.

(★)

Drahtzieher des Judentums.

(★★)

Weltmacht,

(★★★)

تغير النظر الى القارات الأجنبية كمناطق للتوسع الامبريالى الى معاملة أقاليم شرق أوروبا تبعاً لنفس النظرة . وتحقق ذلك بسهولة لشعب اعتاد عبر القرون تقليدياً اتباع هذا الاتجاه أكثر من نزوعه الى التوسع فى بلدان ما وراء البحار . ولعل القفزة قد ازدادت تيسراً عندما تدخل مبرر التفوق العنصرى ، وأدى دوره . فلقد اتخذ النازى شعار الاندفاع نحو الشرق(*) المعروف من قبل هدفاً له ، بعد أن زوده بأهداف عنصرية ورؤيوية . ولا بد من الاعتراف بأن النازيين ليسوا أول ألمان ينظرون الى أوروبا الشرقية على هذا النحو . ففي منعطف القرن ، رأينا بالفعل أرنست هاسه رئيس « الجامعة الجرمانية » ، يقترح معاملة بعض أجناس كالبولانديين والتشييك واليهود وآخرين « مثلما تعامل الامبريالية فيما وراء البحار الوطنيين خارج أوروبا » . ولم يختلف الاتجاه الذى اتبعه الجنرالات ابان عهد الديكتاتورية العسكرية التى جاءت فى أعقاب طرد بيتمان(**) اختلافاً كبيراً ، بل ورأينا أشخاصاً أكثر أهلاً للاحترام من هاسه أو الجنرالات يلجأون من حين لآخر الى مشروعات متعاطمة منتفخة لإعادة تشكيل أوروبا الشرقية . وفضلاً عن ذلك ، وإذا سلمنا بأثر الموقع الجغرافى فى تقييد حركة ألمانيا بحكم وضعها فى قلب أوروبا ، سيتضح لنا أن الاندفاع أو التحرك نحو الشرق كان الوسيلة الوحيدة التى بوسع ألمانيا أن تسلكها لكسب الخلفية القارية التى تنشر فيها مجالها الحيوى ، كاحدى القوى الكبرى للحاق ببريطانيا وعالمها فيما وراء البحار ، وأمريكا وركيزتها القارية . وأخيراً ولعل هذا هو الأهم ، فقد أملت دينامية دولة الفوهرر الفوضوية فكرة التوسع بالاتجاه نحو الشرق . فاعتماداً على هذه الوسيلة وحدها ، تستطيع الامبريالية النازية الاهتداء الى الأرض « السداح مداح » التى تيسر لها التخلص من التوترات التى خلفها المجتمع المزدوج فى ألمانيا . وإذا صح هذا التفسير ، فإنه سيعنى أن المخططين النازيين قد أحسوا بنفس الوضع الذى وعاه غريزيا كثيرون من سياسة القرن التاسع عشر من تأثير مغامرات ما وراء البحار على رسوخ الدولة القومية فى بلادهم ، وأن الأثر الوحيد الذى سيترتب على حركة التوسع الجديدة هو « تغير أو تحطيم مفهوم الكيان السياسى للدولة - الأمة » . ولعل فكرة التحطيم هذه قد بلغت جذابة لكثيرين من أصحاب الرؤى فى الحزب الاشتراكى الوطنى ممن استهوتهم الرؤيا « الألفية » للامبراطورية العنصرية بعد شعورهم بالتقرز من خلل الحياة القومية الألمانية التقليدية .

Drang nach Osten.

(*)

(**) Bethmann Hollweg, Theobald. (١٨٥٦ - ١٩٢١) وزير الداخلية

الألمانية والسبشار (١٩٠٩ - ١٩١٧) والذي وصف التعهد بحياد بلجيكا بأنه مجرد قصاصة ورق .

ولكن بغض النظر عن المؤثرات المنطقية ، الاكراهية ، فانها تمثل منطق النازيين ، وليس منطق الزعماء البريطانيين . وقد استطاع هتلر الاهتداء الى ما يشتهى من أحداث موازية رائعة للدلالة على التشابه بين علاقة الامبراطورية البريطانية بالهند ، وعلاقة الامبراطورية الجرمانية « القادمة » بروسيا ، وان كان قد غاب عن فطنته علم احتمال استعداد البريطانيين لقبول « القفزة » التي قفزها الألمان (حتى لو أدركوا الطبيعة الحقة لرؤيا هتلر) ، بل لعل العكس هو الصحيح . اذ أصر الزعماء البريطانيون - باستثناء قلائل - على ادراج تطلعات الألمان ضمن الانتقادات التي وجهت ضد توازن القوى التقليدى فى القارة الأوروبية ، وضمن نظام تقرير المصير القومى لجميع الشعوب الذى خططه ويلسون ١٩١٨ (بالرغم من أن البريطانيين قد ساندوا بوجه عام فكرة تقرير المصير ، كما تشهد بذلك اتفاقية ميونخ) .

وهكذا يصح القول بوجود حالة استقرار فى المجتمع البريطانى وفى خلفية زعمائه عبر عشرات السنوات ، ساعدت على حدوث التغير عن طريق التطور ، فى النظر للعلاقات الدولية . وقد افترق الى هذه الظاهرة بوجه عام المجتمع الألمانى الأقل تمتعا بالاستقرار ، حيث ارتفع الى القمة صفوة من أرباب الرؤى المتلئين حيوية لتصورهم أنهم قادرون على التحرك المتطرف ، والمسلحين بطائفة من المعتقدات الامبريالية الموروثة عن القرن التاسع عشر .

وترتبت على حالة تفكك المجتمع الألمانى حركة دينامية متطرفة انطلقت فى عملية التوسع خارج ألمانيا ، وهددت بقلب العلاقات الدولية الراسخة . وكان ما أغرى النازى على الاقدام على تحدى الأوضاع الراهنة (*) هو أن ما بدا فى النظام التقليدى للعلاقات الدولية بين القوى الكبرى من تفكك . وكان ما عرقل السياسة البريطانيين الذين واجهوا تحدى النازى عن التصدى له هو حقيقة أنهم كانوا يضعون احدى قديمهم فى النظام القديم (يعنى فى توازن القوى والحفاظ على الامبريالية) ويضعون القدم الأخرى فى الفكرة المستحدثة (عن حق تقرير المصير والأمان الجماعى) . وترتب على ذلك اخفاقهم فى لعبة الكراسى السياسية . فلم يجد أى أسلوب للتعامل مع النازيين ، لأن تحديهم كان بعيد التطرف مما صعب احتواءه فى حساباتهم . وعندما حاول البريطانيون التعامل باتباع أسلوب ما بعد الحرب ، وطالبوا - على سبيل المثال - بتكامل النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، قوبلوا بالرفض من النازيين الذين كانوا يريدون - فى أقل تقدير - السيطرة الألمانية على

وسط أوروبا • وعندما حاولوا التعامل بأسلوب ما قبل الحرب ، ولجأوا الى نظام المؤتمرات ، كما فعلوا في ميونخ ، لم يتحقق النجاح الا وقتيا ، لأن طموحات النازي كانت كبيرة لدرجة كبيرة مما جعل تصور توازن القوى غير ذي موضوع • والحق أن ما حدث في مؤتمر ميونخ أصبح يبدو لنا الآن آخر مثال لتطبيق نظام المؤتمرات الأوروبية • وقد أصبح يبدو لنا الآن في صورة رثة واستراحة شائنة – لدليل على مدى تصورنا لكل من معتقدات ويلسون ولينين وأيضا لتحديات النازي على انها أمور عفا عليها الزمان •

المراجع

(انظر قائمة مراجع الفصل التالي) •

ميونخ ١٩٣٨ : المواجهة العسكرية

وليمسون موراي

عندما عاد رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشامبرلين من مؤتمر ميونخ ، زعم انه قد استطاع بفضل المعاهدة التي عقدها مع هتلر الحفاظ على السلام في أوروبا . وفي أقل من سنة ، بعد الغزو الألماني لبولاندة هذا السلام ، واستهل حربا أوروبية عامة ، ويشير هذا الموقف تساؤلا حول هل أفادت حقبة السلام التي دامت أحد عشر شهرا بعد توقيع اتفاقية ميونخ الحلفاء أم المحور ؟ وبعبارة أخرى ، ومن المنظور العسكري ، أي الطرفين كان في موقف الفضل عندما شبت الحرب في أكتوبر ١٩٣٨ ؟

ومن الصعب دائما - وأن ظن بعضهم أنه من المستحيل - كتابة تاريخ عن ما الذي كان يحتمل أن يحدث ؟ ، ومع هذا فبالاستطاعة إجراء تحليل للقوى العسكرية لكلا الطرفين المتقاتلين ، ولانتشار القوات وتوافر الامدادات الحيوية والموارد الطبيعية والتكتلات وردود الفعل المحتملة . فإذا راعينا هذه العوامل ، لبات من غير المستبعد استخلاص النتيجة الآتية : لو أن ألمانيا اقدمت على الحرب ١٩٣٨ لكان موقفها سيئسم بالضعف والتعرض للخطر أكثر مما حدث عندما بدأت الحرب ١٩٣٩ . ولربما اختلفت المشكلات الناجمة عن غزو تشيكوسلوفاكيا - رغم أنها ليست بأي حال من المشكلات التي يتعدى التغلب عليها - عن تلك المشكلات التي ووجهت عند غزو بولاندة . ولعل رد الفعل الدولي ، كان يشبت أيضا أنه أكثر تحيزا لألمانيا . وبعبارة أخرى ، فإن هتلر كان سيكتشف أنه أقل سيطرة على الأحداث في أكتوبر ١٩٣٨ مما حدث في الخريف التالي بعد غزو براج . فلقد ازداد موسوليني الترابا من الجانب الألماني ، وتم التوقيع على الميثاق الروسي الألماني .

نقلا عن المجلد الثاني من مجلة Journal of Strategic Studies. (١٩٧٩) .

لقد اهتم كثير من المؤرخين ، وبخاصة المعنيون منهم اما بشجب السياسة الخارجية لتشامبرلين أو تأييدها بالتساؤل عما كان سيحدث لو أن الحرب اندلعت في سبتمبر ١٩٣٨ ، ومن أسف أن أغلب دارسي ميونخ قد نظروا الى الموقف العسكري آنئذ كمسألة على هامش الأحداث ، فلم يقدم على دراسة الموقف الاستراتيجي دراسة موضوعية سوى قلة من المؤرخين ، وقنع أكثرهم بالاهتمام بالعوامل المؤيعة لوجهة نظرهم ، بينما تجاهلوا العوامل المعارضة لموقفهم ، وترتب على ذلك أن أضحت المجادلات الخاصة بالموقف العسكري ١٩٣٨ تدور حول مشكلتين رئيسيتين : فمن يدينون « ميونخ » ويصفونها بالكارثة العسكرية يشيرون الى افتقار ألمانيا الى القوى البرية وضعف موقفها في الغرب ، وصعوباتها الاقتصادية الجمة ، ويرون أن أية حرب كانت ستحدث ١٩٣٨ كانت ستتصف بسرعتها النسبية ، مما كان سيؤدي الى انهيار سريع لألمانيا النازية . ومن ناحية أخرى ، فإن هناك من يجادلون بالقول بأن الدفاع الجوي لبريطانيا كن ضعيفا بدرجة خطيرة ، ولو أن الحرب نشبت في تشيكوسلوفاكيا لانهارت بريطانيا أمام اللوفتفافه (السلاح الجوي الألماني) ، فالمشكلة إذن أشد تعقدا مما يستخلص من أية نظرة من النظرتين .

وفي مقال يشغل مثل هذا الحيز الضيق ، لن نستطيع أن نبحث جميع العوامل التي اشتركت في تحقيق توازن القوى ١٩٣٨ . ومع هذا فإن أي فحص عام لأهم مقومات الموقف الاستراتيجي ١٩٣٨ ، يبين أن ميزان القوى كان لا يرجح كثيرا لصالح أنانيسا في تلك السنة ، أكثر مما حدث بعد ذلك في ١٩٣٩ . فأولا - لم يكن سلاح الجو الألماني في موقف يسمح له بشن هجمات جوية خطيرة ، وبالقاء القنابل أثناء الهجمات الاستراتيجية على الجزر البريطانية ١٩٣٨ . ان من دافعوا عن سياسة تشامبرلين لأنه أنقذ بريطانيا من سلاح الجو الألماني ١٩٣٨ قد ارتكنوا في دفاعهم على ما اتسم به الدفاع الجوي الانجليزي من ضعف ، وعلى القدرة الألمانية المزعومة ، والتي لم يكن لها - بكل اخلاص - أي وجود ، ومن جهة أخرى ، فثمة اساعة لاتقل جسامة عن ذلك في نخيلها للموقف ، اذا بالغنا في تقدير عدد الفرق عند الطرفين المتحاربين ، وقلنا - مثلا - ان الجيش الفرنسي بما لديه من تفوق عددي كاسح في الغرب ، كان بوسعه شق طريقه في الجبهة الى الراين ، ثم يتقدم الى حوض الروهر في أكتوبر ١٩٣٨ ، غير أن هذا الحل ما كان ليحدث قط ، لأنه بالرغم من التفوق الفرنسي الكاسح ، وبالرغم من أنه يصعب القول بأن أي خط من خطوط الدفاع الفريسي كان قد اكتمل ، فإنه

لم يخطر ببال الجنرال جاملان (الفرنسي) والقيادة العليا الفرنسية إطلاقاً شئ ما هو أكثر من المحاولة النعسة التي شنتها في سبتمبر ١٩٣٩ .

وهكذا ، فلو أردنا الاهتداء الى تقييم منصف للتساؤل حول ما الذي كان سيحدث في أية حرب أوروبية عامة تدور رحاها في تشيكوسلوفاكيا سيتوجب علينا عدم الاكتفاء ببحت الموقف العسكري الفعلي ، فلا مناص من ان نتمعن في اسساءات التصور التي ابتلى بها القادة العسكريون والزعماء السياسيون ، الذين كان ميعده اليهم بمهمة تسيير الحرب ، وبالمحرقات التي رفضوا التصدي لبحثها * وهذا ما سنتناوله في هذا المقال . وسأحاول القيام بذلك بالانتقال من التخصيص الى التعميم ، ومن مناقشة التطلعات المباشرة التي كان الغزو الألماني لتشيكوسلوفاكيا لألمانيا يسعى لتحقيقها الى الموقف الاستراتيجي العام في شرق أوروبا وغربها ، وأخيرا سأبحث الموقف الألماني الشامل ، استراتيجيا واقتصاديا ودبلوماسيا .

لم تسمح الظروف لألمانيا ببحث مسألة الغزو العسكري لجمهورية تشيكوسلوفاكيا الا بعد أن اطأنت الى خلو الساحة من أية مقاومة فعالة (*) ، ففي سبتمبر ١٩٣٨ ، كان الجيش الألماني يتألف من ٤٨ فرقة نظامية ، من بينها ثلاث فرق مدرعة فقط ، وأربع من فرق الاستكشاف السريع ، وأربع فرق محملة على عربات ، وكانت تفتقر الى بعض العتاد كالدفعية الثقيلة ، ولم يكن لديها أي احتياط من المحاربين القدماء المسنين ممن اشتركوا في الحرب العالمية الأولى . فضلا عن ذلك فقد انضم الى القوات المسلحة (**) الألمانية خمس من هذه الفرق من الجيش النمساوي ، وكان مستوى العديد من الوحدات النمساوية أضعف بدرجة ملحوظة من مستوى الوحدات الألمانية . والواقع أن الجنرال « ريتز فون لب » قد شبه الفارق بين القوات الألمانية والقوات النمساوية بالاختلاف بين الليل والنهار .

وكان تحت امرة الفرق الثلاث المدرعة دبابات خفيفة ، كانت حتى بمقاييس ذلك العهد قد عفا عليها الدهر ، بينما لم تتوافر الدبابات المتوسطة النموذجية القليلة الا للقحوصات القتالية . وكانت هذه الفرق المدرعة بدون القوة الضاربة والحماية المدرعة للدبابات الثقيلة مستعرض لصعوبات جمة .

Scrape the bottom of the barrel.

(*)

Wehrmacht.

(**)

ويتألف القسم الأكبر من الجيش الألماني من فرقي للمشاة ، روعي في أعدادها وتجهيزها القدرة على أداء جميع الأغراض والمهام ، على نحو يتقارب كثيرا وحال الفرق الألمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى ، ولم تختلف من حيث درجة الحداثة هذه الفرق السبع والثلاثون المشاة عن الفرق المشاة بالجيش الفرنسي التي كانت تعتمد على مدفعية تجرهما أو تحملها الخيول والبغال ، وخلافا لما حدث ١٩١٤ ، فقد كانت هناك قوى احتياطية مدربة قليلة ، وسيعرض هذا الصائل للتعويق حتى عمليات تعبئة وحدات الجيش النظامية ، وكان أقصى ما باستطاعة الألمان انتزاعه من القوة العاملة الموجودة ومن مستودع العتاد هو أعداد وتعبئة ثمانين فرقا احتياطية و ٢١ فرقا مشاة يقتصر تشكيلها على المحاربين القدماء (ممن اشتركوا في الحرب الأولى) ، وتفتقر الى ما يقرب جميع المعدات والمتخصصين ، وحتى بغض النظر عن المعدات ، فإن أغلب هذه التشكيلات لم يكن بمقدورها التهيؤ للنهوض بأبسط المهام الحربية ، وأخيرا لم تكن الصناعة الألمانية قد توافرت لها القدرة على تزويد القتال الفعلي والنهوض في ذات الوقت بإنتاج العتاد لتشكيلات تضم أعدادا كبيرة من الفرق الجديدة .

ومن ناحية أخرى ، فإن أغلب من عارضوا بشدة سياسة التهذبة التي اتبعها تشامبرلين قد جنحوا الى اسامة تقدير قدرات الجيش التشيكي . وبينما تمكن الجيش التشيكي من تعبئة حوالي ثلاثين فرقا لمواجهة تهديد ٧٣ فرقا ألمانية في سبتمبر ١٩٣٨ ، إلا أنه لم يكن بينها أكثر من ١٩ فرقا نظامية ، وفرقتان تم تشكيلهما في أواخر ربيع ١٩٣٨ . وكما كان الحال في معظم جيوش أوروبا حينذاك ، لم تتوافر للجيش التشيكي التجهيزات الحديثة الكافية للوحدات الاحتياطية . ومع هذا فقد كانت معدات قواته النظامية متكافئة هي ومعدات الجيوش الغربية (بما في ذلك ألمانيا) ولقد اعترف الألمان بعد ميونخ بأن فرق الخط الأول التشيكية كان لديها أسلحة ممتازة ، وفوق كل ذلك ، فلقد نجح التشيكي في انشاء تحصينات لا بأس بها في قطاعات معينة من جبهتهم ، ولكنهم لم يبدأوا في تنسيق جهودهم إلا بعد فوات الأوان . وكان التشيكي قد أعدوا العدة لمواجهة الاختراق الألماني المتجه من سيليزيا الى النمسا .

بطبيعة الحال ، كانت هناك نقاط ضعف أساسية . فالظاهر أن القيادة التشكيلية العليا قد اختيرت على أساس سبق اشتراكها في القوات العسكرية ١٩١٧ و ١٩١٨ وليس على أساس الكفاية القتالية . وامتدح الألمان قيادات اللوات والسرايا ، أما ضباط الصف فلم يرتقوا الى مستوى نظرائهم من الألمان ، وبوجه عام ، فلقد اعترفت التقارير الألمانية

عن حالة العسكرية التشيكية بأن التشيك كان يوسعهم القيام بحركة مقاومة بارعة وراء التحصينات ، ولكنهم ارتابوا في مقدرة القوات التشيكية على مضاهاة الجنود الألمان في الحرب المفتوحة .

ولقد مرت خطط الألمان للهجوم المتوقع في عدة أطوار متمايزة ، وكانت الخطة الاستهلاكية التي وضعها فرانس هالدر وأعوانه قد ركزت على الجوانب العسكرية لمشكلة غزو تشيكوسلوفاكيا ، ولكنها تجاهلت المشكلات الدبلوماسية والسياسية التي قد يثيرها مثل هذا الهجوم ، وتطلبت خطتهم شن هجومي : فرئى أن يشن الجيش المتمركز في سيليزيا الهجوم في اتجاه الجنوب ، على أن يلتقى بجيش آخر متمركز في النمسا يهاجم في اتجاه الشمال ، ويساعد هذا الإجراء على شطرت تشيكوسلوفاكيا في أضيق أجزائها إلى شطرين ، وحصار باقي الجيوش التشيكية في بوهيميا ومورافيا . غير أن هذه الخطة الأولى أخفقت في مراعاة الضرورة السياسية لأحراز نصر سريع يؤجل تدخل القوى الأوروبية الأساسية . وسرعان ما اكتشف هتلر ذلك في مؤتمر عاصف عقده في ٣ سبتمبر ١٩٣٨ ، وطالب بتعديل الخطط تعديلا جوهريا بحيث تتضمن ضربة مكثفة على برابج موجهة من بافاريا ، ويشترك في هذا الهجوم جميع القوات الرئيسية المدرعة والمحملة بالسيارات ، وشعر هتلر أن الاستيلاء على برابج سيساعد على الحيلولة دون تصاعد الهجوم الألماني على تشيكوسلوفاكيا واشتعال حرب أوروبية كبرى ، ثم غادر هتلر القيادة متجها لمشاهدة استعراض في نورنبرج ، ومما يثير الاهتمام أن سيطرة هتلر على قادته كانت مازالت أقل من السيطرة الكاملة . فالظاهر أن هالدر وبراونختش لم يجريا أى تعديل مهم في الخطط . وفي ٩ سبتمبر ، التقى القادة العسكريون بهتلر مرة أخرى ، ووصف مساعدو هتلر العسكريين الضربة التي ترتبت على ذلك بأنها كارثة ، وأعاد هتلر التشديد على أهمية الاندفاع نحو برابج ، ولكنه في هذا الاجتماع رضى بحل وسط ، وأيد تقديم العون للقوات القادمة من سيليزيا والنمسا لشطرت تشيكوسلوفاكيا إلى شطرين .

وكما هو الحال في معظم الحلول الوسط ، فقد كانت الخطة الألمانية أضعف من كلا التصورين المبدئيين . إذ كانت خطة هتلر أفضل من الناحيتين السياسية والسيكلوجية ، ومن المؤكد أنها كانت أجرا ، لأنها استندت إلى شق القوات المحملة الألمانية طريقها من خلال أرض وعرة ، ولكنها كانت ستحقق مفاجأة غير متوقعة مثلما حدث بعد ذلك في اقتحام الألمان للأردن ١٩٤٠ . وبالإضافة إلى ذلك ، فإنها كانت ستساعد على تركيز قوة المدرعات الألمانية وقواتها المحملة . أما الخطة النهائية فقد

فرقت الفرق المدرعة الثلاث والفرق الثلاث المشاة بين ثلاثة جيوش مختلفة . وكان بالاستطاعة اقدام القوة المندفعة نحو برّاج على شق طريقها الى داخل المدينة ، وان كان هذا لن يتحقق الا بعد قتال ممتد حامى الوطيس ، فلم يتوافر لهذه القوة القدرة على الكسب بالاعتماد على ضربة ساحقة تفرض الأمر الواقع ، وتيسر لهتلر النصر الذى يحتاج اليه لدفع القوى الأخرى لتأجيل التدخل .

ويبدو أن استعداد التشيك لمواجهة التهديد الألماني كان أكثر اتباعاً للعقل من استعداد البولنديين بعد ذلك بسنة . فبينما قام التشيك بتجزئة الكثير من قوتهم للدفاع عن الأقاليم الحدودية عديمة الأهمية ، فإنهم حشدوا جموعاً لها وزنها من الاحتياط كان باستطاعتها مساعدتهم لايقاف التغلغل الألماني الكبير ، وكان مقر تجمع خط الاحتياط الأول بالقرب من برّاج ، ويتألف من فرقتين خفيفتي الحركة وفرقة واحدة من المشاة وأربع فرق مشاة احتياط ، بينما كان مقر التجمع الثانى بالقرب من الحدود الواقعة بين سلوفاكيا ومورافيا ، ويتألف من فرقتين خفيفتي الحركة وفرقة محملة وخمس فرق احتياط . وكانت كل قوة من هاتين القوتين قادرة على مواجهة الاختراقات الألمانية والحيلولة دون نجاح الألمان فى التغلغل وشق طريقهم بسرعة ، واستثماره بشراسة فى الفترة الواقعة بين ١٩٣٩ و ١٩٤١ .

وثمة عامل رئيسى آخر يجب الالتفات اليه عند تقييم مسار الصراع الألماني التشيكى فى الأسابيع الأولى من أكتوبر ١٩٣٨ . انه الجو ، الذى كان فى صالح التشيك فى معظم الأحوال بفضل شدة قسوته ، وإذا راعينا عدم قدرة الطيران الألماني (*) على التحليق فى الجو فى جميع الأجواء ، والمشكلات العامة المتعلقة بصيانة الطائرات التى واجهها الطيران الألماني ١٩٣٨ ، لذا كانت المعونة الجوية مشوشة وغير منتظمة فى أفضل الأحوال ، اذ كانت صعوبات الاضطلاع بمهمة المعاونة الجوية الغربية فى الجو الرديء تكبد الألمان خسائر جسيمة ، وربما أثرت على مقدرتهم على تقديم العون للعمليات الحربية بعد غزو تشيكوسلوفاكيا .

وبعد الفحص والتحصيل ، يبين أن المقاومة التشيكية المعتمدة على التدخل النشط للقوى الأخرى ، كان بمقدورها أن تستمر بنفس القدر الذى حدث للمقاومة البولندية ١٩٣٩ . ومع هذا فلا بد من الاعتراف بأن بعض العوامل مثل طبيعة الأرض التشيكية ، وتفوق العتاد الحربى

التشيكي والضعف العام للجيش الألماني ١٩٣٨ (وبخاصة بعد تكبده خسائر فادحة في الدبابات) كانت ستساعد على إلحاق خسائر جسيمة للألمان في الرجال والعتاد . وأغلب الظن أنه لو وقفت مثل هذه المعركة لما كن من المستبعد أن يحجم الألمان عن التباهي بانتصار قواتهم المسلحة على بولاندة ١٩٣٩ ، فضلا عن ذلك ، فمن المستبعد أيضا أن تتمكن القوات الألمانية من غزو قواتها الاستراتيجية ضد التشيك مثلما ستفعل بعد ذلك في المعركة البولندية اعتمادا على تفوق قوتها المدرعة . وربما ساعد الاخفاق في تحقيق نجاح مذهل اعتمادا على القوات المدرعة على تزويد المحافظين داخل الجيش الألماني بالحجج التي يستطاع الاستعانة بها لمواجهة المجددين من أمثال جودريان ، وأخيرا فإن أية معركة ضد تشيكوسلوفاكيا كانت ستساعد على تدمير معظم التجهيزات الحربية التشيكية ، ولعلها كانت ستلحق أكبر قدر من الدمار أيضا بالمصانع الحربية التشيكية . وقد أثبتت مستودعات الأسلحة التشيكية نفعها الكبير لآلة الحرب الألمانية عندما استولى الألمان عليها بغير أن يلحق بها أي أذى في مارس ١٩٣٩ .

ولكن المشكلة الاستراتيجية الأساسية لألمانيا قد تمثلت في عدم إمكان حصر الهجوم على تشيكوسلوفاكيا في كونه نزاعا تشيكيا ألمانيا-ا فحسب . إذ كان هناك احتمال في امتداده بحيث يشمل القوى الكبرى والعديد من القوى الصغرى . فحتى في أوروبا الشرقية ، فقد واجه الألمان موقفا خطرا ، فقد كان البولنديون ، في موقف يساعدهم على التدخل ، واحداث تأثير حاسم في أغلب الظن ، إذ كان بوسع أي اختراق بولاندي للجزء الشمالي من شيليزيا في اتجاه برسلاو محاصرة جيش شيليزيا كله بقيادة رونسشتت ، غير أن البولنديين آثروا القيام بلعبة الانتظار ، ولقد صنف سياسى تشيكي السياسة البولندية تصنيفا صحيحا خلال الأزمة ، عندما قال انها كانت تخطط للتحرك في اتجاه تشيكوسلوفاكيا لو استمرت فرنسا وانجلترا ملتزمتين بالحياد ، للحفاظ على حيدهما ، وانتظار ما ستسفر عنه الأحداث اذا اقتصر الأمر على تدخل فرنسا . ولكنها كانت تنوى الانضمام في الحرب ضد ألمانيا لو أقدمت بريطانيا على ذلك ، والواقع أن البولنديين قد أوضحوا للحكومة البريطانية في منتصف سبتمبر أن تصرفهم في الأزمة سيعتمد على مسلك بريطانيا العظمى .

وازداد اتجاه بولانده فيما بعد تعقدا من جراء تصليب عدائها للاتحاد السوفيتي . وعندما يتعلق الأمر بروسيا فاننا سنكون حيال سحب كثيفة من الضباب لعدم توافق ما هو أكثر من القليل من الأدلة الموثقة عن سياسة هذا النظام ، بيد أن ما يمكن أن يتضح هو أن الدور العسكرى

الذى كان يمكن أن تؤديه روسيا قد بولخ في تقديره . فأولا - لم يكن للاتحاد السوفيتى أى حدود مشتركة بينها وبين ألمانيا أو تشيكوسلوفاكيا، ونظرا لوجود عداء بين رومانيا وبولاندة تجاه روسيا فمن الصعب أن ننصور كيف كان الروس سيهاجمون الأراضى الألمانية ، أو يعيشون قوات عسكرية كبيرة لمساعدة التشيك ، فضلا عن ذلك ، وهذه نقطة حاسمة ، فقد كان ستالين منشغلا فى القضاء على الجيش الأحمر عن طريق حركات التطهير بالجملة ، وأثبتت العروض الهزيلة التى قدمتها الجيوش الروسية لدى احتلالها شرق بولاندة أثناء الحرب ضد فنلندة وفى الشهور الأولى من عملية بارباروسا أنه من الصعب اعتبار الاتحاد السوفيتى عاملا خطرا فعلا فى الموقف العسكرى ١٩٣٨ ، وهناك دلائل على أن ستالين كان يخطط لاستغلال المواجهة العسكرية الكبرى بين القوى الغربية وألمانيا النازية كذريعة لتصفية الحسابات مع البولاندين ، ويدلنا تبادل الاتهامات المريبة بين البولاندين والروس فى سبتمبر ١٩٣٨ على أن اهتمام القوتين بتجديد حربيهما ١٩٢٠ قد فاق اهتمامهما بالتهديد الذى طرحته ألمانيا . وبالرغم من كل هكنا ، فإن موقف الصراع الشامل فى أوروبا الشرقية وفى البلقان كان أقل ملاءمة للألمان ١٩٣٨ منه فى سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٠ . فأولا - وبغض النظر عن ماهية قدرات السوفيت المحتملة لخوض العمليات العسكرية ، فإنه لم يكن من الميسور تحالفها هى وألمانيا النازية ، كما أنها لم تكن فى موقف يتيح لها تقديم العون لاقتصاديات الحرب الألمانية ، بالتزويد بمقادير كبيرة من المواد الخام ، كما حدث فيما بعد عندما وقعت معاهدة عدم الاعتداء فى أغسطس ١٩٣٩ . بالإضافة الى أن ألمانيا لم تكن قد نجحت بعد فى إرغاب البلدان الصغيرة فى أوروبا الشرقية ، ولقد أوضحت يوجوسلافيا ورومانيا تأييدهم الضمنى - على أقل تقدير - لتشيكوسلوفاكيا . وذهب الرومانيون الى ما هو أبعد فحذروا الألمان من احتمال توقفهم عن امدادهم بالبترول الرومانى بعد ٣ أكتوبر ١٩٣٩ . وحتى المجرىون ، والذين كانت لديهم جميع المبررات للشعور بمقت التشيك ، فإنهم رفضوا الالتزام بالاقدام على أى عمل عسكرى ضد تشيكوسلوفاكيا على الرغم من الضغوط الألمانية الشديدة .

ولكن الذى أفزع العسكريين الألمان لم يكن الموقف فى أوروبا الشرقية ، وإنما كان الموقف الاستراتيجى فى الغرب . اد كان ما يدعى « الجدار الغربى » (*) من المخزيات حقا . فلم تبدأ الانشاءات الرئيسية فى هذا الحائط أو الجدار الا فى بواكير صيف ١٩٣٨ ، وعلى الرغم من الجهود

الخرافية ، والالتزامات الهائلة من الموارد ، فإن ما اكتمل من هذا الجدار لم يزد عن ٥١٧ نقطة من النقاط المثبتة . وكان من المتوقع أن يرتفع هذا الرقم ١٩٣٩ الى ما يتجاوز حوالى ١٠٠٠٠ «دشمة» تم اكتمالها . وحتى هذه الدشم المكتملة ، فقد كان الكثير منها بلا قيمة عسكرية ، لأن الخرسانة لم يكن قد تم صبها .

وعلى الرغم من هذا ، فإن ما لحق هذه التحصينات من عدم اكتمال ، لم يكن أخطر مشكلة واجهت الألمان فى الدفاع عن حدودهم الغربية . فلما كانت التحصينات لم تكتمل ، لذا لزمّت الحاجة الى أعداد كبيرة من القوات الأرضية أو البرية للدفاع عن الغرب ضد أى هجوم فرنسى رئيسى . ولم تكن هذه القوات ميسورة ، فلم يتوافر للجنترال آدم القائد العام للجبهة الغربية أكثر من خمس فرق نظامية للدفاع عن الجبهة برمتها المواجهة لفرنسا وبلجيكا . وفى مؤتمر عقد فى شهر أغسطس ، وعد هتلر آدم بأرسال عشرين فرقة احتياط عند اندلاع الحرب ، غير أنه قوبل على الفور بمعارضة من براوخيتش الذى حذر هتلر وأخبره ان ما سيكون جاهزا من هذه الفرق العشرين خلال ثلاثة أسابيع من اعلان التعبئة لن يتجاوز ثمانى فرق ، وسنرى كيف أصبح هذا الخلط بين الفكر والأمانى من المستلزمات التى ستلتصق بتصرفات هتلر فى السنوات الأخيرة من الحرب عندما سنراه يشير بأصبعه الى الخرائط المبين عليها المواقع ، ويأمر بإنشاء تحصينات حيث لا يوجد بشر أو عتاد أو دشم أو خنادق أو ملاجئ محصنة . وبالمثل كان هتلر يلوح بيده رافضا الاعتراف فى سبتمبر ١٩٣٩ بتفوق قوة الجيش الفرنسى ، أو عدم اكتمال التحصينات الغربية أو النقص فى الاحتياط .

ومع هذا فقد ضرب هتلر رأسه فى الحائط عندما أدرك عدم استعداد الفرنسيين للسعى نحو مواجهة عسكرية فى الغرب ، ولعله اهتدى الى هذه النتيجة عن طريق الروس ، وإذا سلمنا بصحة التفاوت بين القوة الفرنسية والقوة الألمانية الا أنه لو توافر للفرنسيين حتى قيادة هجومية على قدر الحال لما كان من المستبعد أن يكونوا فى موقف يسمح لهم بشن حربهم فى أرض الراين ، وكما حدث ١٩٣٩ ، لم يكن لهذه القيادة العسكرية أى وجود . وفى ذروة أزمة ميونخ ، عقب دى جول ساخرا على ما قاله « بلوم » عما ينتظر أن يفعله الجيش لو شبت الحرب : « الأمر بسيط للغاية : مراعاة للظروف الفعلية فاقنا سنستدعى القوات الجاهزة ، أو نعلن تعبئة الاحتياط ، ثم نحدد ببصرنا من خلال مزاغل تحصيناتنا مكتفين بالفرجة دون أن نفعل شيئا يوقف عملية استعباد أوروبا » ، نعم

لقد أصاب ديجول - فلم تتوافر للجنرال جاملان والقيادة الفرنسية العليا أية نية لشن أية عملية عسكرية فعالة ضد ألمانيا ، ولقد بين جاملان ذلك أثناء زيارته للجبهة وأثناء مؤتمر عقد مع العسكريين البريطانيين والزعماء السياسيين في نهاية سبتمبر ١٩٣٨ - وبدأ مناقشاته بسرد قائمة من مفاخر القوة الفرنسية ، يعنى ما لدى فرنسا من قدرة على تعبئة خمسة ملايين وخمسمائة ألف جندي ومائة فرقة وخط ماجينو . أما الألمان فليس لديهم أكثر من ثماني فرق في الغرب . ولكن عندما حان وقت الحديث عما ستفعله فرنسا لو شبت الحرب تلعثم جاملان وعقب على ذلك بالقول: بالرغم من أن العمل العسكري المباشر قد يكون لصالح فرنسا ، إلا أن الأفضل فيما يحتمل هو الانتظار إلى أن يتم إخلاء باريس من سكانها ونفائسها ، يضاف إلى ذلك ما أضافه جاملان عن احتمال تراجع الجيش الفرنسي والتركيز على خط ماجينو بعد اتمام غزو تشيكوسلوفاكيا ونقل هتلر قواته للغرب ، فالجيش الفرنسي « قد ينسحب من الأراضي الألمانية على نحو ما فعل هيندنبورج ١٩١٧ إلى تحصيناته في خط ماجينو ويهدم أرض العدو أثناء تراجعه » . ويتضح من هذا البيان أن جاملان رغم اعترافه بتفوق الفرنسيين على الألمان بنسبة ٧ : ١ (يعنى ٥٦ فرقة فرنسية مقابل ما يقدر بثمانى فرق ألمانية في الغرب) لم يشعر باحتمال إحراز الجيش الفرنسي لآى نصر عسكري ذى بال كالاستيلاء على الضفة الغربية لنهر الراين . وفى نهاية الاجتماع ، عاد جاملان مرة أخرى لهذه النقطة ، وتوقع بعد الهجوم الفرنسي المبدئى ، أن يتراجع جيشه إلى خط ماجينو خلال أشهر الشتاء ، وهناك ينتظر وصول الجيش البريطانى الرئيسى .

ولعل بعض الضباط الآخرين كانوا أقل تفاؤلا فيما يتعلق بتطورات الفرنسيين في الحرب الأوروبية ، فلقد حذر الجنرال دنتس (بكسر الدال) في حديثه هو والملحق الحربى البريطانى في نهاية سبتمبر ١٩٣٨ من أنه إذا وقعت الحرب ، فإن سلاح الطيران الألمانى قد يدمر مدن فرنسا غير الحصينة ، وترك عند الملحق العسكرية انطباعا بأن الفرنسيين يعتبرون ضم الألمان لتشيكوسلوفاكيا أمرا مفروغا منه . وفى ذات اليوم ، علق الجنرال جوش رئيس المخابرات الحربية الفرنسية : « بعلم احتمال حدوث الحرب لأننا لا ننوى أن نحارب » .

ولم يفعل العسكريون البريطانيون أى شيء لتشجيع الفرنسيين على التصميم على الصمود ، فمنذ وقت مبكر يرجع إلى ١٢ سبتمبر ، حذر قائد القوات الجوية من احتمال هجوم الفرنسيين على التحصينات الألمانية المنيعة في الغرب ، وأشار إلى الترخيص لرؤساء الأركان بإجراء محادثات بين المختصين عن العمليات لاقتناع الفرنسيين بحماقة هذا

الاجراء . وهكذا فلا عجب اذا رأينا رؤساء الأركان يحذرون اجتماعا للوزراء البريطانيين فى نهاية سبتمبر من حشيتهم شروع فرنسا الاقدم على عملية هجومية ضد ألمانيا لا يحتمل أن تحقق أى أثر فعال ، والى جانب ذلك ، فقد رفض كل من اللورد جوت رئيس الأركان بالامبراطورية والسير سيريل فيوول قائد القوات الجوية بعد التقائهما بالجنرال جاملان وشعورهما بالقلق تحديد المساعدة العسكرية التى تنوى بريطانيا تقديمها او يحتمل أن تقدمها لو شبت الحرب فى المستقبل المباشر .

فلو صح أن الفرنسيين كانوا عازفين عن اجراء أية عملية حربية جادة ضد غرب ألمانيا - كما يبين من الدلائل - سيتخذ السؤال الجوهرى بعد تحليل الموقف الحربى فى خريف ١٩٣٨ شكل التساؤل حول : ما هى طرق الحل المفتوحة أمام هتلر للقيام بعمليات حربية أبعد من ذلك بعد غزو تشيكوسلوفاكيا ؟ . وفى غضون ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ، كانت الاختيارات المتاحة للألمان فى الغرب أكثر تحديدا - فيما يحتمل - مما كانت ١٩٣٩/١٩٤٠ ، ولربما حدث ذلك كنتيجة لعوامل شتى : عسكرية واقتصادية وبحرية ، وكانت العوامل الأكثر وضوحا هى العوامل العسكرية والبحرية .

فبعد العملية التى جرت مع تشيكوسلوفاكيا ، تعرض الجيش الألمانى لخسائر فادحة فاقت الخسائر التى سيتعرض لها فيما بعد فى معركته مع بولاندة ، ويحتمل أن يكون ما توافر له عددا أقل من الفرق المدرعة عما كان لديه فى مايو ١٩٤٠ . وليس من المستبعد أن تحقق هذه الفرق نجاحا أقل مما باستطاعة المدرعات الألمانية تحقيقه فى بولاندة ، ويحتمل أن يكون الجيش أضال من حيث الحجم بدرجة كبيرة . وبالإضافة الى ذلك ، فلعله كان سيتعذر اعداد تشكيلات جديدة بسرعة تفوق سرعة السلحفاة لسببين : السبب الأول هو احتمال تدمير مستودعات الأسلحة التشيكية أثناء غزو تشيكوسلوفاكيا ، السبب الثانى : عوامل اقتصادية سأتعرض لها فيما بعد فى هذا المقال . ويصعب ادراك كيف سيتسنى للألمان شن ما هو أكثر من وخزة ميثوس منها للغرب ، أى شيئا مماثلا فى امكاناته الاستراتيجية لاختراق الأردن ١٩٤٤ . ومن المؤكد أنه لم يكن بمقدور القوات العسكرية الميسورة شن عملية اقتحامية قوية عبر بلجيكا مصحوبة باختراق المدرعات من خلال الأردن على نحو مماثل لما استطاع الألمان تحقيقه فى مايو ١٩٤٠ .

ويكاد يتساوى فى أثره المدمر على الاستراتيجية الألمانية ، اتصاف الموقف البحرى الألمانى بشدة الضعف ١٩٣٨ فى أغلب الظن ، بالمقارنة

بحالتة في ١٩٣٩ . فلم تكن قطعتان من القطع البحرية (*) جاهزتين للعمليات البحرية ، بينما كانت البوارج المائلة في مميزاتها لبارجة بسمارك بعيدة عن الاكتمال قبل مضي سنتين أو يزيد ، وكانت أكبر السفن العاملة ، أي ما يدعى ببوارج الجيب أصلا من السفن التي تتبع غفر السواحل لمطاردة المهربين . ولم تكن هناك أية طرادات ثقيلة أو حاملات طائرات . وكل ما هناك هو ستة طرادات خفيفة وسبع نسابات ، وربما كان أكثر ما أثار احباط الاستراتيجيين البحريين الألمان هو عدم وجود ما يزيد عن ١٢ غواصة صالحة للخدمة في الأطلسي في فبراير ١٩٣٨ تحت إمرة الأسطول الألماني ، ثم توافرت ٢٤ غلبة سردين أخرى (**) للاستعمال في مياه شواطئ الجزر البريطانية . وبينما استطاع الأسطول الألماني شن عمليات ناجحة ضد النرويج والدانمرك في ربيع ١٩٤٠ بغير أن يتوافر لها أي رصيد بحري ، أي كانت على فيض الكريم ، وخسرت خلال العمليات جميع وحداتها البرية ، مما أحدث تأثيرا كبيرا على استعداداتها للحرب ، ولم تكن هذه القدرة بالضخامة كما اعتقد ١٩٣٨ وبدايات ١٩٣٩ . فضلا عن ذلك ، فقد ارتأبت قيادة البحرية الألمانية (***) في امتلاكها للقوات القادرة على حماية خطوط التجارة التي تيسر لها نقل الحديد من السويد ، أو حتى تأمين الملاحة في بحر البلطيق ، وفي يوليو ١٩٣٨ ، أبلغت قيادة أسطول البلطيق عن ارتياها في إمكان حماية السفن الناقلة للمعادن الخام من موانئ السويد خشية تدخل الروس ، وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحة هي اغلاق خليج فنلندا في بداية الحرب بعد زرع الألغام فيه ، ونشر الغواصات والوحدات البرية ، وبذلك أمكن حصر تدخل الروس . غير أن مثل هذه الاستراتيجية كانت تتجاوز قدرات الألمان ، ولجأ الألمان لحماية أنفسهم من الغواصات الروسية ، إلى استعمال قوارب الصيد ، وصدر أمر بالاستيلاء على ما يملكه الأهالي منها في أغسطس ١٩٣٨ . وفي تقرير كتب عن سير العمليات الحربية بعد أزمة ميونخ ، حذر قادة البحرية الألمان في الشرق بأنه إذا تورط الروس في الاشتراك في الحرب الدائرة مع تشيكوسلوفاكيا ، فإن أسطول البلطيق لن يتمكن من النهوض بمهامه ، إذا لم يتم تعزيزه تعزيزا جوهريا . وهكذا لم يكن لدى الألمان غير إحدى كاسحات الألغام ، مما دفع السلاح الحدي الألمان إلى الاعتراف بأنه لم يكن بمقدوره زرع حقول الألغام حذثة في المنطقة الجنوبية من البلطيق وما أقلحت في التعويق نوعا ، ولكنها لن تستطيع منع العمليات البحرية السوفيتية ،

Gneisenau, Scharnhorst

Kleine Unterseeboote

O.K.M.

(*) مثل

(**)

(***)

التي قد تتعرض لها خطوط الملاحة التجارية وجنوب السويد ، ومن ثم فقد تعذر تأمين نقل المعادن من موانئ السويد ، باستعمال الألغام ، أو بدونها . هكذا كن الموقف فيما يتعلق بالأسطول الألماني .

وترجع مواطن الإبهام في هذه المسألة الى دلالة عدم انتظام خطوط امدادات المعادن المستوردة من البلدان الاسكندنافية على خطورة الموقف الاقتصادي الذي اكتشف الرايخ الثالث تعرضه له ابان أزمة ميونخ ، وان صبح وصفه أيضا بالموقف الداعي الى الاحباط . وقد أكد نجاح الحصار البحري البريطاني في الحرب العالمية الأولى مدى ما يتعرض له الاقتصاد الألماني من أي ضغط اقتصادي من هذا القبيل . وكانت المادة الطبيعية الوحيدة التي يحتاج اليها لتسيير دقة اقتصاديات الحرب والمتوافرة في ألمانيا بدرجة كافية تساعدها على تنفيذ احتياجاتها هي الفحم . غير أنه حتى انتاج الفحم بألمانيا فانه قد واجه مشكلات مهمة ١٩٣٨ . اذ كانت مناجم الفحم الغربية ، وبوجه خاص الواقعة في اقليم السار قريبة من فرنسا ، وواقعة تحت تهديد العمليات الحربية الفرنسية ، بالإضافة الى أن احتياجات الاقتصاد الألماني للفحم كانت تترنح . اذ كانت صناعات الحديد والصلب هي أكثرها استغانة بالفحم ، وان كانت شبكة النقل وصناعات المواد الاصطناعية وصناعات القوى الكهربائية كانت شديدة الاعتماد على الفحم ، وأخيرا كان الفحم من أهم مصادر التبادل التجاري ، اذ كانت صادرات الفحم الألماني الى جنوب شرق أوروبا ذات أهمية فائقة لتأمين استمرار الحصول على واردات دول البلقان في السنة الأولى من الحرب ، كما أنه كان من المتوقع اعتماد إيطاليا على الفحم الألماني لو قدر لها دخول الحرب ، ولما كانت الصادرات اليها لابد أن تمر عبر سويسرا ، لذا يتعين توريد الفحم لسويسرا أيضا .

ولو تعرضت موارد الفحم الألماني للجهد في زمن الحرب ، فإن الموقف فيما يتعلق بالمواد الخام الأخرى سيكون ميئوسا منه ، فالتفاوت الكبير بين احتياجات الاقتصاد والاحتياجات العسكرية ، من جهة ، وانتاج المنتجات البترولية في الرايخ الثالث ، من جهة أخرى ، كان رهيبا ، وأدى النقص في العملة الأجنبية ١٩٣٨ الى عدم امتلاك أية أرصدة من البترول على وجه التقريب ، وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها الألمان في الثلاثينيات لانشاء صناعة البترول الاصطناعي ، الا أنهم في نهاية ١٩٣٧ استوردوا وقودا أكثر مما كانوا يستهلكون في بداية الثلاثينات . وفي يونيو ١٩٣٨ ، لم يكن المخزون من البترول - يكفي لمسد احتياجات أكثر من ٢٥٪ من احتياجات التعبئة - بمتوسط أربعة أشهر من الاحتياجات

الكاملة لفترة الحرب . وخلافا للحال ١٩٣٩ ، يبدو أنه كان من المشكوك فيه آنئذ امكان حصول الألمان على واردات البترول من الاتحاد السوفيتي، بينما كانت حتى الواردات من رومانيا مثار شك .

وتماثل موقف صناعة المطاط في ألمانيا مع موقف البترول ، ففي ١٩٣٠ ، وكما حدث في صناعة البترول ، خصص الألمان اعتمادات ضخمة لإنشاء مصانع للمطاط الاصطناعي ، غير أن الاستثمار في هذا المجال لم يثمر إلا ١٦٤١ و ١٩٤٢ . فابتداء من هذا التاريخ ، تحسن الموقف ، وأفلح الألمان في سد احتياجاتهم العسكرية من الإنتاج الداخلي ، واستطاعوا تكديس مخزونات من الغنائم التي غنموها من البلدان التي احتلوها ، وساعدت الواردات عبر خطوط حديد سيبيريا في سد الثغرة بين الاحتياجات والإنتاج في السنتين الأوليين من الحرب العالمية الثانية ، وفي منتصف ١٩٣٨ ، لم يتجاوز إنتاج المطاط أقل من ٧٪ من احتياجات ألمانيا ، ويصعب القول بأن موقف الألمان فيما يتعلق بباقي المواد الخام الرئيسية كالحديد والنحاس والنيكل . . الخ . كان أفضل حالا .

[illegible]

والى جانب مشكلات استيراد المواد الخام الكافية فى وقت الحرب ،
أو انتاج ما يكفى من الموارد المحلية للاستجابة لمطالب الحرب ، فان
الاقتصاد الالماني عانى من الاجهاد الى حد التصدع ١٩٣٨ • ولم يعد لديهم
جيش كبير من المتعطلين يستعينون به لتعويض العجز فى الأفراد ، بينما
أضافت عملية التعبئة وامتداد جبهة ممارسة الأنشطة الالمانية والأزمة
التشيكية للنقص فى العمال المهرة وغير المهرة • وبلغ الاقتصاد قدرا من

التأزم الى حد تفاقم نقص العمالة في كل جانب من جوانبه وبخاصة في صناعة الفحم والذخائر والطائرات . وفي ديسمبر ١٩٣٨ ، قدر وزير العمل (*) في الرايخ مقدار النقص في العمالة بمليون شخص ، وزاد من حدة المشكلات عمليات انشاء التحصينات : تغريبية (الجدار الغربي) . وكان هذا هو ما حققته لأنها قد استهلكت ٥٪ من الصلب و ٨٪ من الخشب و ٢٠٪ من الخرسانة التي استطاع الاقتصاد الألماني توفيرها ١٩٣٨ ، وأدى ذلك الى حدوث تعطلات مهمة في تنفيذ برنامج التوسع في انتاج الفحم والمواد الاصطناعية ، كما أدت الى سحب العمال من قطاعات أخرى من الاقتصاد .

وفي واقع الأمر ، لقد بلغ الموقف الاقتصادي حالة من السوء دفعت مجلس الدفاع بالرايخ ١٩٣٨ الى اصدار تقرير جاء فيه :

« في ٨ أكتوبر ، ونتيجة لمتطلبات قوات الدفاع الوطني (بعد احتلال السودان) والانشاءات المحددة لتحصينات الجبهة الغربية ، نشأت حالة تأزم شديد في القطاع الاقتصادي (انعكست على الفحم وامتدادات الصناعات ومحاصيل البطاطس والشلجم والامدادات الغذائية) ولو استمر هذا التأزم حتى ١٠ أكتوبر ستتربط عليه بالقطع عواقب وخيمة . . . »

وفي احدى الجلسات التي عقدها مجلس الدفاع بالرايخ في نوفمبر ١٩٣٨ ، اعترف جورنج ببلوغ التأزم الاقتصادي حدا كبيرا ، فلم يعد متوافرا المزيد من العمال ، ولم تعد المصانع قادرة على الاشتغال بكامل طاقتها ، واستنفد النقد الأجنبي كلية . وأصبح الموقف الاقتصادي لألمانيا يدعو الى اليأس . ولو استمرت المصاعب الاقتصادية في يناير ١٩٣٩ ، سيضطر الألمان الى تخفيض حصص القوات المسلحة من الصلب بمقدار ٣٠٪ وحصص النحاس بمقدار ٢٠٪ والألومنيوم بمقدار ٤٧٪ والمطاط ٤٠٪ والأسمنت ٤٥٪ .

وكانت المشكلات التي واجهت شبكة النقل انعكاسا أبعد للمتاعب التي تعرض لها الاقتصاد الألماني ١٩٣٨ ، ففي منتصف أكتوبر ، حذر وزير الدولة كلاين مان من وجود صعوبات في السكك الحديدية تحول دون نقل ما هو أكثر من النور اليسير من الخضروات ، وتعرضت امدادات الفحم المخصص للمدنيين للخطر ، ولم تعد البواخر المخصصة للصادرات

وشباك الضيد قادرة على مبارحة المياه لنقص الفحم ، ولم يتيسر أكثر من عشرين ألف من عربات السكك الحديدية لنقل الفحم بالرغم من الاحتياج الى ثلاثة وأربعين ألف عربة لتلبية جميع الطلبات .

وبالنظر الى أن الموقف الاقتصادي قد بلغ الحالة التي تحدثنا عنها آنفا ، فلا غرو اذا بدأ الشك في امكان توافر القوة الكافية للاقتصاد الألماني ١٩٣٨ لدعم أى انتفاع من الاقتصاديات الأساسية المفيدة لألمانيا . فلم يقتصر الأمر على ما حدث من انخفاض فادح في انتاج المواد الصناعية والنخائر أكثر مما حدث ١٩٣٩ ، ولكن الأدهى من ذلك هو عدم توقع أى عون حينذاك من روسيا ، وتوقع القليل من دول البلقان . والحق أن مشكلة العمالة لم تبلغ حدا كبيرا من السوء ، لأن أعدادا غفيرة من العمال الألمان كانوا يعملون ، واستمروا يعملون حتى ١٩٤٢ في مهام كانت هامشية بالنسبة لاقتصاديات الحرب عند الألمان . والأرجح هو أن الاقتصاديات الألمانية ١٩٣٨ لم يتوافر لها وسائل الحصول على امدادات المواد الخام التي كانت تحتاج اليها لزيادة انتاج الأسلحة بدرجة كبيرة . وفي ١٩٤٢ ، توافرت لألمانيا موارد معظم بلدان القارة الأوروبية ، وأصبحت تحت تصرفها . أما قبل ذلك (١٩٣٨) فلم يكن لديها الا قدر شحيح من التطلعات التي يمكن تحقيقها والحصول عليها من الأرض الألمانية ، بالإضافة الى القليل من المناطق التي كان الجيش الألماني قادرا على غزوها واستخراج ما يريد من موارد منها .

والاقرب الى الاحتمال هو أن الجيش الألماني ما كان ليتعرض لانهايار اجتياحي لو أن الحرب شبت في خريف ١٩٣٨ . وبدلا من ذلك ، فإن الموقف كان سيتشابه هو وما حدث من تفكك حثيث مطرد شبيه بما تعرض له الاقتصاد الإيطالي في السنوات الواقعة بين ١٩٤٠ و ١٩٤٢ . ولعل الألمان كانوا سيلجأون حينذاك الى مجموعة من الوسائل المناسبة على حساب احتياجات المستقبل . ولما تناقص الانتاج ، وتزايد شح الامداد بالمواد الخام ، لذا كان من المتوقع أن تعاني قدرات القوة المقاتلة من حدوث تدهور مناظر . وبمجرد بدء الحلقة المفرغة ، سيتحتم تعرض ألمانيا ١٩٣٨ للعاقبة المحتومة ، يعنى الهزيمة العسكرية .

وآخر العوامل المهمة لتقدير الموقف الاستراتيجي ١٩٣٨ هو العون الحربى والدبلوماسي الذي كان يتوقع أن تتلقاه - أو لا تتلقاه - ألمانيا لو شبت الحرب . وكما أوضحت من قبل ، فلم يكن من المحتمل حصول الألمان على أية مساعدة اقتصادية قريبة بالاستطاعة انتزاعها من منطقة البلقان ، أو من الاتحاد السوفيتي - فيما يتعلق بهذه الناحية - خلال الشهور الستة الأولى من الحرب العالمية الأولى . وتمادت الحكومة الرومانية

في تمنعها الى حد تحذيرها الألمان من علم انتظار أية شحنات من منتجات البترول ابتداء من أول أكتوبر . ومن جهة أخرى ، فلا يستبعد أن يأتي رد فعل الحكومة الإيطالية ازاء الأزمة التشيكية بعيد الاختلاف عما جرى بعد ذلك في سبتمبر ١٩٣٩ . فلقد أوضح الكونت تشيانو وزير الخارجية الإيطالية في عدد من المناسبات في سبتمبر « أنه في حالة تدخل بريطانيا العظمى ، ستكون إيطاليا مضطرة الى المعاملة بالمثل » . وفي ٨ سبتمبر ذهب الى ما هو أبعد ، مما حدا به الى التصريح للسفير البريطاني : « بأن مصالح إيطاليا ، وشرفها ، وما وعدت به ، يتطلب منها الوقوف في صف ألمانيا ، ومعاونتها على نحو فعال كامل » . وبينما كان بمقدور الإيطاليين تجاهل مثل هذه البيانات الدبلوماسية ، التي أعلنت بكل ثقة ، اذا نشبت الحرب ، الا أن موسوليني قد أخرج حكومته في الأيام الأخيرة من سبتمبر عندما أكد في أحاديثه العامة ما كان يقوله « تشيانو » في أحاديثه الخاصة . ففي سلسلة من الأحاديث بدأت في مدينة تريستا في ١٨ سبتمبر ، واستمرت حتى يوم ٢٨ ، أعلن موسوليني التزام حكومته – بلا رجعة – بالوقوف في صف ألمانيا ، في حالة حدوث صراع حربي .

وكان من المنتظر أن يحقق دخول إيطاليا الحرب للقوى الغربية عدة مميزات ، يأتي في صدارتها : أولا – ان اشتراك إيطاليا ضد الغرب كان سيساعد على احكام الحصار المفروض على ألمانيا ، بينما ستؤدي أعباء تزويد الحرب الإيطالية بالمواد الخام الى اضافة أعباء جديدة الى المصاعب الاقتصادية الجسيمة التي يعاني منها الرايخ الثالث بالفعل ، وسيحدث صراع بين الاقتصاد الإيطالي والاقتصاد الألماني على موارد البلقان النادرة . واذا راعينا تفوق الأسطول الانجليزي الفرنسي في البحر المتوسط ، فأننا سندرك قدرة القوى الغربية على قطع خطوط الامدادات الى ليبيا ، وشن عمليات قذف بالقنابل على نطاق واسع على المناطق الساحلية الإيطالية .

ولم تكن العسكرية الإيطالية متحمسة لاحتمال اراقة المزيد من الدماء ، لو أنها شاركت في حرب أوروبية عامة في صف ألمانيا . ولقد حذر أحد العسكريين من أصحاب الرتب العليا القادة الألمان في روما من توقع احراز نصر سريع ضد التشيك . ورأى أنه من غير المستبعد أن يترتب على ذلك اشتعال حرب عالمية ، ليس المحور على استعداد لتحمل مغبتها سياسيا أو عسكريا . فجميع الأشياء ستكون في غير صالح المحور ، اذا تمخضت الأزمة التشيكية عن نشوب الحرب . وهكذا لم يمثل الإيطاليون أي تهديد خطير لبريطانيا ١٩٣٨ أكثر مما فعلوا ١٩٣٦ أو ١٩٤٠ ، وكان من المتوقع أن يستنزفوا القوة الحربية لألمانيا ، وأيضا الموارد الاقتصادية . وعلى

العموم ، فقد أثبتوا ، كما سيحدث ١٩٤٠ ، عندما كانت ألمانيا في ذروة قوتها ، مسئوليتهم عن أوجم العواقب البعيدة الأثر .

أما اتجاه اليابان خلال الأزمة الأوروبية المتصاعدة ١٩٣٦ ، فبدأ أكثر غموضا واثارة للحريرة . وبينما لم يأسف اليابانيون لما شاهدوا من متاعب في أوروبا قد تلهى القوى الكبرى وتشغلها عن الاهتمام بالشرق الأقصى إلا أنهم كانوا قد عانوا الأمرين من حربهم مع الصين . فلقد تورطوا في محاولة ضخمة للاستيلاء على هانكاو ، ولم يكونوا في موقف يسمح لهم بزيادة أعداء جدد إلى قائمة أعدائهم . وبين من تقارير السفارة البريطانية في طوكيو أن اليابان لم يكن لديها أية رغبة في التورط في أى صراع كبير آخر ، وزيادة التزاماتها . وفى أغسطس لاحظ السفير الياباني في باريس أن توقيع الهدنة مع روسيا في النزاع على الحدود مع منشوريا قد جاء من أثر رغبة الحكومة اليابانية في تجنب التسبب في اشتعال حرب عالمية ثانية . إذ كان لديها بالفعل ما يكفيها من المشكلات التي أوقعتها الصين فيها . وأيد السفير الأمريكي في طوكيو شكوك البريطانيين في إمكان سماح اليابان لنفسها بالتورط في أى صراع أوروبى . وفى ٦ أكتوبر ، أرسل تقريرا ورد فيه ما يأتى : « كما أنه ليس هناك أى ضمان لافتراض وجود أية نية للجيش للتهرض لإزعاج المتاعب الجارية في أوروبا ، ما لم تحدث مبررات اضطرارية للغاية تدفعه إلى الإقليم على ذلك » . ولم تكن مثل هذه المبررات قائمة سنة ١٩٣٨ .

خلاصة

أهم الملامح المميزة للموقف العسكري ١٩٣٨ هو عدم الاستعداد النسبى « لجميع » البلدان الأوروبية لخوض قتال ، ولو محدود ، ناهيك بالتورط في حرب كبرى . فلقد كانوا جميعا يعون بشدة مدى ضعفهم . وكانت المشكلة عند الألمان معقدة لا لكونها غير مستعدة عسكريا فحسب ، وإنما أيضا لخطورة موقفها الاقتصادى ، وهكذا استندت استراتيجيتهم ، كما حدث ١٩٣٩ ، على كسب الحرب بسرعة . أو على أية حال ، إذا تعذر ذلك ، فلا أقل من أن تستولى على قاعدة اقتصادية واستراتيجية تركز عليها لشن حرب طويلة . ولم يكن السؤال الجوهرى عند الألمان يستند إلى احتمال غزوها لتشيكوسلوفاكيا . إذ كانت هذه المشكلة فوق أى شك . وعند تذاكر ما حدث بين أن تحقيق ذلك لم يكن يستغرق من الألمان أكثر من شهر واحد من الزمان . على أن مثل هذه العملية كانت ستتكبّد خسائر تفوق خسائرها ضد يولاندة . التي وقعت بعد ذلك سنة ١٩٣٩ بسبب

طبيعة الأرض وتجهيزات الجيش التشيكي وتجهيزاته ، وإزالة الجبهة العامة لعدم استعداد القوة المدرعة الألمانية . أضف إلى ذلك ، بما سيترتب على مثل هذه الحملة من تدمير لمعظم مخزون الأسلحة التشيكية التي كان الألمان سيستفيدون به في الربيع التالي ، وربما أدت هذه الحملة أيضا إلى تدمير مصانع الأسلحة التشيكية أيضا .

بيد أن الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ما كان لترك أكثر من أثر واه على الموقف الاستراتيجي لألمانيا المتورطة في حرب عالمية . ولم يكن بمقدور ضم تشيكوسلوفاكيا إلى المسار الاقتصادي الألماني أن يحقق إلا القليل لتخفيف وطأة النقص في موارد الحرب البالغة الأهمية . وكان من المتوقع أن تتخذ المشكلة المحورية للنظام النازي بعد تشيكوسلوفاكيا صيغة « وماذا بعد » ؟ فلم يبد مستبعدا أن تقدم ألمانيا على خوض حرب عالمية اعتمادا على قوى عسكرية غير مهيئة لذلك ، وعلى موقف اقتصادي يكاد يدعو إلى الاحباط . ولعله كان من الخير لها أن تتخذ الإيطاليين حلفاء ، وإن كان هذا سيضاعف أعباءها الاقتصادية والعسكرية دون أن يعود بأي نفع مقابل ذلك . ولعل النطاق الاقتصادي للمحور كان سيقصر على ألمانيا وإيطاليا والمجر وتشيكوسلوفاكيا بعد تحطمها ، وعلى تجارة المعادن مع السويد والمعرضة للخطر . ولعل العمليات الحربية ضد رومانيا للاستيلاء على آبار البترول الحيوية كانت ستواجه برد فعل سوفيتي محتمل ، ولم يكن من المستبعد أن تؤدي إلى تدمير الآبار ومعامل التكرير مثلما حدث في الحرب العالمية الأولى .

ولقد أشرت من قبل إلى أن فرنسا كانت تملك تفوقا كاسحا في الحدود الغربية لألمانيا ، إلا أن الفرنسيين قد ظهرتوا بمظهر العازفين والعاجزين عن استغلال الموقف لو نشبت الحرب . ومع هذا فإذا صح أن الفرنسيين كانوا عازفين عن الهجوم على الحدود الغربية لألمانيا ، إلا أن الألمان لم يكونوا في موقف يساعدهم على تحقيق أي كسب استراتيجي في الغرب . إن هذا لا يعني علم احتمال اقدامهم على هذه المحاولة ، بعد غزو تشيكوسلوفاكيا . فكما حدث سنة ١٩٤٠ ، لن يكون أمام الألمان أي خيار آخر غير الهجوم واختراق بلجيكا وهولندا للاستيلاء على الموارد اللازمة لمتابعة أهدافهم في الحرب . غير أنه من الصعب أن نتصور كيف كان الألمان سيحققون الانتصارات الاستراتيجية الصاعقة التي حدثت سنة ١٩٤٠ . فلقد كان لديهم النزر اليسير من القوات المحمولة جوا ، التي يستطيع تكليف بعض وحداتها بالاستيلاء على القلاع والكبارى البلجيكية . فلم تكن القوات المدرعة آنئذ (١٩٣٨) - يقينا - قادرة على النهوض بعملية هجومية مماثلة للحملة التي شنتها بنجاح في الأردن ١٩٤٠ ،

وساعدتها على التغلغل فيه . وفضلا عن ذلك ، فنظرا للنقص في الوقود والذخيرة والضعف الداخلي ، فإنه لم يكن بمقدور سلاح الجو الألماني أن يتدخل تدخلا حاسما في المعركة البرية ، كما حدث بعد ذلك ١٩٤٠ . ولعل الألمان كانوا سيحققون انتصارات هامة مثل الاستيلاء على الدانمرك للتغلب على التداعي الاقتصادي . غير أن أية عملية عسكرية كان الألمان سيشتنونها في هذه الحقبة كانت ستحقق نتيجة عكسية كاستنفاد مواردها الشحيحة دون الحصول على ما يعوضها من موارد للصرف على اقتصاديات الحرب على المدى البعيد .

قصارى القول فإن نتيجة الحرب كانت مستعمدة مثلما حدث في الحرب العالمية الأولى ومثلما أثبتت بعد ذلك الحرب العالمية الثانية على القوة الاقتصادية والقدرة على الصمود عند الطرفين المتقاتلين . وإذا قارنا بين عدد الفرق والموارد الاقتصادية والكفاية الصناعية والقوى البحرية ، فائنا لابد أن نتوقع مواجهة الألمان لتفوق الحلفاء الساحق ١٩٣٨ ، سواء واجهوا إنجلترا وفرنسا في البداية ، أو واجهوا تكتلا ضخما يضم روسيا وبولاندة . ومع هذا فإنه لم يكن من المنتظر أن تكون الحرب ضد ألمانيا مسألة هيئة الشأن ، أو يتحقق فيها النصر بسرعة . بيد أن النتائج لابد أن تكون محتومة ، وأن تنتهى بانهيار النظام النازي ، بتكاليف أقل فداحة من تكاليف الحرب التي ستشن بعد ذلك في سبتمبر .

المراجع

- A. Adamthwaite, *France and the Coming of the Second World War (1936-1939)* 1977.
- U. Bialer, *The Shadow of the Bomber : The Fear of Air Attack and British Politics (1932-1939)* 1980.
- B. Bord, *British Military Policy Between Two World Wars* (1972).
- M. Gilbert and R. Gott, *The Appeasers* 1963.
- H. Gatzke (ed.) *European Diplomacy between Two Wars (1919-1939)* 1972.
- M. Knox, *Mussolini Unleashed 1939-1941 : Politics and Strategy in Fascist Italy's Last War* 1982.
- W. N. Medlicott, *British Foreign Policy Since Versailles* 1968.
- W. Murray, *The Change in the European Balance of Power 1938-1939 : The Path to Ruin* (1984).
- G. C. Peden, *British Rearmement and the Treasury 1932-1939*, 1977.
- R. J. Sontag, *A Broken World 1919-1939* (1971).
- A. J. P. Taylor, *The Origins of the Second World War* 1966.
- T. Taylor, *Munich : The Price of Peace* 1980.
- N. Tompson, *The Anti Appeasers* 1971.
- C. Thorne, *The Approach of War 1938-1939* (1967).
- A. Ulam, *Expansion and Coexistence : The History of Soviet Foreign Policy 1917-1967* (1971).
- G. Weinberg, *The Foreign Policy of Hitler's Germany 1933-1936*, (1970).
- G. Weinbert, *The Foreign Policy of Hitler's Germany, Starting World War II 1937-1939*, (1980).
- R. J. Young, *In Command of France : French Foreign Policy and Military Planning 1933-1940* (1978).

الناتو : التحالف النووي

ميكائيل ماندلباوم

انتهت الحرب العالمية الثانية في ابريل ١٩٤٥ • ومات فيها عشرات
الآلاف من الجنود والمدنيين • ولم تبق سوى اطلال بعد تدمير الكثير من
المدن والطرق والكبارى والمزارع في القارة الأوروبية • كما تحطمت أيضاً
قوة الدول الأوروبية الكبرى على التحكم في مستقبلها السياسي • ويكمن
مصدر أوروبا الآن الى حد كبير معلقاً بين أفعال القوتين العظميين وقراراتهما:
الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وبذلك دخلت أوروبا عهداً سياسياً
جديداً •

والتبت أول قنبلة نووية أطلقتها الولايات المتحدة على هيروشيما في
الغسطس ١٩٤٥ دخول العالم برمتة عصرًا عسكرياً جديداً • فمن الآن
تضاعف ، اتضح ان الصراع العسكري - مستقبلاً - سيجز في اذيتة
مستوى من الدمار لم يتخيلة احد من قبل •

وجاء تشكيل منظمة اتفاقية شمال الأطلسي ١٤٩٩ بعد أربع سنوات
من الضغوط السوفيتية على أوروبا التي تضاعفت عنفاً حوصرت برلين
١٩٤٨ • ومثل الحلفاء اعترفت بلدان غرب أوروبا بضعفها وحاجتها الى معاونة
الولايات المتحدة ، وبدا التحالف في نظر الولايات المتحدة ممثلاً لضمان عدم
عودتها مرة أخرى الى سياسة العزلة عن أوروبا •

وخلال الفترة التي مضت من حياة التحالف ، استمر التفاعل بين
الخوف المتبادل بين العدوان السوفيتي والتوتر بين الحلفاء ، وشاركت
المشكلات المتعلقة بالأسلحة النووية بعور رئيسي في الموقفين •

International Politics. The Nuclear Revolution
before and after Hiroshima. نقلا عن كتاب

تأليف Michael Mandelbaum (١٩٨١) •

وفي صميم العوامل التي أشعرت الحلفاء في السنوات الباكورة بالأمان امتلاك الولايات المتحدة للأسلحة النووية • وعلى نهاية الخمسينات ، اهتدى الاتحاد السوفيتي الى الأسلحة النووية والصواريخ العابرة للقارات القادرة على قذفها • وأثار هذا الموقف الشكوك في نفوس الأوروبيين حول هل أصبح بإمكان الولايات المتحدة حمايتهم وتحمل مخاطر هجوم السوفيت عليهم • وكانت النتيجة الأساسية لهذا الشك هي قرار فرنسا بإنشاء ترسانة نووية مستقلة عن ترسانة حلفائها، وحاولت الولايات المتحدة تهدئة هذه الشكوك باتباع وسائل شتى ، كان من بينها مرابطة عدد كبير من القوات الأمريكية في أوروبا •

وفي وقت أقرب عهدا ، أدى تسليح بلدان الناتو الأوروبية بالذخائر قصيرة المدى الى إثارة تساؤلات جديدة ومحاولات كثيرة • غير أنه خلال سنوات التوتر والشك ، ظلت هناك حاجة أساسية دفعت أوروبا الغربية الى المطالبة بالحماية الأمريكية • وساعدت هذه الحاجة وهذا الضعف الأساسي الأوروبي الموروث على جعل التحالف دائما ولكنه مشر للخلاف أيضا •

تحالف الأطلسي

الفوضى تولد الذعر ، الذي ينمى النزوع لحماية الذات • هذا هو التسلسل المنطقي الذي يربط بين تكوين النظام الدولي ومسلك الدول من قديم الأزل حتى الآن • وبمقدور المنتمين الى أي منظومة أن يعتمدوا على مواردهم سعيًا وراء الحماية • وعندما تؤمن الدول المتنافسة نفسها باتباع نهج تنافسي سافر ، فإن عاقبة هذا المسلك هي التسابق على التسليح • وتسمى كل دولة لخطب ود الدول الأخرى أيضا عندما تتعرض للتهديد سعيًا وراء تدعيم ذاتها عن طريق التحالفات ، التي تعد شيئا مألوفًا في السياسة الدولية كسياق التسليح سواء بسواء •

وفي إحدى مسرحيات توسيديدس عن الحرب البلو يونيزية ، اتبعت أثينا واسبرطة نفس السبيل • فعندما شرعتا في الاستعداد للحرب ، فانهما الى جانب تسليحهما لأنفسيهما عمدا الى « التخطيط لايفاد مبعوثين الى ملك الفرمن وغيره من الحكام أملا في الحصول على دعمهم ، وحاولا التحالف هما ودولا هيلينية أخرى لم تكن قد انحازت بعد الى أي جانب من الجانبين • وتمثل مسألة « من » سيتحالف مع « من » القسم الأكبر من الجزء الأول من المسرحية • فليست التحالفات أمرا شائعا وحسب ، ولكنها — عادة وغالبا — تشبه الزيجات الموفقة • ففي سباقات التسليح ربما

أثرت مصالح جماعات وطوائف بالذات على نوعيات الأسلحة التي تتسلح بها الدول وعلى عدد هذه الأسلحة . بيد أن الشرط الضروري لأي سباق تسليح هو التنافس المترقب على طريقة تكوين النظام الدولي . وبالمثل ، فإن التحالفات قد توجد بين دول متقاربة سياسيا أو ثقافيا ، وبمقدورها أن تعزز التزاماتهما المتبادلة . غير أن أساس هذه الالتزامات هو الحاجة للحماية التي تنبعث من الطابع القوضوي للسياسة الدولية . فبغير وجود صداقة بين الحليفين سيكون التحالف أكثر هشاشة من حالته عندما يكون قائما على التقارب بينهما ، وعندما لا يوجد عدو مشترك ، يصبح التحالف غير ذي موضوع . إن الائتلافيين اللذين تصارعوا من أجل السيطرة على صقلية « قد التئم شملهما ليس بحكم أي مبدأ أخلاقي ، أو صلة عنصرية » ، ولكن هذا الموقف يرجع بالأحرى إلى أسباب شتى تعزى إلى المصلحة « أو الاضطرار » هكذا كتب المؤرخ اليوناني توسيديدس .

فما هو دور الأسلحة النووية في التحالفات ؟ لأول وهلة يبدو أن مرحلة التاريخ الدولي التي بدأت بنهاية الحرب العالمية الثانية تمثل عصرا عظيما قائما على التحالف . فهناك عدد كبير من الدول صاحبة السيادة مثلما كان الحال في أي وقت مضى تكاد تشارك جميعا في نطاق رحيب من الأنشطة الدبلوماسية - كتبادل الزيارات الودية بين رؤساء الدول والتصريحات الودودة المعبرة عن الصداقة والوثائق الرسمية التي تحمل تعهدا من الموقعين عليها بتقديم شتى صنوف التعاون . وبطبيعة الحال لم يزد عدد الدول ذات السيادة المائة والاثنتين والخمسين التي تملك أسلحة نووية من بينها عن دولتين اثنتين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) . ولكن هاتين الدولتين تمسكان بزمام « فرملة » شبكة من الروابط التي تربطهما بالبلدان الأخرى ، وأكثر هذه الارتباطات التزامات أمنية . ومع هذا فمن بين هذه الارتباطات العديدة ، لا يصح أن يوصف بالتحالف النووي بمعناه الصحيح غير تحالفين : التحالف الأول ومثله الارتباط بين أمريكا واليابان ، والذي نصت عليه معاهدة الأمن ١٩٥٠ والتحالف الثاني هو معاهدة منظمة شمال الأطلسي ، التي تربط بين الولايات المتحدة ودول غرب أوروبا وجنوبها .

وأثبتت الارتباطات الأمريكية النووية الأخرى أنها أوهن من هذين التحالفين . فإبان خمسينات هذا القرن ، وقعت الولايات المتحدة معاهدات صداقة بينها وبين بلدان في جنوب آسيا وجنوبها الشرقي ، وفي الشرق الأوسط أيضا . ولم تلزم معاهدة «دول جنوب شرق آسيا» (*) أو معاهدة

٤ منظمة القوى الوسطى : (١٠) الولايات المتحدة بالتفاهع عن الموقعين على المعاهدة بصفة الكينة ، مثلما حلت في حالة الناتو ومعاهدة الأمن اليابانية . ولعل هذه المعاهدات الأقل التزاما لم تكن الى حد بعيد تعهدات بالمشاركة جنبا الى جنب في الحرب بقدر كونها محاولات قامت بها الولايات المتحدة لكسب التفود ثمتا للمساعدة التي غالبا ما تكون مساعدة عسكرية شبيهة نوعا بما كانت تفعله بريطانيا عندما كانت ترسل غوتا ماليا وليس جنودا للقوى الاوربية المتقاتلة في القرن الثامن عشر . ولم تخلم المساعدة العسكرية الامريكية دائما غايتها ومقاصدها . فلقد ارسلت امريكا دبابات وطائرات للباكستان باعتبارها عضوا في « مياتو » لموازنة القوى بينها وبين القوة العسكرية لجمهورية الصين الشعبية . ولكن باكستان استعملت هذه المساعدات ضد الهند التي كانت الولايات المتحدة تحرص - في ذات الوقت - على ودها ، وتزودها أيضا بمعونة سخية من الاسلحة الامريكية .

وفيما يتعلق بحلف وارسو ، فان منظمة العمل العسكري المشترك ، التي تضم الاتحاد السوفيتي وحكومات الدول الشيوعية في اوربا الشرقية لا يصح ان توصف بأنها تحالف بالمعنى الصحيح ، بمعنى انه ارتباط ظاهري ، لان عضوية ليست اختيارية . فالقوات السوفيتية ترابط في اوربا الشرقية ليس فقط لحماية هذه البلدان من الغرب في اغلب الظن ، او حتى اساسا ، وانما للاطمئنان الى بقاء الاحزاب الشيوعية الحاكمة في السلطة . فالعلاقة بين الاتحاد السوفيتي والموقعين الآخرين على حلف وارسو اقل تشابها مع أي تحالف كذلك التحالفات التي كونتها « المدن » الدول ، اليونانية قبيل الحرب البلتوبونيزية ، ولعلها اقرب الى نظام حكم غير مباشر من قبيل النظام الذي اتبعته بريطانيا في السيطرة على اجزاء من اسيا وافريقيا في اواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . ووقع الحكام الوطنيون في فتح الاعتراف بسيادتهم وبعض الامتيازات الفعلية المتصلة بهذه السيادة ، وان كانت السلطة في نهاية الامر قد ظلت في يد البريطانيين الذين كان بمقدورهم دوما ارغام الحاكم المحلي على الاستجابة لرغباتهم .

فيما معنى اذن تعد « الناتو » تحالفا نوويا ؟ ، وكيف ساعدت الاسلحة النووية على صيغة بصبغة مختلفة عن احواف ما قبل ١٩٤٥ ؟ . انها تحالف دفاعي سلمي استمر وضاء ثلاثين سنة : أي مدة من الزمن اطول من معظم احواف الماضي ؟ ففي القرن الثامن عشر مثلا ، كانت الدول تتحالف من اجل القتال ، وليس لمنع الحروب . وكانت الاحواف متسائل

عابرة تعقد معاهداتها عند اعتاب الحرب ، وتنتهى - عادة - بمجرد انتهاء القتال ، وكثيراً ما كانت تعقد سراً .

ويرجع السبب الأساسى للاختلافات بين أحلاف ما قبل الثورة الفرنسية وأحلاف ما بعد هيروشيما الى تغير طبيعة الحرب ، فمنذ مائتى سنة ، كانت الحرب أمراً عادياً مألوفاً فى السياسة الدولية ، ومواصلة للسياسة باتباع وسيلة مختلفة - وإن لم تكن مختلفة درامياً - ومنذ ١٩٤٥ ، تغيرت النظرة للحرب ، وأصبح ينظر إليها على أنها شىء شاذ فظيع ، بل وينجب أن لا يخطر ببال أحد .

إن هذا التبدل الذى حدث فى صورة أقرب الى الطفرة ، فى طابع الحرب ، انحدر - بطبيعة الحال - من التزايد الدرامى للقوة العسكرية المتاحة للدول منذ القرن الثامن عشر . فبعد أن غدا القتال أكثر اهلاكا ، ازداد اهتمام الدول بمنع الحروب ، وقل اهتمامها بالاقتيال فيها ، وتجاوب هدف تجنب الحرب على الفور هو والأحلاف السلمية الصورية ، أكثر من تجاوبه هو والترتيبات السرية الأقرب الى العفوية فى القرن الثامن عشر . ففى نظر الدولة التى تحرص على الدفاع عن نفسها فحسب ، ولا تفكر فى مهاجمة الآخرين ، أو لا ترغب فى دخول حرب على الإطلاق ، من المقيد لها أن تظهر بمظهر الدولة القوية قبل نشوب الحرب ، مثلما يقتلها أن تكون قوية بعدها .

ولقد تزايدت القوى المظهرية لخدمة الأغراض العسكرية لمدة قرنين أو يزيد ، وبعد كبح جماح استخدام الطاقة النووية لأغراض الحرب علامة طريق فى منعطف التوسع الحاد البعيد المدى ، مما يجيز تسميته بالثورة ، ولكنها كانت الثورة الثالثة وليست الثورة الأولى بين الثورات العسكرية فى العصور الحديثة ، ومن الناحية المنطقية ، كان المفروض أن تساعد غايات التحالف فى الثورتين الأولىين : الثورة النابليونية والثورة الميكانيكية ، على ابعاد التحالفات من الغايات القتالية ، الى غايات ردع الحرب ، وهذا رأى صحيح تاريخياً .

وكانت الأحلاف بين القوى الكبرى فى أوروبا فى القرن التاسع عشر تقوم زمناً أطول ، وأكثر جنوحاً الى الاستقرار من الحال قبل ١٧٨٩ . وبطبيعة الحال ، كانت اتفاقية الحلف الأوروبى (*) تسعى لتنظيم المسائل الدولية عن طريق سلسلة من الالتزامات الثنائية لتحقيق الأمن . ولم يكن الغرض منها التحيلولة دون وقوع الحرب ، وإنما فرض الاستقرار الداخلى

في القارة الأوروبية . وكانت اتفاقية التفاهم الثلاثي (*) والتحالف الثلاثي والأحلاف العسكرية بين الدول المشتركة في الحرب ١٩١٤ ، مرتبطة بعضها ببعض أكثر من الأحلاف السالفة ، وإن كنا لا نصادف بينها أية اتفاقية اتصفت بتكاملها الوثيق ، أو بطابعها الدفاعي ، على نحو ما ظهر في اتفاقية الناتو . وبعد ١٩١٨ ، انضم الانجليز للفرنسيين صراحة في محاولة لفرض التسوية . وكان الغرض الذي تسعى لتحقيقه مائلا للغرض من الناتو ، يعنى ردع ألمانيا أكثر من النزوع لردع الاتحاد السوفيتي ، وساعدت الأسلحة النووية على طبع « الناتو » بطابع الحلف الدفاعي السلمي . وعندما أقدموا على هذه الخطوة ، فإنهم ساعدوا على مواصلة اتجاه كان يتهدى للظهور منذ عهد الثورة الفرنسية ، وشاركت في تحقيقه أيضا الخطوات الثورية التقدمية في النواحي العسكرية .

ومن الصفات التي عرفت عن الناتو أنه حلف المخاصمات . فكثيرا ما تستنفذ جلساته في إثارة الأزمات والمشاورات والمساومات خلف الجدران . والخلاف بين الحلفاء من ملامح جميع الأحلاف . ويرجع ذلك الى أن الأحلاف علاقات محدودة ، ويتفق الشركاء عادة على أمر مهم واحد ، يعنى تحديد من هم أعدائهم وأخطارهم ، ولكنهم لا يتفقون على كل المسائل ، ومن هنا يحدث شد وجذب ، أو يتبادل الحلفاء التهديدات والمهاترات - بلغة السياسة - وكأنهم أعداء ، مثلما يحدث في حالة الحكومة الائتلافية التي تضم أكثر من حزب سياسي في الأنظمة السياسية النيابية . ولقد اختلفت درجة تماسك الحلفاء تبعا لمدى خطورة التهديد الموجه ، والتماثل بين الحلفاء ، ومدى ما يربط بينهم من مصالح مشتركة . على أنه لا وجود لحلف استطاع استبعاد الخلافات تماما . « فكل حلف يساعد على التدرب على تبادل الاتهامات » على حد قول ونستون تشرشل .

وربما صبح القول بأن الحلفاء على استعداد للتشاجر على أي شيء . بيد أن أخطر مصادر الاحتكاك وأكثرها جوهرية وشيوعا تتركز على مايعتبر صميم أي حلف ، يعنى التزام الدولة بالقتال من أجل حليفها . إذ يترتب على هذا الالتزام خطران : فلكل شريك في الحلف مبرران محتملان . للخوف - المبرر الأول - عدم فاعلية الحلف ، واحتمال التخلي عنه ساعة الحاجة . والمبرر الآخر - احتمال أن يؤدي الحلف دوره على خير وجه . وينتهي الأمر بالوقوع في أحبولة حرب من غير المرغوب الخوض فيها .

* The Triple Entente.

ولقد كان توميسديس سابقا في تحدته عن هذين الخوفين .
 فعندما سمعت كوركيرا (*) للتحالف هي وأثينا ، حذر الاثينيين من
 الكورينثيين أعداء كوركيرا من مغبة قبول الكوركيين كحلفاء ، لأن هذا
 الحلف سيؤدي الى الوقوع في فخ : « انكم سترغموننا على الاشتراك
 معكم في المسئولية ، رغم انكم لم تشاركوا بأى دور في اساءاتهم » .
 وكان هذا ما حدث بالضبط ! اذ حاول الاثينيون تقييد التزامهم نحو
 كوركيرا ، ولكنهم ألفوا أنفسهم قد دفعوا للقتال مع كورينثيا ، وفيما بعد ،
 عندما ثار الجدل حول الحكمة من غزو صقلية اعترض القائد الاثيني
 نيسياس على نفس هذا الخطر : « عليكم أن تعرفوا أهل ايجه - بوجه
 خاص بمجرد شروعاتهم في الحرب ضد السلينتيين (**) دون استشارة
 أثينا ، أنهم سيكونون مسئولين بعد ذلك عن الاتفاق على السلام » ، وأردف
 قائلا : « وفي المستقبل ، فأننا لن نعقد أى محادثات - مثلما فعلنا في
 الماضى - مع هذه النوعية من البشر الذين ينتظرون مساعدتنا عندما تحل
 بهم أية مصيبة ، ولكنهم لا يفعلون شيئا عندما نحتاج الى مساعدتهم » .
 ويعرض نشوب الحرب العالمية الأولى مثلا أحدث لخطر الوقوع في أحبولة
 التحالف ، عندما زج ببريطانيا وألمانيا وروسيا وفرنسا للحرب من أثر
 مشاجرات بدأها حلفاؤهم الأقل وزنا .

واذا كان الوقوع في الفخ درساً من الدروس الأليمة للحرب العالمية
 الأولى في القرن العشرين ، فإن التخلي عن الحلفاء يمثل جانبا من تاريخ
 بداية الحرب العالمية الثانية . فلقد خذلت بريطانيا وفرنسا حليفتهما
 الأولى تشيكوسلوفاكيا ، وتركناها تتعرض للتقسيم والتهام ألمانيا لجميع
 أراضيها . وبالمثل في القرن الخامس ق . م في اليونان ، يروى لنا
 توميسديس أن الكورنثيين التمسوا من الاسبرطيين الوفاء بالتزاماتهم
 والوقوف الى جانبهم ضد أثينا : « لقد أضرت سلبيتكم بنا ضررا بالغا ،
 وعليكم أن تقدموا لحلفائكم - وبخاصة بوتيديا - المساعدة التى وعدتم
 بها ، واعملوا على غزو أثينا على الفور ، ولا تتركوا أصدقاءكم وأقاربكم
 يتساقطون فى أيدي الأعداء اللدودين » .

وتكمن المخاوف الدائمة من تخلى الحلفاء ، واحتمالات التعرض
 للوقوع في الشراك ، فى صميم سياسة الناتو ، وبخاصة خلال الستينيات .
 وساعدت حقيقة اشتراك دول تملك القوة النووية ضمن الناتو ، وتجمع

(*) Corcyra (جزيرة كورفو حاليا) من أهم الجزر الأيونية فى عهد

الاغريق .

(**) Selinuntines نسبة الى مدينة Selinu: فى الشاطئ الجنوبى
 الغربى لجزيرة صقلية اشتهرت بجمالها الطبيعى .

بين القدرة على نشر الأسلحة النووية والتعرض لخطرها على صيغ المخاوف بصيغة المشكلة الملحة . فالحرب النووية مكلفة للغاية ، مما جعل التخلي عن الحلفاء شديداً الاغراء ، لو عني ذلك تجنب التعرض لهذه الحرب ، والوقوع في فخها خطر قطيع ، وبخاصة اذا انحرف وتحول الى صراع نووي . والى جانب التهويل من أخطارها ، فقد أثرت المخاوف الدائمة للطابع النووي لهذا التحالف على نحوين آخرين : الأول - انها قد خضعت لقيود المجادلات حول مبدأ استعمال الأسلحة النووية ونشرها والسيطرة عليها ، والثاني - انبعث من توزيع قوة النيران النووية داخل التحالف . فمن الناحية النظرية ، يتوجب على كل حليف أن يخشى التخلي عن استعمال السلاح النووي ، والتورط في استعماله معا . فلما كانت الترسانة النووية للنااتو برمتها تقريباً تحت سيطرة الأمريكان ، لذا لوحظت بعض علامات الخوف في جانب من الأطلسي ، ولم تلحظ في الجانب الآخر . وكان الخوف من التخلي من نصيب الأوروبيين الذين تركز قلقهم على احتمال حدوثه ، أما التورط فيمثل سر اهتمام الأمريكان الى حد كبير .

من هذا يتضح وجود مؤثر آخر من مؤثرات الأسلحة النووية يمكن ملاحظته في سياسة التحالف الغربي في الستينيات . ولقد نجحت المشاحنات حول الاستراتيجية النووية من مخاوف الأوروبيين من احتمال عدم فاعلية الترتيبات العسكرية السياسية التي يعتمدون عليها لسلامتهم عندها يحين وقت الجهد ، ونجحت أيضاً من قلق الأمريكان من احتمال تصرف الحلفاء على غير وجهه ، وإنما بغير حكمة .

التحالف الهش

استهلّت الناتو عملها ١٩٤٩ كميثاق للأمن ، وقدمت الولايات المتحدة ضمانات لأوروبا الغربية تشتمل على التعهد بالدفاع عن هذه البلدان لو اقتضت الضرورة ، وكان هذا اجراء طبيعياً . فأمريكا تتمتع بالقوة ، وأوروبا كانت تمر بمرحلة نقاشة بعد تعرضها للهلاك ابان فترة الحرب ومعاناتها من الوهن . وظهر الاتحاد السوفيتي بمظهر القوة المهددة للسلام ، وبخاصة في أعقاب حصار برلين ١٩٤٨ . وكانت الولايات المتحدة قد أقدمت على نجدة بريطانيا وفرنسا مرتين ابان القرن العشرين . فعلنا نذكر أن الحربين العالميتين قد بدأتا أثناء التزام أمريكا بسياسة العزلة ، واحتجج الى ثلاث سنوات في الحرب العالمية الأولى ، والى سنتين في الحرب العالمية الثانية لوصول المساعدة الأمريكية . ولو شبت حرب عالمية ثالثة فان الأوروبيين لن ينعموا بترف القدرة على الانتظار لردع السوفيت ، وساعد على الاطمئنان الى مصداقية وعد الأمريكان امتلاكهم للترسانة

النووية - فلو اعتدى الاتحاد السوفيتى على أوروبا الغربية - ستورد الولايات المتحدة بالمثل ، بتدميرها بالأسلحة النووية - وسياد الاعتقاد باتصاف المشروع بقدر كبير من العنف والجهامة ، واحتمال أن يوقف السوفيت عند حدهم .

واستمر الأوروبيون يشعرون بالقلق وعدم الاطمئنان الى امكان الاعتماد على الاتحاد السوفيتى فى حمايتهم ، وخشوا أن لا تحول جميع الوعود الوقورة الصادرة من الجانب الآخر من الأطلسى دون تخلى الأمريكان عنهم ساعة الحاجة ، التى يحتمل أن تكون قد بلغت ذروتها خلال الحرب الكورية ، عندما خشى البريطانيون - بوجه خاص - من تحول الصراع الى صراع نووى . غير أن هذا الاحتمال لم يحدث . وعندما أرسلت الولايات المتحدة بضع مئات الآلاف للقتال فى الحرب الأهلية الدائرة فى الهند الصينية ، اعتقد قلائل من الأوروبيين فى احتمال اقحامهم فيها . وبدأ أن الحرب النووية العامة - التى تعذر على الأوروبيين تصور امكان تجنب عواقبها - من المحتمل أن تبدأ لا من كوريا أو فيتنام ، وإنما من أوروبا ، تأثرا بمشكلة مثل مشكلة برلين . وانتاب الأوروبيون القلق بعد ذلك لا من احتمال تورطهم فى آسيا ، وإنما من الأحداث الجارية فى أوروبا ، وقد صعد (بتضعيف العين) جورج واشنطنون فى خطبة وداعه هذه الفكرة التى غدت تقليدا سياسيا أمريكيا ، وتحولت الى مبدأ من المبادئ الأساسية للدولة الأمريكية . نعم لقد أصبح المحيط الإطلسى حاجزا مريعا بين الإحامي والمحصى حتى فى عصر النفاثات .

ومن ثم فبوسعنا القول بأن تاريخ الناتو منذ بدايته كان تاريخ المحاولات الأمريكية لإعادة طمأنة الأوروبيين ، وتهذئة مخاوفهم من احتمال التخلي عنهم . وكانت إحدى وسائل طمأنتهم هى تصريح الولايات علنا استعدادها لتقديم هذه الحماية ، وهذا ما فعله كبار المسئولين فى الحكومة الأمريكية مرارا وتكرارا ، فقد صرح جون كيندى ١٩٦٠ : « أنا من أهل برلين (*) » . ولعل هذا القول هو أشهر التصريحات الأمريكية المهداة الى التحالف ، وإن جاز القول انه لم يكن التصريح الوحيد . وكانت العلامة الأخرى لإعادة الطمأنة هى مرابطة حامية من القوات الأمريكية فى أوروبا . وأعتقد أن قيمتها لا ترجع الى كفاءتها القتالية فحسب ، وإنما الى تعبيرها الرمزى عن النوايا الأمريكية التى تمثلها ، وكأنها مثلت دور « الرهينة » لاثبات استعداد الأمريكان للوفاء بالتزاماتهم ، فلو اعتدى السوفيت على أوروبا ، ستبادر الولايات المتحدة بكل ما تملك من مال وعتاد وقوة لنجدة

“Ich bin ein Berliner”

(*)

جنودها ، ونجدة الأوربيين بالتبعية ، أو على أقل تقدير - ومن المنظور الأوربي ، فإن وجود القوات الأمريكية سيبتيح الفرصة التي تمكن الولايات المتحدة من الاقدام على صد الاعتداء السوفيتي . ومن ثم بدت القوات الأمريكية - والناتو في جملته - بحق في نظر الأوربيين كأنها قد وضعت في المكان كسقاطة الأمان (*) بالنسبة للقوة الحربية المؤثرة الحقة للحلفاء يعني الترسانة النووية .

غير أن جميع هذه التعابير عن حسن النوايا لم تكف لتهدئة المخاوف بعد التطورات التي حدثت في العقد الثاني من العصر النووي (بعد ١٩٤٥) . واشتملت هذه التطورات على امتداء الاتحاد السوفيتي الى وسيلة لشن الهجوم النووي على القوات الأوربية الأمريكية .

واستندت مصداقية ترتيبات الردع العسكرية للناتو في العقد الأول من وجود التحالف على عدم تطابق وضعي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . فالولايات المتحدة قادرة على شن هجمات نووية ضد المدن السوفيتية والمنشآت العسكرية من قواعد أوربا الغربية . وليس لدى الاتحاد السوفيتي وسيلة لبلوغ الولايات المتحدة ، وتبدل هذا الوضع بحلول نهاية القرن ، وأدى هذا التغير الى الارتباب في امكان الاعتماد على الالتزام الأمريكي بحماية أوربا . فبالرغم من أن الولايات المتحدة في مأمن من ثار السوفيت ، الا أن مقدار تعرض الولايات المتحدة للخطر سيكون ضئيلا نسبيا اذا هددت الاتحاد السوفيتي حتى باستعمال الأسلحة النووية . على أنه عندما أصبح السوفيت قادرين على التهديد باستعمال القنبلة ضد المدن الأمريكية بدأ وكأن التهديد الأمريكي لم يعد يزيد عن كلام أجوف ، ففي حالة حدوث أي هجوم سوفيتي على أوربا الغربية هل سيرخص الزعماء الأمريكيان حقا باستعمال القوة النووية ضد الاتحاد السوفيتي ، مع علمهم ما ستتعرض له الولايات المتحدة من دمار لو حدث ذلك ؟ وهل يرضى الأمريكيان حقا بتعرض مدنها للخطر في سبيل حماية أوربا ؟ لم يكن من اليسير تصديق ذلك . وشعر الأمريكيان والأوربيون بالدهشة من احتمال تصديق السوفيت ذلك .

وساعد نجاح السوفيت في ابتكار قوة ضاربة عابرة للقارات على خلق حاجز ، رغم كونه ميكولوجيا في طابعه ، الا أنه كان أكثر قهرا من المحيط الأطلسي الذي يفصل أمريكا الشمالية عن أوربا الغربية . وبدأ كأنه استطاع القضاء على احتمال انقاذ أمريكا لأوربا المحاصرة ، مثلما حدث بصفة مؤكدة عندما أدت إعادة الاحتلال العسكري الألماني للراين ١٩٤٦

الى سد الطريق بين فرنسا وحلفائها في أوروبا الشرقية (أعضاء دول التحالف الصغير) واعتقد على نطاق واسع أن القوات غير الثورية للاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية الأخرى لأوروبا الشرقية أعظم تفوقا من قوات الناتو . وهكذا سيؤدي اقتحام السوفيت للجبهة الوسطى من أوروبا الى مواجهة قوات الناتو . وبخاصة الولايات المتحدة - بالخيار بين الاذلال أو التعرض للهلاك . فاما أن تقبل الهزيمة دون استعمال قوة نووية ، أو تضطر الى استعمال الأسلحة النووية ، وتعرض لخطر الدمار المهلك عند الرد عليها .

وتوافق تطوير القوة الضاربة النووية العابرة للقارات هو وازالة الجانب الأكبر من الترسانة الأمريكية النووية من أوروبا ، وما ترتب على ذلك من ضعف ثقة الأوروبيين في شدة الردع وجلوها ، وفي الخمسينيات ، لم يكن بإمكان غير الطائرات والمقنوفات متوسطة المدى الأمريكية المثبتة في مواقع داخل حدود البلدان الأوروبية المشتركة في الناتو الوصول الى المدن السوفيتية . غير أن الستينيات شهدت ظهور سلاحين بالاستطاعة وضعها خارج القارة ، فقد أصبح بمقدور المقنوف منوتمان (*) الوصول الى أهداف تقع بين مدينتي مينسك (في روسيا البيضاء) وفلاديفوستك شرقي سيبيريا في بحر دقائق من قذفها من وسط الولايات المتحدة . وترابطت القوات حاملة السلاح النووي بولاريس في البحر في معظم الوقت ، ولا تحتاج الى أي أرض للرسم عليها . ووعد الأمريكان بإمكان الاستعانة عند الحاجة بهذه الأسلحة في حالة وقوع أي اعتداء على أوروبا . غير أن المنوتمان والبولاريس قد تكونان بعيدتين عن أوروبا عندما يحدث الاعتداء السوفيتي . وعزز هذا الابتعاد عن ميدان المعركة شكوك الأوروبيين في إمكان الاطمئنان الى وصولهما .

وأصبح من الميسور التنبؤ على خير وجه بقدرة السوفيت على إلحاق دمار نووي بالولايات المتحدة قبل وقوعه . فعلى نهاية ١٩٥٧ ، بدا وكان هذه القدرة قد غدت قائمة ، بعد أن أجرى الاتحاد السوفيتي اختبار المقنوف « باليستى » عابر القارات (**) في أغسطس من تلك السنة ، ثم أطلق أول قمر اصطناعي للدوران حول الأرض (سبوتنيك في أكتوبر) . وعلى حين غرة ، ظهر الاتحاد السوفيتي بمظهر المسيطر على الفضاء ، مما سيساعده على قذف الولايات المتحدة ، بيد أنه كانت هناك فسحة من الزمان بين اللحظة التي بدا فيها واضحا أن الولايات المتحدة قد أصبحت

Minuteman.

(*)

I. C. B. M.

(**)

معرضة للخطر السوفيتي ، وبين المحاولات الجادة التي بذلت لاحكام التدابير العسكرية للنااتو للتغلب على خطر هذا التعرض ، ووقعت هذه المهمة على عاتق ادارة كيندى التى تولت السلطة ١٩٦١ ، وعكفت على حماية النااتو من عواقب امتداد خطر القوة الضاربة السوفيتية .

وكان الحل الذى ارتأته ادارة كيندى لهذه المشكلة هو تحويل النااتو من مجرد سقطة امان الى قوة ضاربة مؤثرة ، بتزويده القوات غير النووية بمعدات تساعد على صد الهجوم السوفيتي ، وبذلك سيتمكن التحالف من تجنب الاختيار بين الازلال والهلاك فى أى قتال غير نووى ، ولم تكن الفكرة جديدة ١٩٦١ . وكل ما هناك هو أنها أعادت للذاكرة التوقع الذى ما زال لم يواجه ، والفى تصوره بعض الأمريكين عن مهمة النااتو غداة انشائه ، وكان الاخفاق فى الحصول على قوى قوية غير نووية يكلف القليل فى بدايات الخمسينيات لوجود بديل للقوى غير النووية مكافئ للقوى الخاصة بالاتحاد السوفيتي ، يعنى الترسانة النووية الأمريكية ، ولكن حدث سنة ١٩٦١ ، أن استطاعت كل من القوى الضاربة للاتحاد السوفيتي والأمريكية الغاء كل منهما للأخرى ، وأصبحت الميزة الحاسمة ميسورة - كما يبدو للطرف الأفضل تجهيزا لأى حرب غير نووية . وأطلق على فكرة الاعداد لحدوث تشابك بين الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو فى مستوى من العنف أدنى من مستوى الحافة النووية اسم سياسة « الرد المرن » (*) .

وعارض هذه السياسة الأوروبيون ، وانبغشت اعتراضاتهم - جزئيا - من اعتبارات سياسية داخلية . اذ كانوا لا يرغبون فرض أية ضرائب جديدة ، أو زيادة المجندين فى القوات المسلحة . غير أن اعتراضهم الأساسى انصب على منطق السياسة ذاته ، « فالرد المرن » يجر فى ذيله - ضمنا - الاستعداد للقتال فى حرب غير نووية فى أوروبا ، ولكن الأوروبيين لا يرغبون الاشتراك فى القتال فى أى حرب أيا كان نوعها ، بعد أن قاسوا الأمرين من ويلات الحرب العالمية الثانية ما يكفيهم . بالإضافة الى ذلك ، فبعد ١٩٤٥ ، استمرت سرعة تزايد القوة غير النووية ، وجنحت الثورة النووية الى حجبها . ولكن الثورة الميكانيكية فى العمليات الحربية بعد الحرب العالمية الثانية وضعت تحت امرة الحكومات مزيدا من القوة العسكرية ، تجاوزت بكثير ما كان لديها من قبل ، بصرف النظر عما حدث من تطور فى المقنونات فى طريقة الاشعال والانشطار . وكان هتلر عندما غزا بجيوشه الاتحاد السوفيتي قد اعتمد اعتمادا كبيرا

على نفس وسائل النقل التي استعملها نابليون عند زحفه الى موسكو ،
يعنى استعان بالخيول والبغال . واليوم لم يعد هناك خيول أو بغال في
الجبهة الوسطى من أوروبا . فإذا قلنا ان انتشار الثورة النووية في الحرب
وتعرف السوفييت على أسرارها قد جعل سياسة « الرد المرن » تبدو ضرورية
للولايات المتحدة ، فان امتداد الثورة الميكانيكية أو ثورة النقل الميكانيكي
ووصولها الى القارة الأوروبية قد جعلها تبدو خطيرة في نظر الأوروبيين .

وليس من شك في احتمال تسليح الأوروبيين بأسلحة أقدر على
الحسم ، اذا لم يتيسر وجود أى شكل آخر من أشكال الحماية . غير أن
هناك بديلا للاستعداد للقتال في الحرب غير النووية كوسيلة لحماية
أوروبا . انها التهديد بشن حرب نووية . وخشى الأوروبيون أن يؤدي اتباع
سياسة « الرد المرن » الى قطع الطريق أمام هذا التهديد ، فلقد رسمت
سياسة « الرد المرن » لتزويد الناتو بوسيلة لشن حرب في أوروبا لا يحتمل
أن تتحول بصفة مباشرة الى حرب نووية . وسعى الأوروبيون لتهذيب
الانطباع بأن التصاعد السريع نحو المستوى النووي قد يتبع أى اعتداء
سوفييتي ، بعد أن اعتقدوا أن هذا الانطباع هو الذى ردع الاتحاد
السوفييتي ، وخشى الأوروبيون أن يؤدي اتباع « الرد المرن » الى تعريض
مصيرهم لأسوأ جميع الاحتمالات الممكنة . فبغير ضمان نووى أمريكى
راسخ ، سيصاب الردع بالوهن الى حد اغراء السوفييت بالهجوم . ومن
المتوقع أن تتصف بالدمار والوحشية مثل هذه الحرب ، حتى اذا خلت
من أى تبادل للقذائف النووى ، وحتى اذا ساندت الولايات المتحدة الأوروبيين
مساندة كاملة .

نعم إن ما كان الأوروبيون يخشونه في بواكير الستينيات لم يكن على
وجه الدقة « تخلى الولايات المتحدة » ، بعد أن أعربت عن استعدادها الاسهام
في النهوض بقوى الناتو غير النووية . والأرجح هو أنهم خشوا من عدم
استعداد قدرة الترسانة النووية الأمريكية على المساعدة النووية للدفاع
عن أوروبا الغربية ، وابتكر مصطلح عسكري (*) للدلالة على هذه المخاوف .
ويدل هذا المصطلح على الانفصال بين الأسلحة النووية والأسلحة التقليدية ،
سعيًا وراء تقسيم مسرح الحرب والفصل بين أمريكا الشمالية وأوروبا .
وهذا ما كان موضع ارتياب الأوروبيين ومخاوفهم من وقوعه .

واذا كان الأوروبيون قد خشوا من مغبة اتباع « الرد المرن » ،
واحتمال إلحاقه بالضعف بعملية الردع ، فان الأمريكيين اعتقدوا أن

(*) "decoupling" لم أوفق في اكتشاف مرادف عربي له فاكثفت بشرحه في

السياق .

« الرد المرن » وحده كقيل بتوكيد الوثوق في الردع ، ورأوا أن الاستعداد للقتال في حرب من نوع محدد ، يمكن التعرف اليه ، سيساعد الناتو على ردعه . فاذا اقتنع السوفييت بعدم قدرتهم على كسب أى حرب غير نووية ، فإنه من غير المحتمل أن يشنوها . أما اذا وثقوا في احتمال نجاحهم في المستوى غير النووي ، فلا يستبعد حينذاك أن يقامروا على عدم تجرؤ الناتو على اتخاذ موقفه بالالتجاء الى الوسائل النووية .

ولا يعنى عدم استساعة الأوربيين « للرد المرن » أنهم كانوا يؤثرون تخفيض قوى الناتو غير النووية التي كانت تحتل مواقعها بالفعل ١٩٦١ ، واستند تقديرهم الى أن يكون هذا الاجراء بمثابة اشارة أو تلميح بنية الأمريكان تخفيف التزامهم بعودهم نحو أوروبا . ومن ثم آثروا الاكتفاء بنشر القوات ، أى ما كان جاريا بالفعل في الناتو .

وتسبب الاختلاف حول « الرد المرن » في خلق طريق مسدود . اذ بدا أن تزايد القوة النووية لدى السوفييت مؤشر باحتمال تحطيم ترتيبات حماية أوروبا عن طريق ردع الاعتداء السوفيتي ، وكانت هذه الترتيبات قد اتخذت في بواكير الخمسينيات . ولم يبد ما قدمه الأمريكان كدفوع لتأييد فكرة الردع المرن مقبولا للأوربيين ، بيد أن أحد الأوربيين قدم حلا مختلفا للمشكلة .

التحالف المتشابك

والأوربي المقصود بالاشارة هو شارل ديغول . اذ جاء رده على تزايد القوة النووية الضاربة السوفيتية بعيدة المدى ، والآخر الذي اعتقد على نطاق واسع أنه سيترتب على ذلك على فاعلية سياسة الردع للناتو في الستينيات ، جاء رده بدعوة أعضاء التحالف الأوربي الى انشاء ترسانة نووية خاصة بهم .

ويتصور الأمريكيون ديغول كأنه يمثل في دراما سياسة الناتو دور الشرير أو « الفيلان » . وجنحوا الى تصوره شخصية متعجرفة مضللة (بفتح اللام الأولى) يسعى للتضحية بوحدة التحالف في سبيل حلمه بالعظمة الفرنسية متأثرا من تعرض فرنسا للاذلال في الحرب العالمية الثانية . وهذا أمر مفهوم . ونسى ديغول أن هذه الحرب ، وما جرت في ذيلها قد جعل تحقيق هذه العظمة في غير متناول فرنسا الى أبد الآبدين . ويكن ديغول شعورا عميقا بعلم الثقة بالانجلو سكسون - يقصد الأمريكان والبريطانيين - غير أن متاعبه هو الولايات المتحدة

لا يبدو أنها قد انبعثت من الشعور بالتنافر بينه وبين عدد من المواجهين له على الجانب المقابل من الأطلسي . كما أنها لم تنبعث من اساءة فهم لتطلعات البلدين أو لاسلوب العمل في النظامين السياسيين ، وان كانت اساءات الفهم كانت قائمة يقينا ، وعلى العكس ، فقد كان سر وخز ديجول للحكومة الأمريكية هو اشتراكه معها في الرأي في اهتزاز الردع في أوروبا مما دفعه الى استخلاص نتائج مغايرة . فقلد كان ديجول ، كما يجب أن لا ننسى ، هو الذى أوضح منطق الاعتماد على الأسلحة النووية للأعضاء الأوروبيين فى الناتو . وهذا ما سبب علم الارتياح عند الأمريكان ، مثلما حدث الأوروبيين فى رد فعلهم تجاه مبدأ « الرد المرن » .

وقبل ديجول المبررات التى استند اليها مبدأ الرد المرن ، وأقر ما يقال عن أن مصداقية التهديد التى يعتمد عليها أمن أوروبا فى حاجة الى تعزيز . وذهب فى شكوكه الى ما هو أبعد ، فارتاب فى قيمة جميع الأحلاف الشكلية . ورأى أن « التخلي » أمر طبيعى ، لأن الأحلاف أشبه بالزيجات التقليدية ، كما اعتقد . فإذا فقدت قيمتها التقليدية ، فلن يستطيع الاعتماد على أى حليف للوفاء بالتزاماتها ، بصرف النظر عما يظهر عليها من مهابة عند النهوض بها . فالدول فى نظر ديجول لا تعترف بغير مصلحتها ، ومصلحتها فقط لا غير . فإذا نابض صالح الدولة « أ » ، تقديم العون للدولة « ب » ، فإن « أ » ستقدم للمساعدة سواء قدمت وعدا شكليا أم لم تقدم . وإذا لم يناسبها ذلك ، فإن دفعة الارتباطات لن تتسم بالقوة الكافية للتغلب على دفعة الصالح الذاتى فى الاتجاه الآخر .

ويصح هذا البرأى يقينا عن حكم ديجول على الناتو . ففي أعقاب تعرض أمريكا الشمالية لاعتداء نووى من السوفييت ، سيثار السؤال حول هل يرضى زعماء أمريكا تعريض نيويورك للخطر فى سبيل حماية باريس . ولم يساور ديجول أى شك بأنهم لن يفعلوا ذلك . كما أنه فى غير الاستطاعة الوثوق فى الاعتماد على رد الاتحاد السوفيتى على هذا السؤال بالإيجاب . غير أنه اذا لم تستعمل الولايات المتحدة الأسلحة النووية للدفاع عن أوروبا ، فإن الأوروبيين سيستعملونها يقينا ، وسيعتقد السوفييت بالتأكد أن الأوروبيين سيستعملونها ، ومن ثم يكون التسليح النووى - على المستوى القومى - بترسانة هذه الأسلحة من مستلزمات الردع .

وبينما أرادت الولايات المتحدة الاكتفاء بمركز واحد للتحكم لتحديد الحالات التى تستوجب الخيار النووى ، اقترح ديجول مضاعفة هذه المراكز ، على أن يكون لكل منها نفس الخيار . وتبعاً لذلك ترأس ديجول أول مؤسسة للترسانة النووية فى فرنسا ، ويرجع أصل انشائها الى ١٩٦٠ ، أى السنة التى جرى فيها الاختبار النووى الفرنسى الأول .

وحتى اذا اعترفنا بقصور الأسلحة النووية عن تحقيق الحماية في لحظة الخطر الداهم ، فان فوائدها لا تنكر . ولقد قدر ديجول ذلك ورأى أنها تضيف الهيبة على من يملكها ، أي « توفر مقعدا على رأس المائدة الدبلوماسية » ، على حد تعبير الانجليزى ، وهو ما كان يشتهي ديجول لفرنسا . اذ بدت الترسانة النووية المستقلة - حتى في حالتها المتواضعة ، رمزا ووسيلة تبحر في ذيلها طائفة كبيرة من الامتيازات . فلا ننسى أن أهم امتياز أساسى للدولة هو تسيدها على مصيرها ، وفيما يتعلق بالأوربيين في العصر النووى ، كما اعتقد ديجول ، فليس هناك من وسيلة غير حيازة الأسلحة النووية لتأمين هذا الامتياز .

وكان ديجول أشد أنصار منطق القوة النووية القومية المستقلة تصلبا ، وأكثرهم جهرا بهذا الرأى ، غير أن هذا الرأى كان أبعد ما يكون عن الفكرة المستحوذة عليه ، اذ شارك فرنسيون آخرون في ذلك ، فلقد سبق برنامج التسليح النووى الفرنسى ديجول في الظهور ، واستمر باقيا بعد انتهاء رئاسته . وبانقضاء السنين انضم لتأييد مبدأ القوة الضاربة (*) المستقلة آخرون من مختلف الأحزاب السياسية في فرنسا .

ولم يكن البريطانيون بعيدين عن التعاطف على نظرة ديجول ، وكانوا يتهامسون بالارتياح حول امكان الاعتماد على أمريكا عندما كان الرئيس الفرنسى ينادى برأيه ، وكانوا يفضلون استرضاء الأمريكان في ذات الوقت الذى جذب فيه ديجول الشجار معهم . وعلى الرغم من وجود اختلاف بينهما في الاسلوب ، الا أن البريطانيين توافرت لهم قوة ضاربة نووية صغيرة ملكا لهم ، ولم تختلف دوافعهم في الحرص عليها عن دافع ديجول .

وثمة أسباب تبين لماذا كان من المحتمل أن تؤيد الحكومة الأمريكية ما رآه ديجول ، وسياسته النووية . فلقد ساعد حصول الأوربيين على قوى نووية مستقلة على توفير جملة مزايا . اذ كانت تبشر بزيادة القوة العسكرية للئاتو ، يعنى الغاية الأساسية التى تعلو على كل غاية عند أى حلف . ولعلها كانت ستخفف من عبء حماية أوروبا سيكلوجيا وعسكريا . ولم يكف الأمريكان عن استحثاث الأوربيين على زيادة الاسهام في دفاعات التحالف . وتعد من المقومات التى تسهم في تحقيق الوحدة الأوربية ، التى كانت هدفا مؤكدا لأمريكا منذ قديم الأزل ، اذ كان من المتوقع أن يكون تكديس الأوربيين لعتادهم النووى خطوة في سبيل تحقيق أشكال أخرى من التكامل السياسى .

ومع هذا فإن بما حدث كان العكس . إذ كانت الحكومة الأمريكية تعارض « من تحت تحت » انشاء قوى نووية أوربية مستقلة ، والحق أنه كانت الكلمة التي استعملها الأمريكيان لوصف انتشار الأسلحة النووية من الكلمات التي تستعمل عادة عند الحديث عن انتشار الأمراض أو الأوبئة . وهي كلمة « تفشي » التي صورت تشخيص الولايات المتحدة لهذه الظاهرة . ولقد كبت الأمريكيان معارضتهم رغم المزايا المحتملة لتوافر الترسانات النووية على المستوى القومي ، حتى عندما بدا واضحا أن اتباع هذه السياسة سيساعد على اتساع تصدع التحالف ، وأدى الاستنكار الأمريكي « للتفشي » إلى استفحال الخلاف مع فرنسا ، ورفض الولايات المتحدة تقديم المساعدة النووية حتى عندما أوضح ديغول أنه سيواصل السير في برنامجه لصنع الأسلحة النووية بغير انتظار للمساعدة . وأدى الموقف الأمريكي إلى افساد العلاقة مع البريطانيين أيضا ، وبلغت أدنى مستوياتها عندما قررت إدارة كنيدي بقتة الغاء انتاج صاروخ « سكاي بولت » الذي كان البريطانيون يأملون أن يساعد على إطالة ديمومة استعمال قاذفات قنابلهم المسلحة بالقنبلة ، وكان العذر المعلن لالغاء هذا الانتاج اقتصاديا ، ولكن حقيقة اسهام الصاروخ في الحفاظ على الترسانة النووية لبلد آخر بررت الاعتذار بتفضيل الاعتبارات الاقتصادية على عامل التضامن بين الدولتين المتحالفتين .

واعترضت الحكومة الأمريكية على وجود قوى نووية أوربية مستقلة ، ورأت عدم ضرورتها اكتفاء بالقوة الضاربة الأمريكية القادرة على تحقيق أهداف الناتو ، بالإضافة إلى مهاجمتها الفكرة متذرعة بعدم كفاءة هذه القوى ، إذا وجدت منفصلة كل منها عن الأخرى ، لأنها لن تكون قادرة في هذه الحالة على أحداث تدمير أكيد ، وهذا شرط أساسي في نظر الأمريكيان حتى تتحقق لها الفائدة الاستراتيجية ، أما ما يشبه القوة المؤلفة من مئات الصواريخ عابرة القارات « المقساة » المنتشرة في شتى الأنحاء ، وعشرات الصواريخ المجهزة بالطاقة النووية كالتى تملكها الولايات المتحدة فعليه لن يتسنى لأى بلد أوربي تحمل نفقاته ومستلزماته .

ورأى الأمريكيان أن الأمر لا يقتصر على عدم ضرورة الترسانة الأوربية النووية وعدم كفايتها ، قلعل وجودها يحدث أثرا استفزازيا خطيرا . إذ سيصبح مالکها معرضا لأخطار الاتحاد السوفيتى إلى حد ما ، لأن تدمير القوة النووية الصغرى سيتخذ الصدارة فى أولويات أهداف السوفيت .

وكان باستطاعة الأوربيين الرد على هذا الاعتراض (وقد رد الفرنسيون بالفعل) بالقول بأن القوى النووية المستقلة ليست كما دلت الشواهد عديدة الفائدة ، أو الاختيار الأسوأ ، كما تزعم الاعتراضات الأمريكية .

لـ ليس من السهل الاهتداء الى الكفاية الاستراتيجية ، طبقا للتعريف .
ستراتيجى التقنى لها ، يعنى القدرة على التدمير المؤكد - وبخاصة لبلد
لا تملك موارد مماثلة للولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى - كما أن
القوة الضاربة « القدرة على البقاء » لا تتجاوز تجاوزا كاملا ما يستطيع
الأوربيون تحقيقه . فبمرور الزمان ، سيكون بوسعهم أن يأملوا فى صنع
عدد كاف من الصواريخ ، ولعلها تتصف بخفة حركتها أو سهولة اخفائها ،
أو تركيبها على الفواصات لتفادى مباغتتها بضربة بحكم اقترابها من
السوفيت ، وبذلك سيثبتنى الوثوق من الرد بنفس السلاح على ما سيوجه
لها من اعتداء نووى .

وكان بميسور الأوربيين الرد على مزاعم الأمريكان بالقول بأننا اذا
افترضنا أن الترسانة النووية الصغيرة لا توفر الأمان بصفة مطلقة والاطمئنان
الى علم تدميرها بعد تعرضها لضربة قاضية ، الا أنها قادرة
على تجنب مالكتها الهجوم الوقتى عليه فى حالة الحرب . فلو لم يكن
البلد الأوربى متأكدا من قدرته على ضرب موسكو بعد أى اعتداء سوفيتى ،
فان الروس بالمثل لن يكونوا موقنين باحتمال حدوث ذلك أو عدم حدوثه .
نعم أن باستطاعة حفنة صغيرة من القنابل الايدروجينية - وربما واحدة
فقط - أن تلحق دمارا بعاصمة السوفيت يفوق الدمار الذى حاول نابليون
أو هتلر إلحاقه بها . فضلا عن ذلك ، فلما كان الأثر الرادع يتوقف
- من جانب - على اصرار مالك القنبلة على استعمالها ، فان القوى النووية
القومية عندما تتوافر على المستوى القومى ستكون أفدح تأثيرا ، لأن فرنسا
ستكون بلا جدال أكثر استعدادا للرد باستعمال السلاح النووى على أى
هجوم على فرنسا من استعداد الولايات المتحدة لذلك .

وبغض النظر عن أوجه نقص الترسانة النووية القومية ، فانها تبدو
- يقينا - أفضل من لا شئ بالنسبة لأى بلد أوربى من بلدان الناتو .
ولقد زعم ديجول على أية حال بأنه لا بديل للقوة الضاربة المستقلة مهما
كانت درجة تعرضها للخطر . واذا نظرنا لمدى ما تحققه أية ترسانة نووية
مملوكة لاحدى بلدان غرب أوربا من حماية بالمقارنة بمخزون الصواريخ
الذى تملكه أمريكا فانه سيبدو أشبه باحدى أوراق شجرة التين بالمقارنة
بدرع من الصلب . غير أنه عندما تحلت المعركة فقد لا يكون درع الصلب
ميسورا - فى نظر ديجول - وقد لا يتيسر فى حالة البلدان الأوربية
الأخرى . آنثذ ألا يصح القول بأن ورقة التين ستكون أفضل من العرى
الكامل .

ويقبع « الخوف من التورط » فى صنيم معارضة الأمريكان للتغطية
النووية فى نطاق الناتو . ولم يفصح الأمريكان عن هذا الخوف فى كلمات

كثيرة ، لأن الافصاح عنه قد يتعارض هو والدبلوماسية ، ولا يخلو من خطورة . فربما أوحى باحتمال نزوع حلقاء الناتو الى اتخاذ مسلك متهور . وهناك احتمال بتفسيره على أنه يتضمن أخطر ما يخشاه الأوروبيون : يعنى وجود حروب يرغبون فى خوضها ، وتحبذ الولايات المتحدة تفادى الخوض فيها ، ومن ثم فقد أشار الأمريكان الى أخطار تفشى الأسلحة النووية تلميحاً فقالوا انها تؤدي « الى تزعزع الاستقرار » ، أو قد تعقد السياسة الدولية بإقحام اجراء غير مرغوب لأن « نتيجة غير ميقون منها » فى الحسابات القومية .

وكانت هناك أسباب عامة تفسر لماذا يتراءى من وراء « تفشى الأسلحة النووية » شبح تورط الولايات المتحدة . فلعل الترسانات النووية القومية الصغيرة أهداف مغرية للهجمات السوفيتية بحكم اقترابها من أهدافها . وإذا حدثت إحدى الأزمات ، فقد يهاجم الاتحاد السوفيتى الترسانات الأوروبية النووية اعتماداً على وثوقه من امكان القضاء عليها . وعلى تقيض ذلك ، لو تعلق الأمر بأية قوة أمريكية أكبر وأقل عرضة للخطر ، فربما التزم السوفيت الحذر فى مسلكهم نحوها : فلم يكن حدثاً أو مجموعة من الأحداث بالذات هي التى أفلقت الحكومة الأمريكية فى بدايات الستينيات بقدر الاقلاق من احتمال قصور استعمال الأسلحة النووية الشديدة الفاعلية سواء استعملت على المستوى الدولى أو المستوى القومى . وبدأ لها التنازل لاحدى الدول الكبرى الأخرى المالكة للسلاح النووى مسألة مثيرة للقلق ، لأن أى تغير فى الموقف النووى الراهن ، لن تكون له نتائج مأمونة العواقب . وما جعل تفشى الأسلحة النووية يبدو أمراً عظيماً الخطر ، هو تعذر التنبؤ الفورى بعواقبه ، ومن المحتمل أن تكون تكاليف الحرب النووية باهظة ، بحيث تدفع بلداً ما الى المخاطرة بأى اجراء يحول دون اقترابها ، وفى البيئة النووية ، يبدو التحكم عظيم الأهمية ويساعد انتشار القدرة النووية فى البلدان الأخرى على العمل المستقل ، وبذلك تضعف السيطرة الأمريكية . والظاهر أن كراهية تفشى الأسلحة النووية تذكرنا بحكاية الرهان التى رواها الفيلسوف الفرنسى بسكال عندما قال : « انه لن يخسر شيئاً وسيكسب كل شيء اذا اعتقد فى وجود الله ، ولعله لن ينجم أى ضرر عن حدوث ازدياد فى عدد الدول التى تملك الأسلحة النووية ، غير أن الضرر اذا حدث ، فانه لا يستبعد أن يمتد على نطاق واسع بحيث تعد أى محاولات مجهولة لتجميد عدد من يملكونها عملاً له ما يبرره . »

ولقد وصفت الولايات المتحدة التهديد بتفشي الأسلحة النووية
بالمشكلة غير المحسوبة العواقب للبلاذ (*) ، أى التى لا يمكن التنبؤ بأبعادها
وعواقبها . ويوحى المصطلح بإمكان الاستناد الى عدد من يملكونها عند
تحديد درجة التعرض للخطر استنادا الى ما يملكه أى بلد من أسلحة
نووية ، والأدهى من ذلك هو ما يحدث اذا امتلكت دولة نووية جديدة
هذه الأسلحة بغض النظر عن مقومات هذه الدولة ، على أن هناك دولة
بالذات تقلق الأمريكان بصفة خاصة . انها جمهورية ألمانيا الاتحادية
(ألمانيا الكبرى الآن بعد اختفاء ألمانيا الشرقية ١٩٩٠) . فبوصفها أكبر
عنصر لا نووى فى الناتو وأكثر البلدان تعرضا مباشرا لخطر الاتحاد
السوفيتى ، فقد كان المفروض أن تكون المرشح المنطقى للحدو حدو
بريطانيا وفرنسا فى اقتناء الأسلحة النووية . غير أن تسليح ألمانيا
بالسلاح النووى لن يكون من التوقعات الموفقة ، فما زالت ذكريات الرايخ
الثالث عالقة فى الأذهان ، ولم يتوطد اسم الجمهورية الألمانية الاتحادية
حتى الآن كنسالة مسئولة وديموقراطية فى الأسرة الدولية (١) .

ان ألمانيا اذا تسلحت بالسلاح النووى - خصوصا اذا استقلت عن
عصبة الناتو - ستكون مصدر اقلق لا حد له ، اذا تمعنا فى نتائجها .
وليس أقل هذه الجوانب اقلقا الأثر المحتمل لهذه الخطوة على الاتحاد
السوفيتى . فمفد حدث تقسيم ألمانيا ، وتقسيم أوروبا - تبعا لذلك -
أصبحت هذه القسمة من حقائق الحياة الدولية ، مما دفع الاتحاد السوفيتى
الى اعتبار مسألة حرمان ألمانيا الغربية من التسليح النووى مبدأ أساسيا
فى السياسة الخارجية ، فلقد أدى اعتداءن ألمانيان فظيعان فى القرن
العشرين (الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية) الى زيادة حساسية
الاتحاد السوفيتى الى حد الرعب من القوة العسكرية لألمانيا . ورفضت
الولايات المتحدة تأييد البرنامج الفرنسى للتسلح النووى فى جوانب ليست
بالقليلة خشية أن يطالب الألمان بالمعاملة بالمثل . ان مطلب الألمان التزود
بترسانة نووية ، وما سيترتب عليه من تفش نووى فى أوروبا من الأمور
غير المقبولة عند الولايات المتحدة كوسائل لتعزيز الردع مثلما يعد
« الرد المرن » غير مقبول لدى الأوربيين ، ومن ثم فعلى الرغم من اتفاق
الطرفين حول هذه المشكلة الا أن كلا منهما لم يصدق على الحل المفضل
عند الطرف الآخر .

التحالف المستديم

ما أشبه السياسة النووية للنااتو في الضعيفات ، إذا تأملناها من منظورنا الآن بتمثيلية بغير فصل ثالث . ولقد نشبت إحدى الأزمات من أثر المخاوف التي انتابت الولايات المتحدة بعد تزايد القدرة النووية للاتحاد السوفيتي على ضربها من مبدأ « التخلي » مما أثار التساؤل حول مصداقية سياسة الردع في أوروبا . واتخذت الصدارة جملة حلول ، ولم يوضع أي حل منها موضع التجربة الكاملة . ولم يلق الحل الذي يرى اتباع مبدأ « الرد المرن » ولا الحل الذي يسمح بتفشي الأسلحة النووية قبولا كاملا عند المسئولين على جانبي الأطلسي ، واعتبر الأوروبيون « الرد المرن » دعوة للتخلي من نوع خاص اختاروا له مصطلحا ما (*) . وشعر الأمريكان بالقلق لاحتمال أن يؤدي الحل الآخر إلى تورطهم في مثل هذه الحرب .

وغنى عن القول أن الأوروبيين قبلوا مبدأ الرد المرن ١٩٦٧ ، ولكن على نحو أشعر الأمريكان بأن هذا الحل قد مسد الطريق أمام الهدف الأمريكي الذي كان وراء الاقتراح في المقام الأول ، واتفق الطرفان من حيث المبدأ على اتباع « الخلف » للسياسة ، ولكنهما اختلفا حول كفاية القوى غير النووية الموجودة في أوروبا للنهوض بتنفيذه . وبدلاً من تزويد الميدان بقوات ودبابات وطائرات إضافية ، فإنهم قدموا بتغيير اسم المهمة المؤكدة لمن كانوا هناك بالفعل .

وثمة قانون معقد وراء الحل الأوروبي للمشكلة التي خلقتها القوة الاستراتيجية السوفيتية للنااتو (القوى النووية القومية) ، وإن كان هذا الحل لم يطبق بالمثل تطبيقاً كاملاً . فلقد اقترحت الولايات المتحدة مشروعاً يعرف باسم القوة المتعددة المهام (**) للاستشراك في السيطرة على بعض الأسلحة النووية . ولقيت هذه الفكرة انتباهاً جدياً ابتداءً من ١٩٦٣ . وتتضمن الفكرة تزويد الغواصات البولاريس بأطعم بحارة متعددة الجنسيات ، وتصور الأمريكان هذا الحل كثنائي الحظوظ المفضلة الحاسمة لمشكلات النااتو ، ولم يكن الأمريكيون هيبالين للتنسازل عن أي نوع من السيطرة على أي سلاح من الأسلحة النووية . إذ خشوا أن تترتب هزة سياسية في التحالف على رفضهم القيام بذلك ، فربما أدى ذلك إلى ظهور ترساة نووية ألمانية . وكان واضعوا المشروع المشار إليه من الأمريكان غامضين فيما يتعلق بالتساؤل الحساس عن هوية من يبدأ

decoupling.

(*)

M.L.F.

(**)

باشغال فتيل القوة الذرية للنواصات ، وأخيرا وفي أواخر ١٩٦٤ ، رفض الرئيس جونسون المشروع بالفعل .

ولم يقتصر الأمر على عدم حل المشكلات التي خلقتها القوة النووية السوفيتية حلا واضحا في الستينات ، فلقد عاودت هذه المشكلات الظهور في مظهر آخر في السبعينات ، وثار الاهتمام داخل الحلف حول المزية التي اكتشفها السوفيت في القوة الاستعراضية طويلة المدى ، والتي تتألف من أسلحة نووية تحتل قواعد في أوروبا الغربية قادرة على إصابة أهداف داخل الاتحاد السوفيتي وضد الأسلحة السوفيتية الموجهة ضد أوروبا الغربية ، والتي أطلق على قدراتها النسبية اسم « التوازن الأوربي الاستراتيجي » (*) وردد الخلاف الأوربي حول هذه المشكلة ، أصعبه الخلاف حول سياسة « الرد المرن » في سنوات حكم كيندي ، وعلى الرغم من الفروق بين القوتين موضع البحث ، إلا أن المشكلة الأساسية كانت واحدة ، وهي احتياجات الردع . فلقد راودت الولايات المتحدة المخاوف، عينا من احتمال أن يؤدي الحل الملحوظ في توازن القوى غير النووية ، والذي احتدم في عشر السنوات الماضية - يعني احتمال تحقيق الاتحاد السوفيتي الكسب بأن تتشابه هي وأعداؤها في هذا المستوى ، وبذلك ترغم الناتو على قبول أحد شرين : فاما قبول الهزيمة ، أو يصعد الصراع الى مستوى الحرب النووية عبر القارات ، وما يترتب عليه من تعريض الولايات المتحدة للقصف النووي . وأثر الرد الأمريكي نشر قوات استعراضية بعيدة المدى يمكن أن تقارن بقوات الاتحاد السوفيتي ، وفي ديسمبر ١٩٧٩ ، اقترح الناتو على قبول هذا الرأي .

وكما حدث في حالة « الرد المرن » فلقد أثار هذا المشروع الجديد (**) مخاوف الأوربيين ، ولا ترجع المخاوف هذه المرة الى الفصل بين الأسلحة النووية وغير النووية ، ولكن الخوف تركز على الأسلحة الاستراتيجية الاستعراضية طويلة المدى . فكما حدث في الحالة الأولى ، أوحى المشروع الأخير بتقسيم مسرح الحرب الى قسمين : أحدهما للولايات المتحدة ، والآخر لأوروبا . وخشى الأوربيون أن يؤدي ذلك الى إضعاف الردع بالتشكك في استعداد الولايات المتحدة لتركيز كل قواها للدفاع عن أوروبا ، وعبر عن ذلك وزير الخارجية الفرنسي صراحة بقوله : « إن الاتجاه المعتمد على تصور التوازن الاستراتيجي الأوربي يجر في ذيله مقولة : « أن ما يترتب على الاتجاه المعتمد على شعور التوازن

Eurostragic balance.

(*)

decoupling.

(*)

الاستراتيجى الأوربى - ضمنا - هو وجود توازن مستقل للقدرات النووية يخص المسرح الأوربى منفصلا عن عناصر الردع الأخرى ، ويؤدى ذلك الى حدوث حالة(*) نحاول على وجه الدقة تفاديها . وبعبارة أخرى ، ان هذا الاجراء يتساوى هو والاعتراف بأن القوة الاستراتيجية المركزة للولايات المتحدة لاتغطى أوروبا الغربية .

ويمكن أن توصف السنوات التى أعقبت استبعاد مبدأ (**) ١٩٦٤ بأنها تعارضت وأهداف الناتو ، فإذا تركنا جانبا التساؤل عن طريقة الرد على التهديد النووى السوفيتى للولايات المتحدة ، سنرى النزوغ المفاجئ للخلاف حول سلسلة كبيرة من المشكلات . فلقد احتلت المسائل الاقتصادية مكانا بجوار مسائل الأمن ، وتشاجر الشركاء فى حلف الأطلسى حول سياسات التجارة والنقد وتوازن المدفوعات ، ولمحت الولايات المتحدة فى بعض المواضع الى اعتماد استمرار التأمين النووى الأمريكى لأوروبا على التنازلات الاقتصادية من قبل الأوربيين ، وتسببت الخلافات السياسية أيضا فى تصديق العلاقات . فلم تثر الحرب الأمريكية فى فيتنام الا القليل من الحاسسة ، وفرضت حرب الشرق الأوسط ربما خلافا أخطر ، اذ اكتشف شركاء الحلف أنهم يمثلون معسكرين متعارضين . فلقد دفع تخوف الأوربيين من انقطاع ما يحصلون عليه من بترول من الدول العربية فى الخليج الفارسى الى اصدار بيانات متعاطفة مع العرب ، ورفضوا الى حد كبير مساعدة الولايات المتحدة على معاودة تأييد اسرائيل ، وتزويدها بما تحتاج اليه ، بينما القتال محتدم الأوار .

وفى ١٩٨٠ ، اكتشفت الحلف مرة أخرى حدوث انقسام فى صفوفه ، تركز هذه المرة على طريقة الرد على احتجاجات الشخصيات الدبلوماسية الأمريكية كرهائن بايران ، وأيضا حول الغزو السوفيتى لأفغانستان . وآثرت الولايات المتحدة أن يتسم الرد فى الحالتين بالشدة . وأعرب الأوربيون عن قلقهم من التباعد عن حكومة طهران وحكومة موسكو . ويرجع الخلاف - من ناحية - الى تضارب المصالح الذى ابتلى به جميع أعضاء الحلف . اذ كانت المخاطرة الاقتصادية والمنافع الاقتصادية التى يجنيها الأوربيون من رفع التوتر مع الاتحاد السوفيتى أعظم مما يعود على الأمريكان ، ومن ثم فإنهم سيكونون الأكثر خسارة من

decoupling .

(*)

M.L.F.

(**)

تدهور العلاقات من هاتين البلدين . وجاء أخيراً تدهور داخل صفوف الحلف في السنوات التي أعقبت انتصار الصراخ على « م - ل - ف » ، و « الرد المرن » ، ليس بين الولايات المتحدة والأوروبيين ، وإنما بين دولتين من الدول الأوروبية الأعضاء في الناتو : اليونان وتركيا حول نظام الحكم في جزيرة قبرص مما عجل بانسحاب اليونان من الاشتراك الفعال في الناتو .

غير أنه رغم عدم حل المشكلات القديمة حلاً قاطعاً ، وظهور مشكلات جديدة ، إلا أن الناتو ظل محتفظاً خلال السبعينات نوعاً بمظهره الأصلي . وبدأ هذا الأمر غير متوقع تماماً في بداية « الستينات » ، ثم اتضح أن الأوضاع الراهنة داخل الحلف المستندة على الضمان الأمريكي النووي لم تعد محتملة ، وأن التغيير قد أصبح ضرورة لا مناص من إجرائها ، ولما كان العدوان السوفيتي قد بدا لهم البديل الأكيد ، لذا نظر إلى « الرد المرن » والترسانات النووية القوية كضرورة للأمريكان في المقام الأول وللفرنسيين في المقام الثاني ، ثم ثبت أن هذين الاجراءين لضرورة لهما . فلماذا حدث هذا ؟

لقد ثار الجدل حول هل تعد الحلول المقترحة لمشكلة قدرة السوفيت الهجومية التي طرحتها الولايات المتحدة أمام الناتو ولم توضع موضع التجربة - على أكمل وجه في أغلب الظن - كما كان أنصارها يأملون ، ولكنها جربت بالقدر الذي دفع الانحياز السوفيتي للتحفز . إذ كان الاتفاق الأوروبي على سياسة الرد المرن - من حيث المبدأ - مثار جدل ، أكثر من كونه مناورة للتلاعب بالمعاني والكلمات ، ورنى أن القوى غير النووية للناتو وحلف وارسو كانت أكثر تولفاً ١٩٦٧ مما كانت عليه سنة ١٩٦١ ، ولا يرجع ذلك إلى الحشود التي حشدتها الأمريكان والأوروبيون الغربيون من المقوات الأكثر عدداً ، وإنما يرجع إلى تزايد دقة تقديرهم لأعداد القوات المعادية لهم . فكلما ازدادت الدقة ازداد تضائل الأعداد المقدرة . وظهر فيما بعد عند مراجعة ما حدث أن الغرب إبان الخمسينات كان يعتمد المبالغة في تقدير عند قواته . وفي ١٩٦٧ ، اهتدى الأوروبيون إلى الاعتقاد بأن ممارسة الناتو لسياسة الرد المرن طيلة هذه المدة لم تكن لصالحهم تماماً ، وعلى أية حال ، لقد اتسم هذا القول بالدقة نوعاً .

أما فيما يتعلق بالحل الأوروبي المفضل ، يعني إنشاء قوات نووية قومية فقد كان باستطاعة الفرنسيين الزعم بأنهم استطاعوا وضع هذا الحل موضع التجربة عندما شرعوا في التروؤ بقوة نووية ضاربة . وفي

١٩٧٩ ، تولفرت لهم أربع غواصات تحصل كل منها ستة عشر صاروخا ،
وثمانية عشر صاروخا متوسط المدى . وبالتالي ليس الأمريكية والسوفيتية ،
تعد هذه القوة هيئة الشئان ، وإن كان بمقدور الفرنسيين المحااجة والزعـم
بأنها تبعاً لمعاييرهم الردعية تعد كافية ، والقوة الفرنسية رغم ما تحققة لها
هذه الغواصات من حماية قد لا تكون متينة بصفة مطلقة من قدرتها على
قدر من الصغار للاتحاد السوفيتي إذا شن هجوما من النوع القى عرفه
الأمريكان بأنه ضرورى الحدوث كشرط للردع . غير أنه لا يستبعد أن
يحدث تسعيراً كبيراً فى حالة الالتجاء اليه ، فإذا لم يتسن لك الاجهاز
عليه ، فلا أقل « من أن تمزق أحد ذراعى الدب » كرد على الهجوم
السوفيتي ، ويرى الفرنسيون أن هذا القدر من التهديد مستصوب .

وليس عند الألمان أسلحة نووية ، ولا حتى أية سيطرة على جزء من
الترسانة النووية التى خطرت ببال « م . ل . ف » ، ووضعت تحت تصرف
الرئيس الأمريكى ، ولعلمهم لا يرغبون أن تمس أصابعهم فتيل تشفيل أية
معدة نووية ، وربما كان أقصى ما يتمنونه هو التيقن من هدم الاكتفاء
باقصائهم الى دور المتفرجين فى الحلف ، بلا رأى فيما يتقرر من سياسات ،
وقد لاحظ أحد دارمى سياسة الناتو أن كلمة « كونترول » فى الانجليزية
تعنى الاستحواذ المادى ، أما الكلمة الفرنسية المرادفة فتدل على التخطيط
والسيطرة السياسية ، ولربما كان ما يريده الألمان هو المفهوم الثانى ،
وليس الأول ، ولقد اعتمد مجلسا التخطيط النووى للحلف ، والذي
ظهر للوجود اثر مبادرة من الولايات المتحدة بعدم التدخل عن فكرة
المشاركة .

بيد أنه ليس من بين هذه التفسيرات المتعلقة باستمرار بقاء الماثو
فى شكله الأصلى ، أى تفسير مقبول ، إذا وافقنا ما ساد من فزع فى
بداية الستينات . فلو جلت قوات الماثو صلقة الفضل عند الاتحاد السوفيتي
أو أوروبا الشرقية بعد انتهاء الستينات ، فإن الحكومة الأمريكية لم تشعر
البتة بأى ميل حتى لوصفها بالصفقة ، أو ما هو أكثر من ذلك ، ولم يكن
لدى الألمان أيضا أى شعور بالثقة فى امكان نهوض الترسانة النووية
الفرنسية - مهما كانت قوتها - بحمايتهم . فإذا سلمنا بعدم احتمال أن
تخاطر نيويورك فى سبيل انقاذ باريس ، فهل هناك ما بدقم الفرنسيين
لتعريض باريس للخطر لاتقاذ هامبورج ؟ . وأدى منطق النظرة الفرنسية
فى الردع الى ظهور ترسانة نووية ألمانية قوية .

ويتقابل زعماء الحكومتين الأمريكية والسوفيتية بين الفينة
والأخرى ، وتوصلت الدولتان الى اتفاقات لا بأس بها تنحد من التسلح

النووي . كمعاهدة الحد من اجراء التجارب ١٩٦٣ ومعاهدة الحد من
تفشي الأسلحة النووية ١٩٦٨ ، ومعاهدة التبادل الاستراتيجي للأسلحة
١٩٧٢ و ١٩٧٩ . وتدفق سيل من المبادلات العلمية والثقافية . وفي
أوروبا ، توطدت مكانة ألمانيا بعد توقيع سلسلة من الاتفاقيات ١٩٦٩ ،
وعندما عقد بيلنسكي مؤتمر الأمن أو التعاون في أوروبا ١٩٧٥ ، انتهى
الامر بعقد معاهدة للسلام في أوروبا تأخرت عن موعدا ثلاثين سنة .
اذ كان المفروض أن توقع فور انتهاء الحرب العالمية الثانية .

ويتوقف أمن الدولة على أركان ثلاثة : أولا - قدراتها ونيات
الآخرين ، ثانيا - قوتها العسكرية ، ثالثا - منجزاتها الدبلوماسية ،
ويصح القول بأن الناتو ركزت على الركن الثاني أكثر من تركيزها على
الركن الأول . غير أن هذا التفسير لا يعد كافيا تماما ، لأنه عكس الترتيب
الصحيح للحقائق . اذ يعتبر « الانقراج السياسي » (*) وتحسن العلاقات
السياسية بين الناتو وحلف وارسو ثمرة لاستقرار الأوضاع العالمية ،
أكثر من كونه سببا من أسبابه ، فبعد أن شعر الألمان والأوروبيون
والأمريكان بالأمان ، لم يعد هناك حائل يحول دون سعيهم للتوافق مع
البلدان الشيوعية .

ولعل السلام قد ساد أوروبا لأنه لم يجر في خلد السوفيت قط
الاعتداء عليه ، وإن كان من غير المقصور معرفة نوايا السوفيت خلال
الحرب الباردة ما لم يوجد دليل دامغ على ذلك ، ومن الصحيح يقينا أن
حكومة السوفيت قد انشغلت في السنوات التالية مباشرة للحرب
بعمليات تعمير بلادها ، واحكام قبضتها على أوروبا الشرقية ، ومن الصحيح
أيضا أنه لو قدر حدوث غزو لأوروبا الغربية ، فإن الكتلة السوفيتية كانت
ستكتشف صعوبة ابتلاعها وهضمها . كما أنه بغیر بعض الكوابح
العسكرية ، سيصعب تخيل كيف كان السوفيت سيهتدون الى طريقة ما
لفرض نفوذهم ، بل وسيطرتهم على دول الناتو . إن هذه الناحية - بوجه
خاص - من الملامح المألوفة في السياسة الدولية ، وتمثل الأسلوب الذي
اعتادت القوى العظمى اتباعه . . . ولعل من بين قواعد العلاقات الدولية
كراهية البلدان الكبرى وجود أي فراغ في القوة ، ولا أعني بذلك القول أنه
لم توجد ميول جديده عند السوفيت للغزو أو حتى للاستعباد السياسي
لأوروبا الغربية ، أو معاملتها نفس المعاملة التي عوملت بها فنلندا ،
وبعبارة أخرى ، فإنه في حالة غياب أي شكل من أشكال الردع ،
لن يستبعد ظهور مثل هذا الميل .

اطفاء جذوة الرغبة في الاستقلال القومي في أوروبا الغربية . ولو اقتنعت هيئة الدول بأن سلامتها وتكاملها السياسي سيُعتمدان على حلف الناتو لما كان من المستبعد أن يضحوا في سبيل ذلك بإنشاء ترسانة نووية تضم جميع الدول الأوروبية ، أو إنشاء عدة ترسانات نووية منفصلة ، أو إنشاء قوة غير نووية للحلف ، ولكنهم لم يرتضوا ذلك . فلماذا لم يتغير الوضع الراهن (*) في أوروبا ؟ لا يخفى أنه لا يوجد رد واحد لهذا السؤال ، وإن كان هناك سبب واحد ، وهو استمرار بقاء ترتيبات الردع المبدئية للناتو ضد السوفيت التي اتبعت خلال الستينات والسبعينات .

ولقد تحملت أزماتا برلين وكوبا على التوالي وزر تصليب الناتو ، فعندما حدثت هاتان الأزماتا ، تصاعد احساس أوروبا الغربية بالخطر ، ولم يحل وجود القوة النووية الأمريكية دون تحدى السوفيت للحلف في عقر داره ، أي في قلب أوروبا ، أو تحديهم لأمريكا عندما كانوا مرابطين على بعد مائة كيلو متر من سواحل الولايات المتحدة ، على أن تحدى السوفيت رد على أعقابهم في الحاليتين ، فظلت برلين مدينة حرة وسقط مجال النفوذ السوفيتي ، وأزيلت الموارينخ متوسطة المدى المقامة في كوبا ، والتي كانت قادرة على حمل رؤوس نووية لضرب أهداف في الولايات المتحدة . وفي كلا الحالين ، هددت الولايات المتحدة صراحة بالالتجاء إلى القوة النووية، غير أن الأزماتين تم حلها لصالح الوضع الراهن، الذي كانت الولايات المتحدة تسعى للحفاظ عليه . ولم يعقب هذين الحادثين أزمات مماثلة في خطورتيهما .

وتزودنا حتى سياسة ديجول الخارجية بما يؤيد الظن بأن قدرة الناتو على الردع قد ظلت قوية ، وإن كانت - في الحق - ناحية الردع النووي قد بدت ثانوية الأهمية في سياسته الخارجية ، التي جعلت الأولوية لتأكيد استقلال فرنسا ، وتعظيم نفوذها في العالم . وكان باستطاعة ديجول اعتبار السياسة النووية مسألة نووية لأنه كان واثقا من قدرة الترتيبات النووية للحلف على ردع الاتحاد السوفيتي ، بالرغم من نزوعه للاتيساب في هذه الترتيبات كمبرر لإنشاء برنامج فرنسي للتسلح النووي ، ولعل ما دفعه للانسحاب - شكليا - من الحلف هو ادراكه أنه سيظل ينعم بحماية هذه الترتيبات .

وبمقدار تصدى الناتو لقدرة الاتحاد السوفيتي على شن هجمات نووية على الولايات المتحدة ، أثبت الأوروبيون والأمريكان أنهم أصابوا

ـ جزئيا ـ كما أخطأوا جزئيا ، فقد أصابت الولايات المتحدة عندما طلبت أن الأسلحة النووية الخاضعة للأمريكان وحدهم تكفي ، ولكنها أخطأت عندما أصرت على الاعتقاد بضرورة القوات الدفاعية الأكثر تنوعا ، ولقد أصاب الأوروبيون عندما اعتقدوا أن الأسلحة النووية وحدها ستردع السوفيت ، ولكنهم أخطأوا عندما رأوا وضعها تحت وصاية الأوروبيين وتحت امرة الأمريكان أيضا .

وقد أثبتت الأيام صحة هذا الاعتقاد ، وإن كانت هذه المسألة تحتمل المجادلة ، لأن القدرة النووية غير العادية قد أجهضت أي اغراء بالهجوم الذي ربما شجع عليه عدم التيقن من رد الأمريكان عليه بالمثل ، فلم يكن الأوروبيون واثقين من احتمال تعريض نيويورك للخطر في سبيل حماية باريس ، وإن كان السوفيت لم يتمكنوا من التأكد من أنهم لن يفعلوا ذلك . لقد أدت الثورة النووية الى جعل «اللايقين» حجة للاحجام ، على خد قول المفكر الفرنسي ريمون آرون : عندما يعجز أي شخص عن قياس المعدل الدقيق للقوة مسبقا من الناحية الزمنية سيحدث اغراء بالمخاطرة ، التي تتمتع بميزة عدم امكان التكهّن بوقوعها . والآن وبعد أن أصبح عدم الامكان التكهّن يجر في ذيله المصير المهلك لعشرات الملايين ، لذا اضطر أكثر الزعماء ولما بالمقامرة الى التريث ومراعاة الجذر قبل الاقدام على خطوة من هذا القبيل ، وكما بين أحد الباحثين في السياسة الأوروبية في أعقاب الحرب : « ان ما نرتب على ذلك هو أنه ربما افترقت المذاهيب المتعاقبة للدقة الذهنية ، التي رأها الخبراء ضرورية ، كما أن مستويات القوة والقدرة على استخدامها قد هبطت عادة عن المستوى الذي ينبغي لأي تصور ، غير أن الروس قد أثبتوا أنهم أكثر تبصرا وتدبرا في كشفهم لكواهن النقص في المخططات الحربية للحلف ، ويعني تصور السوفيت على هذا النحو انتصار المفهومية الدارجة (*) على المنطق ، ولقد أشار وزير الدفاع البريطاني السابق : دنيس هيل الى أن ردع العدو يمكن أن يتحقق اذا كان احتمال النجاح ١/٨ في حالة الرد عليه باستعمال الأسلحة النووية ، وإن كان هذا الرأي قد لايقنع أي صديق، وتفسر ملحوظة الوزير جانبا كبيرا من تاريخ حلف الأطلسي .

ان هذا ينقلنا الى آخر تأثير للأسلحة النووية على الأحلاف . فلما كانت الأسلحة النووية الأمريكية قد أفلحت في ردع الاتحاد السوفيتي ، فإنها يسرت للمخطط الأصلي للناتو البقاء ، وأدى ذلك الى قمع النوازع القومية المألوفة للاستقلال في المجال النووي ، وربما لم تختلف العلاقات بين

جانبى الأطلسى (بين دول أوربا الغربية وأمريكا) فى كل المقومات اختلافا كبيرا عن الشكل الذى كانت ستتخذه لو أنه لم توجد أسلحة نووية ولا يستبعد فى مثل هذا الاحتمال أن تظل الولايات المتحدة والسوفيت يتمتعان بتفوقهما فى القوة على أية دولة أوربية بمفردها ، وأن يستمر السوفيت فى اعتراضها على توحيد ألمانيا ، ولعلمهم لن يرضوا عن أى اتحاد ألماني من أى لون سياسى . أما الولايات المتحدة ، فانها لن تقبل آئذ وجود ألمانيا خاضعة للسوفيت . ويبدو لنا تجميع الصفوف من أجل الحرب الباردة ، عندما نتأمله الآن أمرا محتوما ، ولعل أوربا الغربية كانت متبغى - يقينا - من وراء هذا الحشد الارتباط بالولايات المتحدة من أجل الأمن ، سواء تحقق ذلك عن طريق الترسانة النووية أو بدونها ، وبعبارة أخرى ، كان لا مناص من اعتماد الأوروبيين على الولايات المتحدة لحمايتهم ، وبخاصة فى الحقبة الباكورة التالية للحرب ، وربما لم يتخذ اعتمادهم نفس الصورة .

ويعرض النظام النقدى الدولى أيضا مثالا شبيها ذا دلالة . ففي نهاية الحرب العالمية الثانية ، تعرضت اقتصاديات البلدان الأوربية للخراب . ولم يقتصر الأمر على تفوق الدولار . إذ كانت السياسة الاقتصادية الأمريكية تتحكم فى السياسة الاقتصادية للدول الأوربية ، ولما استرد الأوروبيون عافيتهم ، وانتعش اقتصادهم ، حصلوا على قدر من الاستقلال الاقتصادى ، وليس بين هذه الدول مكافئ من الناحية الاقتصادية ، ولا وجود لبديل للدولار . واستمرت الولايات المتحدة أقوى بلد منفرد بالرأى فى سياسة الاقتصاد العالمى . بيد أن الأوروبيين واليابانيين قد أصبحوا ينعمون بقدر من النفوذ الاقتصادى ، وحدث تحول ملحوظ فى التوازن والتأثير والمبادرة فى العلاقة الاقتصادية بين أوربا وأمريكا إبان السنوات الثلاثين الماضية ، وفيما يتعلق بالأمن ، فلقد استطاعت الأسلحة النووية ترسيخ التوازن بين أوربا وأمريكا الذى كان مختلا ١٩٨٠ ، مثلما كان ١٩٤٩ .

ويتساوى القول بأنه مازال مختلا مع القول بحدوث انقلاب فى الأوضاع على نحو عجيب ، إذ كان توزيع القوى النووية داخل الناتو عند انشائه نتيجة للضعف الأوروبى ، وأصبح الآن نتيجة لهذا الضعف ، وفى البداية ، لم يكن بمقدور الأوروبيين انشاء ترسانة نووية اعتمادا على أنفسهم . والآن لم تعد لديهم الرغبة فى ذلك ، بعد أن تفاقمت شدة الاحتياج للردع النووى ، وفى ١٩٤٩ ، نهضت الولايات المتحدة بمهمة التأمين ضد الهجمات النووية ، لأن أوربا كانت ضعيفة . أما الآن فقد أصبح الأوروبيون ضعفاء لاعتمادهم على التأمين النووى لأمريكا .

المراجع

- C. D. Black and G. Duffy eds., *International Arms Control Issues and Agreements* (1985).
- E. Bottome, *The Balance of Terror : Nuclear Weapons and the Illusion of Security (1945-1985)*. 1986.
- G. Brewer and M. Shubik, *The War Game : A Critique of Military Problem Solving* 1979.
- L. T. Caldwell and W. Diebold Jr. *Soviet American Relation in the 1980's : Superpower Politics and East-West Trade* 1980.
- A. W. Deporte, *Europe between the Superpowers : The Enduring Balance* (1979).
- D. Holloway, *The Soviet Union and the Arms Race* (1985).
- W. W. Kulski, *DeGaulle and the world : The Foreign Policy of the French Republic* (1968).
- M. Mandelbaum, *The Nuclear Future*, 1983.
- L. Martin ed. *Strategic Thought in the Nuclear Age* 1979.
- S. E. Miller, *Strategy and Nuclear Deference* (1984).

اقرأ في هذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتواند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ي . رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدىس هكسلى
الجغرافيا في مائة عام	ت . و . فريمان
الثقافة والمجتمع	رايمواند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر . ج . فوربس
الأرض الفامضة	ليستروديل داي
الرواية الانجليزية	والتر آلن
المرشد الى فن المسرح	لويس فاوجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د . قدرى حفى وأخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات التقود	ديفيد وليام ماكسوال
الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى	د . محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف م . بى . كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د . عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	أنور المصداوى
القوة النفسية للأهرام	بيل شول أدنيت
فن الترجمة	د . صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ثى ماتلو
سنتال	فيكتور بزوڤير
رسائل واحاديث من المضى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضممارفيرنر هيرزبرج	فيكتور هوجو
الفيزياء الذرية)	سندنى هوك
التراث الغامض ماركس والماركسيون	ف . ع . أدنيكوف
فن الأدب الروائى عند تولستوى	هادى نعمان الهيتى
أدب الأطفال	د . نعمة رحيم العزاوى
أحمد حسن الزيات	د . فاضل أحمد الطائى
اعلام العرب فى الكيمياء	

فكره المسرح

الجحيم

صنع القسراد السياسى

التطور الحضارى للانسان

هل نستطيع تعليم الاخلاق للاطفال ؟

تربية الدواجن

الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

التحل والطب

سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى

سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء

مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤

كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

الصحة

اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن

التشكيل

الادب الروسى قبل الثورة البلشفية

وبعدها

حركة علم الانحياز فى عالم متغير

الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)

الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى

١٩٨٨٥ - ١٩٨٥

التنشئة الاسرية والابناء الصغار

نظريات الفيلم الكبرى

مختارات من الادب القصصى

الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد ؟

حرب الفضاء

ادارة المراعات النووية

الميكروكمبيوتر

مختارات من الادب اليابانى

تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة

اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

كتابة السيناريو للسينما

الزمن وقياسه

اجهزة تكييف الهواء

فرنسيس فرجون

هنرى ياربوس

السيد عليوة

جاكوب برونوفسكى

د . روجر ستروجان

كاثى ثير

ا . سبنسر

د . ناعوم بيتروفيتش

جوزيف داهوس

د . ليتوار تشامبرزرايت

د . جون شندلر

بير البير

الدكتور غبريال وهبه

د . رمسيس عوض

د . محمد نعمان جلال

فرانكلين ل . باومر

شوكت الريمى

د . محيى الدين احمد حسين

تأليف : ج . ج . دادلى اندرو

جوزيف كوتزاد

طائفة من العلماء الأمريكىين

د . محمد اسعد عبد الرؤوف

د . السيد عليوة

د . مصطفى هنانى

صبرى الفضل

جابريل باير

انطونى دى كوسبنى

وكينيث هينوج

روايت موين

زافيلسكى ف . س

ابراهيم القرضاوى

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة في مصر الإسلامية
العلم والطلاب والمدارس

الشارع المصري والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التلوق السينمائي
التخطيط السياحي
البذور الكونية

دراما الشاشة (٢ ج)

الهيروين والايذ
صور أفريقية
نجيب محفوظ على الشاشة
الكمبيوتر في مجالات الحياة
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء
الهندسة الوراثية

كتب غزت الفكر الانساني
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)

الفكر التاريخي عند الاغريق
قضايا وملامح الفن التشكيلي
التغذية في البلدان النامية
بداية بلا نهاية

الحرف والصناعات في مصر الإسلامية
للكنسون
حوار حول النظامين الرئيسيين

بيتر رداي
جوزيف داهموس
م . م بورا
د . عاصم محمد رزق
رونالد د . سمبسون
و نورمان د . أندرسون
د . أنور عبد الملك
والت روستو
فرد . س . هيس
جون بوركهارت
الان كاسبيار
سامي عبد المعطي
فريد هويل
شاندرا ويكراما ماسينج
حسين حلمي المهندس
روي روبرتسون
دوركاس ماكلينتوك
هاشم النحاس
د . محمود سري طه
بينر لوري
بوريس فيدروفيتش سيرجيف
ويليام بينر
يقييد الدوتون
أحمد محمد الشنواني
جمعها : جون ر . بورر
وميلتون جولدينجر
أرنولد توينبي
د . صالح رضا
م . ه . كنج وآخرون
جورج جاموف

د . السيد طه أبو سديره
جاليليو جاليليو

أريك موريس ، ألان هو
 مسيريل الدريد
 آرثر كيستلر
 توماس أ . هاريس
 مجموعة من الباحثين
 روى أرمز
 ناجاي متشيرو
 بول هاريسون
 ميكائيل البى ، جيمس لفلوك
 فيكتور مورجان
 اعداد محمد كمال اسماعيل
 الفردوس الطوسي
 بيرتون بورتر
 جاك كرابس جونيور
 محمد فؤاد ، كوبريلي
 بول كونر
 اختيار واعداد صبرى الفضل
 تونى بار
 نادين جورديمر وآخرون
 موريس بيربراير
 آدامز فيليب
 احمد الشنواني
 جوناثان ريدلى سميث
 ريتشارد شاخنت
 ريجمونت هينر
 القريد - ج - بتلر
 اعداد - د - فيليب عطية
 ادوارد مري
 هربرت شيلر
 الحاج يونس المصرى
 ستيفن أوزمنت
 نفتالى لويس
 اعداد : موني براج
 بيتر نيكولان

الارهاب
 اخناتون
 القبيلة الثالثة عشرة
 التوافق النفسى
 الدليل البيلوجرافى
 لغة الصورة
 الثورة الاصلاحية فى اليابان
 الدائم الثالث
 الانقراض الكبير
 تاريخ النقود
 التحليل والتوزيع الأوركستراالى
 الشاهنامه (٢ ج)
 الحياة الكريمة (٢ ج)
 كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠
 قيام الدولة العثمانية
 العثمانيون فى اوربا
 مختارات من الآداب الآسيوية
 التمثيل للسينما والتلفزيون
 سقوط المطر
 صناع الخلود
 دليل تنظيم المتاحف
 كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)
 الحملة الصليبية الاولى
 رواد الفلسفة الحديثة
 جهاليات فن الاخراج
 الكنائس القبطية (٢ ج)
 ترانيم زرادشت
 النقد السينمائى الأمريكى
 الاتصال والهيمنة الثقافية
 رحلات فارتيم
 التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج
 مصر الرومانية
 السينما العربية
 السينما الخيالية

مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٩٦/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3664 — 6

صورة الغلاف تمثل تشامبرلين رئيس وزارة انجلترا عند استقباله لزعماء ألمانيا النازية وتصوره أنه قد نجح في تحقيق السلام وإبعاد شبح الحرب التي اشتعلت بعد شهور قليلة من تاريخ هذه الصورة.



صورة ظهر الغلاف تمثل القطار الشهير الذي وقعت فيه ألمانيا والحلفاء على معاهدة فرساي. وقد أصر هتلر عندما احتل باريس على توقيع فرنسا على استسلامها في نفس هذا القطار.

هذا هو الجزء الثالث من كتاب التاريخ من شتى جوانبه ومن الموضوعات التي يتناولها

المواجهة السلطوية والدبلوماسية في القرن العشرين

كيف ظهر تالية شخصية ستالين

الناتو .. التحالف.. النووي

اضطرابات عمال بتروجراد في الحرب العالمية الأولى